عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

الساحل البشري

تأليف: جون آر. غيليس
ترجمة: د. ابتهال الخطيب



عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

الساحل البشري

تأليف: جون آر. غيليس
ترجمة: د. ابتهال الخطيب



نوفمبر 2015
430

تحميل كتب http://abbassa.wordpress.com
Twitter: @ketab_n



Twitter: @ketab_n



سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب

أسسها
أحمد مشاري العدواني
د . فـؤاد زكـريـا

المشرف العام
م . علي حسين اليوحة

مستشار التحرير
د . محمد غانم الرميحي
rumaihimg@gmail.com

هيئة التحرير
أ . جاسم خالد السعـدون
أ . خليل علي حيدر
د . علي زيد الزعبي
أ . د . فريدة محمد العوضي
أ . د . ناجي سعود الزيد

مديرة التحرير
شروق عبدالمحسن مظفر
a.almarifah@nccalkw.com

سكرتيرة التحرير
عالية مجيد الصراف

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي :
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص . ب : 28613 - الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
تليفون : 22431704 (965)
فاكس : 22431229 (965)
www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ
وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 465 - 8

رقم الإيداع (2015/893)

Twitter: @ketab_n

العنوان الأصلي للكتاب

The Human Shore: Seacoasts In History

By

John R. Gillis

Licensed by The University of Chicago Press, Chicago, Illinois, U.S.A.
© 2012 by John R. Gillis. All rights reserved.

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

المحرم 1437 هـ - نوفمبر 2015

Twitter: @ketab_n

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر
عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

Twitter: @ketab_n

المحتوى

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مقدمة المترجمة

«لـكي تحكم الطبيعة يجـب أن تطيعها»، ذاك هو الاقتباس القديـم الذي ينهي به جون غيليس كتابه المثير «الساحل البشري». وفي حين أنه يمكـن وصف الكتاب بصفات متعددة، فإن كلمة «مثير» تأتي أكثر قربا لما يستشعره القارئ ليس فقط مـن خلال المعلومات المقدمة ولكن كذلك من خلال أسـلوب عرضها. يقدم الكتاب استعراضا علميا بيئيا لسواحل العالم وللتغيرات المهمـة التـي أصابـت بعضهـا بشـكل جلي، تغييرات في معظمها سـلبية موعـزة لتدخلات الإنسـان الأنانيـة في النظـام الدقيـق للبيئات الانتقالية الحساسـة بين الأرض والبحر، غير أن «المثـير» في التنـاول هو أن الكتـاب لا يتوقف عند المنطق العلمي، بل لربما هو لا يبني عليه. يستعرض الكتاب الطبيعة الاجتماعية والثقافية للسـواحل والكيفية التي أثرت بها وتأثرت من خلال هذه الجوانب الذهنية البعيدة عن علوم البيئة والآثار. يستعرض الكتاب علاقات الجذب والطرد بين الإنسان والسواحل والبيئات المائية،

«أمـا أكثر مـا في التناول مـن إثارة في كتـاب غيليـس فهو مـا انْصَبّ على الربط الإنسـاني بين فكرة جنة عدن، كجنة أرضية، وعلاقة الإنسان القديمة مع الأرض والساحل»

Twitter: @ketab_n

حيث بدأ الإنسان القديم حياته قربا من السواحل ليبتعد بعدها عنها متوغلا على اليابسة ومكونا علاقة سلبية شبه عدائية تجاه الساحل، ليعود مجددا بحنين شديد إلى السواحل، عودة اقتصادية ترفيهية سياحية هذه المرة، عودة مدمرة للعيش «على» وليس «مع» الساحل.

أما أكثر ما في التناول من إثارة في كتاب غيليس فهو ما انْصَبَّ على الربط الإنساني بين فكرة جنة عدن، كجنة أرضية تماما، وعلاقة الإنسان القديمة مع الأرض والساحل. يعتقد الكاتب أن الأنظمة الفكرية والثيولوجية التي أتت لتؤكد «أرضية» الجنة قد أسهمت في تثبيت الفكرة العدائية للسواحل على أنها خطوط فاصلة بين أمان الأرض وتهديدات المياه. يستعرض الكاتب تاريخا طويلا للتعامل الإنساني مع مياه الأرض كلها على أنها «بحر كبير»، وأن العالم بأكمله «جزيرة صغيرة» خالقا عوالم رعب غامضة في أعماق المياه، حيث بدت الأعماق، التي كان الإنسان يتجنبها دوما مفضلا الإبحار بالقرب من الساحل، أماكن تسكنها الشياطين والأرواح الشريرة، أماكن يقطعها الإنسان بخوف ليصل إلى بر الأمان، إلى يابسة أخرى.

استعرض الكاتب كذلك تاريخ إقامة الإنسان على السواحل، أنواع البيوت التي شيدها هناك، أنواع الحياة، التغذية، والعمل التي وفرتها هذه البيئة الانتقالية. تحدث الكاتب عن الكيفية التي انتقلت بها السواحل من كونها أماكن كسب للقوت إلى أماكن دفاعية حربية حيث استخدمها الإنسان كواجهات قتالية لفترة طويلة وصولا إلى كونها أماكن اصطياف ترفيهية يعيش عليها الإنسان لحظات التأمل وأحلام اليقظة من دون أن ينتبه فعليا إلى حقيقتها أو تأثير اختياراته فيها. يأتي الكاتب كذلك على علاقة الإنسان بالمخلوقات الساحلية والتي في حين بدأ الإنسان نظرته إليها على أنها جزء من الحياة المتوازنة وإضافة غذائية مكملة له، أصبح إنسان اليوم ينظر إليها على أنها طفيليات تجب إزالتها ليبقى له الساحل النظيف القاحل يصطاف عليه من دون أن يستشعره.

وفي هذا المجال يستعرض الكاتب علاقة الإنسان بالطحالب المائية، الأصداف، الأسماك، الحيتان، بيد أن أكثر الأمثلة إثارة وتجاوبا مع تجاربنا هو مثال سمك القرش الذي لطالما كان مخلوقا مسالما يعيش بتوازن في بيئته حتى حوله الإنسان إلى وحش مرعب فتاك من خلال الفيلم الأكثر شهرة «الفك المفترس». يستعرض الكاتب

Twitter: @ketab_n

عددا من الأعمال الأدبية الأخرى التي أسهمت إما في تشويه صورة الحيوانات المائية وخلق الأســاطير المرعبة حولهــا أو في تعزيز أهميتها ووعيهــا بمحيطها، مثل رواية هيرمان ميلفيل التي حاولت تقديم الحوت على أنه ضحية للإنسان، والتي استُقبلت في وقت نشرها أسوأ استقبال على أنها هلوسة أدبية لكاتب مجنون.

يستمر غيليس في استعراض تاريخ الساحل وكائناته ليس فقط علميا ولا زمنيا ولا طبيعيــا، بــل إنه يتعدى هــذه الأبعاد، كما ذكرت أعــلاه، إلى تلك الاجتماعية، الثقافيــة، الذهنية، الثيولوجية، بل والأدبية الفنية كذلك. يســتعرض الكتاب عددا من الأعمال الفنية التي تعاملت مع الســاحل وكائناته في محاولة لتبيان النفســية الإنســانية المتباينة عبر العصــور في معتقداتها وتعاملها مع هذا الســاحل. ينتهي الكاتــب إلى اســتعراض التعامــل التقنــي الصناعي الحالي الــذي في حين أنه قرب الإنســان من الساحل في صورة ســياحية ترفيهية مكانيا، بيد أنه أبعده عنه كما لم يســبق له البعد ذهنيا ونفســيا. تزور أعداد هائلة من البشر المنتجعات الساحلية ســنويا من دون أن تلقي نظرة على المياه أو تســتمتع بهــا وأن تتعامل معها بأي شــكل. ينظر البشر اليوم إلى المياه من بُعد، يتعاملون معها ومع سواحلها الفاصلة على أنها أماكن خطر يمكن لهم أن يستمتعوا بالنظر إليها من دون أن يقتربوا فعليا من روائحها ومخلفاتها.

أخيرا، يدرس الكاتب الساحل من خلال المنظور الطبقي، فيبين علاقة الطبقات المختلفة مع هذا الســاحل والكيفية التي غير بها البشر، وفق طبقاتهم الاجتماعية، مفاهيمهم تجاه الســاحل وأســاليب تعايشــهم معه. يبين الكاتب أنه في حين كان الساحل مكانا منبوذا بالنسبة إلى الأغنياء إبان العقود الوسطى والمتأخرة من القرن التاســع عشر، حيث كان مكانا يســكنه ـ وفق مفهوم الأغنياء ـ والفقراء واللصوص وممارســو البغاء والمهربون وتجار المخــدرات، وحيث كان ينظر إليه على أنه مكان قذر غير مريح مملوء بالمخاطر والأوبئة، تحول الوضع في أواخر ذلك القرن إلى عكسه تماما. ســعى الأغنياء إلى طرد الفقــراء من مناطقهم الســاحلية طمعا في العقارات المرتفعة على الســاحل ورغبة في صنع أماكن ترفيهية في المناطق التي يكســب منها الفقراء قوتهم. يستعرض الكاتب هذه العلاقة الطبقية الاجتماعية استعراضا مفصلا في فصول كتابه، مؤكدا أن هذه الرغبة الطبقية في تحويل الساحل من مقر للبائسين

Twitter: @ketab_n

إلى مراكــز ترفيهية للأغنياء هي التي ابتدأت هذه العلاقــة الجديدة الأخيرة والتي تبدو مدمرة بين البشر والساحل.

لا يتوانى الكاتب في تقديم تحذيراته من طريقة التعامل البشري مع الســاحل بل وحتى من طريقة التفكير البشري في هذا الساحل. يدفع بنا الكاتب إلى أن نعيد التفكير بشــكل عميق وحقيقي في الساحل وكائناته، لأن نجد وسيلة كي نعيش معه وليس فقط عليه، لأن نتفهمه ليس بوصفه خطا فاصلا بين الأرض والماء ولكن كجزء منساب لا يتجزأ من الكينونة الحيوية المستمرة للأرض والماء.

يدفع كتاب «الساحل البشري» بذهنية القراء إلى آفاق جديدة مجبرا إيانا على إعادة النظر فيما نعتقد أنه مســلمات، مؤكدا التســاؤل الذي بدأه في أول كتابه، لِمَ يــا ترى تركز البشرية على تاريخها الأرضي من دون أن تبدي اهتماما كبيرا بتاريخها الساحلي والمائي؟ ما الدوافع تجاه هذا التجاهل؟ وما الذي يفوتنا من تاريخنا وبالتالي من إمكانيات صنع مســتقبلنا نتاج هذا التجاهــل؟ لِمَ الجنة أرضية فقط؟ أين هي الجنة المائية من الوعي الإنســاني؟ يأخذ «الســاحل البشري» القراء في رحلة طويلة وعميقة محاولا تبين حقيقة التاريخ الإنســاني الأرضي المائي الذي يعتقد الكاتب أنه لا مستقبل واضح مضمون من دون تبيانه وفهمه التامّين.

د. ابتهال الخطيب

Twitter: @ketab_n

مقدمة

السواحل. هناك أنماط مختلفة
من الســواحل. كل إنسان يولد في
هذا العالم له ساحل، له حافة، حد،
منطقة انتقالية بين نفسه والعالم.

جون أ. موري[1]

هنــاك اندفــاع غير مســبوق حــول العالم باتجاه البحر. نصف سكان العالم يعيشون الآن عــلى بعد مائة ميل مــن محيط ما. في الولايات المتحــدة ارتفــع التعــداد الســكاني الســاحلي بنســبة 30 في المائــة تقريبا خلال ثلاثين ســنة. اليوم، أصبح ما كان يســمى بالنطاق الساحلي، والذي يشكل 15 في المائة من المساحة الأرضية للولايات المتحدة، مأهولا بما نسبته 53 في المائة من التعداد الســكاني للولايات المتحدة. وبطرق مشابهة، ارتكست أستراليا، جنوب أمريكا، آسيا وأوروبا إلا أفريقيــا لم تُفَرّغ، وحتى هناك، فإن الأعداد السكانية الساحلية ، خصوصا من سكان المدن، آخذة في الانفجــار. كلنا اليوم مخلوقات

«يجب علينــا أن نتعلم العيش مع سواحلنا، وليس فقط عليها، فبقاؤنا وبقاؤها يعتمدان على ذلك»

Twitter: @ketab_n

«الحواف» نفسيا وكذلك جسديا. وباختبارنا واحدة من أعظم الهجرات الجسدية في التاريخ الإنساني، فإننا اليوم نعيش في خضم حالة إعادة ترتيب ثقافي ذات دلالات بالغة الأهمية(2).

خلال حياتي، تغيرت السواحل بشكل يفوق تغير أي معلم طبيعي آخر. ليس فقط أن استعمار الشعوب الداخلية للسواحل قد غير البيئة البحرية بشكل جذري، ولكن كذلك غير هذا الاستعمار وبشكل تام طبيعة المجتمعات الساحلية. اكتسبت السواحل في حد ذاتها معنى ثقافيا جديدا كليا، ليس فقط لمن يعيشون عليها، ولكن كذلك بالنسبة إلى السكان الداخليين الذين يُدفع بهم وبشكل متزايد باتجاه البحر. واليوم، فإننا جميعا، بصورة أو بأخرى، ساحليون. ليس فقط إننا نعيش على السواحل، نحن نفكر من خلالها كذلك، فالسواحل جزء من جغرافيتنا الأسطورية كما الطبيعية.

تمثل حياتي، بإيجاز، هذه العودة الملحمية للبحر. وُلِدت في نيوجيرسي وجرى اصطحابي إلى شاطئها كطفل صغير. بيد أن معظم طفولتي وصباي قد قضيتهما في الداخل الأمريكي، ولم يكن إلا عندما تزوجت وأصبحت أبا لولدين أن ملكت منزلا موسميا على جزيرة صغيرة تطل على ساحل ماين(*). وعلى الرغم من أنني لم أدرك الوضع في وقتها، فإنه يبدو بنظرة استذكارية، أنني كنت في الواقع أشارك فيما يبدو تحولا تاريخيا عظيم الدلالة. اليوم، أنا عضو في هذا التعداد السكاني الذي يسمى شبه ساحلي، حيث أعيش في المنطقة الشاطئية معظم السنة وفي ماين خلال الصيف.

لقد استغرقت نصف قرن لكي أصبح محيطا تماما بما يعنيه ذلك بالنسبة إليّ وبالنسبة إلى المجتمع بشكل أكثر عمومية. حتى الآن، مازلت أستكشف الطرق المختلفة الممكنة لأصبح ساحليا. كل صيف، أراني مدفوعا بقسوة إلى إدراك مدى اختلاف علاقتي بالبحر عن تلك التي لجيراني في ماين والذين يعتاشون من المحيط. لقد توصلت إلى تقدير الاختلاف بين العيش على السواحل والعيش مع

(*) تقع ولاية ماين في الجزء الشمالي الشرقي من الولايات المتحدة مطلة بجزأيها الشرقي والجنوبي على المحيط الأطلنطي. تمتد سواحلها لما يزيد على ثلاثة آلاف ميل، حيث بُني على هذه السواحل، خصوصا الجنوبية منها، عدد كبير من المجتمعات الساحلية. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

الســواحل، كما تعلمت تمييز الفرق الحاد بين الأشــخاص المقيمين على السواحل والأشخاص الســاحليين الذين تتعدى علاقتهم التاريخية بالبيئة الساحلية مجرد الســكن. المابنيون يحبــون أن يذكرونا، نحــن «القادمين من بعيــد»، كم نحن مختلفون عن هؤلاء السكان الأصليين لسواحلهم. أنا الآن أقبل حكمهم[3].

في العمل الكلاســيكي لراتشيل كارســون «البحر من حولنا»[*]، يُقدم المحيط عــلى أنه بداية كل الحياة. بمرور الوقت، تعلمت المخلوقات العيش على الأرض، وقلــة، مثل الحوت والفقمة، اتخذت طريقها عــودة إلى البحر. «تدريجيا، حتى الإنســان وجد طريقه عائدا إلى البحر»، لم يكن عائدا جسديا بل «عاود الدخول ذهنيــا وخياليا». هذا تحديدا ما فعلته كارســون ببراعة كعالمــة وكاتبة عظيمة الموهبــة. لقد جلبت كارســون الملايين من القراء إلى حافــة البحر، حيث أعادت تعريفهم بالبيئة الغنية التي تقع على جهتي الحد المائي. وذلك هو أيضا ما أطمح إلى تحقيقه كمؤرخ، بيد أن مهمتي هي عبور الحاجز الزمني الذي يفصل الحاضر الساحلي عن الماضي الساحلي[4].

لقد كانت الكتابة عن الســواحل والأشخاص الساحليين رحلة ذهنية رائعة، ممتلئــة بالمفاجآت والاكتشــافات. لقد جاء العديد منهم مــن جزيرتنا الصغيرة والتــي هي على مرمى النظــر من حديقة أكاديا العامة[**]، حيث أجد ســهولة في تخطــي حــد التيار المائي وحد الزمــن أكثر من أي مكان آخر. تســجل مقبرة هــذه الجزيرة مائتي ســنة من الحياة والموت عليها. إننــا في بيت قبطان بحري من القرن التاســع عشر والذي كان ذات يوم مِلك أحد أشــهر كتاب ماين، روث مور[***]، والتي كانت تعرف وضع الأرض والبحر تماما كما يعرفه الآخرون. تصور قصائدها ملامح الساحل الثابتة وكذلك التغييرات الشاسعة التي أصابت الساحل عبر القرون[5].

(*) The Sea around Us: كتاب نشر في 1951 عن دار أكسفورد للنشر، ويدور حول تاريخ البحر علميا وعاطفيا. [المترجمة].

(**) تقع حديقة أكاديا العامة في ولاية ماين، وهي من أجمل الحدائق الواقعة على الســاحل الشرقي بما تحتويه من نباتات وحيوانات وأعلى قمة جبل على الساحل الأطلنطي الشرقي للولايات المتحدة. [المترجمة].

(***) تعتبر روث مور أحد أهم «الكتاب الإقليميين» لولاية ماين في القرن العشرين. كانت مور فخر نيو إنغلاند حيث كانت تعد بمقام الكاتب فولكنر هناك. توفيت مور في العام 1989. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

الصيف الأول كان الناس فيه هنودا
لما يقرب من خمسة آلاف سنة
بنوا حد الساحل بأكوام المحار قبل أن
يخسروا معركتهم أمام السابقين

وعهدهم كان زمن التاريخ
حيث تشهد السجلات المكتوبة
بأن سيطرتهم على جزر الساحل بدأت
منذ أقل من أربعمائة سنة محسوبة

الآن أَقْبَلَ زمن العقار
زمن قسائم المائة ألف دولار
زمن الشقق السكنية المتراصة
على طول الساحل [مقتبسة كما هي] بقع للاختيار

ما سيلحق بزمن المطورين
أمر لا يمكن لصوت إنساني أن يَبُتَّ فيه
لكن جزر الساحل الصامتة تعرف
وتتعامل مع الخبايا بحكمة وعقل تقتدي به

على ساحل مور، الماضي حاضرٌ دائما. لم يغادر الأمريكيون الأصليون فعليا قط. أحفاد هؤلاء الذين تركوا أكوام المحار منذ زمن المسيح يعودون سنويا لتجميع حلزون البحر واصطياد الغزلان. ينضم إلى هؤلاء ورثة المستوطنين الأوروبيين الأوائل، والذين لايزالون يصطادون السمك ويصنعون المراكب بطرق كانت مألوفة لأي بحار قديم. على هذا الساحل، حتى المصطافون من ضواحي المدينة يعرفون كيف يصطادون، يجمعون، ويزرعون الحدائق بطرق لا تختلف كثيرا عن تلك التي كانت لشعوب العصر الحجري.

Twitter: @ketab_n

إن الأدلة على هذه الاستمرارية موجودة في كل مكان على شواطئ ماين، غير أن النسيج الذي يربط بينها خفي إلى حد كبير. لقد أقمت هناك ما يقرب من نصف قرن قبل أن أدرك ضحالة ما أعرفه عن تاريخها الطبيعي والإنساني. من جانب، كان تدريبي كمؤرخ هو ما ضيق أفق فهمي، حيث إننا تعلمنا معاملة السواحل على أنها أماكن يبدأ عندها التاريخ وينتهي، أهميتها تنحصر فقط في كونها عتبات. تعلم المؤرخون تفضيل الأرض على الماء، الشعوب الداخلية عن تلك الساحلية. ونحن لسنا الوحيدين في قصورنا هذا. فعلى الرغم من استكشاف كارسون الرائد لأطراف البحر، فإن مختصي البيئة كانوا بطيئين في قبول تحديها لسكنى هذه الأطراف «ذهنيا وخياليا»، لمزج السواحل مع منظورهم التاريخي. يظهر هؤلاء اهتماما عميقا بمصير الحياة النباتية والحيوانية الساحلية، بيد أنهم يبدون لا مبالين تجاه العامل الإنساني للبيئة البحرية الساحلية، والذي يسمى Homo littoralis(*)، والذي لا ينفصل تاريخه عن تاريخ الساحل في حد ذاته. نحن جميعا نعاني فقدان ذاكرة معيقا، حيث ننسى أن السواحل هي مناطق خاصة جدا، تسمى ecotones(**)، وهي مناطق يتداخل فيها نظامان بيئيان، هي المواطن الطبيعية لمخلوق Homo sapiens(***) وهي مواقع للكثير من التاريخ الإنساني اللاحق[6].

في وقت ما، كانت السواحل مواطن لأعداد مهمة من البشرية، عندما، وكأي موطن، كانت هذه السواحل مواقع انتماء، مراكز للعالم عوضا عن مجرد حدود له. الآن، وعندما أصبحت السواحل حوافٍ لشيء آخر، لقارات أو جزر، أصبحنا لا نعيش فيها ولكن عليها. إن العلاقة الحالية للإنسانية بالساحل هي علاقة الغريب، فبعد آلاف السنوات من الوجود الساحلي، نسيت الإنسانية كيف تتعايش مع السواحل والمحيطات. لم يكن استيطان السواحل أمرا سهلا في وقت ما، فارتفاع منسوب البحر، والتعسف في صيد السمك، والتلوث، كلها حدثت في الماضي، حيث كان على بشر السواحل دوما أن يتعاملوا مع الكوارث الطبيعية والإنسانية. من خلال التجربة

(*) «بشر السواحل» أو البشر المقيمون على السواحل. [المترجمة].

(**) الكلمة تشير إلى المساحة الانتقالية بين مجتمعين متشابهين في ظروفهما المناخية والجغرافية. [المترجمة].

(***) الاسم العلمي للنوع الإنساني، في إشارة إلى المخلوق العاقل. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

والخطأ تكيف هؤلاء في تعاملهم جسديا وثقافيا مع هذه البيئة الممتلئة بالتحديات. بيـد أنه لم يحدث سـابقا أن كانت درجة تواتر التحديـات بعظمة الوقت الحاضر، حيـث تعاظمت هذه الدرجة بسـبب حقيقة أن الكثير ممن يحيا على السـواحل ليسـت لديهم فكرة عن كيفية الحياة هناك بطريقة مسـتقرة. هناك حاجة ملحة ليـس فقط إلى فهم ديناميكية التغيرات المناخية بل هناك حاجة مسـتوجبة كذلك إلى الاسـتفادة من إستراتيجيات التكيف المحفوظة في السجلات التاريخية من أزمنة كانت فيها السواحل «هنا» وليست «هناك»، أماكن للعيش وليس للزيارة فقط[7].

جيمس هاميلتون - باترسـون، مؤلف كتاب Seven-Tenths: The Sea and Its Thresholds، والذي يعرف البحار والسواحل عن ظهر قلب، يعتقد «أننا أضعنا مكاننا، ولا نعرف كيف نعود». لسـت في الواقع بهذا التشـاؤم، وإلا ما كنت بدأت رحلة عَبَرت المئات من آلاف السـنوات، رحلة أخذتني ليس فقط إلى سواحل شمال أمريكا وأوروبا بل إلى أفريقيا، وأستراليا، ونيوزيلندا، واليابان، وتازمينيا كذلك. تحذرنا كارسـون من أن «طرف البحـر يبقى حدا مراوغا وغامًا». ليـس فقط أن الصفات الطبيعية للسواحل تتغير باستمرار، بل تتعدد كذلك طرق أن يكون الإنسان ساحليا بتعدد الشعوب الساحلية. نحن نحتاج إلى أن نصل إلى شيء من الفهم المنطقي لكل الطرق التي عاش من خلالها البشر مع السواحل، قصة امتدت إلى ما لا يقل عن 200 ألف سـنة. هناك دروس مهمة لنتعلمها من أسـلافنا الساحليين، سواء كانوا صيادي ما قبل التاريخ، ملاحين قدماء في المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، معماريين هولنديين للأراضي المستصلحة من البحر، أو بحارة لونغ آيلند [8].

لم أتوقع، وأنا أنطلق في رحلتي هذه إلى أزمنة سحيقة ومساحات بعيدة، أنني سـأنتهي إلى كتابة قصة بديلـة للتاريخ العالمي. لقد حضرني الاكتشـاف أنه ليس في الواقع الداخل ولكن الساحل هو الذي كان جنة عدن الأصلية وأن الوصف الأفضل لـ Homo Sapiens هو أنهـم كائنـات الأطـراف التي ازدهر وجودها باسـتمرار على المناطق الانتقالية السـاحلية حيث يلتقي نظاما اليابسة والبحر الإيكولوجيان، حـضرني ذلك كنوع من المفاجأة. منذ العصر الحجري وإلى عصر عولمتنا هذا، كانت شـعوب السـواحل دوما في المقدمة. لقد اتضح أن التغيير كان يولد باسـتمرار على الأطـراف وليـس على المناطق الداخليـة، لذلك فإن علينا أن نقلـب تاريخ أراضينا

Twitter: @ketab_n

الداخليــة عــلى أعقابها. هذه العملية تــأتي بتحدٍّ ليس فقط لتاريخ مركز اليابســة التقليــدي، بل كذلك للاهتمام الســابق لعلوم أعماق البحار بالدراســات التقليدية البحرية. فيما يلي، ســأتفحص ستة أزمنة رئيسة في التاريخ الساحلي ابتداءً باللحظة الأولى التي عادت فيها البشرية إلى البحر قدوما من الداخل الأفريقي، حيث سأؤكد كل الظواهر المستمرة، ولكن كذلك سأبين التغييرات التي حدثت حول العالم.



لافتة على جرف عند منطقة «سي رانش»، كاليفورنيا. الصورة للمؤلف.

ترحب اللافتة المبينة في الشــكل رقم 1 بالزوار المتجولين هبوطا إلى تلال منطقة «سي رانش» في كاليفورنيا، وهي عبارة عن امتداد ســاحلي خلاب في شــمال ســان فرانسيسكو. استوقفت هذه اللافتة مساري ذات عصر ساطع في أبريل 2007، حيث لم أســتطع أن أبعدها عن تفكيري أسابيع عدة بعد ذلك اليوم. بمرور الوقت، بدأت أرى جملــة «لا تــدر ظهرك للمحيط أبــدا»(*) كدعوة بمقدار ما هــي تحذير. لقد دفعتني هذه الجملة في رحلة لفهم علاقتنا المعقدة مع البحر، والتي أخذتني حول العالم وإلى أعماق زمن قليل من المؤرخين الذين قاموا بزيارته.

(*) تلك الجملة هي الثالثة والأخيرة على اللافتة الظاهرة في (الشكل رقم 1). [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

وفي طــور كتابة هذا الكتاب، كان لي أن أتعلم أن الســاحل هو الموطن الأصلي للإنســان العاقل Homo Sapiens. لقد تغيرت علاقتنا بهذا الساحل بشكل ملحوظ خلال الـ 200 ألف سنة الماضية، بيد أننا بقينا غير منفصلين عنه من البداية ومازلنا كذلك إلى اليوم. لقد أدت السواحل دورا حيويا في جعلنا إنسانيين، ونحن، بدورنا، قد صنعنا من الســواحل ما هي عليه. أنا أدعو هذه الدراسة «الساحل البشري» لأشدد على هذا الاعتماد المتبادل. هذه قصة تطور مشــترك، قصة خلق مشــترك. في عصرنا هذا، عصر الأزمة البيئية، من المهم جدا أن نعود مجددا إلى موطننا في المكان الذي تلتقــي فيه الأرض بالميــاه. يجب علينا أن نتعلم العيش مع ســواحلنا، وليس فقط عليها، فبقاؤنا وبقاؤها يعتمدان على ذلك.

Twitter: @ketab_n

بديل لجنّة عدن

إن ســاحل البحر حافة... وهو يتحــدى الفكرة المعتــادة للحدود عبر كونه غير ثابــت، متقلبا، وغير قابل للنفاد.

ريبيكا سولنت[1]

«في التقاليــد الغربيــة، كان البحر دائما بيئة غريبة»

إن الحضــارة الغربيــة حضــارة مرتبطة بالأرض، ومســجونة داخلها ذهنيا، إن لم يكن فعليــا. وعلى الرغــم من أن لهــذه الحضارة تاريخا طويلا من الإنجازات المائية، فإن هذه الإنجازات لا تشكل هويتها الرئيسية. في العالم الغربي، نحن نتخيل التاريخ الإنســاني مبتدئا ومنتهيــا على اليابســة. إن فهمنــا لجذورنا، العلمية والدينية، هــو قطعا بري، حيث إننا واجهنا صعوبات عظيمة في إيجاد مكان للماء في كل من تواريخنا أو جغرافياتنا. نحن نتذكر لوسي التي وجدت بقاياها ذات الثلاثة ملايين سنة في العام 1974 في ممر أولدوفاي الجاف

Twitter: @ketab_n

تماما، ولكننا ننسى أنه إبان حياتها، كان الممر عبارة عن بحيرة، وأنها في الغالب كانت من سكان السواحل. فقط منذ وقت قريب بدأ علم الآثار لتحت الماء يتحدى الاعتقادات المبنية على التنقيب البري، حيث يشير هذا العلم إلى المدى الذي كانت عليه البشرية شبه بحرية، تبحث عن طعامها ليس فقط في المياه العذبة ولكن، وبصورة أكثر أهمية، على أطراف البحار كذلك.

«إن عدم المقدرة على النظر إلى المكان على أنه أي شيء سوى بري، هذا الاعتقاد الأبدي أن المجتمعات ما هي إلا كيانات مرسومة الحدود، مركزية، محاطة وثابتة، ما هو إلا تشويه للمنظور الماضي»، كتب إيريك ليد أنه «منظور للتاريخ مغربل من خلال نتائج التاريخ». وبدعم من التقاليد الدينية كما الدنيوية، أصبح لمركزية اليابسة مكانة أسطورية في الثقافة الغربية. إن أقدم الآلهة الإغريقية كانت جايا، الأرض الأم: «أم للجميع، أقدم من الجميع، صلبة، رائعة كما الصخر». إن الشعوب التي عرفناهم على أنهم العبريون القدماء كانوا قد بدأوا من فورهم في الاستقرار في وضع شبه زراعي عندما استحوذتهم فكرة جنة عدن. هذه المركزية لليابسة جرى تمريرها إلى المسيحية، وبتدعيم من المفاهيم الإغريقية والرومانية حول الأرض والماء، أصبحت الفكرة أساسية للحضارة الغربية. ومادامت جموع البشرية بقيت مرتبطة باليابسة، فإن الوضع منطقي، ولكن بما أن هذا الوضع ليس هو الحقيقة حاليا، فلا بد من المساءلة حوله[2].

في التقاليد الغربية، كان البحر دائما بيئة غريبة. هناك مجتمعات أخرى لطالما شعرت بالارتياح مع مسطحاتها المائية والانتماء إليها، وذلك على الرغم من أنه، ووفق علمي، لا توجد شعوب تنفي بالكامل ارتباطاتها باليابسة. فحتى شعوب الموكين(*) وغيرها من الشعوب التي تسمى بغجر البحار، في جنوب شرق آسيا، لا يعيشون بالكامل في البحر. فالفيجيون(**) يعتقدون أن جزيرتهم قد أتت إلى الوجود عن طريق روكوموتو الذي غاص في البحر ليجلب تربته الخصبة إلى السطح. إن قصة الغواص الأرضي شائعة بين الشعوب التي تعيش بجانب البحر أو تعتاش منه. إن شعب الهيدا القادم من جزر الملكة شارلوت

(*) مجموعة جنوب شرق آسيوية تعيش بالقرب من البحر، وترتبط به وثيقا في حياتها. [المترجمة].

(**) شعوب أتت من جزر فيجي، وهي جزر في جنوب المحيط الهادي. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

الواقعة على الساحل الكندي الشمال غربي يحكي قصة «غراب» طائر فوق البحر، والذي يرى جزيرة صغيرة فيحولها إلى الأرض. لاحقا، وبينما يستكشف «غراب» هذا العالم الجديد، يصل إلى مسمعه صوت قادم من قوقعة حلزون صغيرة؛ ليكتشف خمسة آدميين بالغي الصغر، ليصبحوا كما يشير إليهم شعب الهيدا على أنهم «أهل سطح الأرض»[3].

بالنسبة إلى الشعوب الساحلية وأهل الجزر، لم تكن سوى حافة البحر التي كانت جنة عدن الأبدية بالنسبة إليهم، فهي بالنسبة إليهم ليست الهامش ولكن مركز عالمهم. وعلى خلاف العبرانيين، الذين كان التاريخ بالنسبة إليهم عبارة عن سلسلة طويلة من النفي، فإن هيدا، الشعب الساحلي، لا ذاكرة لديهم حول قدومهم من أي مكان آخر. في القصص التي يسردونها لأنفسهم، لطالما كانت سواحل شمال غرب الهادي هي موطنهم. هم يعيشون في بيئة واسعة وفي رغد ووفرة، في حاضر لا يتغير، حيث لا يثير لديهم أي حنين إلى ماض مفقود أو أحلام بمستقبل تعويضي. فلم يكن حتى وصل الأوروبيون المسيحيون وأخبروهم بأن كل البشرية توزعت من منطقة أرضية واحدة تسمى جنة عدن، ليجعلوا منهم إحدى قبائل إسرائيل التائهة، أن جعلوهم حتى يبدأوا بالأخذ في الاعتبار احتمالية كونهم غرباء على أرضهم، أو أن البحر يشكل خطرا عليهم. وحتى عندها، فإنهم رفضوا هذه النظرية التراجيدية للتاريخ على أنها غير محتملة كونها متضادة مع شعورهم بكونهم دوما شعوب xhaaydla، وهو المصطلح الذي يستخدمونه للساحل، حيث لا ينتمون كليا إلى الأرض أو إلى البحر، نوع مختلف من الأماكن يعيشون عليها في نوع مختلف من الزمن، مكان ما لا يمكن العثور عليه عادة على خريطة المستطلع أو صفحات المؤرخ[4].

في الغالب، لاتزال السواحل فئة غير معرفة في كل من التاريخ والجغرافيا. حتى اليوم، فإننا بصعوبة نلتفت إلى هذا الـ 95 في المائة من التاريخ الإنساني الذي جرت وقائعه قبل قيام الحضارات الزراعية. في العصر ما بعد الصناعي هذا، لايزال تصورنا للجنة على أنها حديقة عدن وللإنسان المثالي على أنه المزارع. يدفع كتاب سفر التكوين إلى إقناعنا بأن بداياتنا كانت بأكملها محددة أرضيا، غير أن هذا الكتاب كان قد كتب في الوقت الذي كان العبرانيون فيه يستقرون

Twitter: @ketab_n

في حياة زراعية. خدمت قصة عدن كأســاس أســطوري للمجتمع الزراعي على نحــو رائــع، بيد أنها لا علاقة لهــا بتاريخ وجغرافيا البشرية، بمــا في ذلك تاريخ وجغرافيــا اليهود اللذان تحققــا قبل أن يكتبا منذ نحــو 8 آلاف عام. إن قصة الإنســان العاقــل الحديث Homo sapiens والتي تهمنــي هنا، تبدأ منذ 164 ألف سنة مضت. لمعظم مدة وجودنا، كنا مخلوقات متنقلة تبحث عن الطعام، كــما أن معظم التطور الإنســاني كان قد حدث ليس في المواقــع المغلقة أرضيا، ولكن حيث تلتقي اليابســة بالماء. لا تزيف فكرة جنة عدن ماضينا فقط، لكنها الآن، وحيث للمرة الأولى يحيا مزيد من البشر في المدن عوضا عن اليابسة، هي تزيف مستقبلنا تماما.

نحن نحتاج إلى إعادة اكتشــاف شــعوب الســاحل xhaaydla لإيجاد سرد تاريخي أقل تركيزا على اليابســة، سرد يتبين العلاقة الطويلة للإنســانية بالبحر ككائن ســاحلي يحتل البيئات الانتقالية ecotones، حيث تلتقي اليابسة بالماء. نحن نحتاج إلى أن نتعرف على أنفســنا ككائنات متنقلة مائية، كحراس للطرائد كــما نحن مزارعون. يعمد المزارعــون إلى التحكم في الطبيعة فيما يقبلها حراس الطرائد ويتكيفون مع ظروفها. كما سنرى، على السواحل، كانت الزراعة مصحوبة في الغالب بالصيد والحصاد. والآن حيث ثبتت بشدة محدودية قدرة البشر على التحكــم في الطبيعة، تتزايد الحاجة إلى اســتعادة عامل التكيف هذا الذي كان موجــودا عندما كانت للبشر علاقة عمل مع البحر كما مع اليابســة. باختصار، نحن نحتــاج إلى سرد جديد، سرد فيه، كما يقترح ســتيف مينتز، «حدائق أقل، ومزيد من حطام الســفن»، سرد أكثر انسجاما مع الطبيعة المتغيرة للسواحل في عصر التغير المناخي الهائل هذا[5].

أسطورة الحديقة

يقال إن العبرانيين كانوا «أول شــعب فهموا أن أنفســهم تحيا حياة يعرف معناهــا بعيدا عن الطبيعــة». كان إلههم مزارعا والــذي زود آدم وحواء بثراء جاهــز، والذي منع أي حاجة إلى العمل ووعد بحيــاة أبدية. في البداية لم تكن هناك طبيعة مقفرة. هذا القفر كان نتاج عصيان آدم وحواء، والذي دمر الجنة

Twitter: @ketab_n

الأصليـــة، وحكم على البشرية بالكـــدح والموت. كانت تلك هي قصة البدء التي اشترك فيها العبرانيون مع الحضارات الزراعية الأخرى في الشرق الأوسط القديم، قصة كانت غير مفهومة مطلقا للشـــعوب التي تعتمد الصيد والحصاد، والذين كانت آلهتهم حراس طرائد عوضا عن مزارعين، والذين كانوا يشـــعرون بأنهم في موطنهم في الأماكن التي كان يعتبرها اليهود والمسيحيون قفارا وحشية.

تبدأ أســـطورة الخلق في الكتـــاب المقدس بإعـــلان أن «الأرض حينها كانت فوضى وبورا وظلاما في الأعماق، وأنفاس الرب تحوم فوق المياه». كان من أوائل أفعالـــه أن يـــروض المياه الثائرة. خلق الرب الســـماوات، قائـــلا: «لتجتمع المياه أسفل الســـماوات في مكان واحد حتى تظهر اليابسة الجافة، وهكذا كان. ودعا الرب اليابســـة الجافة بالأرض، والمياه المتجمعة أسماها البحار، وارتأى الرب أنها جيـــدة». أنتجت الأرض الزرع والأشـــجار، بينما امتلأت المياه بالســـمك، والهواء بالطيـــور. «وخلق الرب وحوش البحر العظيمة وكل كائن حي يزحف...»، فقط حينها خلق الرب الرجل والمرأة «على صورتنا، شبيهين لنا، ليحكما سيطرتهما على سمك البحر وعلى طيور السماء»، آمرا إياهما بأن «كونا مثمرين وتضاعفا واملآ الأرض وسيطرا عليها»[6].

الأرض هـــي اللاعـــب الرئيـــسي في جغرافية الكتاب المقـــدس، فكما بين ألين كوربن «لا يوجد بحر في جنة عدن»، فبعد الســـقوط، يظهر البحر كبيئة غريبة، تهديد أبدي للبشرية. لقد كان من التربة أن خلق الرب الإنســـان، حيث أعطاه الاســـم آدم، والمشـــتق من الكلمة العبرية adama(*) التي تعني الأرض. في هذه القصة يلد الرجل امرأة. لا يوجد في أي جزء من سفر التكوين فكرة الأرض الأم، حيث إن الأرض نفســـها هي قوى أبوية عوضا عن أمومية. إنها خلق الرب الأب الذي يستخدمها ليصنع آدم، ومن ضلع آدم ليصنع حواء. وعليه، فإن البيولوجية الطبيعية، في هذا التوصيف للخلق، تصبح معكوسة. الأرض تولد لإله أبوي[7].

الـــرب المـــزارع خلق عالما بوفـــرة لا محدودة، واعدا بحيـــاة أبدية من دون كدح، أو وباء، أو موت. كان لآدم وحواء أن يعيشـــا إلى الأبد تعايشـــا سلميا مع

(*) في اللغة العربية، أَدَمَةُ الأرضِ: باطنها، وأديمها: ظاهرها. والأُدمة السُّـــمرة، والآدَم من الناس الأســـمر؛ وكل تلك معانٍ يشتمل عليها الجذر العبري א ד ם (ألف - دال - ميم). [المحرر].

Twitter: @ketab_n

المخلوقات الأخــرى لولا أنهما عصيا إرادة الــرب. كان عقابهما لأكلهما الفاكهة المحرمة من شجرة المعرفة ليس فقط فقدان الحياة الأبدية، ولكن تحويل الأرض نفســها إلى قفار من «الشــوك والزعرور»، حيث يمكن الحصول على لقمة اليوم فقط بالعمل الشاق.

في لحظة الســقوط، توقفت الأرض كلها عن كونها جنة، وأُزيلت جنة عدن إلى الشرق، حيث ســيبقى متعــذرا بلوغها حتى ينتهي الزمــان. الحياة الأبدية استســلمت للمحنة الأبدية للإنتاج ولإعادة الإنتاج، حيث حمل الرب حواء وكل النســاء الــلائي أتين من بعدها آلام الــولادة. كان بكريُّها، قابيــل، المزارع الأول، وهابيــل، الراعي الأول، كلاهما ملعونا كذلــك. غضب قابيل عندما ازدرى الرب قربانــه من فاكهة الأرض لمصلحة عطاء أخيه من الحيوانات. قتل قابيل هابيل، وهــذا أدى إلى نفي ثان إلى أراضٍ أكثر قحالة هي أراضي Nod(*) في شرق عدن، حيث بدأ قابيل هناك في تكوين عائلة، والتي ستصبح في النهاية شعب إسرائيل، الذين خلطوا بين الزراعة المستقرة وأنشطة الرعي، وعليه أصبح مصيرهم مرتبطا بقوة بتقلبات نشــاط الزراعة. بكل تأكيد، فــإن قصة الطرد من جنة عدن، وما تبعهــا من النفــي المرتبط بالمجاعة، والمسرودة روايتــه في العهد القديم، كانت مرتبطــة بوضوح بالكــوارث البيئية التي نعرف الآن أنهــا قطعت الطريق على التاريخ الزراعي في الشرق الأوسط القديم. كانت قصة الجنة المفقودة نتاج ثورة العــصر الحجري الحديث، حيث كانت الطريقة التي منطق بها اليهود تاريخهم التراجيدي، من حيث عبوديتهم لمآسي الوجود الأرضي.

هامت سلالة آدم في أراضٍ هاجمتها الفيضانات والقحط باستمرار. أصبحت وصية «انطلق وتكاثر» عبئا آخر لأنه، على عكس الصيادين الرحل الذين خفضت حركتهم من نسبة مواليدهم نســبيا، كانت مجتمعات الإنتاج الزراعي المستقر تميــل إلى الأسر الكبــيرة، والتــي أدت إلى تزايد عدد البــشر في المناطق القاحلة الضعيفة من الشرق الأوســط. لقد كان المزارعون، وليس الصيادين الرحل، هم من أجبروا على تبني إســتراتيجيات التنقل والشتات من أجل البقاء. وكما يقول عــالم الأنثروبولوجيا هيو برودي: «ســفر التكوين هو قصــة الخلق التي يجري

(*) ذكرت هذه المنطقة في سفر التكوين على أنها الأرض التي نفي إليها قابيل بعد قتله أخاه هابيل. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

تفسير البيئة الزراعية العنيفة وغير المستقرة من خلالها، والتي قدمت على أنها حتميــة». المجتمعات الباحثة عن الطعام صادفت كذلك معاناة دورية على يد الطبيعة، غير أن القصة التي يروونها ليســت موسومة بالأحداث الكارثية، ولكن بدورات من التحدي ومقاومة هذا التحدي والتي من خلالها تتفوق الاستمرارية على التغيير. فلقد زارت الفيضانات شـعب الهيدا كذلك، غير أن قصصهم تروي كيف أن الزوارق كانت تأتي لإنقاذهم باستمرار(8).

لقد زود ســفر التكوين العبرانيــين القدماء، ولاحقا المســيحيين المضطربين بالقدر نفســه، بتفسير تاريخهم التوسعي، وبذريعة للاستيلاء على الأراضي التي تشــاركوا فيها ذات يوم مع جيرانهم من الصيادين الرّحل. إن الثورة الزراعية في العــصر الحجري الحديث لم تخفف من عبء توفير القوت بل كثفته في الواقع. لقد ظل الصيادون الرحل الجزء الأكثر صحة والأقل توترا بين الجنس الإنســاني. لم تكن لديهم حاجة ليسردوا لأنفســهم قصصا مأســاوية عن الفقد والاسترداد، فبالنسبة إليهم كان العالم دائما جنة عدن(9).

عندما أثار الشــعب المختار لإله العبريين اســتياءه مــرة أخرى، تدخل الماء كوســيلة عقاب إلهية. يرســل الإله طوفانا عظيما، وهو حريص على أن يشــهد نوح وعائلته هذا الفعل كدرس للأجيال المســتقبلية. فبينما تفجرت السيول من أعــماق الأرض وبدأت الأمطــار في الانهمار، اختفت الأرض اليابســة لمدة 150 يوما. هنا، يؤدي الماء مرة أخرى دورا مدمرا، في حين أن الأرض هي المزود الأول بالحيــاة. مرة أخرى، إنه الذكر الذي هو الخالق. نوح هو آدم ثان، غير أنه هذه المــرة لن يولد لفردوس. فعندما تراجعت المياه واســتقرت الســفينة على أرض صلبة، وجد نوح وأبناؤه أنفســهم قد اســتقروا في عالم هو حتــى أكثر عدائية. فــالأرض التي كانت ذات يوم ممهدة هي الآن خراب، مقســمة داخليا بالجبال المرتفعــة والأنهار الثائرة، محاطة مــن كل الجوانب بالبحار التي تهدد باجتياح الأرض عبر كل الســواحل. وبينما تتكشــف أحداث قصــة العهد القديم، يصبح البحر قوة أكثر خطرا من أي وقت مضى(10).

لم تكن الشــعوب الزراعية هــي الوحيدة التي تخاف البحر، فبالنســبة إلى الإغريقيــين والرومــان، كان البحر فراغا من عدم، شــيئا يقطعونه بأقصى سرعة

Twitter: @ketab_n

ممكنة للرجوع إلى الديار حيث الموطن الوحيد الحقيقي للبشر: الأرض. المسيحية، تباعا للتقاليد اليهودية، ستنظر إلى المحيط بسلبية كذلك. إنه ليس نوح البحار بل نوح المزارع الذي هو الشخصية الرئيسية في قصة الطوفان. وفي لحظة عودته إلى الأرض الجافة سيصبح الخمار الأول في العالم، غير أن بضاعته ستقوده ليخزي نفسه وأبناءه. مرة أخرى، ستخذل الأرض العبرانيين، وسيجبرون مجددا على النفي، «ومنهم ستتفرع الشعوب على الأرض بعد الطوفان». تشتتت ذرية نوح في أفريقيا، وآسيا، والأجزاء الأوروبية لجزيرة أرضية عملاقة أصبحت تدعى تاليا Orbis Terrarum [الكرة الأرضية] محاطة بنهر لا يمكن عبوره يعرف باسم Oceanus [المحيط]. في مكان ما في عمق اليابسة، بعيدا باتجاه الشرق، جنة عدن لاتزال موجودة، لكنها الآن أصبحت مسورة، متعذر الوصول إليها بالنسبة إلى بني البشر، وذلك إلى نهاية الزمن[11].

إن ما يجعل العهد القديم والحديث، معا، رواية قوية هو ليس فقط معقولية أحداث الرواية حول سقوط حضارة زراعية، ولكن كذلك في إعطائها الأمل في خلاص مستقبلي. في العهد القديم، تُضمن لليهود أرضهم الموعودة. في العهد الحديث، المسيح هو آدم الجديد، غير أن موته ليس هو نهاية القصة: ستكون هناك بداية جديدة، حيث ستشمل الأرض الموعودة كل اليابسة، وتمتد إلى كل البشر. وبمجرد أن تتحول كل الشعوب إلى المسيحية، ستصبح الأرض مرة أخرى فردوسا. وكما جرى التنبؤ في سفر الرؤيا، فإنه مع القدوم الثاني للمسيح، ستصبح الأرض جنة مرة أخرى، وبما له مغزى، أنه «لن يكون هناك بحر بعد ذلك».

وصولا إلى القرن الثامن عشر، فإن النسخة الإنجيلية للجغرافيا والتاريخ أظهرت أرض ما بعد الطوفان على أنها خراب، معرضة لسلسلة لا متناهية من الكوارث المشرعة إلهيا، والمقصود بها معاقبة سكانها العصاة. كان عالما النبات والحيوان كلاهما ملعونا منحلا. فقط تدريجيا بدأت تحل محل رواية الانحراف هذه رؤية متفائلة بالتغيير. ففي بداية القرن السادس عشر، أدى اكتشاف حقيقة أن الأرض ليست جزيرة محاطة بنهر لا يمكن عبوره، ولكنها في الواقع مجموعة من الجزر والقارات المتصلة عوضا عن كونها منفصلة مائيا، إلى أن يفقد البحر مواصفاته الشيطانية. غير أن الوضع سيستغرق قرنين آخرين

Twitter: @ketab_n

قبل أن ينظر إلى الجزر على أنها نقطة العبور نحو التطور، وأن السواحل التي كانت ينظر إليها سابقا على أنها عوائق، ستصبح معابر، مميزات وليست عوائق. وبحلول القرن الثامن عشر بدأت العلوم الأرضية الجديدة تسائل الترتيب الزمني الإنجيلي الذي حدد بداية العالم بمجرد ستة آلاف سنة سابقة. إن دلائل التغيير التي حدثت عبر ملايين السنين لم تتطلب فقط قصة جديدة للأصول، ولكنها تشير إلى نهايات بديلة كذلك، والتي لا تشمل تدخلا إلهيا لإنهاء العالم، ولكن تطورا ارتقائيا ثابتا[12].

بيد أن كلا من أوروبا وشمال أمريكا قد تمسك بأساطيره الزراعية دخولا إلى القرن التاسع عشر. ظل البحر، كما كان في سفر التكوين، فراغا يُعبر، عوضا عن أن يُستكشف، هو ليس مكان غريبا بالنسبة إلى البشرية. لقد شكل البحر محيطه الذاتي، متكونا بعيدا عن تحكم البشر. كان صيد البحر يعتبر «هبة» للبشر، ليس لهم سوى أقل القليل من التحكم فيها. لم يكن شيء ليوقف البحر من الاستيلاء على حياة إنسان. كمساحة لا مكانية ولا زمانية، كان المحيط خارج كل من جغرافيا وتاريخ البشر. إن علم المحيطات كان آخر العلوم الأرضية الوليدة، حيث إن الجغرافيين أعطوا أقل القليل من انتباههم لسبعة أعشار سطح الكوكب المغطى بالمياه. تجاهل المؤرخون كذلك المياه التي ربطت العالم ببعضه ببعض: فبالنسبة إليهم، الزمن يبدأ وينتهي على أطراف اليابسة. لقد استمر سرد قصة الشعوب من منطلق فقد واكتساب الأرض، بحيث إن علم الإنسان وعلم الآثار، كما التاريخ، حتى عندما أصبحت أوروبا وشمال أمريكا أكثر صناعية ومدنية، ظلت جميعها حبيسة الأرض، بالتركيز على الداخل على حساب الأطراف[13].

السواحل باعتبارها الموطن الحقيقي للبشرية

ظل الكتاب المقدس، حتى أواخر القرن الثامن عشر، النص الأساسي لكل من التاريخ والجغرافيا في المجتمعات الغربية. في القرن السابع عشر تحدد تاريخ بدايات الإنسانية بشكل حاسم عند العام 4004 ق. م عن طريق جيمس أشر، رئيس أساقفة أرماج، في مكان كان يعتقد أنه في بقعة من صحاري الشرق

Twitter: @ketab_n

الأوســط، غير أنها من المتعــذر الوصول إليها. وفقا لهذا المــيراث الفكري، فإنه مــن غــير المفاجئ أنه حينما تطور علم الآثار الإنســاني في القرن التاســع عشر، كان مرتكــزا على الإقليم ذاته. حتــى وقت قريب، مؤرخو حقبة ما قبل التاريخ كانوا يعتقدون أن كل الأشياء كانت جذورها في الشرق الأوسط القديم ومنطقة دول المتوســط، قبل أن يجري توزيعها تدريجيا مــن هناك إلى بقية العالم. فإلى أن اخترع الكيميائي ويلارد إف. ليبي طريقة التأريخ بواســطة الكربون المشع في العــام 1949، فإن كل الســجلات الزمنية كانت تتمحور حول اكتشــافات الآثار الشرق أوســطية. فرانسيس برايور يقول: «عبر النظر إلى الشرق من أجل تاريخ، كان كذلك طبيعيا النظر للشرق من أجل منشأ»[14].

لايزال شــائعا التمييز بين التاريخ وما قبل التاريخ، كأن هناك بعض الفروق الجوهرية بين البشر الذين عاشــوا قبل الثورة الزراعية وبعدها. كتب ســتيف ميــثن، أحد الرواد الباحثــين، يقول: «قليلة هي الأحــداث المؤثرة التي حصلت حتــى 20.000 ق. م، الناس ببســاطة اســتمروا في عيشــهم صيادين رحل، كما كان أســلافهم يفعلون لملايين الســنين». فبالنسبة إليه، لم يحدث شيء مهم قبل بدايــة الزراعة. هذه المعلومة ببســاطة غير صحيحة. بيد أنــه، حتى الباحثون الذين درســوا الصيادين المرتحلين بشــكل متعمق اعتادوا على أن يضعوا هؤلاء في فئة «البدائيين». فعلى مســافة قريبة من حيث أقطن في بيركلي، يحدد شارع شــيل موند موقعا ما كان في يوم تلة ضخمة من الصدف صنعها شعب الأهلون Ohlon people. أقنــع ألفــرد كريوبر، عالم آثار بيركلي الشــهير، شريكته فيبي هيرست بتمويل تحقيق حول الموقع الذي كانت قد جرت مقدما تسويته جزئيا من أجل حلبة سباق إميريفيل، ثم توج بصوان للرقص الشعبي. تم اختيار زميل كريوبر، ماكس أهل، ليقود عملية التنقيب التي نُشرت نتائجها في العام 1907. تعتبر دراســة ماكس أهل نموذجا للدقة في علم الآثــار. قدر أهل أن هذه التلة تعــود حوالي ألف ســنة إلى الماضي، وأنها أُهملت أخيرا فقــط. من خلال موقع عمله، استطاع أهل أن يرى بسهولة الناس المحليين وهم يجمعون المحار في وقت الجزر. بيد أنه تخيلهم على أنهم ينتمون إلى المرحلة «البدائية» ذاتها من الحياة، والتي إليها أعاد هو السكان الأصليين، شعب الأهلون «في كل أنحاء العالم، وحتى

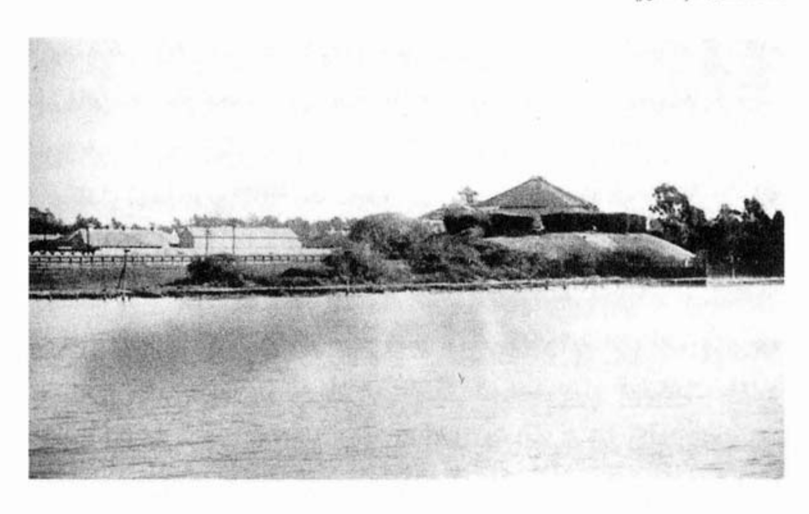
Twitter: @ketab_n

اليوم، يمكن رؤية الناس على الساحل وقت الجزر يجمعون الصدف الذي كشفه المد المتراجع للطعام»، و«هؤلاء الناس دوما ما ينتمون إلى الطبقات المتدنية من المجتمع، ويحيون بهذه الصورة حياة بدائية كما هي بسيطة»[15].

كانت المسافة بين تلة المحار وخط المد بضع ياردات فقط، بيد أن المسافة الزمنية التي فرضها أهل بينه وبين هؤلاء الصيادين الرحل الأكثر حداثة كانت عظيمــة. إن علماء الإنســان من هذا الجيل الذين تــم تدريبهم على التفكير في الزراعــة على أنها أعلى المراحــل الحضارية، وذلك قبل قــدوم زمنهم هم الصناعي - المدني، يصرون على أن الحياة على الساحل لا بد أنها كانت «الملجأ الأخير» للشعب الذي ما كان ليختار تلك كطريقة للحياة قط إذا لايزال لديهم طريقة للوصول إلى اليابســة. إن احتمالية أن المكان الذي تلتقي فيه اليابسة بالمــاء يمكــن أن يكون جنة عدن حقيقية حتى لم تخطــر على بال أهل، ذلك لأنــه، مثل كل هؤلاء الذين تعلقوا بأســطورة الخلق للحضــارة الغربية، بقي حبيس الأرض عقليا.

وكونهــم «بدائيين»، جرى نفــي الصيادين الرحــل أوتوماتيكيا من الحاضر إلى مــاض بعيد، ينظر إليهم عــلى أنهم من الناجين القدماء جــدا، الذين كانوا يعيشــون على زمن مستدان في عالم حديث حيث لا مكان لهم ولا مستقبل. إن الخطة التطورية التي كان يفضلها جيل أهل اعتمدت التفضيل للأرض على الماء، وافترضت أن الصياديــن الرحل البحارة لم يتغيروا منذ اللحظة التي قدمت فيها البشرية إلى الســاحل. فعلى الرغم من دلائــل التغيير، عبر الزمان والمكان، جرى الحكم فيهم بأنهم غير قادرين على التغيير. فوفقا لمبدأ التطوريين حول الارتقاء المتطور، أُهمل هؤلاء أولا من قبل صيادي الحيوانات الضخمة العظماء، ولاحقا من قبل المزارعين. نســبة إلى هذه القصة، فإنه فقط عندما استُهلكت كل المؤن من الحيوانات الكبيرة اتجه الإنسان الصياد إلى صيد السمك. لم يتنازل ذكر هذا الجنــس مطلقا (فعليا أو رمزيا) عــن أن يمارس مهنة جمع الطعام، وهو العمل الذي ربطه جيل أهل بالنساء والشعوب الأدنى مرتبة. إن المفهوم الذي يقول إن الحركة في اتجاه الساحل ليست سوى خطوة إلى الخلف هو مفهوم لايزال يحلق حول علم الآثار المعاصر[16].

Twitter: @ketab_n



صورة للتلة الضخمة للمحار في إيميرفيل، كاليفورنيا، في العام 1907،
ثم توجت بصوان للرقص الشعبي، الصورة من ويكيبيديا.

أوضحت هذه القصة العنصريات الطبقية والجندرية للجيل الأول من نبلاء علـماء الاجتماع الذين، في حـين أنهم تركوا المجتمـع الزراعي من وقت قريب فقـط، كان لهـم أقل القليل مـن التواصل مع صيادين مرتحلـين حقيقيين. إن النظـر إلى ما قبل التاريخ من خلال نظـرة المزارعين المتعالية أدت بهم إلى فهم عدة أشـياء بطريقة خاطئة. أولا وقبـل كل شيء، فإن تدجين وترويض النباتات والحيوانـات كان قد بـدأ قبل قيام ما يدعى بالثـورة الزراعية بزمن بعيد، وفي الأغلب، فإنه بدأ في المناطق التي تلتقي فيها اليابسـة بالماء (البحيرات، والأنهار، والسـواحل البحرية)، وذلك عوضا عن الأرض اليابسـة. إن الفوائض المكتسـبة عـبر صيد الحيوانات وصيد السـمك في الأغلب زودت الناس بدرجة من الراحة سـمحت لهم بإجراء تجارب الترويض والتدجين على النباتات والحيوانات. كارل سـاور كان من أوائل مـن أوضحوا أن المزارعين صيادي السـمك هم من قادوا الطريـق إلى تطور البشرية. لم يكونوا هم المتقاعسـين، بـل كانوا الرياديين بين البشر الأوائل. إن جداله حول أن الترويض بدأ على سـواحل جنوب شرق آسـيا جرى تأكيـده جزئيا فقط، بيـد أن مقاومته الأولية لأسـطورة التطوريين حول

Twitter: @ketab_n

النشء المحصور على اليابسة يستحق انتباهنا. لقد كان بزوغ مجتمع زراعي خالص معرضا دوريا لأنواع مختلفة من الأوبئة والمجاعات، لربما هو، على الأقل من وجهة نظر بيئية، الأول بين العديد من الزلات التي ارتكبتها البشرية[17].

ومادام علم الآثار وعلم الإنسان استمرا في الاعتقاد أن البحث هو «عمل ميداني»، سيبقى البحر خارج دائرة اهتماماتهم؛ فالسواحل والشعوب الساحلية كانت مبدئيا تثير القليل من اهتمام مؤرخي ما قبل التاريخ الذين ركزوا على الصياد الرجل الذي يجوب الأرض، موعزين صيد السمك وجمع المحار إلى فئة «آخر ملاذات» البشرية، أعمال عمل بها البشر عندما انقرض أو شح عدد الحيوانات. فبالنسبة إلى علماء الآثار المحترفين، كل الأشياء المهمة بدأت على الأرض، فالتطور من القرود العظيمة إلى أوائل البشر كان ينظر إليه تقليديا على أنه تم في غابات السافانا الأفريقية، حيث، بعد أن تركت القرود أمان الحياة المعيشة على الأشجار، تطورت أولا فكرة الكائن ذي القدمين وانفصل البشر عن القردة[18].

بيد أن هذه النظرية لم تفسر بشكل كامل التغييرات التطورية الأخرى التي أدت إلى ظهور الجنس البشري المميز. لم يكن هناك أي تعليل لعدم وجود شعر على أجساد البشر أو لقدراتهم على السباحة، وذلك حتى أتى رجل إنجليزي، يدعى أليستر هاردي، بالفكرة الجديدة غير المألوفة، بأنه لم تكن هي غابات السافانا بل كان البحر هو الذي حقق التفرع بين القردة والبشر. لقد اقترح هاردي أن الخوض في المياه، ومن ثم السباحة، هما اللذان شجعا، ليس فقط الوضعية المستقيمة للبشر، ولكن كذلك غياب الشعر عن أجسامهم وقدراتهم على السباحة والغوص. لم ينشر هاردي تساؤلاته حتى العام 1960، عندما أعلن أنه لربما جرى إجبار القردة على النزول إلى الماء بسبب اختفاء الغابات وغمر الفيضانات مواطنها السابقة. لقد خمن هاردي أنها عاشت عدة ملايين من السنوات على سواحل الأنهار والبحيرات، حتى تحولت في النهاية إلى Homo habilis[*]، القادرين على استعمال الأدوات الحجرية لفتح المحار[19].

إن هذه الفكرة بأن الماء كان موردا للبشر القدماء عوضا عن كونه عائقا كانت بطيئة اللحاق بدوائر علم الإنسان؛ بيد أنها فكرة تبناها الجغرافي من

(*) نوع من أنواع الجنس البشري المنقرض، يسمى الإنسان الماهر، عاش ربما منذ مليون ونصف المليون إلى مليونين ونصف المليون سنة مضت. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

بيركلي كارل ساور في العام 1962. لقد حدس ساور أن الساحل لم يكن آخر اختيارات البشرية ولكنه كان نقطة البداية لأفراد الإنسان العاقل الحديثة. عندما أطلق ساور وصف «الموطن البدائي للإنسان» على الساحل، لم يكن يعني أن يربطه بالبدائية أو الركود. على العكس تماما، فبالنسبة إلى ساور «تطورنا أخذ منحى بعيدا عن طريق الكائن الحيواني المعتاد بسبب الاتجاه نحو البحر. لا يوجد أي محيط أكثر جذبا لبداية البشرية. البحر، تحديدا سواحل المد والجزر، قدمت أفضل الفرص للغذاء، والاستقرار، وللتكاثر والتعلم»[20].

كان ساور ينتمي إلى الغرب الأوسط الذي أيقظ فضوله بسبب تلال الأصداف الضخمة التي وجدها في باجا، كاليفورنيا خلال العام 1920. وبوصفه عضو هيئة تدريس في بيركلي، كان لا بد، وهو على علم باكتشافات ماكس أهل التي تبعد فقط أميالا قليلة عن الحرم الجامعي، وذلك عن طريق صديقه المقرب ألفرد كروبر. ساور كان أحد عظماء الأكاديميين الفضوليين، والذي لم يقابل حاجزا قط لم يرغب في تخطيه. كان مهتما، ومنذ زمن، بأصول الإنسان وانتشاره، وعندما تمت دعوته لتقديم محاضرة آيزيا بومان عن طريق الجمعية الجغرافية الأمريكية في العام 1952، كان مستعدا لرمي قفازه في وجه مؤسسة علم الإنسان وعلم الآثار، متحديا مفهوم التطور الإنساني أحادي الخط: «لا يوجد قانون عام للتطور تتبعه كل البشرية، لم تكن هناك مراحل ثقافية يعبر من خلالها كل البشر»[21].

أعاد ساور تحديد مكان جنة عدن من الداخل وإلى الساحل: «ربما يكون، كما كان يعتقد، أن نوعنا كانت أصوله وموطنه على اليابسة الداخلية. إلا أن اكتشاف البحر، أيا كان الوقت الذي حدث فيه ذلك، قد مكّن البشر من العيش في مواقع أبعد من تلك الداخلية». لقد كان على الساحل أن انفصل البشر ليس فقط عن الكائنات الحيوانية ولكن كذلك مع البشر الأقل تطورا hominids. هناك، طور أفراد الإنسان العاقل مميزات الحياة المتحضرة، بما في ذلك تكوين الوحدات العائلية، وقوانين القرابة، والشعور بالمركزية الأمومية في البيت. تسارع منحنى التعلم الإنساني، مما مكن من استمرارية الأجيال وأسس لنظام ثقافي واجتماعي معقد ومستمر. في النهاية، ستحسن القدرة على استخدام المياه من

Twitter: @ketab_n

القــدرة على التواصل عبر المســافات المتباعدة، والتي ســينتج عنها أخيرا توزيع الثقافات الإنســانية المتطورة من أفريقيا عبر الســاحل، وعلى امتداد السواحل الشرقيــة للمحيط الهندي، ثم إلى أســتراليا، وإلى أوراســيا، ثــم في النهاية حول الحافة الشمالية للمحيط الهادي وإلى الأمريكتين[22].

هنــا كان التحدي الواضح لقصة سِـفْر التكوين، حيــث إن القصة لا تطرح فقط جنــة عدن جديدة، بل إنهــا تطرح آدم جديدا وحــواء جديدة، واللذين تطــورا عبر التواصل مع البحــر عوضا عن الأرض الداخلية. إن ترحيل جنة عدن من الداخل إلى الساحل قوض مجد الإنسان الصياد والذي كان رائجا جدا في أيام ســاور. كذلك، فإنها قلبت العنصريات الطبقيــة والجندرية المنتصرة عبر إعطاء النســاء دورا رئيسيا في عملية التطور الإنســاني. لقد وضع ساور النساء في مركز الوحدة المنزلية، بيد أن نســاءه لم يكن مجرد ربات منزل بأي صورة من الصور. على الساحل «الجنسان متساويان من حيث الإمكانيات، والقدرة على التحمل، وكفاءة الأداء في المياه، ويمكنهم أن يشــاركوا في أعمال الجمع وفي رياضات الماء على قدم المساواة». لقد عَكَس ساور حماس كاليفورنيا ما بعد الحرب لكل شيء ساحلي في الوقت الذي كانت فيه الولاية تغير طرازها لتصبح ساحل الأحلام. إن حياته هو بذاتها قد لخصت ما كان يعتقده مســتقبل البشرية. فبينما هو يدير ظهره لجذوره الغرب أوســطية الزراعية، كان يكتــب «عندما تمتلئ كل الأرض بالبشر والآلات، لربما ســيكون آخر احتياج وطقس للإنسان، كما كان في بداياته، هو الوصول إلى اختبار البحر»[23].

لقد اســتغرقت توقعات ســاور أربعين سنة ليجري تأكيدها عبر مؤرخي ما قبل التاريخ، غير أن أسطورة الخلق الأرضية كانت تحت الهجوم مقدما من زاوية أخرى، والتي كان لها خلال خمسينيات القرن العشرين وستينياته جمهور شعبي أكبر بكثير من ذاك الذي كان لعلم الإنسان أو علم الآثار. راتشيل كارسون، التي ترعرعت في بنســيلفانيا ولم تزر البحر كعالمــة بيولوجيا متدربة حتى 1929، لم تنشر كتابها «البحر من حولنا» The Sea Around US حتى 1951. غير أن هذا الكتاب نجح فوريا واستمر على قائمة أفضل مبيعات النيويورك تايمز لمدة ثمانية وعشرين أســبوعا، حيث أوعز تأثيره لأســلوب الكاتبة الشاعري الأسطوري كما

Twitter: @ketab_n

هو للمعلومات العلمية التي عرضها. قلبت كارســون العلاقة بين الأرض والبحر، معلنة أنه «كما بدأت الحياة نفسها في البحر، كذلك بدأ كل منا حياته المنفصلة في محيــط مصغر داخل رحم أمه، وفي مراحل تطــوره الجنيني يكرر الخطوات التي تطور بها جنســه، من مستوطنين لعالم مائي يتنفسون بزعانفهم وصولا إلى مخلوقات تستطيع أن تحيا على الأرض». ومثل ساور، كارسون توقعت أن تحفر البشرية طريقها «عودة إلى البحر»، حيث، وإن لم يستطع البشر أن يعودوا فعليا إلى المحيط بأجسادهم، فإنهم «سيعودون إلى دخوله ذهنيا وخياليا[24]».

وأخيرا يبلل علم الآثار قدميه

لم يكن كارسون وســاور وحيدين في رحلتهما الذهنية. في أمريكا وأوروبا ما بعد الحرب، الملايين من معاصريهما كانوا يصلون إلى اكتشــافاتهم الشخصية للسواحل في واحدة من أعظم الحركات الإنسانية والتي تستمر بتصاعد أعظم إلى اليوم. هؤلاء الآدم والحواء الجدد كانوا يبحثون عن نسختهم الخاصة من جنة عدن، غير أن تطلعاتهم لم تكن تلك التي للشعوب الزراعية. كمخلوقات تنتمي إلى الحقبة الصناعية، بل ربما إلى الحقبة ما بعد الصناعية، كانوا يســتهدفون نوعا جديدا من الفردوس. وخلال عملية العــودة إلى البحر، والتي هي رحلة خلال الزمــن كما هي خلال المكان، كانوا ملزمين بالتنقيب عن التاريخ المنسي لعلاقة البشرية مع البيئة البحرية.

على الرغم من معقولية هذه القصة البديلة للتطور الإنســاني، فإن مفهوم الأصول البحرية ظل، وإلى وقت قريب، هامشــيا. فبالنسبة إلى معظم المؤرخين، الزمن لايزال يبدأ وينتهي على اليابســة. وبالأسلوب نفسه، يستمر الجغرافيون في معاملــة المياه على أنها خارج حدود موضوعهم. هــذه الرؤية المنغلقة على الأرض تنطوي على عنصرية جندرية قوية. ففي زمن ما قبل التاريخ، كان التركيز تقريبا منحصرا على الرجل الصياد. فقد كان مفروغا منه، وعلى الرغم من الأدلة التي تشــير إلى مشاركة الإناث، فإن صيد السمك كان نشاطا ذكوريا حصريا[25]. نســتطيع أن نرى الآن أن تزييف النظرة الماضوية هذه كان معمولا به هنا كما في كل مكان آخر. ففكرة الرجل الصياد كانت في معظمها اختراع علماء الإنسان الفكتوريين من الرجال وهي تشــير إلى تشــابه لافت مع صياد الفرائس الكبيرة

Twitter: @ketab_n

الحديـــث، والذي يســافر كذلك بعيدا عن موطنه باحثا عن فريســـته. فالرجال المتعلمون جامعيا، والذين يتصرفون على أســاس المعتقدات المعاصرة لانفصال المجالات، لم يعطوا الكثير من الانتباه لنشاطات النساء البحريات، حيث يضعون هؤلاء النســاء في المكانـــة المتدنية لوظيفة التجميع وبذلك يبخســـون، وبصورة ضخمة، أهمية عملية التجميع بحد ذاتها بالنسبة إلى مسار تطور البشرية[26].

لطالمــا اعتمـــدت الحياة عـــلى الماء، ونحـــن متأكدون مـــن أن الجنس البشري hominids كانوا يســـتخدمون ســـواحل البحـــيرات والأنهار قبـــل أن يبدأوا في ترك الداخـــل الأفريقـــي بزمن طويل، منذ 1.5 مليون ســـنة. بدأ جنـــس hominids في الانفصال عن القردة منذ ســـتة أو ســـبعة ملايين ســـنة مضت، حيث ظهر عدد من الأجناس المختلفة Homo erectus [الإنســـان القائم]، Neanderthals[*]، Homo habilis بين عدة أخر وذلك قبل وصول الجنس البشري الحديث Homo sapiens، تقريبا منذ 200 ألف سنة مضت. هاجر أفراد جنس النياندرثال إلى أورسيا غير أنهم أخيرا انتهوا تماما. كان جنس الإنســـان القائم هو الأول الذي يهاجر إلى جنوب غرب آســـيا ومن ثم، وعبر جنوب شرق آســـيا، إلى الصين، بيد أنهم انتهوا في تلك المنطقة ليفســـحوا الطريق للجنس الأكثر تطورا وهو الإنســـان العاقل، والذين تركوا أفريقيا بعد ذلك بزمن غير أنهم كانوا أفضل تجهيزا ليحتلوا العالم بأكمله في النهاية[27].

بدا أن أفراد جنس الإنســـان العاقل، الذين نعتبر نحن سلالتهم المباشرة، قد هاجـــروا من الداخل الأفريقي إلى حيث ســـواحله الشرقية وذلك منذ 160 ألف ســـنة مضت على الأقل. ولقد هاجروا خارج أفريقيا منذ 50 ألف ســـنة مضت، وذلـــك بعد أن طوروا حزمة مـــن القدرات الإدراكية، والتـــي جعلتهم متفوقين على بقيـــة أفراد جنـــس hominids، وذلك بمن فيهم مـــن النياندرثال، والذين تعايشـــوا معهم في أوروبا لمدة طويلة مـــن الزمن قبل أن ينقرض الأخيرون. لقد كانت سيطرة جنس الإنسان العاقل القاطعة نتاج ليس فقط أي سمة تشريحية منفردة ولكن كانت نتاج تطوره العقلي، والذي كان في غاية الأهمية لاكتســـاب اللغة والسلوك الرمزي، تلك السمات التي تميز جنس الإنسان العاقل ليس فقط عن القردة بل عن أشباه البشر الآخرين humanoids[28].

(*) أحد أقرب الأجناس البشرية المنقرضة للإنسان الحديث. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

يخبرنـا علماء البيئة بأن «الجنس البشري، منـذ البداية، كان مخلوق الحواف»، يزدهـر حيـث تتداخل الأنظمة البيئيـة، في الأماكن المعروفة باسـم ecotones أو المناطق البيئية الانتقالية. فمنذ أن هبط جنسـنا من على الأشـجار وأدار ظهره إلى الغابة وذلك ليتجول في السـافانا، أو السـهول الخضراء لأفريقيا، كان يجد المناطق البيئية الانتقالية تلك الأكثر جاذبية. في البداية كانت حواف الغابات ولاحقا شواطئ الأنهار والبحيرات حيث وجدنا أدلة على وجود أقدم جامعي محار ونباتات بحرية. هـذا العمل لابد أنه اسـتمر لمئـات الآلاف من السـنوات، غير أن نقطـة التحول الحقيقيـة جرى الوصول إليها على حافة البحر، حيث تعرف بيئات الماء المالح بأنها أكثر إنتاجية من تلك التي للماء العذب[29].

هناك أسباب منطقية تجعلنا نعتقد أنه في هذه البيئة أصبحنا نحن بشرا بشكل كامل، حيث تطورت نسـبة المخ الكبير بالنسبة إلى الجسم والتي أصبحت، كما هي في الدولفين وبعض الأنواع الأخرى من الثدييات البحرية، سـمتنا المميزة. يوعز عالم الكيميـاء العصبية مايكل كراوفورد هذه السـمة إلى وفرة أطعمة المحار والسـمك والتي تحتوي على أحماض دهنية (خصوصا DHA) المهمة لنمو المخ الكبير الحجم. إن بـشر أكلة العشـب وأكلة اللحوم الأولين لم تكن لديهـم طريقة وصول إلى مثل هذه الأطعمة، ولم يكن إلا عندما وصلت البشرية إلى البحر أن تطور المخ إلى أبعاده البشريـة الحالية. كان ذلك هو قاعدة الانطلاق لكل التغييرات الاجتماعية والثقافية التالية. لم تكن هناك لحظة أخرى، ولا حتى لحظة تأسيس المجتمعات الزراعية بعد ما يقرب من 155 ألف سنة لاحقة، بدا أنها أنتجت مثل هذا التحول الجوهري[30].

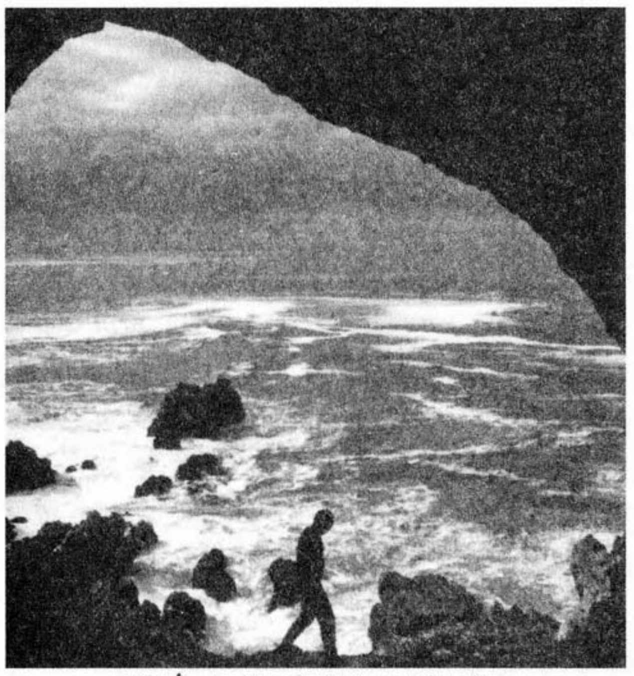
فقط عندما اجتمع عمل البستنة والزراعة مع الصيد تعلمت البشرية أن تتعايش مـع الطبيعـة بطرق يمكن لها أن تدوم لفترات طويلة جـدا. من هذا المنظور، تعتبر الرحلة إلى الساحل ليست آخر وإنما أول ملاذ للبشرية، فقد كان يعتقد ولمدة طويلة أن البشرية توقفت عن الصيد فقط عندما انقرضت هذه الحيوانات. الآن، يمكننا أن نقول بثقة إن البشر اسـتقروا على السواحل ليس بسبب نقص الأراضي الداخلية بل بسبب الغنى الذي قدمته السواحل البحرية. لقد كان على هذه السواحل أن طورت البشرية أوائل المجتمعات المسـتقرة وتعلمت كيفيـة التواصل والتقايض بعضها مع بعض— بمعنى آخر، تعلمت أن تحقق وجودا متحضرا. هناك، طورت البشرية كذلك

Twitter: @ketab_n

البستنة والتي هي سابقة للزراعة في حد ذاتها. كذلك، فإنه من الساحل بدأت الرحلة خارج أفريقيا، فمن دون البحر ما كان ليمكن تصور التطور البشري[31].

الجنة الحقيقية: نقطة القمة

لم يتوقــف البحث عن جنــة الكتاب المقدس عبر القرون مطلقــا، لم تترك عملية البحــث صخرة لم تقلبهــا أو مكانا لم تنقب فيه. في الولايــات المتحدة وحدها، المئات من الأماكن تحمل هذا الاســم. إنه الاســم المفضل لتجار العقارات ووكلاء الســياحة. على خليج موســل، عند أقصى الطرف الجنوبي لأفريقيا الجنوبية، يستقر شاطئ بيناكل بوينت Pinnacle Point ومنتجع الغولف المتسعين عاليا فوق بحر هائج. عندما رشح المتعهدون الماليون المكان على أنه «جنة عدن جديدة»، لم يكن في إمكانهم أن يعلموا أن الكهوف التي في الأجراف أســفل النقطة التاسعة في ملعب الغولف مباشرة ستقدم أقوى الإثباتات وإلى تاريخنا هذا على كونها مكان الأصول الحقيقية للبشرية[32].



منظر من كهف عند Pinnacle Point، جنوب أفريقيا.
الصورة من مشروع علم الآثار لكيرتيس ماريان وخليج موسل.

Twitter: @ketab_n

إن اكتشــاف الجنة الجديدة إنجاز لفريق علم آثار بقيادة كيرتيس ماريان من جامعة ولاية أريزوينا. حدس ماريان أنه في أوج فترات التجمد، عندما كان الداخــل الأفريقي باردا وجافا وغير صالــح للعيش البشري، انتقل البشر بحكم الضرورة إلى الســاحل، حيــث كان الجو أكثر دفئا ومصــادر الطعام أكثر وفرة. إن أعمال التنقيب في كهف أصبح يعرف باســم PP13B أثبتت أنها اكتشــاف عظيم. فخلال عشر ســنوات من الحفر المتأني اكتشــف فريقه ليس فقط دليلا عــلى أن المكان مأهول بل دليل أيضا على تطور ثقافي ومادي والذي صنع ثورة في فهمنــا لأصول الإنســان العاقل. فبفضل عمل ماريــان وآخرين، أعيد ضبط توقيت التطور كما أعيد توقيت الأصول من 125 ألف ســنة إلى 164 ألف سنة مضت. لقد ظهرت أدلة على أن سكان PP13B قد استغلوا كلا طرفي خط المد، حيث اعتمدوا بشــدة على المحار الذي كانــوا يجمعونه في وقت الجزر عندما كانت الحياة البحرية أســفل الكهوف، والتي تشمل الحيتان وحيوانات الفقمة المجروفة على الســاحل، مكشوفة وسهلة التجميع. تتوافر الأدلة على أن هؤلاء البشر كانوا بارعين منذ ذلك الوقت في تشــكيل السكاكين الحجرية، لكن كانت هناك أدلة أعمق لسلوكيات رمزية والموثقة في بقايا لمادة صبغية صفراء ochre يعتقد أنها أول دليل على تلوين الجسد جرى اكتشافه. لربما وصل سكان الجنة عند Pinnacle Point كمجموعة من البشر الرحل، غير أن غذاءهم الســاحلي مكنهم من العيش المستقر، والذي يقترب كثيرا مما تخيله ساور[33].

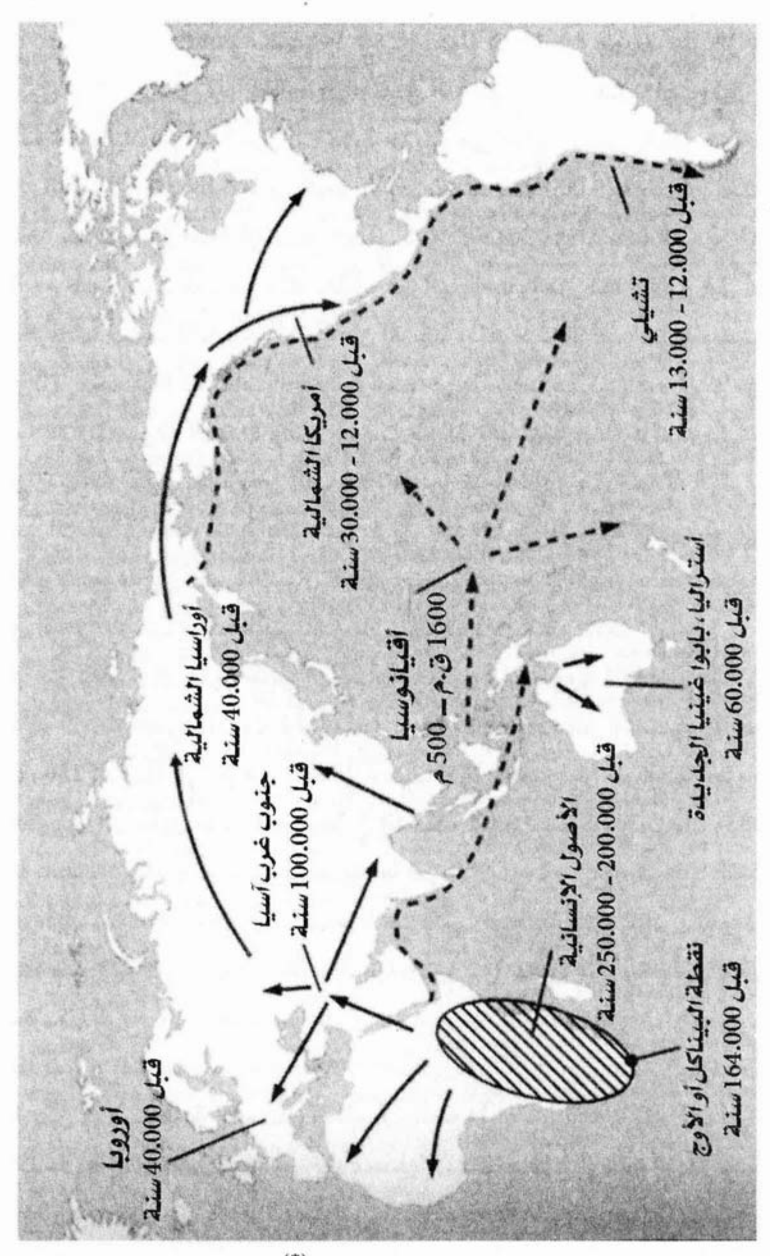
هنــا توافر الدليل عــلى أنه وفي فترة تغيير مناخــي مدمر محتمل أثبت البــشر، ولربما لأول مــرة، ليس فقط قدرتهم على التكيــف ولكن كذلك على الإبداع الشــديد. لقد كانت البيئة الســاحلية هي خلاصهــم، لكنهم، وحتى يســتغلوا مواردها، كانــوا يحتاجون إلى أن يتعلموا تفــادي مخاطرها. وفرت الكهــوف التي تَعلو خــط المياه مأوى، غــير أنهم، وحتى يحصــدوا الوليمة الموجودة أســفل خط المد، كانوا يحتاجون إلى توقيت نزولهم بحرص شــديد حتى يســتغلوا فترة انخفاض المياه. توقع ماريان أن ذلك لربما كان يحتاج إلى براعــة في فهم التقويم القمري، والذي يعد قفزة ذهنية ليســت بأقل أهمية من حساب الدورات الشمسية[34].

Twitter: @ketab_n

يبدو أن جنة Pinnacle Point كانت مأهولة لمدة زمنية طويلة، على الرغم مــن أن البشر كانوا قد انتقلــوا إلى المناطق الداخلية مجددا عندما أصبح المناخ أكثر احتمالية. غير أنه أخيرا، أتت دورة جديدة من التغير المناخي بالبشر مجددا إلى البحر، وفي تلك اللحظة إلى البحر الأحمر، وذلك منذ 125.000 ســنة مضت. نحن متأكدون أن أفراد الإنســان العاقل كانوا موجودين في المنطقة التي نعرفها اليوم باسم فلســطين بعد ذلك بقليل، غير أنهم اختفوا من هذا الإقليم قبل أن يخرجــوا خروجا ثانيا وأكثر أهمية من أفريقيا وذلك منذ 50 ألف ســنة مضت. والآن، بمســاعدة العلامات الجينية لرســم خريطة الأسلاف، نستطيع أن نلاحق سلالات المجموعة الصغيرة والتي خرجت من أفريقيا لتملأ العالم بأكمله بالبشر في زمن أكثر بقليل من أربعين ألف سنة. وبينما خرج آخرون من السلالة البشرية من أفريقيا في وقت أسبق بكثير عن طريق أخذ الطرق الشمالية والشرقية، فإن أهم مجموعة من جنس الإنسان العاقل خرجت عن طريق أقصى نقطة جنوبية في البحر الأحمر، تعرف اليوم باسم باب المندب Gate of Grief [35].

لم يعان أوائل أفراد جنس الإنســان العاقــل الذين عبروا تلك المياه لأنه في ذلك الزمــن الذي ارتفعت فيه نســبة تجمد الأنهار، انخفض منســوب البحر إلى 230 قدمــا أقل مما هو عليه الآن، مــما صغر المضيق بين أفريقيا والجزيرة العربية أكثر. ما إن بدأت المجموعة في التحرك، فإنهم تمســكوا بالساحل، وذلك ما دعاه ســبنسر ويلز باســم «طريق ما قبل التاريــخ السريع». في هذه الفترة الزمنية، كانت السواحل أكثر اتساعا بشكل كبير، لربما بما يقدر بمائتي كيلومتر، مما هي عليه اليوم، موفرة نظاما غذائيا بحريا غنيا جدا. تحرك الإنسان العاقل بشــكل سريع على ضفاف سواحل الهند، متفرعين باتجاهي الشمال والجنوب، طاردين منافســيهم من hominids والنياندرثال الذين ســبقوهم إلى المكان. لم يكن في اســتطاعة الإنســان القائم أن يقطع المياه مطلقــا، لذلك، فإن أفراد الإنسان العاقل حصلوا على أستراليا بمجملها لأنفسهم عندما وصلوا إليها. عندما انتقلوا إلى الشــمال داخل الهند وآســيا، فإنهم فعلوا ذلك عن طريق السواحل التي استقروا عليها مبدئيا. يمكن القول حقيقة إن الساحل كان «محطة الإعداد للاستقرار في بقية العالم[36]».

Twitter: @ketab_n



خريطة لهجرات العالم من 100.000 2 [BCE](*)، أعدها أدام دافيز.

(*) Before Common Era وهو مصطلح غير ديني لفترة ما قبل التاريخ. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

لقــد كان ذلك جِنْســا قادرا على التحكم في أكثر البيئات قســوة، بمــا فيها القطبية. منذ عشرين ألف ســنة مضت، وصل هؤلاء إلى الحدود الشرقية لســيبيريا حيث وسعوا مــدى الصيد والتجميع إلى بيرنجيا، والتي كانت في حينها جسرا أرضيا بين آســيا وأمريكا الشــمالية. تُشــجعنا الأبحاث الأخيرة على التفكير في أن تأهيل الأمريكتين هو عبارة عن امتــداد لعملية تأهيل الســاحل عوضا عــن تأهيل ذاك الأرضي الداخــلي. يخمن نوت فلادمارك وآخرون أن المهاجرين تحركوا بخفة على الســواحل، مســتغلين الفوائد الغنية لكلا جانبي خط المد. في ذلك الوقت كان ارتفاع مستويات البحر يقدر بنحو 350 - 400 قــدم أقل مما هــو عليه الآن، جاعلا من قارة أمريكا الشــمالية أكبر حجما بزيادة تقدر بحجــم ولاية تكســاس الحالية. لا بد للواحد منا أن يتخيــل أن ما يدعى أحيانا «طريق كيلب السريع» كان كتلة حيوية من الغنى والتنوع تشــابه الغابات الاســتوائية الممتدة من اليابان وعبر السواحل الجنوبية لبرينجيا نزولا إلى باجا، كاليفورنيا، ثم تستمر بمحاذاة ســواحل الآنديان نزولا إلى طرف أمريكا الجنوبية. فكما لاحظ تشارلز داروين في 1834، هذه الغابات البحرية الشاسعة لم تحتضن فقط الثدييات البحرية، السمك، والطيور، بل احتضنت كذلك بشرا مثل الفيوجيين Fuegians [37].

إن طرق الهجرات من آســيا إلى العالم الجديد اســتمرت في كونها مثيرة للجدل، بيــد أنه اتضح لنا الآن وبشــكل كاف أن الهجــرة الســاحلية أدت دورا على الأقل بالأهمية نفسها في الأمريكتين كذلك الذي أدته في بقية أنحاء العالم. إلى تاريخنا هذا، كل الجهــود المبذولة للعثور على دليل على ممر مائي عبر المحيط الهادي أو المحيط الأطلنطــي باءت بالفشــل، وفي حين أنــه كان محتملا أن القوارب كانت تســتخدم للتنقل عبر الســواحل، فإنه من غير المرجح أن هؤلاء الساحليين الأوائل كانوا بحارة يصلــون إلى أعــماق البحــار. ومع ذلك، فإن السرعة التي ســافروا بهــا عبر ضفاف السواحل كانت مذهلة. يسبق موقع مونت فيردي The Mont Verde في تشيلي بما لا يقل عن ألف ســنة أقدم موقع استقرار بشري موثق على الأرض الداخلية، والذي يدعى موقع كلوفيز Clovis Site. كانت مونت فيردي مستوطنة طويلة الأمد، تقع على نهر يبعد بما يزيد بقليل على.ثلاثين ميلا عن البحر فقط، وهي مســتوطنة بدا أن لديها علاقات تجارية مع مجتمعات بحرية أخرى. إن الأدلة على استهلاك المحار والأعشاب البحرية هناك تشير وبقوة إلى وجود الصيادين الرحل البحريين عوضا عن

Twitter: @ketab_n

صيادي الحيوانات الضخمة الأرضية والذين كانوا ولزمن طويل هم أبطال النظريات التقليدية للهجرات القارية المركزية[38].

لِمَ بقيت قصة جنس الحواف البشري غاية في الغرابة؟ إن أحد الأسباب الجلية تتركـز في غياب نوعية الأدلـة المتوافرة بكثرة على المواقع الأرضيـة الداخلية. فعلى مـدى الـ 150 ألف سـنة الأخيرة تعرضت مسـتويات البحـر إلى تذبذبات بالغة، ماسـحة بشكل متكرر سجل الاسـتيطان الإنساني على الساحل. في آخر فترة تجميد، والتي وصلت الذروة منذ 20 ألف سـنة مضت، وصلت ارتفاعات البحر، كما ذكرت أعـلاه، مـن 350 إلى 400 قدم أقل مما هي عليه الآن. اسـتقر البشر في العديد من الأماكن التي اختفت منذ زمن طويل منذ ذلك الحين، إما أنها مسـحت عن طريق المد المرتفع أو غرقت عميقا أسـفل الأمواج التي اسـتطعنا فقط اليوم، وبمسـاعدة التكنولوجيا الحديثة لعلم الآثار المائي، أن نستكشـفها. في وقتنا هذا، كل سـنة تأتي باكتشـافات جديدة على الساحل والتي تكشـف التاريخ الخفي لجنسنا الساحلي، لبراعتـه في تحويل السـواحل إلى طرق سـفر وتجارة ليس لها مثيـل على الأراضي الداخليـة. حتى وقت قريـب، كان علماء الآثار مقتنعين بأنـه جرى دخول أمريكا الشـمالية عن طريق ممر داخلي غـير متجمد. الآن، يمكن إثبـات أن اتباع الطرق الأرضية عبر الحقول الكورديليرانية واللورينتايدية(*) الجليدية كان لربما سيكون أشد صعوبة بكثير من اتباع طريق كيلب السريع الهائل على ضفاف السواحل. ببساطة، ليس هناك تفسـير آخـر لكيفية وصول البشر إلى أقاصي الجنـوب للقارة وفي وقت قصير جدا بعد دخولهم أمريكا الشمالية[39].

في البداية، بدا أن مهاجري السـاحل كانوا يسـتخدمون الشـواطئ بشكل بسيط، يتنقلون عبرها عندما يسـتهلكون مكان إقامتهم، حيث إنهم نادرا ما يستقرون لفترات زمنيـة طويلة. غير أنـه ومنذ عشرة آلاف سـنة، تحولت الطرق السـاحلية إلى جذور سـاحلية وذلك عندما أصبحت المسـتوطنات أكثر ديمومة. كان ذلـك تقريبا في الوقت نفسـه الذي بدأت فيه المجتمعات الزراعية المسـتقرة. وبينما كان يعتقد ذات يوم أن تطور الساحل كان معتمدا على تطور الداخل، يبدو الآن أن الوضع، ربما، كان معكوسا

(*) Cordilleran and Laurentide Ice Sheets هـي مسـاحات جليدية ضخمـة كانت تغطي أجزاء من أمريكا الشمالية وكندا. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

في الواقع، حيث تحققت بدايات المجتمع الزراعي على السواحل. لطالما كان الصيادون الرحل ماهريــن في الفلاحة، وفي العديد من البيئات الانتقالية حيث تتداخل اليابســة بالماء، لم يكن ممكنا التفريق بين صيادي السمك والمزارعين. كان يجب استكمال البروتين المتوافر من الســمك والمحار بســعرات حرارية من لحوم الحيوانــات والنباتات القابلة للأكل، والتي كان من الســهولة العثور عليها على الساحل كما في الداخل. والآن، أصبح مؤكدا أن التطور الإنســاني لم يتبع تسلسلا بســيطا من الصيد والتجميع إلى الزراعة. لم يعــد في الإمكان النظــر إلى الزراعة على أنها قفزة عظيمة مفاجئــة للأمام، بل كامتداد للمهارات التقنية التي جرى تعلمها على طرف الماء[40].

لقــد تطور صيد الســمك والزراعة، صيد الطرائد والبســتنة ترادفيــا منذ البداية، حيــث كان كل منهــا يتمم الأخرى. لا بد اليــوم من ترك مفاهيم القرن التاســع عشر حــول «مراحل» التطور وذلك من أجل مفهوم التاريخ المســتمر المتداخل والذي يدرك أن الأرض والمــاء جــزءان يعتمد أحدهما عــلى الآخر لنفس النظــام البيئي. لم يحدث هذا الانفصال حتى القرن التاســع عشر عندما تحول نظاما الزراعة وصيد الســمك إلى مؤسسات تجارية في البداية في العالم الرأسمالي المتطور ولاحقا في أجزاء أخرى من العالم. غير أنه، ولأطول مدة من زمن وجودنا، شــكلت الأرض والبحر نظاما بيئيا أوحد، أحيانا يحتل شريطا ساحليا ضيقا فقط، ولكن وبشكل متزايد، وعبر التوسع في عمليتي التنقل والتجــارة، أصبح هذا النظام منطقة شاســعة تمتد عميقا داخــل المناطق الأرضية كما داخل البحر عبر الساحل، أحيانا تتمدد عبر مساحات مائية لتربط الأراضي المتباعدة.

تطور جنسنا، جنس الحافة

بالنســبة إلى العديد من مؤرخــي ما قبل التاريخ، يظل اخــتراع الزراعة نقطة التحــول الكبرى. يصر هؤلاء على رســم حد واضح بــين الصيادين الرحل والمزارعين، متجاهلــين التداخل بين حراس الطرائد والمزارعين. إن مفهوم أن الصيادين الرحل لا قــدرة لديهم على الزراعة قد وضعهــم تلقائيا في رتبة أقل من الجنس البشري، رتبة تدعى «بدائية». إن مفهوم البدائية، وهو تشــويه آخر للنظرة الماضوية، الذي جرى اختراعه عن طريق الفيكتوريين المتلهفين لإبعاد أنفســهم عن أسلافهم، هو مفهوم قد اســتمر على الرغم من كل الأدلة على ســعة حيلة هؤلاء الصيادين الرحل. نحن

Twitter: @ketab_n

نعرف، على سبيل المثال، أن الصيادين الرحل في السواحل الشمالية الشرقية في أمريكا قد طوروا مجتمعا مائيا عبر زراعة المحار في أماكن محمية صناعيا على طول الساحل. غير أنه حتى فرانز بواس، والذي كان يعرف طرائقهم أفضل من أي باحث آخر بين جيله، قد تجاهل الأدلة التي تشير إلى حدائقهم المحارية[41].

لطالما كان على علم الآثار أن يرضى بالتغريب المستشعر السابق للبحر. فحتى أواخر القرن الثامن عشر، كانت السواحل أماكن يجب تجنبها، سكانها كان ينظر إليهم على أنهم مخلوقات أقل من سكان الداخل. فالأماكن التي يلتقي فيها الماء اليابسة ويختلط بها هي «معبأة بالفهم الخاطئ والمخاوف». لم يبدأ الأوروبيون، حتى خمسينيات القرن التاسع عشر في الفحص الجاد لأجساد العصر الحجري المحفوظة جيدا والتي كانت تظهر في المستنقعات المجففة حديثا، أجساد كشفت عن المدى الذي احتل به البشر البحيرات والأقاليم الساحلية وذلك قبل أن يحتلوا الداخل، حيث عاشوا في ما بدا أنها بيوت متكلفة أو على هضاب كانت تسمى crannogs(*) في أيرلندا، أوterps(**) في هولندا وشمال ألمانيا[42].

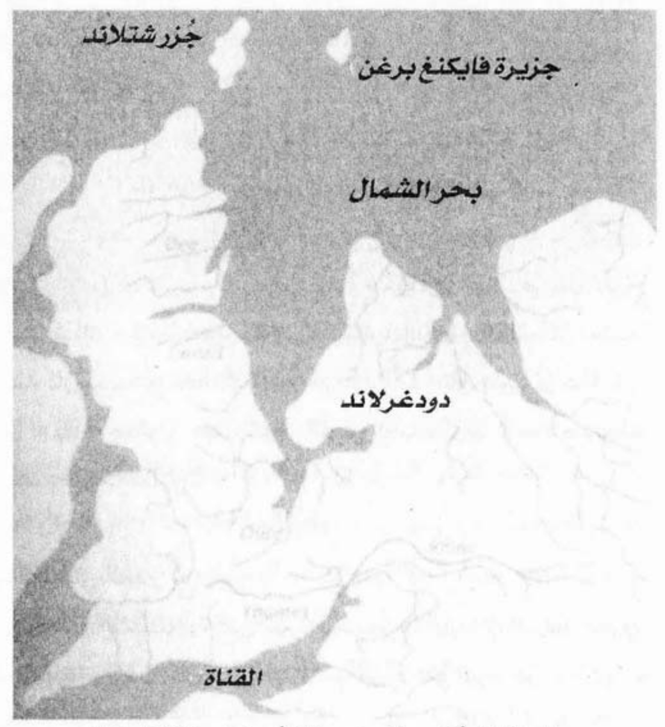
في الوقت نفسه تقريبا، كان الفيلاديلفي كليرانس أتش مور يشرف على دراسة حول تلال المحار والسكان حول هذه الأكوام في السواحل الجنوب غربية،لفلوريدا، كاشفا عن عالم متواز على هذا الجانب من الأطلنطي. فقد كشف تنقيب فرانك كوشينغ في 1890 في منطقة كي ماركو عن مجتمع على مستوى عال غير متوقع مخفي فيما كان وقتها مستنقعا لشجر المانغروف الاستوائي. مع ذلك، كانت لاتزال هناك مقاومة لاعتبار سكان الأراضي الرطبة على أنهم أي شيء سوى زراعيين يعيشون على طرف المياه. «إنسان ما قبل التاريخ كان إنسانا وليس كائنا برمائيا»، هكذا استخلص أوسكار باريت في خلال الخمسينيات من القرن العشرين. ومع ذلك، فإن نصف قرن آخر من علم الآثار النشط حول المناطق البرمائية قد جلب سكان هذه المناطق إلى مقدمة الاهتمام العالمي. على ساحل تشيشاير في إنجلترا، كشف المد المنخفض ومنذ زمن عن منطقة تركيز مكثف لجذوع أشجار ولجذور كان المحليين يسمونها غابة نوح. لم يعط العلماء أي انتباه لذلك حتى نشر كليمنت ريد كتابه الصغير Submerged Forests في 1913، مخمنا أن تلك المنطقة قد تكون

(*) بيوت تبنى كأنها جزر صناعية تشيد في البحيرات والأنهار. [المترجمة].

(**) تلة صناعية يبنى عليها مكان العيش. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

حافة عالم ضائع مســتلق أسفل بحر الشمال بين بريطانيا والدنمارك. اكتسب تخمين ريــد مصداقية أكبر عندما جرى التقاط رمــح مصنوع من عظام قرن غزال من على ضفاف دودغر(*) عن طريق صيادي سمك في 1931. وقد أكد مزيد من الاستكشاف الصوتي بعد الحرب العالمية الثانية وجود منطقة بحجم بريطانيا في حد ذاتها والتي كانت موجودة ما بين عشرين ألف سنة وخمسة آلاف سنة مضت، مكان كان، على الأغلــب، موطنا للصيادين الرحل حتى أجبرهم فيضان العصر ما بعد الجليدي على الانتقال إلى ما يعتبر الآن ســواحل بريطانيا والقارة الأوروبية. في العام 1998 كانت تلــك هي أرض دودجر المعمدة، تنضم إلى المنطقة المغمورة بين ســيبيريا وألاســكا، بيرنجيا، ومناطق ما تحت البحر لبحار جنوب الصين والتي تعرف باســم ســندالاند، على اعتبار أنها الأراضي الرئيسية المفقودة للعصر الحجري الأوسط(43).



رسم لدودغرلاند، أرض موصّلة بين بريطانيا وأوروبا، نحو 3000 قبل الميلاد.

الرسم لآدم ديفز.

(*) ضفاف بحر الشمال، تبعد نحو 100 كلم عن ساحل إنجلترا الشرقي. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

هذه الأراضي، والتي كانت تعتبر مبدئيا «أراضي جسرية» عوضا عن كونها فقط أراضي عادية، كانت تفهم تدريجيا على أنها مواطن لشعوب دائمة والذين استعمروها بسبب ثراء مواردها من النباتات والحيوانات. بقدرتهم على التنقل والتكيف، هذه الشعوب في دودغرلاند، بيرنجيا وسندلاند «عاشت حيوات غنية واجتماعية في بيئة ربما توافرت لها الفرص». فبينما بقيت معظم الأدلة مغمورة، فإن الاكتشافات على طول الرفوف الصخرية لكل من أوروبا وأمريكا قد ألقت ضوءا جديدا على الصيادين الرحل المبدعين والمتكيفين، حيث تساويهم بالبشر الداخليين inlanders المعروفين بشكل أفضل، والذين لطالما كانت آثارهم أكثر تطورا بكثير. الآن تبرز قصة خلق جديدة بديلة بينما تبدأ السواحل المغمورة بكشف أسرارها لتقنية السونار ولأجهزة الغوص المتقدمة[44].

إن أحد أكثر الاكتشافات المثيرة لعلم الآثار الحديث هو بيت ستار كار Star Carr House، والذي اكتُشف بالقرب من سكاربورو في شمال يوركشاير. ويُعْتَبر هذا المكان أقدم مكان سكن في بريطانيا، والذي كان مأهولا منذ ما يقرب من 10500 سنة مضت، في وقت كانت فيه بريطانيا لاتزال متصلة بالقارة عبر دودجرلاند. في الوقت الذي كان فيه هذا المكان مأهولا، كان يقع على بحيرة، والتي كانت هي كذلك موقعا لقاعدة خشبية ضخمة، ما يعتبر أقدم مشروع نجارة معروف للبشر في أوروبا. وُجد في الموقع مجداف قارب ولباس رأس مصنوع من قرن الغزال ما يدل على أن ستار كار كانت كذلك مركزا للطقوس. فحتى اكتشافها في العام 2008، كان يعتقد أن هذه المنطقة كان يسكنها فقط الصيادون الرحل. الآن، يبدو جليا أن هذا كان مجتمعا مستقرا له ثقافة متطورة، حيث تتوافر الفرص الجيدة كذلك لإيجاد مستوطنات أقدم فيما يتقدم البحث الأثري[45].

الغنى الساحلي للعصر الحجري

في القصص الأسطورية التي تسردها شعوب الهيدا في الشمال الغربي الكندي هناك تلميحات لوقت كان يمكن فيه المشي بين ما هو اليوم جزر مواجهة للشاطئ. تدريجيا، سترتفع مناسيب البحر حيث ستأخذ الحافة بين الأرض والبحر الشكل الذي ظل حتى وقتنا هذا. وبتراجع المياه المتجمدة في نصفي الكرة الأرضية الشمالي والجنوبي أخذت الأنهار الرئيسية ومصباتها مواقعها الحالية، سامحة لسمك المياه

Twitter: @ketab_n

العذبــة باتخاذ أنمــاط هجرته الحاليــة. إن تكوين المســتنقعات والأراضي الطينية السبخة قد يسر تكاثر المحار، ثبتت اتجاهات الهجرة للطيور، ووفرت مناطق تكاثر ثابتة لحيوانات الفقمة والألفظ وغيرهما من الثدييات المرتادة للبحر(46).



Tollundmannen، رجل يعيش على المستنقعات وُجد في الدنمارك.

الصورة من ويكيميديا كومونز.

إنه في هذا النظام البيئي الضيق بين الأرض والبحر طور الصيادون الرحل أوائل المجتمعات الساحلية التي كانت لها السمات الشائعة حول العالم نفسها. فلقد كانت هناك سمات معينة ميزت الساحليين عن سكان الأراضي الداخلية من البداية. فأولا، كان الســاحليون متنقلين بشكل كبير. وكان التنقل هو نمط الحياة الطبيعي، فالبقاء والتطــور المســتمر اعتمدا على التنقل. فلم يكد الســاحليون يخرجون من أفريقيا، حتــى ملأوا هذا الكوكب بسرعة لم يحققها أي جنس آخر. كانت للتنقل فوائد عدة مثل درجة أعلى من الصحة البدنية عن التي كانت للشعوب المستقرة، والذين كانوا غالبــا ما يلوثون بيئاتهم. وبالمثل، عندما يتعايش البشر مع الحيوانات عوضا عن أن

Twitter: @ketab_n

يصطادوها، فإنهم يجعلون أنفسهم عرضة للأوبئة التي تحملها الأجناس الأخرى. فبينما من غير البين أن الصيادين الرحل كانوا يعيشون حياة أطول، بيد أنهم في الغالب، كون أراضيهم أقل كثافة سكانية، كانوا أقل عرضة للأوبئة.

كما أن الصيادين الرحل أبقوا على نسبة تكاثر منخفضة. فبينما تحملوا هم 95 في المائة من وقت البشرية بمجمله على هذا الكوكب، فإنهم شكلوا فقط 12 في المائة من كل البشرية التي عاشت على هذه الأرض. نحن نعرف أن الصيادين الرحل المعاصرين يستخدمون أنواعا مختلفة من أساليب تحديد النسل، ولا بد أن الصيادين الرحل القدماء قد فعلوا ذلك أيضا. ربما العامل الأهم بالنسبة إلى معدلات المواليد المنخفضة لديهم كان الدرجة المرتفعة لتحركهم والتي شجعت الأمهات على الإرضاع الطبيعي لفترات أطول، ما أدى إلى إبعاد المسافات الزمنية بين الولادات وبالتالي الحد من العدد الكلي للمواليد. في كل الأحوال، يمكننا أن نكون متأكدين بدرجة معقولة أنهم عاشوا في جماعات صغيرة جدا، أقرب إلى كونها عائلات ممتدة كبيرة، والتي كانت تتحرك وتستغل الموارد في المناطق التي تجمع أنظمة بيئية مختلفة والتي ألفوها بشكل كبير[47].

من المتوقع أن الصيادين الرحل البحريين قد عرفوا كذلك كيف يتفادون أنواعا معينة من الكوارث الطبيعية. إن الخبرة الطويلة مع ظروف الساحل قد علمت جنس الحافة البشري أن يعيش فوق مستويات البحر، عادة بعيدا بمسافة عن خط المد، متفادين بذلك العواصف والتسونامي. إن أساطير الشعوب الساحلية للشمال الغربي الكندي تشير إلى فيضانات دورية لكنها تحكي كذلك عن هروب ناجح باستخدام الزوارق. إن البشر الذين يحتلون الحواف من بين كل الأنظمة البيئية عادة ما يظهرون قدرة سريعة على التغلب على المشاكل، كما يظهرون تكيفا أكبر مع تأثيرات الريح والنار كما هو تكيفهم مع المياه. تتوافر الدلائل على أنهم عرفوا كيف يستخدمون الماء ليحموا أنفسهم من أعدائهم من الحيوانات والبشر. في إيرلندا وأسكتلندا، كانت الإقامة في جزر صغيرة صناعية تدعى crannogs تخدم هذا الغرض. لم يقصد الفقراء فقط المكان من أجل المأوى. كانت تلك الجزر تؤوي الملوك والكهنة، الذين كانوا يعرفون كيف يستغلون القوى الماوراء طبيعية المرتبطة بالأماكن الحدودية حيث تلتقي اليابسة والماء[48].

Twitter: @ketab_n

مـع ذلك، لم تكن عوامل الجذب للبيئـات الانتقالية فقط مادية. فعلى ما يبدو أن الأماكـن التي تختلط فيها اليابسـة بالماء كانت منذ زمـن مصدرا ومحفزا رمزيا للتطـور الثقافي. لم تكن هناك فقط أعداد هائلة من الأرواح المقدسـة والآلهة التي يمكـن الالتقاء بها، ولكن كذلك القدرة على الوصول إلى عوالم أخرى، حيث يسـكن الأسـلاف الموتى. إن الطبيعـة التحويلية للماء، والتي تنعكـس إلى الآن في الطقوس الحديثـة للتعميد، كانت مفهومة عالميا. فالسـواحل لطالمـا كانت مواقع لطقوس العبور. فالممرات الخشـبية المذهلة التي اكتشفت حديثا في المستنقعات الساحلية الأوروبيـة تُرى الآن على أنها كانت لها قيمـة رمزية أكثر منها عملية. فمثل أرصفة الموانئ والممرات التي تشـبهها، كانت هذه الممرات الخشبية تيسر وصول أناس ما قبـل التاريخ إلى العـوالم المائية، ليس من أجل المتعة في هـذه الحالة، بل للتواصل مع الموتى. فكل نذور الأضحيات والأشياء المدفونة التي وُجدت في مثل تلك الأماكن كـوادي ويثام في إنجلترا تترك أقل الشـكوك حول التوالد الثقـافي في الأماكن حيث تلتقي اليابسة والماء. كانت المستنقعات من أول التضاريس التي جرى تعلم ثقافتها، حيـث تحولت عن طريق أداء الطقوس من طبيعة غير متميزة إلى أماكن مقدسـة مشـهودة. فمنذ بداية الزمن، لم تنتج البيئـات الانتقالية فقط حياة جيدة بل حياة لها معنى كذلك[49].

مـا هو مؤكد هو أن جنس الحافـة البشري قد تمتع بوفرة من الموارد، الثقافية كما المادية، والتي لم تتمتع بها الشعوب الأخرى. هؤلاء الأوروبيون الشماليون الذين احتلوا الأراضي المرتفعة التي تدعى terps، والواقعة على سـواحل بحر الشـمال كانوا يرعون الأغنام والماشـية، وكانوا قادرين على تبادل القمح مع سـكان اليابسـة الداخليين. كان يقال إن «حياة terp كانت حياة جيدة على الأغلب، حيث إن كثافة الاسـتيطان كانت أكثر من ضعف تلـك المعروفة للأراضي الترابية الداخليـة». كان هؤلاء أقصى الكائنات الآكلـة للحيوان والنبات، يقطعون خط المد ليشـبعوا حاجتهـم من البروتين، متحركين باتجـاه الأراضي الداخلية للحصول على الكاربوهيدرات الضرورية، مشـتغلين بالتجارة عبر المسـافات الطويلة للحصول على الكماليات والضروريات التي لم تكن سهلة المنال. سـيكون من الخطأ الاعتقاد أنه لم يكد الصيادون الرحل يسـتقرون على الشاطئ حتى أداروا ظهورهم إلى اليابسة. على العكس تماما، فالأدلة تشير إلى أنهم كانوا يؤدون رحلات

Twitter: @ketab_n

موسمية إلى الأراضي الداخلية للصيد والجمع. كانت الشعوب الأصلية للساحل الشمالي الغــربي في كنــدا تحيك الثياب من شــعر الماعز الجبلي، فيما كانت شــعوب الجوماش Chumash لجــزر القنــال Channel Islands جنوب كاليفورنيــا متصلين عبر التجارة بجماعــات تبعد مئات الأميــال في الأراضي الداخلية. لاحقا، وبتشــجيع من تجار الفرو الأوروبيين، مددت الشــعوب الســاحلية الشرقية والغربية للعالم الجديد مدى ومواسم نشاط صيدهم، موسعين بالتالي حجم بيئاتهم الانتقالية[50].

قبــل أن يصبحــوا ماهرين في الصيد البحري بزمن، كان الصيادون الرحل ســاحليين مهرة يسافرون على طول الساحل بحثا عن الموارد. أسهم ذلك بشدة في انتشارهم حول العــالم، لكنه قاد كذلك إلى إنشــاء القواعد البحرية التي منها كانــوا ينطلقون يوميا أو موســميا، عائدين بمؤن تكفي المجتمعات تلك على مدار الســنة، وتوفر فوائض للتجارة مع مجتمعات ســاحلية أو داخلية أخرى. كان هــؤلاء روادا كذلك في التبادل والتواصل عبر المســافات وذلك قبل ظهور طبقة التجار المتخصصة بزمــن طويل. كونهم يعملون مــن دون نظام نقــدي، كان هؤلاء ماهريــن في المحافظة على التبادل طويل المســافة. وكونهم معتادين على التعامل مع الغرباء، كانت الشعوب الساحلية لشمال أمريكا، مثل نظرائهم حول العالم، ليسوا فقط مستعدين بل متحمسون لإدخال الأوروبيين في شبكات تجارتهم وذلك عندما ضل هؤلاء الطريق إلى عالم الساحليين منذ قرون مضت[51].

سافرت الشعوب الســاحلية الأولية بخفة. فصناعة القوارب والطوف تبدو أنها واحدة من أقدم الإنجازات التكنولوجية البشرية، حيث لن توفر المواصلات الأرضية أي مميزات عن تلك المائية قبل الوصول إلى القرن التاســع عشر، فالحركة السريعة التــي نعــرف أنها كانت موجودة على الســواحل لم تكن لتكافئها أي وســيلة تنقل أرضية. بكل تأكيد، كانت نسبة التغيير على السواحل أعظم بكثير من أي تغيير يمكن تخيله في الأراضي الداخلية. فمعدلات التطوير التي حدثت على امتداد الساحل منذ 100 ألف ســنة ق. م تبدو أنها تجاوزت أي شيء حدث مسبقا، وذلك جزئيا بسبب المعدلات المرتفعة للتنوع الثقافي والذي أثبت أنه كان عاملا محفزا على تبادل الآراء. فكــما نعرف الآن من الدراســات الحالية للحدود البيئية، هــذه الحدود في الأغلب ســتكون كذلك حدودا ثقافية، حيث ستكون نسب التبادل في أعلاها والتغيير أكثره حدوثا وتكرارا[52].

Twitter: @ketab_n

يؤرخ علــماء الآثار بداية الإبداع الإنســاني مع صناعة النصــل الحجري وذلك تقريبا منذ 200 ألف سنة مضت. لحقت ذلك صناعة حجر الرحى والطرف المدبب بسرعــة كبيرة، بيــد أن التقدم الأعظم اللاحق كان في جمــع المحار والذي بدأ منذ 140 ألف ســنة مضت، متبوعــا بسرعة كبيرة بالتبادل عبر المســافات الطويلة. إن أول عبور للبحر لجنس الإنسان العاقل إلى أستراليا يؤرخ حدوثه منذ 40 ألف سنة مضت، بيد أنه اكتُشــف الآن أن نوعا آخر من hominids، وهم الإنســان القائم، كانوا يرتحلون في البحر المتوســط منذ وقت مبكر في حدود 130 ألف سنة مضت. تشــير الاكتشــافات الأخيرة التي تمت على السواحل الجنوبية لجزيرة كريت إلى أن الشعب الذي ينتمي إلى ثقافة أتشــيوليان (Acheulean) في الشمال الأفريقي قد وصلوا إلى الجزيرة بمســاعدة أدواتهم الحجرية، والتــي جرى حفظها في مرتفعات بلاكيــاس (Plakias) الصاعدة. في مناطق أخرى، تؤرخ صناعة الســنانير العظامية والحراب لنحو 100 ألف ســنة مضت، ثم تبعها على وجه الاحتمال الصيد البحري وفق التسلسل المتوقع[53].

إضافــة إلى ذلك كلــه، هناك عامــلان في مصلحة جنس الحافــة وهما التكيف والمرونة. لربما تحســن هذان العامــلان بوجود المجموعات ذات النطاق الضيق من الصياديــن الرحل البحريين، معظمهم لا يزيــد على كونه عائلة ممتدة، غير معرضة لأي تدرج طبقي داخلي أو ســيطرة خارجية. لا يوجد ســوى أقل القليل من الدلائل على وجود تقسيم طبقي قبل اختراع الزراعة الداخلية. العلاقات بين الرجال والنساء، وبين المجموعات العمرية المختلفة، كانت تبدو غاية في المرونة، حيث خط النســل الأمومي كان في أقل الأحوال يبدو شــائعا كما خط النســل الأبوي. فحيث مارســت المجتمعات جمع المحار، كان لكل من الصغار والكبار أن يقدموا مساهماتهم للخير العــام. على طول الحــدود الأرضية، التحكم في البيئــة كان يتطلب درجة أعلى من التعاون بين الشعوب الزراعية[54].

مما نعرفه من الاكتشــافات الأثرية الحديثة، كان الصيادون الرحل الساحليون يتمتعون بالوصف الشهير لمارشال ساهلينز «ثراء العصر الحجري»، وهو ثراء استفاد من الســبل الميسرة لنطاق واســع من الموارد التي كانت متوافرة بشكل أعظم مما هــي لأي موقــع جغرافي آخر. فبينما تكــون الأراضي الرطبة الســاحلية أو المجاورة

Twitter: @ketab_n

للبحـيرات ربمـا الأكثر تنوعا حيويا وإنتاجا بين كل مناطـق الأرض، بيد أنها تختلف في خصوبتها على نطاق واسـع. فالمستنقعات النباتية تقدم مصدرا للوقود لكنها غير خصبة. كما أنه ليس كل السـواحل غنية بالأغذية البحرية كما هي تلك السـواحل المعتدلة طقسـيا والمباركـة بالأمواج المتقلبـة Upwelling(*) أو التيارات المتتابعة، والتي توفر أفضل بيئة لكل أنواع الأحياء المائية. إنه من الواضح أن المياه الساحلية كانـت أكثر إنتاجا من المحيطات العميقة، حيث إن أغنى الأماكن بينها جميعا هي مناطـق تلاقي المد والجزر(**) المعتدلة طقسـيا وأماكن مصبـات الأنهار في البحار، التـي أنتجت ما يقرب من عشرة أضعاف الكتلة الحيوية للسـواحل في العموم. ما كانـت له أهمية خاصة في بدايـة الألفية الحالية هو المحار الذي كان يظهر مع كل جـزر. كانت الأفواه النهريـة مواقع مثالية، فهناك لم يكن على صيادي السـمك أن يلاحقوا الفريسـة، فقط كانوا يجهزون شـباكهم وسـياجهم للأسماك النهرية المولد التي تعيش في البحار كذلك والتي أتت بشـكل منتظم بمجرد أن استقرت الخطوط السـاحلية، وذلك بـين 6000 و4000 ق. م. كانت هذه العملية ملاحظة في كل من العالمـين القديم والجديد، وحيث التطـورات في خطوط العرض العليا لنصف الكرة الأرضية الشمالي كانت متشابهة بشكل لافت للنظر حول العالم. ففي كل من أمريكا الشـمالية وشمال غرب أوراسـيا كانت نهاية العصر الجليدي تحويلية، صانعة بيئة كان لها تأثير حاسم ليس فقط في السواحل بحد ذاتها بل في الدواخل القارية كذلك. في هذه الأجزاء من العالم، ليس من المبالغ فيه القول إنه على مدى آلاف السـنوات تكونت حياة جديدة عن طريق كل من اليابسة والبحر[55].

وفرت السـواحل في كل مكان تنوعا حيويا عظيما. كانت السـواحل الشـمالية مواطـن طبيعية ليس فقط للمحار ولكن كذلـك لعدد متنوع من النباتات (اللفت البحـري، الملفوف البحـري، الطحالب البحرية) الغنية بالمـواد المعدنية مثل اليود الذي، بالإضافة إلى الزيوت السـمكية، قد حسن النظام الغذائي والصحة العامة بين البشر. كانت الشـواطئ حيث توالدت حيوانات الفقمة والألفظ هبات إضافية من

(*) مصطلح يشير إلى ظاهرة محيطية تسبب من خلالها الرياح تقليب الماء بحيث تصعد الطبقة الأبرد والأكثر كثافة والغنية بالمواد المعدنية إلى سطح الماء لتحل محل المياه الأدفأ والأقل غنى معدنيا. [المترجمة].

(**) Intertidal zones: تلك هي المناطق التي تصعد فوق الماء وقت الجزر وتنغمر بالماء وقت المد. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

البحر، بيد أن الأفضل بينها جميعا كانت هي الأراضي الرطبة الجاذبة ليس فقط للأسماك ولكن كذلك للحيوانات البرمائية، والحيوانات الأرضية، والطيور المهاجرة التي كانت عششها هبات إضافية. وحيث إنهم تكيفوا مع تنوع وموسمية البيئة الانتقالية حيث تلتقي اليابسة بالبحر، فإن هذه الشعوب الساحلية كانت أقل عرضة للمخاطر من هؤلاء الذين كانوا يعتمدون على مجال أضيق من الموارد. يقال إن الشعوب الأرضية الداخلية كانت تتحرك كذلك بحثا عن غذائها، بيد أن شعوب السواحل كانت لديهم رفاهية القدرة على الاستقرار في مكان واحد، حيث يتحركون خروجا عبر الماء ليجلبوا المؤن إلى حيث موقع سكناهم[56].

بكل تأكيد، كانت مستويات الاستهلاك لدى أجناس الحافة القدماء منخفضة بمقاييسنا، حيث كانت نسب أعمارهم أقل من نصف نسب أعمارنا. فإلى أن بدأوا بالاستقرار مع نهاية العصر الجليدي، كان هؤلاء يتحركون باستمرار حتى يستطيعوا جمع أي كمية من ذلك المقدار من الموارد الذي قد يشكل ثراء بالنسبة إلينا. في المقابل، لم يكن هؤلاء عرضة لأنواع الكوارث التي لطالما تركت آثارها على تاريخ الشعوب الزراعية. ربما لم يعرف هؤلاء معنى الرفاهية، لكنهم كذلك كانوا يعملون بمقدار أقل. فمن المقدر أن الصيادين الرحل البالغين كانوا قادرين على تأمين احتياجاتهم بجهد مبذول لمدة ما بين ست وسبع ساعات في اليوم، فيما احتاج المزارعون نحو تسع ساعات. في مجتمعات اليوم الصناعية، لاتزال ساعات العمل تدور في حدود ثماني ساعات، وهي ساعات أكثر إرهاقا ورتابة بكل تأكيد[57].

أولى الثقافات الساحلية

لقد وُجد مسبقا منذ خمسة عشر ألف سنة مضت ما وصفه جيمس ديكسون بأنه «نظام بيئي ساحلي بحري مستمر متداخل المد والجزر، يمتد بين شمال شرق آسيا وشمال غرب شمال أمريكا ثم أبعد جنوبا إلى نصف الكرة الأرضية الجنوبي». لقد وُجدت حافة الهادي قبل أن تكون هناك حافة الأطلنطي بكثير، وهو سبب جيد ليس فقط لمراجعة فكرتنا المتمحورة أوروبيا في أن التاريخ يتحرك من الشرق إلى الغرب ولكن كذلك للتساؤل عن مركزيته الأرضية. ففي بعض أكثر البيئات

Twitter: @ketab_n

وعورة لساحل أمريكا الشمالي الغربي القاسي، أعطت وفرة البيئات الانتقالية الغنية مـا دعاه الكنديون فرصة الأمـم الأولى في الحصول على «وقت لتطوير أعظم ثقافة فنيـة في العالم الحديـث». ففي زمن مـا، تخيل علماء الآثار تمـدد الحضارات من الداخل إلى الخـارج. الآن، أصبح بالإمكان رؤية عدة نقـاط للبداية، حيث الأماكن التي كانت تعتقد هامشية أصبحت تتخذ دورا رئيسيا في عملية التطور الإنساني[58].

على خطوط العرض الأكثر ارتفاعا للعالم القديم كما في العالم الحديث، «شجعت نوعية ووفـرة أنظمة الغذاء البحرية الزيادة المتتابعة في الأعداد السـكانية، وأدت إلى نوعية حياة أكثر اسـتقرارا». الآن، أصبحت نوعية الحياة المستقرة ممكنة، ليس فقط في أماكن مثل الشرق الأوسـط حيث سـتتطور الزراعة، ولكن كذلك على طول السـواحل نفسـها. فمنذ تقريبا سبعة آلاف سـنة مضت، بدأت مرحلة جديدة في تاريـخ جنسـنا، جنس الحافة. لم يعد هـؤلاء مجرد جموع من الفـرق المتنقلة بل أصبحـوا الآن مجموعة من المجتمعات المسـتقرة، غالبا على اتصال بعضهم ببعض، يتبادلـون البضائـع وكذلك الأفكار واللغـات. في هذه المرحلة يمكـن الحديث عن حضارات الشـاطئ، كل منها تتشـكل وفق سـاحلها المعين، لكنها تشترك جميعا في سمات شائعة محددة. فالأساليب القديمة للاستغلال واسع النطاق للموارد أدت إلى تكثيف الصيد والجمع على كلا طرفي خط المد. فالصيد بعيدا عن الشـاطئ، والذي كان يمارس على الأقل لمدة مائة ألف سـنة كمكمل لمصائد الشاطئ والتقاط المحار، بدأ الآن في البزوغ بوصفه نشـاطا رئيسـيا. فالدلائل تشـير إلى تطور تقني متزايد، من حيث نماذج جديدة لشـبكات الصيد وللطعم ولأنواع جديدة من القوارب أكثر صلاحية للإبحار عما كان متوافرا سابقا[59].

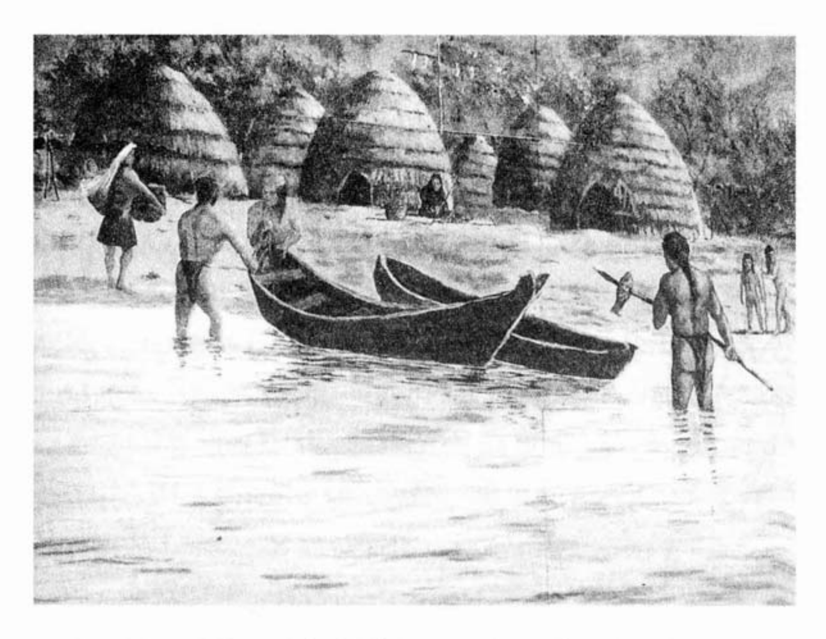
إن العائـد الغذائي للصيد عادة ما يكون أعلى من ذلك الذي يكون للزراعة، بيد أن عائد صيد السمك لايزال أعلى. فبوجود منفذ على كمية ثراء أعظم للبحر، ارتخت الموانع أمام النمو السـكاني وأصبحت العديد من المجتمعات الساحلية ليست فقط أكبر ولكن أكثر تعقيدا بدرجة كبيرة. إن تجربة التشوماش Chumash الذين أسسوا أنفسهم على الجزر في حدود 7500 ق. م فيما يعرف لنا اليوم باسم قناة سانتا باربارا قد جرى توثيقها بتفاصيل دقيقة. لكونهم شـعبا انجذب من الداخل وإلى الساحل، هم الآن وجدوا أن الجزر توفر لهم منافذ أفضل بكثير للأسماك، بكلا نوعيها المحلية

Twitter: @ketab_n

والمهاجـرة. اختبر هؤلاء انفجارا إبداعيا في صنع معــدات الصيد والقوارب، والذي، بحلول العام 1500 ق. م.، شمل الزوارق الخشبية. إن درجة التعاون التي استلزمها صيد الســمك شــجعت تطور فكرة الهرمية، التي عادة ما تكون ذكورية السيطرة، والتــي جرى ربطها بالصيــد منذ ذلك الوقت. إن جمع المحار وغيره من الأنشــطة المتصلة بالقرب من الشــاطئ لم تفقد أهميتها الماديــة، ولكن عندما أصبحت هذه الأنشــطة ميادين للنساء، والأطفال، وكبار الســن، تقلصت مرتبتهم بشدة. فالصيد شــجع حيــاة متجذرة في مكان واحد، ومعها فهم جديــد لفكرة المنطقة، ما أدى في النهاية إلى الشــعور بأحقيــة التملك لأجزاء غنية بالموارد من الســاحل. وبينما كان من النادر التعبير عن الوضع بأســلوب التملك هذا، فإن مفهوم استملاك البحر بدأ بالظهــور، مــا أدى إلى التنافس والخصومة، بل حتى الحــروب حول المياه المتنافس عليها. غير أن صيد الســمك شــجع كذلك التخصص وتطوير التجارة في السمك مع مجتمعات اليابسة، والتي وفرت الطعام في المقابل[60].

كان ذلك هو الواقع في شــمال أوروبا كذلك. بدأت الزراعة في الأقاليم الداخلية للشرق الأوســط، بيد أنها وصلت إلى منطقة المتوســط عبر البحر، حيث اســتقرت أولا عــلى جزر إيجة قبل أن تتحــول إلى الأراضي الإغريقية، ثــم انتقلت أخيرا على طول الطرق الســاحلية الأطلنطية التي أسسها الصيادون الرحل البحريون لتصل إلى شــمال أوروبا بعــد 7000 ق. م. وكما قال باري كنليف «لقــد كان هو البحر الذي حدد السرعة». اتخذت الزراعة جذورها أولا عند مصبات الأنهار على طول الساحل الأيبــيري، متنقلة بتدرج فقــط إلى الأراضي الداخلية على طول الأنهار. ففي المنطقة التي تعرف على أنها هولندا اليوم، لم يبدأ تأهيل الأراضي الرطبة حتى تقريبا خمسة آلاف ســنة مضت. كان الناس هناك شــبه زراعيين، مركزيــن جهودهم على تزاوج العمــل بين الخنازير والماشــية. كان عالمهم يوصف بأنه «عالم ميــاه، مياه متنوعة، مقســمة بخطوط الضفاف المرتفعــة الملتوية التي كانت تتبــع الأنهار والجداول». أظهرت المناطق الداخلية تأثير جيرانهم الســاحليين. إن تدوير محار البحر عميقا في الأراضي الداخلية يشير، بالنسبة إلى باري كنليف، إلى السيطرة التي كانت للبحر على الشعوب الزراعية الأوروبية القديمة، التي كانت جذورهم تمتد إليه[61].

Twitter: @ketab_n



رسمة جدارية تبين قرية صيد تشيوماشية للفنان الكبير روبرت توماس، تصوير ديفيد جي. ماكلولين، الصورة من مركز إرسالية موارد كاليفورنيا.

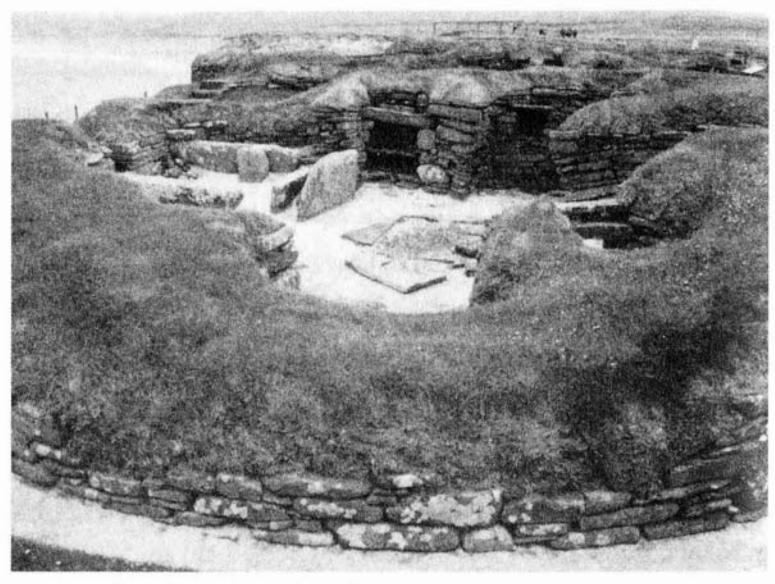
سفح سكارا

تقع جزر أوركني Orkney Islands شمال أسكتلندا، وهو مكان شديد العرضة للرياح العاتية القادمة من بحر الشــمال، حتى إن هــذه الجزر لم تتمكن من دعم الغابات على أرضها. إلى اليوم، هو مكان لا يرجح أن تكون فيه أي حضارة ، بيد أنه عُثر على دلائل هناك تشـير إلى ثقافة مزدهرة سـبقت الستونهنج Stonehenge(*) والأهرامات في مصر. إن طبيعة أوركني زاخرة بحجرات القبور التي تعود إلى العصر الحجـري، ودوائــر للصخور المنتصبة، وأقــدم بيت أوروبي عرفتــه البشرية، Knap of Howar، عــلى جزيرة بابا ويســتراي Papa Westray. بيــد أن أكثر البقايا إثارة للإعجاب ســفح سكارا، وهو قرية محمية من العصر الحجري، والتي تزودنا بأفضل

(*) موقع تاريخي في ولتشــاير، بإنجلترا. الســتونهنج هو أحد أشهر المواقع التاريخية في العالم، ويتكون من عدد من الصخور العملاقة المصفوفة بشــكل دائري. ليســت هناك معلومة مؤكدة عن وظيفة الموقع، بيد أن هناك عددا من التكهنات حول كونه ساعة طبيعية، وتقويما شمسيا، أو مجرد ملتقى لكبار الجماعة الساكنة للموقع. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

لمحـات لمجتمع أطلنطي مكتمل التطور وُجد منذ خمسـة آلاف سـنة مضت. منذ العـام 1999، كان المكان، وعن اسـتحقاق، موقعا أثريا عالميـا، وحالة نادرة لتمييز مساهمة الساحل في التطور الإنساني.



قرية سفح سكارا المكتشفة من العصر الحجري، أوركاني، أسكتلندا. (التصوير للمؤلف)

بُنيت قرية سـفح سـكارا على مرحلتين، حيث بدأ العمل بها من 3100 ق. م، ثـم هُجـرت في 2500 ق. م. إن التجمع المتراص لعشرة بيـوت حجرية مرئية اليوم هي الآن على حدود خليج سـكايل Bay of Skaill على السـاحل الغربي لأكبر جزر أوركني والمعروفة باسـم ماينلاند Mainland. عندما بنيت القرية في البداية كانت متراجعة كثيرا عن البحر، ومحاطة بالمروج وبمنفذ لبحيرة مياه عذبة. عرف سـكانها الأصليون من العصر الحجري، والذين في الأغلب جاءوا عبر لسـان بينتلاند البحري Pentland Firth مـن الأراضي الأسـكتلندية، وذلك في الأغلب على الطوف، جالبين معهـم الماشـية، والخنازير، والخـراف، عرف هؤلاء كيف يزرعون الشـعير والقمح بيـد أنهم احتفظوا كذلك بمهارات أجدادهم في الصيد البري وصيد السـمك وجمع النباتـات. في البداية، غالبا ما تنقلوا من مـكان إلى آخر، متوقفين لمدة زمنية كافية

Twitter: @ketab_n

لتكوين تلال كبيرة من العظام، والصدف والفضلات. لاحقا، سَتُغمر بيوتهم الحجرية قوية الصنع أسـفل هذه التلال، حيث زودهم ذلـك بالحماية من الرياح والطقس وقدم لنـا معلومات لا تقدر بثمن حـول نظامهم الغذائي وطريقـة حياتهم. نحن نعرف أن لحوم حيواناتهم الداجنة كانت مُكملة بأنواع من قشريات البحر، وسمك القد، وسمك السـيث saithe، وكذلك الحيتان التي ترسو على الشاطئ بشكل عابر وغيرها من ثدييات البحر.

اسـتضاف سفح سـكارا مجموعة لا تزيد على 50 شخصا، والذين يبدو أنهم عاشـوا في مجموعات عائلية صغيرة، متسـاوين نسـبيا في المكانة. لم يكن هناك منزل أكبر من غيره. كل منزل كان معدا بالأثاث الحجري، والذي كان يشمل أسرة صندوقية، وخزائـن، وموقدا مركزيا، وأحواضا حجرية تسـتخدم لتنعيم صدف البطلينوس الذي كان يستخدم طعما للسمك. وعلى ما يبدو، فإن مساكنهم شبه المدفونة كانت مجهزة بقنوات صرف لإزالة النفايات الإنسانية. كان لديهم فخار، وأدوات حجرية (والتي تشـمل سكاكين سكايل الشهيرة[*])، وحليا مصنوعة من الأحجار أو العظام. كان شـعبا يمتلك وقت فراغ كافيا ليطور حياة ثقافية رفيعة. يشـير النحت إلى نشاط رمزي عالي المسـتوى، يقترب من الكتابة. كما أن وجود الصبغة الحمراء الشـبيهة بتلـك التي وُجدت في بيناكل بوينت تشـير إلى ذوق مشـابه في تلوين الجسـد. إن الأدلة على وجود غرف مقابر في كل أنحاء أوركاني تشـير إلى جهود مبذولة للتواصل مع الأسلاف وكذلك، ومن خلالهم، التواصل مع عالم الأرواح. إن العديد من المقابر المصنوعة على شكل غرف قد بنيت على قمم مرتفعات حيث تشـبه كثيرا بيوت الأحياء. وقد كان المكان حيث تلتقي اليابسة بالمـاء ومنذ البداية يعتبر مكانا مقدسـا، حيث الحياة والمـوت يندمجان كما لم يحدث في أي مكان آخر[62].

إن حالـة الحفظ الرائعة لسـفح سـكارا توعز إلى حقيقة أنـه لأكثر من أربعة آلاف سـنة كان الموقع مهجورا ومملوءا بالرمـال، ربما نتيجة لواحدة من العواصف العملاقـة المألوفة في المنطقة. لم يُكشـف عـن المنطقة إلا في العـام 1850، عندما كشـفت ريـاح عظيمة أخرى أجزاء منهـا لمالك الأرض المحلي، والـذي تصادف أن

(*) مأخوذة عن خليج سكايل Bay of Skaill. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

كان عـــالم آثار هاويا. لقد أصابت الموقــع أضرار كثيرة قبل أن يقع تحت عناية عالم الآثار الشــهير في. جوردن تشـــايلد في العام 1928. لقد فهم هذا العالم مباشرة سبب انجــذاب الأوركاديين الأوائل لهذا الموقع، وذلك على الرغم من كونه عرضة لظروف بحر الشـــمال القاســية. إن البيئة الانتقالية بجانب «الخليج المحمي رمليا ومنطقته النائية الغنية والمعشوشــبة (كانت) جاذبة لصياد الســمك، وراعي الغنم، والمزارع على حد ســواء». فبتحديد أولا موقع تلالهم، ولاحقا موقع قريتهم المتراجعة بمسافة عن الشـــاطئ، ضمن هؤلاء لأنفسهم ما يقترب من 700 سنة لا بد أنها كانت حافلة بالسلام والوفرة. لم يُعْثر على أي أسلحة في سفح سكارا، ولا توجد أي أدلة على وجود مجاعة أو مرض وبائي. وكما أوضح تشـــايلد، فإن شعب سفح سكارا ترك تراثا فكريا حــول طرق الحصول على الغذاء والعمارة المنزليــة والتي لايزال من الممكن العثور عليها في هذه الجزر. إن المنازل التي تدعى المســاكن الســوداء التي كان يســكنها المزارعون صيادو سمك جزيرة، وذلك حتى وقت متقدم من القرن العشرين، كانت مبنية بطريقة شــبيهة بمســاكن العصر الحجري. لم تعد الأسرة مصنوعة من الحجر، بيد أنها كانت توضع على أي من جانبي المدخل كما كانت منذ خمســة آلاف ســنة مضت. ليس هناك من مديح أعظم من التقليد، حيث إن اســتمرارية هذه وغيرها من الحضارات الســاحلية تعتبر إعجازا حقيقيا عنــد مقارنتها بالمجتمعات الأرضية الداخلية والمعتمدة على نظام بيئي أوحد[63].

إن الحجم الصغير لهذه المجموعة منعها من استنزاف بيئتها الانتقالية. الزراعة، والرعي، وصيد السمك وجمع النباتات كلها قد كملت بعضها البعض بشكل مثالي، مانعة أي حاجة إلى التخصص أو للتقســيم الطبقي. ولكن مع مرور الوقت، تراكم الفوائد أدى إلى عملية التبادل مع مجموعات أركيدية أخرى من العصر الحجري. بــدأت المقاييس الزمنية والمكانية لجنس الحافة الأركيدي بالاتســاع، كما اتســع كذلك تطورهــم الثقافي. وأدت الحاجة إلى شركاء الــزواج في الأغلب إلى تحالفات مع قرى أخرى من العصر الحجري، ومع مرور الزمن، دخل هؤلاء في مشاريع بناء مشتركة، مثل مشروعي الأحجار المنتصبة في دائرة برودجار Ring of Brodgar[*]

(*) تقــع الدائــرة في غرب مينلاند، وهي مكونة من أحجار ضخمة ملتفة في دائــرة حقيقية قطرها يبلغ 104 أمتار تقريبا. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

والغرفــة العظيمة في ميس هاوي (Maes Howe)(*). ربما ســببت هذه العلاقات أخيرا ترك ســفح ســكارا بذاته، لكنها صنعت ثقافة جزيــرة مزدهرة متصلة بعالم يتسع باستمرار[64].

حتى منذ خمســة آلاف ســنة مضت، كان الأوركيديون معززيــن بموارد عوالم خارجيــة والتي لم يكن من المحتمــل أبدا أنهم يعلمون بوجودهــا. فمن المعروف أن الأخشــاب الطافية القادمة من الغابات الشاسعة لشمال أمريكا تجرفها الأمواج إلى الســواحل الأوروبية، حيث تزودهم بالوقود وبخشــب الأســقف التي لا يمكن لجزيرتهم معدومة الأشجار أن توفرها. لقد رأينا كيف أن، المرة تلو المرة، هذا البحر الــذي بدا معــزولا جدا قد أثبت أنه معطاء إلى درجة كبيرة عندما فشــلت في ذلك مــوارد الأرض الداخلية. لقد كانت الســواحل أول جنة عــدن للبشرية. لقد جاءت البســاتين المغلقة أرضيــا في مرحلة لاحقة بعيدة، فبدايــة، الزراعة، والصيد، وجمع النباتات كانت كلها أنشــطة لا ينفصل بعضها عن بعــض. لقد هجر البشر البيئات الانتقاليــة من أجل المجتمعات الأحادية ببــطء وتردد. فحتى في زمن متأخر وصولا إلى 1500 ميلادي كان 15 في المائة من ســكان الأرض لايزالون صيادين رحلا. لم يكن المزارعون هم أســلافنا بل كانــوا أبناء هؤلاء الذين وضعــوا بصمتهم الخضراء على الساحل أو على طول المجاري المائية. يذكرنا سفح سكارا مرة أخرى، كما يقول روان جاكوبســن، «إننا مخلوقون من أجل وخلقنا بواسطة هذا العالم الرفيع حيث تلتقي الأرض بالبحر»[65].

(*) أحد أكبر المقابر في أوركاني، تقع أسفل تلة يمكن رؤيتها من مسافات بعيدة. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

2

سواحل البحّار القديم

« نعيش حول البحر مثل النمل
أو الضفادع حول مستنقع».

سقراط في محاورة فيدون لأفلاطون[1]

انطلق أفراد الإنسان العاقل Homo sapiens في رحلتهم الملحمية من سواحل أفريقيا، سائرين على طول سـواحل الجزيـرة العربية والهند قبل أن يتوزعوا ليملأوا بقية العالم. وللخمسـين ألف سـنة التي تلت، حتى أكثر البحـارة إقداما نادرا مـا أبحـروا بعيدا عن مرأى اليابسـة. بالنسـبة إلى الإغريـق القدمـاء، كان المتوسـط أقرب إلى أن يكـون بركة أكثر منه محيطـا. وصف فيرناند برودل شـعوبه بأنهـم «يتحركـون مثل سرطان البحـر من صخـرة إلى صخرة»، مـن جزيرة إلى جزيرة، ومن شـبه جزيرة إلى شبه جزيرة. أسمى الإيطاليون هذه الحركة costeggiare، في حين أن الإنجليز يعرفونها بأنها coasting، أما بالنسبة إلى البرتغاليين فهـي cabotage. حتى بعد أن جرى

«كان الإغريق مستقرين مع الساحل ولكنهم مترددون تجاه البحر»

Twitter: @ketab_n

عبور المحيطات، استمرت معظم السفن في احتضانها للسواحل، غير أن هذه الرحلات لم تحز سـوى أقل القليل من انتباه المؤرخين البحريين، والمهووسـين بالداخل البحري العميق، وبأساطيل المياه الزرقاء عوضا عن سفن المياه البنية الأكثر وفرة[2].

إن جذورنا موجودة مع ما أسمته راتشيل كارسون «الأم العظيمة للحياة، البحر»، غـير أن تاريخنا اللاحق كان أكـثر برمائية من كونه مائيا. لقد تطورنا كبشر على طول الساحل عوضا عن الداخل البعيد عن الساحل، فالموطن الحقيقي للبشرية هو حيث تلتقي اليابسـة والماء، موضـع ولادة الحضارة. في العادة، نحـن نربط هذه الحضارة بتطور الزراعة في الشرق الأوسـط والهند منذ 10 آلاف سـنة مضت، بيد أن الأبحاث الحديثة تشـير إلى أن شـعوب العصر الحجـري كانوا يزرعـون المحاصيل ويزاوجون الحيوانـات منذ وقت أقدم بكثـير، وغالبا في أماكن حيث المزيج من اليابسـة والماء يقدم أعظم إنتاج بأقل الجهود. وكما اتضح، فإن الرعي في البرية والزراعة كانا لا يمكن تمييز كل منهما عن الآخر لمدة ألف عام قبل وبعد ما يسمى بالثورة الزراعية. إضافة إلى ذلك، فإن ما عرفها فيليب فيرنانديز - أرميسـتو صوابا على أنها حضارات الساحل seaboard civilizations قد تطورت باسـتقلالية عن الحضارات الداخلية. إن تطور هذه الحضارات لايزال موضوعا تاريخيا وجغرافيا مهملا بشكل غريب[3].

نسـتعمل نحن وبسـهولة مصطلح حضـارة civilization لوصـف أراض مثل مصر، والصين، وبلاد الرافدين لكننا نتردد وبشـكل غريب لنضفيها على شـعب مثل الفينيقيين، والإسـكندنافيين، والسواحيليين، أو أي من الشعوب الساحلية أو شعوب الجزر الأقل شـهرة، والتي تشـمل الأليوتيـين Aleuts، والملاكائيـين Malaccans، والكاريبيـين Caribs، والتونغانيين Tongans، والذين هم مؤهلون تماما لأن يدعوا حضاريين كما هم جيرانهم في الأراضي الداخلية. فمجتمعات الساحل كانت مختلفة عن جيرانهم من مجتمعات اليابسة المغلقة، غير أنهم لم يكونوا أدنى منهم مطلقا في إنجازاتهم الاقتصادية وكذلك الثقافية على حد السـواء. إن ما يميز هؤلاء ويجب أن يضعهم موضع اهتمام عظيم هو ظروفهم البيئية على حافة اليابسـة والماء. كونهم ليسـوا زراعيين حصريا، هم ليسـوا بحريين تماما كذلك. بالأحـرى، هم يعبرون عن قـدرة برمائية amphibiousness، وهي القدرة على اسـتغلال كلا طرفي خط المد، للعيش ليس فقط بجانب البحر ولكن كذلك مع البحر في علاقة مستقرة[4].

Twitter: @ketab_n

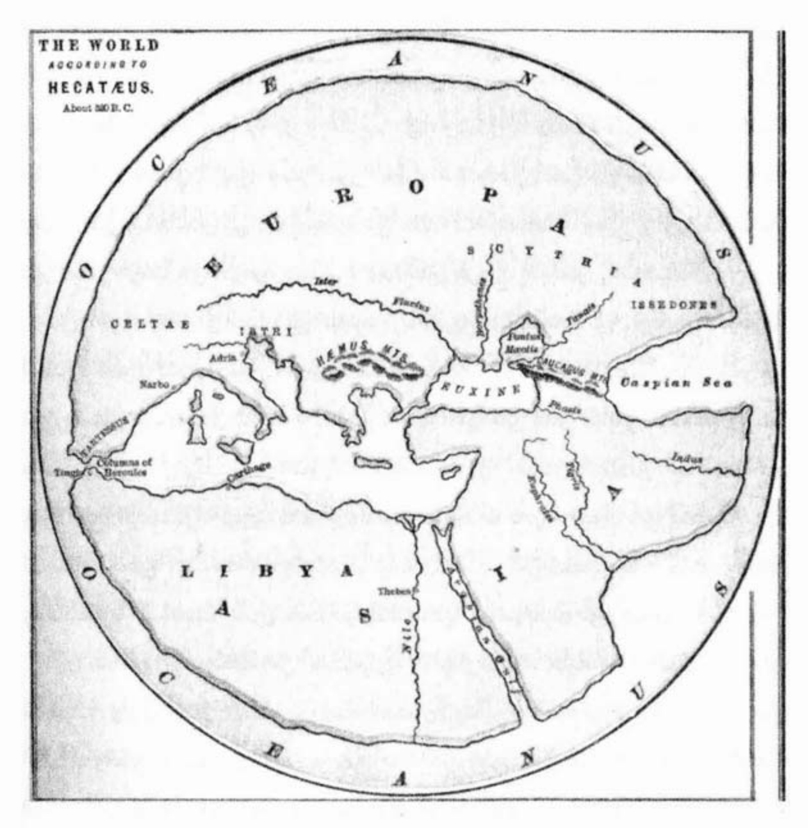
لقد بزغت حضارات السـاحل عن مجتمعات الصيادين الرحل البحريين وهي الحضارات التي أهلت كل جزء من العالم في نهاية آخر عصر جليدي عظيم. تطورت هذه الحضارات ببطء وهدوء، تاركة خلفها القليل من النصب التذكارية والسجلات المكتوبـة التي جعلت دراسـة الحضارات الأرضية أكثر سـهولة. بيـد أننا، والفضل لمصادر علم الآثار، نعرف، الآن، أن الشعوب التي احتلت بيئات انتقالية بحرية كان لديها منفذ لمصادر ثقافية ومادية غنية، والتي سـمحت لهم بتبني وجود مسـتقر أسرع بكثير مما فعل الصيادون الرحل في الأراضي الداخلية. لقد سـمحت السواحل للشـعوب بأن تنمي وتطـور علاقات اقتصادية واجتماعية أكثر تعقيدا، بما يشـمل التجارة على امتداد السـواحل وبالقرب منها. وكما رأينا مسبقا، كان الساحل محفزا على التطور الثقافي الثمين. ومع مرور الوقت، ستتحصل السواحل كذلك على سلطة وغنى كبيرين، ما أدى إلى تكون ما يدعى Thalassocracies، وهي الدول المحكومة عبر البحر عوضا عن الأرض، بسيطرة تمتد أكثر من أي إمبراطورية أرضية[5].

في الغرب، بدءا من الفينيقيين، متبوعين بالإغريق، والإسكندنافيين، والقوات البحرية الحديثة الأولى لشـمال غرب أوروبا، أنشأت شعوب الساحل مقاطعات ومستعمرات تجارية على السـواحل البعيدة، لتنسخ نفسها أخيرا على مدى مناطق متسعة. وبينما مال المؤرخون إلى ربط الإمبراطوريات باليابسـة، فإن أعظم الإمبراطوريات مسـاحة في التاريخ الإنسـاني، الهولندية والبريطانية، قد ولدت بحريا. اليوم، آخر أعظم الدول المحكومة بحريا thalassocracies، الولايات المتحدة، لاتزال تسـتخدم قواعد جزرها ومقاطعاتها الساحلية لتأمين مصالحها الاقتصادية والسياسية حول العالم.

إن هناك درجة مذهلة من اسـتمرارية الحضارات الساحلية خلال الـ15 ألف سنة الماضيـة، ولربما أقدم كذلـك. إن هذه الحضارات هي الحلقـة المفقودة في سرد تاريخ العـالم، والذي اسـتمر في كونه منغلقا أرضيا لفترة أطول مما يجب. إن مسـتقر البحار القديم كان غالبا المياه البنية عوضا عن المياه الزرقاء، لكن حتى عندما كانت الأنشـطة السـاحلية مؤمنة عبر الارتحال عـبر المحيطات، كما كان الوضـع في البداية في المحيط الهنـدي وبعـد ذلك في الهادي ولاحقـا في الأطلنطي، فإن الجزء الأعظم من الأنشـطة البحريـة ظـل أكثر قربا من الشـاطئ منه في عمـق البحر. تخيل الجغـرافي الإغريقي هيكاتيوس اليابسـة أنها جزيرة عظيمـة، Orbis Terrarum (العالم)، محاطة بنهر لا

Twitter: @ketab_n

يمكــن عبــوره، Oceanus (محيط)، حيث كان لهذه الرؤية أن تســيطر على الجغرافيا حتــى القرن الخامس عشر. وكــما أوضح الإدريسي، الجغرافي الإســلامي العظيم للقرن الثاني عشر: «لا أحد يعرف ما يقع خلف البحر... بســبب المصاعب التي تعيق الإبحار، وعمق الظلام، وارتفاع الأمواج، وعنف الرياح... لا يجرؤ بحار على قطع أو اختراق البحر المفتوح. يكتفي هؤلاء بالسواحل». وحتى اليوم لاتزال معظم الأنشطة البحرية مكثفة على طول خطوط السواحل[6].



العالم كما صوره هيكاتيوس، 500 ق. م.

غير أنه لا يوجد ساحل يشبه آخر. تختلف السواحل جيولوجيا، وبيولوجيا، وجويا، وفي مجموعــة أخرى من الصفات. يمكن أن يكون لأي ســاحل تنوع كبير في المناخات المحليــة والبيئات والتي تجعل التعميم صعبا جدا. كما أنه لا يوجد شــعب ســاحلي

Twitter: @ketab_n

يشــبه الآخر تماما، ليس فقط بســبب الظروف المختلفة التــي يحيون فيها بل كذلك بسبب تنوع القدرات على التكيف والتي يتمكن منها البشر. لكل شعب ساحلي بناء اجتماعــي وثقافة مختلفان. إن تركيزي هنا هو على الثقافة الســاحلية المتميزة التي تطورت في أوروبا بداية من البحر المتوســط، بل وحتى أُبرز المميزات الخاصة، سأبدأ من سواحل بحرين مختلفين تماما، المحيط الهندي والمحيط الهادي.

الساحل الأقدم: المحيط الهندي

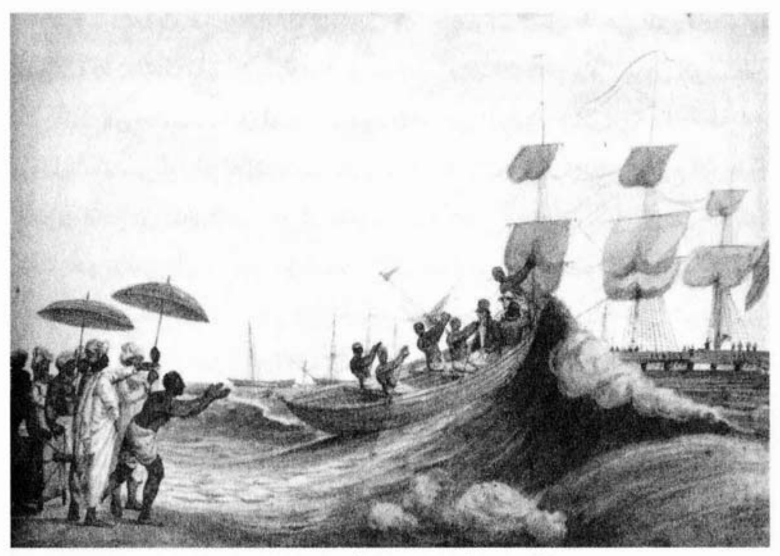
عندما نتحدث عن حضارات الساحل، فإن حضارات المتوسط هي التي تحضر في عقولنــا ذات المركزية الأوروبية أولا. في خرائط العالم القديم وعالم القرون الوســطى التي أتت من الغرب، يكون المتوسط هو دائما محور التركيز، حيث إن معالجة فيرناند برودل الكلاســيكية له لطالما كانت هي المثال لكل المعالجات الجغرافية والتاريخية الأخرى لأحواض المحيطات. غير أن المتوســط حجمه صغير قياسا بالمقاييس العالمية وليس هو الأقدم بأي شــكل بين البحار الســبعة التي يمكــن جوبها. إن هذا الشرف يوعز إلى المحيط الهندي، وهو ثالث أضخم جســم مائي في العالم، والذي عبره البشر لمدة خمســة آلاف عام على الأقل، مقارنة بألفي ســنة للمحيط الهادي وخمســمائة ســنة قصار للمحيط الأطلنطي لمثل هذا العبور المســتمر. بالطبع، لا بد لنا من تمييز أن المحيطات لم تأخذ أشــكالها الحالية إلا منذ سبعة آلاف سنة مضت. عندما كانت البحــار منخفضــة بمقدار ثلاثمائة قدم عما هي عليــه الآن، كانت العديد من البحار أشبه بممرات مائية نهرية، يسهل عبورها على الطوف أو القوارب[7].

غــير أن المحيطات لا تحتــاج إلى أن تعبر حتى تكون مهمــة في تاريخ البشرية. لقد صنعنا أبطالا من الرحلات العابرة للمحيطات، متناسين الرحلات المذهلة الفذة التي أُنجزت على طول الساحل. إنها السواحل، وليست المياه المفتوحة، التي تشكل الخطــر الأكبر على البحارة، وهــي حقيقة ضاعت عند العديد مــن المعتادين على اليابســة، نحن نحتاج إلى أن نوجه انتباها أكثر إلى الأنشــطة الساحلية، والتي، حتى وقت قريب، شكلت القدر الأكبر من الحركة البحرية في العالم.

إذا ما ركزنا على حضارات السواحل، فإن ساحل المحيط الهندي يجب أن يكون نقطــة انطلاقنا، بداية من 125 ألف ســنة مضت عندما وصل الإنســان العاقل من

Twitter: @ketab_n

الداخل إلى ما يســمى الآن ســاحل إرتيريا. لربما ســتمر 75 ألف سنة أخرى قبل أن يعبر هؤلاء الأهالي الســاحليون الميــاه عند النهاية الجنوبيــة للبحر الأحمر. وبينما هــم يقطعون طريقهم إلى الهند وما بعدها، اســتمر هؤلاء في كونهم رحلا بحريين، يتحركون أفقيا على طول الساحل بحثا عن الموارد، ويتاجرون عبر المسافات القصيرة نســبيا. وقبل أن يصبح حوضا موحدا، كان المحيط الهندي عبارة عن مجموعة من البحــار غــير المترابطة - البحر الأحمــر، خليج البنغال، بحر العرب - كل بســواحله الخاصة وحضاراته الساحلية المميزة[8].



قارب سفينة يصل إلى الشاطئ، مدراس، الهند.
الصورة من المتحف الوطني البحري، لندن.

عندما بدأت تجارة المســافات البعيدة، كان ذلك شــكلا من أشكال النشاطات الســاحلية إلى حد كبير، والتي أُطلقت، على الرغم من ذلك، من الحضارات الزراعية العظيمة، حضارة بلاد الرافدين والحضارة المصرية، والتي تقع في الشــمال، غير أنها كانــت تبحث عن البضائــع المتوافرة عميقا باتجاه الجنوب في شرق أفريقيا وشــبه الجزيرة الهندية. كانت الهند بحد ذاتها مكتفية ذاتيا، غير أنها مســتعدة لاســتقبال هذه المبادرات. رحب الأفريقيون كذلك بالتجار من الشمال غير أنهم نادرا ما ركبوا

Twitter: @ketab_n

البحر بأنفسهم. بدأت التجارة عبر البحر الأحمر مبكرا منذ 5000 ق.م. كانت العلاقات بين بلاد الرافدين ووادي السند مؤمنة بحلول 3000 ق.م، وقد أدى تكثيف مثل هذه التجارة في الداخل الساحلي بالتجار إلى فك شفرة نظام الرياح بين 3000 و1000 ق.م، والذي أدى إلى تكوين أول ممرات منتظمة عابرة للمحيطات في العالم، بحيث تصبح الحركة عبرها بدلا من حول حوض المحيط الهندي[9].

أبحر البشر أولا في المحيط الهندي، غير أن ذلك لا يعني أن مجتمع المياه الزرقاء قد تطور هناك. بقيت كل من الهند وأفريقيا نظامين اقتصاديين زراعيين إلى زمن طويل، حيث كانت شعوبهم الساحلية أكثر ارتباطا باليابسة عن البحر. لم تظهر دولهم الداخلية أي اهتمام في إبراز سيطرتهم باتجاه البحر أو حتى في التحكم المباشر في التجارة الساحلية. كانت هذه الدول مكتفية بأن أجازت للشعوب الساحلية الربط بين اليابسة والماء، سامحة لهم بدرجة معينة من الاستقلالية الثقافية وكذلك السياسية والاقتصادية. إن الوحدة التي كانت للمحيط الهندي لم تكن مفروضة من الداخل لكنها «خُلقت عبر تحركات البشر، والعلاقات التي تتضمنها، والمسارات التي يتبعونها». عبر هذه المسارات أتت شعوب جديدة وأديان جديدة - البوذية، الهندوسية، اليانية، وأخيرا الإسلام - حيث انتشرت على طول السواحل بسهولة أكثر من اختراقها للداخل. اختلطت المعتقدات العالمية بسهولة مع الأديان المحلية، لتخلق في النهاية ثقافات ساحلية مميزة مثل السواحيلية في شرق أفريقيا. بعض هذه الثقافات كانت أكثر إبحارا من غيرها. فقد اعتبر الهندوس المحيط مصدر تلوث، حيث لم تكن طبقاتهم الاجتماعية العليا لتغامر بعبور ما أسموه «المياه السوداء». بيد أن هذه المخاوف لم تكبح شعوب الطبقات الدنيا، الذين كانوا يشكلون الأكثرية بين الصيادين والبحارة في الهند كما في الأماكن الأخرى[10].

كانت معظم الشعوب حول المحيط الهندي من الساحليين عوضا عن كونهم رحالة أعماق البحار. أتى شعب البحارة الحقيقي الوحيد في المحيط الهندي من الشرق وليس من الشمال أو الغرب. في الغالب نشأ هذا الشعب في جنوب الصين أو تايوان منذ نحو ستة آلاف سنة مضت، ليرتحلوا إلى جنوب شرق آسيا ومن ثم تحركوا حتى استقروا في أوقيانوسيا، ولكن ليس قبل أن يتحركوا باتجاه الغرب بحلول العام 1000 ق. م، ليعثروا على جزيرة مدغشقر المهجورة، والتي جعلوها

Twitter: @ketab_n

لهم اقتصاديا وثقافيا. من مدغشقر أبحر هؤلاء في زوارق ذات مجاديف، جالبين معهم الموز، وجوز الهند، والسكر إلى شرق أفريقيا ولأول مرة. ومع ذلك، فإن هذا الإبحار طويل المسـافة والمذهل والبطولي لم يؤد إلى انفتاح مؤثر نحو المحيطات الأخرى. إن البحارة الذين قطعوا المحيط الهندي اسـتمروا في احتضان سواحله. اسـتمر المحيط الهندي في كونه مملكة لمجتمعات ساحلية صغيرة معزولة تقريبا والتـي لم تصل قط إلى مسـتويات حضـارات الأراضي الداخلية من حيث القوة، والتمدن، أو الرقي الثقافي، غير أنها كانت، وبكل المقاييس، كاملة التحضر[11].

عندمـا حل الإغريق ومـن ثم الرومان محل الفينيقيين، والمصريين والفارسـيين في تجارة المحيط الهندي، اسـتخدموا ذات المسارات والموانئ، حيث لم يقدموا على عمل الكثير لتغيير طبيعة الهند أو أفريقيا السـاحليتين. وحتى وصول المسـلمين في نحو العام 1000م لم يعطل هذا النمط المسـتوعب. فكما يقول مايكل بيرسون، إن شـعوب المحيط الهندي لم تتحول إلى الإسلام بقدر ما هي تقبلته. ولم يحدث سوى عند وصول البرتغاليين في القرن الخامس عشر أن جرى تحدي اسـتمراريات الألفية الماضيـة، وحتى عندها، فإن تطفل عامـل الملاحة الجديد هذا لم يحل بسرعة محل الثقافات السـاحلية القديمة التي يمكن العثور عليها إلى الآن في شرق أفريقيا وعلى طول سواحل الهند الشرقية[12].

حول حافة الهادي

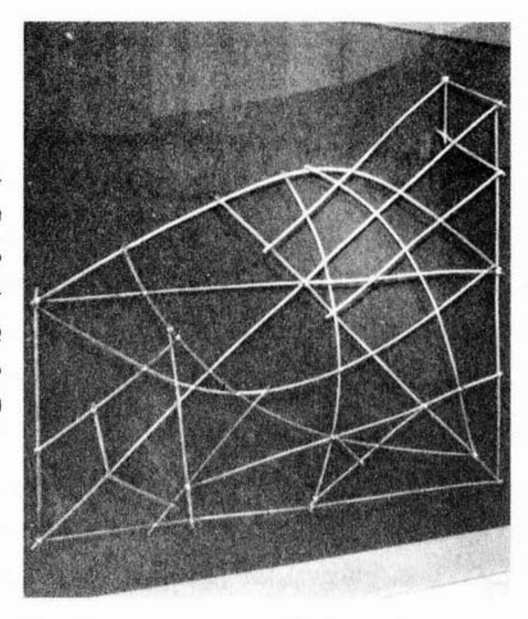
وُجـدت ثقافة سـاحلية أخرى حول ما يعرف اليوم باسـم بحر الصين الجنوبي. ولمدة ما يقرب من ألفي سـنة ربطت حافته بين الشـعوب الجنوب آسـيوية. قبل وجود الـدول الإقليمية والقادرة على ربط هذه الشـبكات الضخمة والمتنوعة من الأنهار، ودلتا الأنهار، والأرخبيلات، والبحار، كانت المنطقة عبارة عن نوع من الأراضي الرطبـة المترابطة بعضها ببعض عن طريق التجارة والهجرات بين الأعداد الهائلة من المجموعة الإثنية. وكما رأينا، فإن شـعوب هذا الإقليـم تحركوا غربا باتجاه المحيط الهندي وجنوبا باتجاه المحيط الهادي، حيث سيصبحون البحارة الأسترونيزيين الذين أخيرا سـيبحرون شرقا عبر الهادي في أعظم عمل بطولي إبحاري رآه العالم قبل القرن الخامس عشر[13].

Twitter: @ketab_n

يعتبر المحيـط الهادي أضخم المحيطات، فهو ضعـف حجم الأطلنطي. على ما يبـدو، لم يكن لدى أوائـل من خاضوا المغامرة هناك اسـم يطلقونـه عليه، ومثل الشـعوب القديمـة الأخرى، فقد اعتقدوا أنه سلسـلة من البحـار - جنوب الصين، اليابان، جافا، باندا، سـيليبس، سـولو، تيمور - والمسماة بأسـماء الأراضي المجاورة. ومثـل المحيطات الأخرى، جرت تسـميته قبل أن يُتعرف عليه بشـكل كامل بزمن بعيد. ولقد عمده فيرديناند ماجلان البحر المسـالم Mare Pacificum، دون معرفة أي شيء عن مداه وبتقدير شـديد البخس لعنفه. بالنسـبة إلى البحارة البولينيزيين الذيـن وصلوا قبل ماجلان بكثير، فإن شسـاعة الهادي الرائعـة قد تضاءلت بعض الشيء بوجود الـ10 آلاف من جزره، العديد منها متجمع في شـكل أرخبيلات، والتي بدت لسـكانها كأنها شيء مثل أرض مائية متصلة عوضا عـن كونها منفصلة بالماء. ولأن هذا التشـكيل عُرف عـلى أنه بحر من الجزر وليس جـزرا في بحر بعيد، فإن هذه الأرخبيلات قد جعلت الهادي يبدو أسـهل تحكما. عندما وصل المستكشفون الأوروبيـون في القرن السـادس عشر ركزوا انتباههم كذلـك على الأرخبيلي، حيث قسموا الهادي إلى ثلاث مناطق رئيسية، والتي أسموها بولينيزيا (بمعنى جزر كثيرة)، وميكرونيزيا (جزر صغيرة)، و ميلانيزيا (جزر سـوداء، والتي أسميت نسبة إلى ذوي البشرة الداكنة من سكانها)، بينما يتخيلون معظم الهادي على أنه فراغ عظيم[14].

قبـل العـام 1960 كان يعتقد أن الهادي الأرخبيلي قد تأهـل أصلا من الشرق إلى الغرب. لقد جرى دحض هذا المعتقد الآن تماما عن طريق أبحاث علم الآثار والأبحاث الجينية، والتي تقفت آثار التأهيل السـكاني في الهادي من جنوب غرب آسـيا إلى غينيا الجديدة وأستراليا منذ أربعين ألف سنة مضت وصولا إلى العصر الجليدي، عندما كانت مناسـيب البحر أكـثر انخفاضا بكثير وعندما كانت هناك ممـرات ضيقة فقط للإبحار فيها. اسـتقر الصيادون الرحل والذين قطعوا هذه الرحلة إلى سـواحل أسـتراليا وغينيا الجديدة حيث الموارد كانت أكثر غنى. بحلول العام 30.000 ق. م ارتحل هؤلاء مجددا، هذه المرة باتجاه سلسـلة جزر سـليمان المقابلة لغينيا الجديدة. وقد احتفظوا بمعظم صفات أسـلافهم من الصيادين الرحل، حيث إن الجزر هي الأكثر امتلاكا للسواحل بين كل أنواع اليابسـة. غير أنه مع مرور الوقت، بدأ هؤلاء بزراعة البطاطا الحلوة وجذور القلقاس، وهو نشاط زراعي يضاهي الصيد والتجميع البحريين[15].

Twitter: @ketab_n



خارطة إبحار rebbelib لجزر المارشال، وهي خارطة مصنوعة من أعواد الحطب حيث الجزر فيها ممثلة بأصداف الودع، والأمواج ممثلة بالخطوط.
الصورة من ويكيبيديا

استؤنفت الهجرات في 2000 ق. م بوصول من يدعون بشعوب لابيتا من الشمال، والذين كان لديهم مستوى متقدم من المهارات في إنتاج المصنوعات الفخارية وبناء القوارب. بحلول العام 1000 ق. م أوصلتهم محاولات الإبحار الفذة إلى أقصى امتداد شرقي للهادي الجزري (المملوء بالجزر)، وصولا إلى جزر الهاواي، وجزيرة إيستر، وإلى ما يعرف اليوم باسم نيوزيلاندا. بحلول ذلك الوقت تطور هؤلاء لأبعد بكثير من معيشتهم كصيادين رحل، حاملين معهم ليس فقط النباتات والحيوانات ولكن كذلك أنظمة سياسية ودينية متطورة. لقد مثل هؤلاء لحظة نادرة لمجتمع بحري قادر على الارتحال عبر المحيطات ولكن لم يعتبر نفسه قط أكثر من مجموعة بحارة في بحر مملوء بالجزر. أحيانا ينسى هؤلاء المغامرون في الهادي مهاراتهم في الإبحار ويصبحون معزولين بشكل تام. أدار الأستراليون الأصليون ظهورهم إلى البحر وأصبحوا صيادين أرضيين، وأصبح سكان جزيرة إيستر شعبا معزولا تماما، محكومين بالفشل بسبب عدم قدرتهم على التواصل مع العالم الأكبر[16].

لا توجد أدلة قاطعة على وصول مغامري الهادي إلى سواحل العالم الجديد، غير أنه يجب عدم السماح لذلك بالتشويش على حقيقة أنه حتى القرن الخامس عشر

Twitter: @ketab_n

كان هؤلاء بحارة العالم الأفضل، حيث غطوا مســاحات شاسعة، واستعمروا سواحل بعيدة، وأسســوا أنظمة تجــارة إقليمية في غاية الغنى والتعقيــد. ولو أنهم وصلوا إلى الســواحل الغربية للأمريكتين، لكانوا قد وجدوا حضارة ســاحلية قديمة أخرى، غــير أنهــا حضارة مختلفة كثيرا عــن تلك التي لهم. فحتى وصــول كولومبوس كان ســكان الأمريكتين يعيشون في عزلة ربما لمدة 14 ألف سنة. لقد شكلت هذه القارة كائناتهــا الحية الخاصة بها في بيئتهم الوبائيــة الخاصة بهم كذلك، وعليه فلم يكن لدى الســكان مناعة ضد الأوبئة التــي كانت موجودة في مناطق العالم الأخرى. فلو أن مغامري الهادي وصلوا إلى السواحل الأمريكية، لكانوا من دون أدنى شك أطلقوا أوبئــة مدمرة على الأقل بقدر ذلــك الوباء الذي عاث دمارا في الســواحل الشرقية الأمريكية في القرن الســادس عشر. بالنســبة إلى شــعوب الســاحل الغربي، أتى يوم تصفية الحســاب بعد ثلاثمائة سنة. بحلول ذلك الوقت، كانت أرخبيلات الهادي قد دمرت مسبقا بسبب أوبئة جلبها معهم مستكشفون أوروبيون.

المتوسط: نمل وضفادع حول البِركة

لقد طورت شــعوب المحيطين الهندي والهادي توجهاتها تجاه البحر والتي هي مختلفة تماما عن تلك التي ســتظهر حول المتوسط وعلى الحافة الشرقية للأطلنطي. في جنوب شرق آســيا جرى تنصيب بعض الشــعوب الداخلية، والتي رُحلت بسبب جيرانها المعتدين إلى الســاحل ومن ثم إلى داخل البحر، على أنها «شــعب بحري». إن شــعب الموكن من تايلاند وبورما يطلق على نفســه لقــب «غرقى البحر» (sea drowned) حيــث يعيش أفــراده على متن kabangs(*) معظــم الوقت. غير أنهم يأتون اليابسة للتجارة وليحتموا من العواصف والتسونامي. يسمي هؤلاء التسونامي Laboon والتي تعني «الموجة التي تأكل الناس»، حيث طوروا أنظمتهم التحذيرية المبكرة الخاصة بهم والتي خدمتهم جيدا على مدى قرون. تعلمت بعض الشــعوب الساحلية الأخرى أن تبني مساكنها على ركائز مرتفعة أو أن تصنع مساكن برمائية. اســتمر هؤلاء الذين يعيشــون حول حافة المحيط الهنــدي في كونهم من بين أبرز ساحليي العالم[17].

(*) قوارب تقليدية كان يصنعها هذا الشعب ويعيش على متنها. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

لقد انطلقت شعوب الهادي مسافات أبعد عن الساحل أكثر مما تجرأ أن يفعل أي ممن كانوا قبلهم. لقد كانوا يشعرون بأنهم في موطنهم الطبيعي أكثر في البحر، حيث استثمروه وهم ملمون بالزمان والمكان، واللذين شعر بهما الأوروبيون وأبقوهما لليابسة فقط. بالنسبة إلى الإغريق، كان البحر دائما غريبا ومثيرا، مكانا «يجلب الموت، يأخذ الأشياء بعيدا، ويجعل الأشياء تختفي». بدأ هذا التوجه في البحر المتوسط القديم، أو في الواقع، حول البحر المتوسط القديم، والذي اجتذبت سواحله الصيادين الرحل من hominid لما يقرب من 125 ألف سنة ولربما أكثر بكثير. في البداية، كان هؤلاء الساحليون كثيري الحركة، لكن مع مرور الوقت استقر هؤلاء ليكونوا مجتمعات ذات أنظمة معقدة وأخيرا حضارات شاطئية مثيرة للإعجاب. لقد قال سقراط إنهم كانوا مثل «النمل والضفادع حول بركة»، وهو توصيف لايزال يناسب شعوب البحر المتوسط اليوم[18].

إذا كان هناك شيء حول البحر المتوسط يميزه عن المحيطين الهندي والهادي، فهو ضيق سواحله. فما بين 7000 و4000 ق. م ارتفعت مياهه لما يقرب من 150 مترا، لتفيض على ما كان وقتها سهولا ساحلية واسعة النطاق، صانعة من أجزائها الضحلة جزرا متعددة قريبة من الساحل. في الشمال والغرب، هبطت الجبال إلى البحر، في الجنوب والشرق، كانت السواحل مطوقة بصحار ذات وعورة. هؤلاء الذين استقروا على الساحل كانوا معزولين عن المدن النائية، غير أنهم في الشمال، كان لهم تواصل مع الأرخبيلات المتعددة القريبة من الساحل. وبخلاف الطريق من البحر الأسود والبعض من الأنهار العظيمة التي جفت مياهها صبا في المتوسط، لم يكن هناك تواصل سهل مع الداخل. لذلك السبب أطلق الإغريق عليه مسمى «بحر بين الأراضي». كان البحر هو المركز، واليابسة كانت الحد الخارجي، والمياه هي الداخل واليابسة هي الخارج. فبالنسبة إلى شعوبه «الأماكن المتصلة عن طريق البحر دائما «قريبة» فيما الجيران على اليابسة بدوا من حيث التواصل بعيدين جدا»[19].

لم تكن سواحل المتوسط، خصوصا على الجوانب الشمالية والغربية من البركة، ضحلة فقط، لكنها كانت متغيرة جدا. امتدت أشباه الجزر الطويلة عميقا في البحر، منتمية أكثر إلى البحر منها إلى اليابسة. كونت أكبر أشباه الجزر هذه - إيطاليا وإسبانيا - عوالم خاصة بها، كأنها جزر أكثر من كونها جزءا من اليابسة. كانت

Twitter: @ketab_n

هاتـان الجزيرتان مترابطتين عن طريق المياه، وهي مياه غالبا ما شـكلت بحارهما المنفصلـة عوضا عن كونها جزءا من الجسـم المائي الأكبر الذي نعرفه اليوم على أنه البحر المتوسـط. كان الأدرياتيكي وإيجة من ضمن أوائـل البحار التي جرى فرزها، وقد جُزئت كذلك إلى أجسـام مائية أصغر حجما. هذان أخذا اسـميهما وهويتيهما من الأراضي التي تحوطهما. كانت للسواحل المتقابلة غالبا أشياء مشتركة بعضها مع بعض أكثر مما كان لها مع مدنها النائية. تعلم القدماء أن يعاملوا بحار اليابسة هذه كـما نعامل نحن أي منطقة، فقد ضم الرومان الأدرياتيكي كجزء من إمبراطوريتهم، حتى وهم يدعون أن بقية المتوسط كانت مفتوحة أمام الجميع[20].

فكـما يذكرنا فيليب فيرنانديز - آرميسـتو، «للحديث بشـكل دقيق، المحيطات غير موجودة: إنها تشـكيلات من أذهاننا، نسج من خيال رسام الخرائط، طرق ملاك الأراضي في تقسـيم المساحة البحرية وفق وضعية اليابسـة». فبالنسبة إلى بريدراج ماتفيجيفيك «المتوسـط ليس مجرد جغرافيا» بل في الواقع مجموعة من الممارسات الاجتماعية والآراء الثقافية المرتبطة بالجسم المائي. لقد جرب البحارة القدماء المتوسط بأجزائه المختلفة قبل أن يعرفوه بشـكل متكامل بزمن طويل. كان المتوسط معروفا مبدئيا لسـواحل الليفانت باسـم «البحر العظيم»، وهو المصطلح الذي كان غالبا ما يسـتخدم من قبل الإغريق. لم يبحر البحارة القدماء بواسـطة البوصلة أو رسومات الخرائـط، بل بمعرفتهم المحليـة التي تحصلوا عليها من التجربـة المباشرة ومرروها لمن بعدهم شـفهيا. وكما كان الوضع بالنسـبة إلى نظرائهم البولينيزيين والأمريكيين الأصليين، كان الماء بالنسـبة إليهم «مكانا، وليس مسـاحة، سـطحه المتحرك مملوء بالنـذر، وبمفاتيح الألغاز، وبالمعاني». كان البحارة القدمـاء يعرفون بحارهم المحلية كما يعرف سكان اليابسة أحياءهم. كانت معظم رحلاتهم تشبه تجول سكان اليابسة المتهادي، حيث يقومون بها دون جداول أو مقاصد ثابتة. ولأنهم كانوا يعرفون أنهم واقعـون تحت رحمة الرياح والتيار، فإنهم كانوا يعرجون طريقهم، حيث كانوا نادرا ما يبحرون بين نقاط ثابتة، ولكنهم يتجولون بتلوٍ على طول السـاحل، متوقفين مرارا وتكرارا للأكل والنوم والمتاجرة، وفي بعض الأحيان للنهب[21].

فحتى عصر البخار، كان الإبحار في خط مسـتقيم من ضرب المسـتحيل في كل الأحوال. يشـير تيـم إينغولد إلى أن فكرة الخط المسـتقيم أصلا هـي «رمز حداثي

Twitter: @ketab_n

افتراضي، إشــارة إلى انتصار التصميم العقلاني الهادف على تقلبات العالم المادي». لم تظهر فكرة خط ســاحلي مســتمر إلا بحلول القرن الثامن عشر، حيث إن الســاحل كان معروفــا من التجربة الشــخصية وليس من خلال ضربات قلم رســام الخرائط. اكتُشفت السواحل القديمة أولا عن طريق البحر، ولاحقا فقط عن طريق اليابسة. لم تكن الســواحل خطوطا بل سلاسل من نقاط محددة غير مترابطة والتي طالما كانت ذات أهميــة عظمى بالنســبة إلى البحارة، تحديدا الموانئ الآمنــة ومواقع المخاطر الخفية. فقبل أن يرســم خط على الجلد أو ورق البرشمان، كانت الخرائط الذهنية، التي كانت تنقل عبر الذاكرة من جيل إلى جيل، تحتوي على مجموعة من التفاصيل الحيويــة للملاحة على طول الســاحل. إن أولى رســومات المتوســط، periploi(*)، كانت أساســا خرائط للمسارات، «سلســلة من الموانئ والعلامات الطبيعية». هذه الرســومات تجاهلت إلى حد كبير ما يقع بعيدا عن الساحل، فالبحر ما كان ليقطع ولكن ليتم الإبحار حوله. فلم يكن من قبيل المصادفة أن مصطلح periplous يعني «الإبحار حول»[22].

لم يكن للبحر المتوسط القديم خطوط ساحلية كما نفهمها اليوم. قبل أن يكون هناك ســاحل، كانت هنــاك فقط موانئ، وأجوان، ومواقع صيــد، ومعالم أرضية. لم يكن البحار ليبحر باتجاه ساحل بكونه كذلك، ولكن باتجاه موانئ أو أراض محددة. كانت تلك أول ما جرى رســمه ومنحه أســماء. بيد أن ما يقــع بينها بقي من دون اســم، أو كانت تســمى، كما هي الحال في اليوم، «ساحل المضيق»، والتي كانت بلا أي أهميــة للبحارة القدماء. لقد كانت في الواقع الحاجات الملحة للبحار عوضا عن اهتمامات صاحب الأرض هي التي شكلت الصورة البشرية للسواحل أولا، وفي نظر القدماء، كان البحر هو الذي شــكل الأرض. وكما بين الجغرافي الروماني سترابو: «إنه أساســا البحر الذي يعطي الأرض تخطيطها وشكلها، حيث يشكل الخلجان، والبحار المرتفعة، والمضايق، وعلى القدر نفســه، الأراضي البرية isthumuses(**)، وأشــباه الجزر، وألسنة الأراضي الممتدة في البحار». كانت السواحل تنتمي إلى البحار، مطوقة الجزر المقابلة لها. في حالة اليونان القديمة، نجد حالات حيث كانت اليابسة معرفة

(*) كلمة إغريقية الأصل تشير إلى وثيقة تحدد الموانئ والنقاط الأرضية المهمة للبحارة. [المترجمة].

(**) تعني بشكل أكثر دقة الأرض البرزخية أو الخلاء الذي يربط بين كتلتين كبيرتين. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

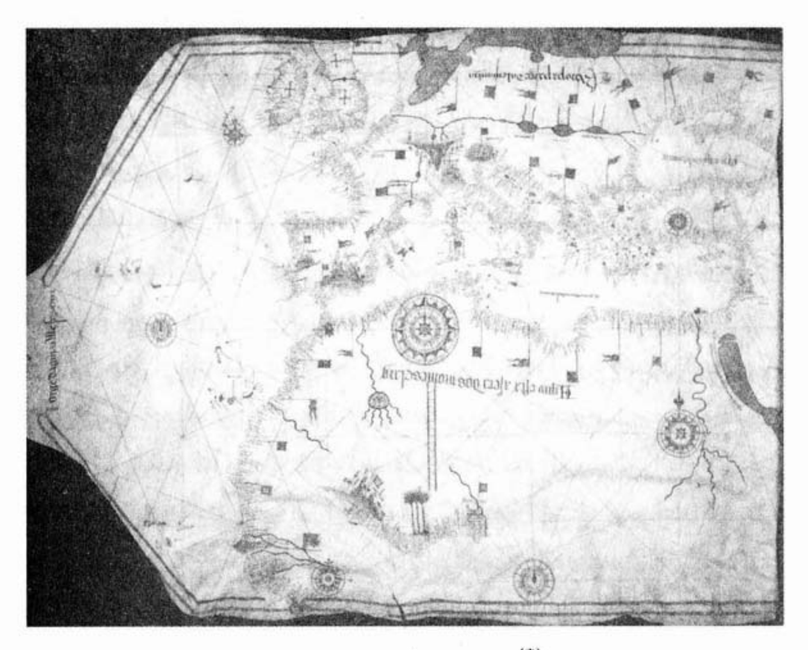
«من حيث علاقتها بجزيرة ما مطلة على الساحل وليس العكس». لم يكن الساحل لا يابسة ولا بحرا ولكن مزيج من الاثنين، شيء أكبر بكثير مما يشير إليه فهمنا المعاصر لخط الساحل[23].

في العالم القديم، كان العالم البحري مفهوما على أنه مجموعة كبيرة من البحار الصغيرة وليس أجساما ضخمة نسميها اليوم محيطات. كان البشر يشعرون بالراحة مع فكرة البحار قبل أن يستوعبوا ضخامة المحيطات بزمن طويل. كان مفهوم البحر يطبق على أي جســم مائي محدد بالأراضي. كما يطبق المفهوم كذلك على الأجســام المائيــة المطوقة بالأراضي، المالحة أو العذبة، مثل بحر طبريا، وبحر قزوين، أو البحر الميت. لم يصنع القدماء فوارق أوضح بين الأجسام المائية عما صنعوه بين التضاريس الأرضيــة. لم يكونوا يميزون القــارات عن Insula أو الجزر، وهو المصطلح الذي كان يطبــق عــلى أي منطقة معزولة على الأرض وعبر الســاحل. ولم تعــرف الجزر على أنهــا أراض محاطة بالمياه حتى القرن الســادس عشر. البحــيرات، ومصبات الأنهار، والأنهــار، والبحار كلها كانت تمتزج أحدهــا بالآخر. فقد أظهرت الخرائط الإغريقية المتوســط على أنه مثل النهر العظيم، يتدفق من البحر الأســود وعبر أعمدة هرقل. لقــد تعمدوا تقليل تقديرهم لعرضه، ربما لتهدئة هؤلاء الذين يخشــون أن يفقدوا منظر السواحل[24].

إن مفهــوم البحار الســبعة مطبق اليــوم فقط على الميــاه التي هي بحجم المحيطات، ولكن في العالمين القديم والأوســط، كان يمكن لهذا المفهوم أن يشــمل أي جســد مائي، بداية من البحيرات الملحية وصولا إلى الأنظمة النهرية. في العصر الروماني، كانت مياه الساحل الغربي لإيطاليا والتي لها حدود مع كورسيكا، وصقلية، وسردينيا معروفة باســم بحر التيرانين الذي أصبح ســكان اليابسة يسمونه Mare Nostrum أو بحرنا. إن البحر المســتقل كان فكرة يمكن للعقل أن يستوعبها، هو وحدة إبحار يمكن التحكم فيها، حيث نادرا ما تخرج فيها الأرض عن منظر البحار. وكما يقول بروديل: «كانت أراضي المتوسط سلاسل من الأقاليم المعزولة بعضها عن بعــض، ولكنها تحاول أن تتواصل بعضهــا مع بعض». لقد خلقت البحار المتعددة الحافز لتأســيس شــبكات تجارة حيوية. وكونها مطوقــة بالجبال والصحاري، فإن هذه الحضارات الســاحلية سرعان ما أصبحت thalassocracies أو إمبراطوريات

Twitter: @ketab_n

بحرية، تسـعى نحو الفتوحات والاستعمار من شبه جزيرة إلى أخرى، ومن جزيرة إلى أخـرى، حتى امتـدت الإمبراطوريـات في كل الأنحاء ولكن ليـس عبر البحار الداخلية بالضرورة[25].



خريطة بورتولان(*) بيد جورج دو أجولون، 1492. الصورة من ويكيبيديا.

في العالم القديم، كانت الأجسـام المائية الضخمـة معروفة بالمناطق التي تقع على حدودها. إن مصطلح atlantic أو الأطلنطي له جذوره في الأسـاطير الإغريقية حيث كان يعني في البداية المياه الأقرب إلى جبل أطلس في شمال أفريقيا. سيستغرق المصطلـح قرونا عدة قبل أن يسـتخدم للإشـارة إلى المياه خـارج أعمدة هرقل. في البداية كانت هذه المياه تسـمى Oceanus أو المحيـط، وكانت تعرف بأنها أقرب للنهر الذي يحيط العالم المألوف. تدريجيا، فقدت هذه المياه تعريفها النهري حيث أصبحت تشبه بالمتوسط، أحيانا يسمى «البحر العظيم»، وبعد ذلك بالبحر الأعظم

(*) خرائـط البورتولان هي، كما تصفهـا ويكيبيديا، خرائط إبحار تعتمد على اتجاهات البوصلة وتقديرات القبطان للمسافات في البحر. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

الخارجـي، وبعد ذلك بالبحر المحيطي أو المحيط البحـري، وأخيرا بالمحيط الغربي. إن مصطلح ocean أو محيط كان شـائعا اسـتخدامه للإشارة إلى البحار التي كانت شديدة الضخامة ويتعذر الإحاطة بها. خلال العصور الوسطى، كان شائعا لما نعرفه على أنه الأطلنطي أن يسـمى باسـم الساحل الأقرب له المحيـط الألماني، المحيط الإسـباني، حيث لم يشع اسـتخدام اسـم الأطلنطي حتى القرن السابع عشر. عندما جوبه بالحجم غير المسـبوق للهـادي، اختار فيرديناند ماجيلان أن يسـميه محيطا وذلك إبان العشرينيات من القرن السـادس عشر. مع مـرور الوقت، هذه الأعداد الكبيرة من البحار سيجري استبدالها بالمحيطات السبعة[26].

إمبراطوريات التجارة الساحلية

تطورت الحضارات السـاحلية في منطقة المتوسط ببطء وذلك عن طريق تنقلها عـلى طول السـاحل أو انتقالها من جزيـرة إلى أخرى وليس عـن طريق الرحلات الطويلـة بعيـدا عن السـاحل. كانت الجزر مهمـة مقدما في منطقة المتوسـط في فـترة ما قبل التاريخ. فقد وفرت هذه الجزر أماكـن للتجارة مع الأراضي الداخلية، وعندمـا ظهرت الزراعة في ليفانـت في 9600-6900 ق.م، انتقلـت أولا إلى جزيرة كريـت في نحـو 7000 ق.م، قبـل أن تنتقل إلى الأراضي الأوروبيـة بعد ذلك ببضع مئات من السـنوات. وهكذا دارت الزراعة حول المتوسط بأكمله. تنقل الساحليون الذيـن واجهتهم قحولة أو عدائيـة البيئة الداخلية بذات الطريقة عبر الجزر. احتل الفينيقيون، وهم شعب كنعاني أداروا ظهورهم لمنطقة ليفانت التي أزيلت غاباتها، شـمال أفريقيا حيث استُبدلوا لاحقا بالقرطاجيين، الذين انطلقوا أخيرا في الأطلنطي إلى حيث الأماكن المكتشـفة للتجارة على طول ساحله وعلى الجزر الصغيرة لشمال أفريقيـا وأيبيريا. فبينما كانوا كأقرب ما يصنع المتوسـط القديم من شـعب بحري خالص، كانوا كذلك ساحليين، محتضنين ومستعمرين للساحل[27].

منـذ أن بدأت البشرية بالمتاجرة، فإنهـا اختارت أن تفعل على حدود الأراضي، حيـث كان ينظر لها على أنها مناطق محايـدة، حيث التبادل العادل مضمون. قبل أن تكون هناك أسـواق دائمة في المـدن، كانت هناك مهرجانات تجارية موسـمية تقام على حدود المقاطعات الملكية وعلى تقاطع الطرق. كانت السـواحل من ضمن

Twitter: @ketab_n

هذه الحواف الجلية التي كانت ترحب بالتبادل، وقبل أن تكون هناك موانئ ثابتة، كانت هناك أراض حيث كانت المقايضة تتم. يصف هيرودوت الطريقة التي كان القرطاجيون يتاجرون بها مع المحليين على ساحل أفريقيا الأطلنطي:

> كانوا يوصلون بضائعهم ويضعونها على الشاطئ قطعة قطعة. بعد أن يتم ذلك، يعود هؤلاء إلى متن سفنهم حيث يصنعون إشارات من الدخان. عندما يستقبل السكان الأصليون هذه الإشارات، ينطلقون إلى الشاطئ، حيث يودعون الذهب من أجل البضائع ويتراجعون إلى الداخل. عندئذ يرسو القرطاجيون مجددا على الساحل لينظروا في العرض. فإذا ما قدروا كمية الذهب كقيمة مناسبة للبضائع، فإنهم يجمعونه ويبحرون إلى موطنهم. ولكن إذا لم تكن القيمة مناسبة، فإنهم يصعدون إلى سفنهم مرة أخرى بانتظار الأحداث. بعد ذلك، يعود القرطاجيون للشاطئ ليضيفوا مزيدا من الذهب إلى عرضهم الأول، حتى يصبح هؤلاء القرطاجيون راضين عن العرض.

في أماكن أخرى، هذا النوع من التبادل من دون تواصل مباشر كان يسمى المقايضة الخرساء أو التجارة الصامتة[28].

لقد أسمى الإغريق أماكن التجارة باسم emporia، وذلك حتى لا يختلط أمرها مع المدينة polis. إن فصل الميناء المفتوح عن المدينة المحصنة سمح للإغريق باستغلال الأراضي الطبيعية، وعليه بالدفاع الأفضل عن المدينة ضد الأعداء الغرباء والطبيعة المعادية. اعتقد أفلاطون ضرورة إزالة المدن فعليا من جانب البحر، «فالبحر، على الرغم من لطفه، بيد أنه مرافق خطر، كما أنه طريق سريع للأخلاقيات والطبائع الغريبة كما هو طريق للتجارة»، والتي كان يعتقد أنها مفسدة لأخلاق المدينة. فالقدماء طالما حددوا مواقع الأسواق خارج أسوار المدينة، في موقع محايد سهّل عملية التبادل مع المدن الكبرى الأخرى. وهناك كذلك، كان يسمح للغرباء بأن يجتمعوا ويتسامروا. فالمدن الكبرى زودت التجار الغرباء بالامتيازات، والذين بالنسبة إليهم هذه emporium أو مركز التجارة كان مساحة تحكم نفسها ذاتيا، في الأغلب بتقاليدها ولغاتها الخاصة والمميزة عن تلك التي في المدينة. لاحقا، تلك المقاطعات التي تعرف باسم funduq أصبحت أكثر ديمومة حول المتوسط كله،

Twitter: @ketab_n

ولكــن في البدايــة، كما هي الحال مع أثينا، كان الســوق هو الســاحل ذاته، وهي ممارسة كانت متبعة كذلك في المحيط الهندي، ولاحقا، في شمال أوروبا. فقط عندما جرى ضم الأسواق داخل أسوار المدينة وانتقلت التجارة من الحافة إلى الداخل وحل الميناء الدائم محل الشــاطئ بشــكل كامل كموقع للتجارة. كان الرومان يعتمدون بشكل أقل على التضاريس الطبيعية من الإغريق، بيد أن مهاراتهم الهندسية جعلت موانئهــم المبنية لأغراض محددة عرضة للهجوم. فعندما شــيدوا ميناء أوســتيا على مصــب نهر التيبر، صادفوا مشــكلة القوائم التي ســتزعج بنــائي الموانئ الأوروبيين لقرون مقبلة[29].

كان الإغريق مستقرين مع الساحل ولكنهم مترددون تجاه البحر. كانت تسيطر عــلى رحلاتهم فكرة nostos، الأمــل في العودة. وكانوا يفضلون، إن أمكن، ألا يأكلوا وجباتهم أو يناموا على سطح السفن، كما أنهم خاضوا معاركهم البحرية أساسا على مرأى من اليابسة. كان الساحل موطنهم، وكما بيّن ألين كوربن: «في العصور القديمة، أبقى الساحل حلم المسكن الدائم الذي حددته الآلهة حيا، أو أنه زود الناس بركيزة للأمــل في العودة». لم يكــن البحر في حد ذاته هو هدف الوصــول لكنه كان فقط وســيلة للعودة إلى الوطن. لم يكن عند القدماء مفهوم الاستطلاع والاكتشاف، فيما عدا رســم خرائط الســواحل والجزر، فاهتمامهم بالبحر انحصر فقط في ملامســته لليابســة وفي ربطــه بين بقعة أرض وأخــرى. مثل عوليس، هــم لم يبحروا قط بأي شيء آخر يحتل ذهنهم ســوى ميناء موطنهم، حيث إنه لم تكن لديهم أي متعة مع البحر بحد ذاته، والذي كان بالنسبة إليهم مكانا مرعبا إلا إذا كان مملوءا بالجزر أو احتوى على خلجان محمية بأشــباه الجزر. كون البحر المتوسط كان محاطا من كل جانــب عدا واحد فقط، وكونه كان مفتوحا عــلى الأطلنطي فقط من خلال أعمدة هرقل الضيقة، كان ذلك مصدر راحة عظيمة للبحارة القدماء[30].

لقد اختار معظم الملاحين أن يبقوا قريبا من الســاحل، مطمئنين لوجود أعداد كبيرة من الأرخبيلات التي باركت الســواحل الشــمالية للبحر المتوسط. اليوم، نفكر نحــن في الجزر على أنهــا أماكن معزولة، منتمية للبحر عوضا عن اليابســة، بيد أن الإغريق القدماء اعتبروا العالم terraqeous، متساوي الأجزاء بين اليابسة والماء. وكما رأينا مســبقا، كان البحر بالنســبة إليهم جزءا من الداخل. نحن نقول إننا سنذهب

Twitter: @ketab_n

خارجا إلى البحر(*)، ولكن بالنسـبة إليهم كانت المدن النائية هي الفضاء الخارجي. هذه الجغرافيا «المقلوبة» تتحدى مفاهيمنا الحديثة، بيد أنها ضرورية جدا لتقدير طبيعة السواحل والشعوب الساحلية القديمة[31].

علم الأحياء المائية المتوسطية

إن امتلاك أرخبيل كان مفتاحا للسـلطتين الاقتصادية والسياسـية في المتوسط وذلك حتى بداية العصر الحديث. احتل الساحليون هامشا ضيقا حيث الجبال أو الصحاري في المؤخرة، وفي حالة السـواحل الشمالية، حيث بحر مملوء بالجزر على بابهم الأمامي. لقد عاشوا فيما يشبه الأرض المائية التي ليس لها نظير اليوم، لكنها كانت شـائعة بما فيه الكفاية في الأزمنة الأقدم. أشـباه الجزر المحاطة من أطرافها الثلاثـة بالماء كان ينظر إليهـا على أنها «تقريبا جزر»، حيث إنها هي كذلك كانت تنتمـي إلى الماء أكثر منها إلى اليابسـة. في العديد من اللغـات الأوروبية القديمة كان مصطلـح جزيـرة island يجمع بين مصطلحي ماء is والمصطلح الذي يشـير إلى الأرض land، والذي يشـير إلى حالة برمائية. كانت الأراضي المائية تشمل ليس فقط الجزر ولكن كذلك المسـتنقعات. كانت الجزر مناطـق مثالية للتبادل، فإذا ما لم تكن موجودة، كانت الشـعوب المتاجرة تصنعها. كان أوائل سـكان ما يعرف اليوم باسـم فينيسـيا صيادين يحتلون بحيرة مستنقعية نشـطة المد والجزر. مع مرور الوقت سـيصنع هؤلاء مدينة مبنية على دعائـم والتي بحلول القرن الثامن سـتدخل ضمن مدار الإمبراطورية البيزنطية ولاحقا تؤسـس مستعمراتها الخاصة حول البحر الأدرياتيكي[32].

إن مفهـوم الأرخبيـل كان قد ضم في أصوله اليابسـة والمـاء كليهما. كان بحر إيجـة، الذي يقع على حدود شـبهي جزيرة البلقان والأناضـول، يعرف مبدئيا على أنـه أرخبيل. لاحقا، أصبح هذا المصطلح يطلق حصريـا على الجزر، وأخيرا على أي مجموعة من الجـزر. تدريجيا، أصبحت كلمة جزر islands تعني الأراضي المحاطة بالماء، بيد أنه ولزمن طويل كان المصطلح يطلق على أي منطقة معزولة، بما في ذلك الأراضي المغلقة (التي لا تجاور الماء) كليا[33].

(*) we are going out to sea.

Twitter: @ketab_n

كانـت الجزر تلوح ضخمة في الأفق في العالم القديم. في فهمنا الحديث القاري للمســاحات، تصغر الجزر وتنعزل، ولكن في العالم البرمائي للمتوسط القديم، كانت الجزر متصلة ومعززة مكانتها. عندما تحرر الفينيقيون خارج المتوسط إلى الأطلنطي، كان أول ما بحثوا عنه هو الجزر، حيث يســتطيعون إقامة محطات تجارية. كانت الجزر على الســواحل الأفريقية والأوروبيــة الغربية تمارس أدوارا متفاوتة في تطوير التبــادل الثقــافي كما الاقتصادي لقرون مقبلة، حيث كانــت هذه الجزر نقاط ربط في عالم من الحركة المســتمرة، والتي كانت ذات أهمية أساســية في حياة الصيادين الرحــل لما قبل التاريخ كما كانــت للبحارة القدماء. لقد كان ذلــك نظاما اقتصاديا وثقافيا اســتمر، مقارنة بالأنظمة الداخلية الزراعية، بسبب الحركة المستمرة وانتهى بســبب الركود. إن أفضل ما توصف به المجتمعات الســاحلية هي مساراتها عوضا عن جذورها، ربما هذا هو السبب في كون الشعوب الساحلية غير مرئية بالنسبة إلى المؤرخين، الذين يجدون صعوبة في التثبت من الشعوب المتحركة والتحقق منها[34].

مثل الجزر، واجهت المدن الإغريقية البحر، بحيث أصبحت أكثر ارتباطا به من أراضيها النائية. المثل كان صحيحا بالنســبة إلى فينيســيا ولمراكز التجارة الســاحلية الأخــرى. في المتوســط، تطور قالــب مميــز للإمبراطوريــة، thalassocracy وهي الإمبراطورية التي تعتمد بشــكل أقل على الســيطرة على الأرض من اعتمادها على الســيادة على الممرات البحرية والمقاطعات الســاحلية. لهذه الإمبراطورية أهداف عدة، أكثر تجارية في حالة الفينيقيين، أكثر عســكرية في حالة الإغريق، لكنها جميعا اعتمدت على القوة البحرية عوضا عن تلك البرية. انتشرت الإمبراطوريات الإغريقية البحرية هذه من جزيرة إلى أخرى، ومن شــبه جزيرة إلى أخرى. كانت إســتراتيجية تدعى epiteichismos معنية بزراعة المقاطعات على الســواحل الغريبة وبطريقة ســمحت لشيشرون بأن يقول: «إن سواحل بلاد الإغريق تبدو مثل الحاشية المدرزة عــلى أراضي الشــعوب البربريــة». لقد كانت بــلاد الإغريق موجــودة حيث وجد الإغريقيون، وهي لم تكن مقاطعة بقدر كونها مجموعة من السواحل. كان الرومان بدرجة أكبر شــعبا داخليا زراعيا، بيد أن مدنهم كانت معزولة بذات الدرجة، حيث كانــت منفصلة عن الريف. كان مفهــوم الدولة الإقليمية المرتكزة على أراض داخل حدود ثابتــة معروفا لديهم كذلك. مثل الإغريق، كانوا بناة للإمبراطوريات، مهتمين

Twitter: @ketab_n

ليس فقط بالأراضي المتجاورة ولكن كذلك بشبكات من الأراضي المطوقة ذات القيمة العسكرية والتجارية. كانت الإمبراطورية الرومانية مكونة من مدن هي أشباه جزر متصلة، في هذه الحالة، بالطرق كما بالبحار، بيد أنها كانت مستمرة في الافتراض القديم أن العالم هو بطبيعته جزيري. كان حيزهم أرخبيليا بلا ريب عوضا عن كونه قاريا، وهذه الرؤية ستستمر لقرون عدة قبل أن تفسح المكان لما أسماه دينيس كوسغروف «رؤية إقليمية مرتكزة على اليابسة»، وذلك فقط في القرن التاسع عشر[35].

لقد كان الإغريق القدماء يفهمون أنفسهم على أنهم شعب معزول، على الأرض كما في البحر. ولقد قيل إن المدن الرئيسية الإغريقية كانت مثل «الجزر على الأرض اليابسة». كان الانعزال يعتبر قوة، وكان الماء فرصة وليس عائقا. كان طاليس، معاصرا في مدينة مالطة الواقعة على الساحل الأناضولي في القرن السابع ق.م، أول من عرف الماء على أنه العنصر الأساسي لكل أشكال الحياة، حيث اعتقد تلاميذه أن الأرض عبارة عن قرص يطفو على مياه أزلية. وقد كان مواطن آخر من مالطا، هيكاتيوس، هو الذي رسم أول خريطة للعالم في نحو 500 ق.م[36].

مع مرور الوقت، سيستكشف الإغريق والرومان الامتدادات الغربية لسواحل المتوسط والأطلنطي وصولا إلى الجزر البريطانية شمالا، التي أسموها جزر القصدير Tin Isles وذلك نسبة إلى المعدن الذي قايضوا من أجله هناك. لقد تخيل هيكاتيوس الأرض ذاتها على أنها جزيرة، Orbis Terrarum، محاطة بنهر ثائر والذي أسماه المحيط Oceanus. لم يكن لديه مفهوم القارات ولكن عِوَضا عن ذلك تخيل الأرض على أنها جزيرة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء والتي نستطيع تمييزها بسهولة على أنها أفريقيا، وآسيا، وأوروبا. وقد عين هيكاتيوس البحر المتوسط، بصحبة البحر الأسود، تحديدا في مركز جزيرة الأرض، ومثل كل رسامي الخرائط الجيدين، فقط عين موطنه، ميليتوس، في الوسط بالضبط.

لقد قطع الإغريق مسبقا مسافة في تحويل شرق المتوسط إلى بركة عظيمة موحدة، حيث أسموها «البحر الذي نعلوه» بيد أن الرومانيين سيذهبون إلى أبعد من ذلك. فبحلول العام 30 ق.م، امتدت إمبراطوريتهم إلى كل سواحلها، حيث أصبحوا مستعدين لتحويل مفهوم «بحرنا» Mare Nostrum من البحر التيراني إلى

Twitter: @ketab_n

البحر المتوسط بأكمله[37]. بيد أنه كان هناك تمييز حاد بين البحر الداخلي والمحيط الغربي الخارجي. كان المتوسط معروفا ومحدودا، بيد أن المحيط كان كما أسماه الإغريق aperion، لا نهائيا، غامضا، ومرعبا. إذا كان المتوسط هو موطن الرومان وكذلك الإغريق، فإن ما يقع خارج أعمدة هرقل كان موضوعا مختلفا برمته. ستبقى هذه المساحة كهاوية عميقة وعلى مدى قرون[38].

إن فكرة أن الماء يمثل الفوضى بينما الأرض تمثل النظام كانت مغروسة بعمق في الجغرافيا الأسطورية للشرق الأوسط القديم التي جرى تطويرها تاليا وتضخيمها أولا بواسطة اليهودية ولاحقا المسيحية. إن أهوال قصص الطوفان في العهد القديم ومعالجته لموضوع البحر كعائق عوضا عن كونه فرصة قد تعمقت جميعها عن طريق المسيحيين، الذين أضافوا إلى نظرة العالم الوثني للمحيط أنه فراغ مرعب وذلك عن طريق تقديم عامل فعال وهو الشخصية حديثة الاختراع للشيطان. فأبعد من حدود «بحرنا» لم يرَ الوثنيون كذلك سوى الموت والخراب، لا يهون عليهم سوى وجود الجنة Elysium، أو حديقة هيسبيرايدس، التي كانوا يعتقدون وجودها على الأطلنطي القريب على ما كان يعرف باسم جزر المباركين Isles of the Blest وجزر المحظوظين Fortunate Isles، وهو مكان الأبطال الموتى، الذي يتعذر دخوله على الرجال العاديين. وكما وصفهم هيزيود، على «جزر المباركين، محاطين بالمحيط ذي الدوامات العميقة، عاشوا من دون أن يعانوا التعب أو الأسى. بالنسبة إليهم الأرض المعطاءة للحبوب ثلاث مرات في السنة تثمر فواكه عذبة كالعسل»[39].

إذا ما تخيل المسيحيون أسلافهم إما في الجنة في الأعلى وإما في الجحيم في الأسفل، فإن الوثنيين قد صمموا مكانا لأسلافهم في البحر. بالنسبة إليهم كانت حافة البحر تمثل عتبة، أو حدا بين عالم الأحياء والأموات، ومكانا يحتوي على فرص هائلة ولكن كذلك على مخاطر عظيمة. هناك كان مكان للتواصل مع الأسلاف لكنه كذلك مكان طبيعي مسكون بالأرواح. أحيانا، كانت الشعوب الساحلية للعصر الحجري والبرونزي تطلق موتاها من على الساحل أو تدفنهم على الجزر الساحلية القريبة، حيث تضمن لهم حياة أبدية ولكن كذلك تمنعهم من العودة وإزعاج الأحياء. عندما كان يتعذر الدفن في البحر، كان الإسكندنافيون القدماء معتادين على الدفن في مقابر على السفن، وهو نوع آخر لذات الفكرة.

Twitter: @ketab_n

استمرت الجزر الأسطورية في مواساة الشعوب الساحلية في مواجهتها للموت وذلك حتى بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع ق.م بوقت طويل[40].

على طول السواحل الأطلنطية الشمالية

يمثل الأطلنطي نقطة تناقض: لقد كان آخر المحيطات التي جرت السيطرة عليها ولكن يمكن القول إنه كان المحيط ذا التأثير الأكبر على مرور الزمن. لقد تأخر البشر في الوصول إلى كلا ساحليه الشمال الغربي والشمال الشرقي؛ وذلك بسبب الكميات الهائلة من الثلج والجليد التي غطت هذه السواحل حتى عشرة آلاف سنة مضت. لقد نتج عن كتل الجليد المتراجعة ومناسيب المياه المرتفعة سواحل متباينة استثنائية وذلك بأعظم نسب للسواحل نسبة إلى الأراضي الداخلية تقريبا عن أي مكان في العالم. لقد كانت الحافة الأطلنطية متميزة كذلك بكميات «الجزر المغمورة»، بأعداد أشباه الجزر والجزر القريبة من الساحل، وكذلك بعمق نقاط تجمع الأمطار التي جففتها الأنهار العظيمة والتي تدفقت في مصبات الأنهار البحرية العظيمة. فحتى بلغت البحار ارتفاعاتها الحالية في نحو 6500 ق.م، فإن المنطقة الني نعرفها اليوم باسم أوروبا كانت تمتد غربا لتشمل الجزر البريطانية، بما فيها إيرلندا. فيما بين أوروبا وبريطانيا كانت هناك غابات ومروج التي أسماها علماء الآثار **Doggerland**، وذلك على اسم ضفاف دودجر المغمورة الآن. كان بحر البلطيق أبطأ حتى في حصوله على شكله الخارجي الحالي، وذلك في نحو 5000 ق.م. فما ظهر أخيرا في أوروبا والذي يدعوه فيرناند بروديل الرأس الغربي لآسيا كان متميزا بتنوعات جيولوجية وبيئية عظيمة. لقد كان ذلك محفزا قويا على الحركة والتبادل التجاري، والتي هي صفة كل السواحل، لكنها كانت ملاحظة بقوة تحديدا على الساحل الأوروبي[41].

لقد وصل أول صيادي ما بعد العصر الجليدي الرحل الساحليين إلى الشمال الغربي لأوروبا فيما بين 9000 و7000 ق.م. هناك وجدوا تنوعا بيولوجيا أعظم من الموجود في المتوسط، كاملا بما في ذلك نباتات البحر الخضراء، واللفت البحري، والجزر الأبيض، والطحالب، وبالطبع وفرة من قشريات البحر. وفيما هم يتنقلون

Twitter: @ketab_n

على طول الســاحل، فقد اســتغلوا تحديدا مصبات الأنهار، حيث وجد علماء الآثار تلالا ضخمة من الصدف ولكن كذلك أدلة على ممارسة صيد السمك وصيد الطيور. لقــد كانــت الجزر الصغــيرة المقابلة للســاحل في الأغلب هي أوائــل الأماكن التي يســتخدمها الصيادون الرحل. ففي نمط يتكرر على طــول الحافة الأطلنطية، كانت جزيــرة غدير Gadir عند فم ريــو غواداليتي عند ما يعرف اليوم باســم الأندلس مأهولة مسبقا بالصياديــن الرحل البحريين وذلك عندما أصبحت مركز تبادل فينيقيا في القرن الثامن ق.م، في هولندا الحالية، كان الصيادون الرحل ينتقلون إلى الساحل في الصيــف، حيث يجمعون الأطعمــة المختلفة ويرعون الحيوانات على حشــائش المســتنقعات الغنيــة هناك قبل أن يتراجعــوا إلى الأراضي الأكثر ارتفاعا في الشــتاء. بحلول العام 800 ق.م كان هؤلاء قد استقروا على جزر من صنعهم، حيث يزرعون ويتاجرون انطلاقا مما يعرف اليوم باسم الأراضي المستصلحة من البحر[42].

عندمــا وصلت الزراعة إلى أوروبا الغربيــة في بداية 5000 ق.م، كذلك وصلت إلى حــد كبير عن طريق البحر، حيث انتشرت عن طريق الصيادين الرحل البحريين أنفســهم. وقــد تأهل جنوب شرقي إنجلــترا عن طريق البحر بحلــول العام 4300 ق.م تقريبــا بالصيادين الرحل الذين حملوا معهم مبادئ الصيد وتربية الحيوانات، وذلــك عــلى الرغم من أنهــم لم يصبحوا مبــاشرة مزارعين متفرغين. باســتخدامهم مهاراتهم الملاحية التي اكتســبوها عــبر الألف عام الماضيــة، كان هؤلاء الصيادون الرحل يتجولون على سواحل إيرلندا وغرب أسكتلندا، وصولا إلى جزر أوركني بحلول العام 3800 ق.م. في الأغلب تأهلت في البداية الأراضي البريطانية عن طريق الجزر. ولوقــت طويل جدا، بدا أن الصيد والجمع قد اختلطــا بالزراعة وتربية الحيوانات. لقــد أزال صيادو ما قبل التاريخ البريطانيون الغابــات وصنعوا حفر المياه ليجذبوا طرائدهــم إليهم. فقبل أن يكون هؤلاء مزارعين، كانوا حراس طرائد. الشيء نفســه ينطبق على الصيادين البحريين، الذين لم يشــعروا بأي حاجة إلى العودة إلى الزراعة مادامت البيئة الانتقالية الساحلية كانت معطاءة للغاية[43].

مثل الصيادين الرحل البحريين في كل مكان، فإن هؤلاء الأوروبيين الســاحليين الأوائل كانوا كثيري التنقل ويميلون إلى التبادل التجاري، وذلك في الأغلب على الجزر المقابلة تماما للساحل. وكما يوضح باري كانليف «يمكن لهذه أن تكون أماكن آمنة،

Twitter: @ketab_n

خـارج نطاق الدولة، حيث، وبالاتفاق، يمكن للغربـاء أن يتوقفوا فيها لصنع مراكز للتبادل التجاري». في حالة أوروبا الأطلنطية، سـبقت التجارة الاستيطان الدائم، بيد أن الوضـع كان أن الصيادين الرحل البحريين قد طوروا ترتيبا اجتماعيا أكثر تعقيدا عن ذاك الذي صنعه نظراؤهم على اليابسـة. إضافـة إلى ذلك، وعلى ما يبدو عليه الوضـع مـن غرابة، فإن هؤلاء البـشر كثيري التنقل كانوا هـم أول من تبنوا أنماط الحياة الأكثر اسـتقرارا، بينما اسـتمر الصيادون الرحل في المناطق النائية في تنقلهم لمدة أطول بكثير[44].

وكما كان الوضع في المتوسـط، اكتُشِـف السـاحل الأطلنطـي أولا من طريق البحر؛ حيث بقي هذا السـاحل، فترة طويلة جدا، مرتبطا بالبحر أكثر من ارتباطه بأراضيه الداخلية، فعلى السـواحل المتسعة لشمال غرب أوروبا، لم يكن الخط بين البحـر والأرض محفورا بقوة مطلقا، ومثل الثقافات الأرخبيلية في المتوسـط، دمج السـاحل الجزر القريبة منه. ولكن وعلى خلاف المتوسط، كانت الحافة الأطلنطية حضارة شـاطئية ونهرية في الوقت ذاته، وذلك لأنها كانت أقل تطويقا بالجبال أو الصحاري، كما أنها امتدت من على بعد البحر، وصولا إلى أقصى مسافة عند الأنهار التـي يمكن للمـد أن يصلها وغالبا لأبعد من ذلـك. في بريطانيا، وهولندا، وأراضي البلطيق «امتد تأثير البحر في الماضي لمسافة أبعد في الأراضي الداخلية عن الحدود السـاحلية». فحينما كانت القوارب تسـبح في المياه الضحلـة، كانت الموانئ على الأرجـح تقع على أعـلى نقطة من النهر، حيث تكون أكـثر أمانا وتحظى بتواصل أعظـم مع شـبكات التجارة الأرضية الداخلية. فكما رأينـا، لم ير الصيادون الرحل فرقا واضحا بين المياه العذبة والمالحة، متنقلين ذهابا وإيابا عبر خطوط المد، وذلك على أسـاس تغير الفصول. سيسـتمر هذا الوضع في أوروبا الأطلنطية حتى العصر الحديث تقريبا، حين قررت سفن الإبحار العميق في المحيط أن تُمْلي أماكن الموانئ على الساحل نفسه[45].

كان لأوروبـا الأطلنطية بحار عدة، مسـماة على أسـماء أقـرب الأراضي إليها، بطريقة مشـابهة لتسميتنا للخلجان أو المضايق عن تسمية المحيطات العظيمة. إن اكتشـاف القارب الكبير عند دوفر، والذي يتوقع أنه يعود إلى ألفي سنة قبل وصول الرومان، يشـير إلى سلسـلة من «طرق البحر السريعة» التي لم تكن لها نظائر على

Twitter: @ketab_n

اليابسة التي كانت لاتزال غير مخترقة. إن بحار البلطيق الضحلة كان لها العديد من الأرخبيلات الساحلية المماثلة لتلك الموجودة في المتوسط. إن كلمة Aland التي تشير إلى اسم مجموعة من الجزر والتي تقع اليوم بين السويد وفنلندا، كانت تعني في الأصل «أرضا رطبة»، وهي مشهد طبيعي بحري منفصل عن كل من الأراضي اليابسة وعن البلطيق بحد ذاته. في شمال أوروبا، كان الماء كذلك يحدد الأرض، حيث إنه مع سقوط الإمبراطورية الرومانية، تفكك الداخل وتشكلت الدويلات بالقرب من السواحل حول الماء عوضا عن اليابسة. لقد نشأ ما أسماه اتش سي داربي «الدويلات البحرية» للقرون الوسطى، صانعة «إطارا من الدويلات التي، في أزمنة مختلفة، وظفت بحارها الثانوية كقواعد عدة لوحدات سياسية»[46].

كان للسواحل المتقابلة أشياء مشتركة بينها أكثر مما كان لها مع أراضيها الداخلية، بيد أن الإمبراطوريات البحرية، بما فيها تلك التي صنعها النورمان، امتدت على طول الساحل من الحافة الأطلنطية الشمالية وإلى المتوسط الغربي. لقد وحد الفينيسيون دولة بحرية في الأدرياتيكي كان قد بدأها الرومان، فيما تحكمت السويد، خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، في الحافة الشمالية للبلطيق. استخدم إنجليز العصور الوسطى المتأخرة قوتهم البحرية ليسيطروا على غرب فرنسا، ليحولوا القناة التي بينهم إلى ما كان يعرف، لزمن طويل، باسم البحر الإنجليزي، فيما كانت سيطرة الإمبراطورية البيزنطية على جزر وسواحل شرق المتوسط أقوى بكثير من سيطرتها على أراضيها النائية. إن عقيدة «البحر المشمول في دولة» Mare Claustrum التي كانت بابوية العصور الوسطى تؤيدها، قد شرعنت الدولة البحرية حتى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وذلك عندما ترسخ أخيرا مفهوم السيادة حصريا على الأراضي، وتم إعلان المحيطات على أنها «بحار حرة» Mare Librum عن طريق هيوجو غروتيوس. وحتى عندها، مع ذلك، استمر مفهوم القطاعات البحرية، حيث وسعت الإمبراطوريات الأوروبية، بثبات واستمرار، قواها على طول الممرات البحرية، حتى عندما لم يدعوا السيادة على المحيط الأطلنطي بكليته[47].

إن الارتباط الذي كان للأوروبيين مع بحارهم الساحلية لم يمتد إلى ما أسماه القدماء المحيط Oceanus، هذا النهر الثائر الذي أحاط بجزيرة الأرض، والذي كانت أوروبا حدا غربيا خلفيا فيه. لم يكن الأوروبيون الشماليون أكثر تطلعا من

Twitter: @ketab_n

الإغريـق أو الرومان لتجربة تحذير الشـاعر بيندار بأن «ما يقـع أبعد لا يمكن أن يخوضه الحكيم أو غير الحكيم. فالإنسـان لا يمكن أن يعبر من غدير باتجاه الغرب المظلم ثم يعيد الإبحار مجددا في اتجاه الأراضي اليابسـة لأوروبا». قبل 1500 كان الأوروبيون، باسـتثناء الإسكندنافيين، أصحاب ثقافة سـاحلية وليست ثقافة البحار العميقة، حيث كانوا يفضلون الإبحار بمرأى من الأرض، آمنين بوجود الجزر وأشـباه الجـزر التي عملت مصدات لتحميهم من المحيط ذاته. إن أقدم الخرائط، المعروفة باسـم portolani، كانـت مثل تلك المعروفة باسـم periploi، تركز على العلامات الأرضية والموانئ، حيث تزود بالقليل من المعلومات عن المحيط في حد ذاته[48].

أصول إحدى الثقافات الساحلية

لقد ورث الأوروبيون الشـماليون الثقافة السـاحلية للبحر المتوسط، بما في ذلك جغرافيته الأسـطورية. لقد اسـتمر النظر إلى البحر والأرض ليـس فقط على أنهما عاملان مختلفان، ولكن كذلك على أنهما عالمان مختلفان. كانت الأرض تمثل النظام بينـما البحـر يعني الفوضى. لقـد ربط الوثنيـون الأرض بالحيـاة، والبحر بالموت، والسـاحل بأحداث فوق طبيعية غامضة. كانت المسيحية تخشى البحر بالقدر ذاته، حيث كانت تربط المحيط بمملكة الشـيطان. كان تأثير الرب أقوى على الأرض منه في البحر، حيث كان يعتقد أن المزارعين أكثر تقوى من البحارة. هذا الانشطار الحاد بين العالمين الأرضي والبحري جعل من الساحل – في حد ذاته - مكانا خاصا جدا مع ذلك، عتبة ليس لها مثيل. فكما قال باري كنليف: «فإذا كان في ذلك الوقت أن اعتُبر مجالا الأرض والبحر نظامين منفصلين، كل منهما معرض لقوى فوق طبيعية مختلفة خاصة به، فإن الوسيط بينهما كان مكانا انتقاليا حدوديا، ولذلك كان خطرا»[49].

لطالمـا كانـت العتبات أماكـن وقتية عارضة، بيـد أنها كذلك أماكـن مغرية، مشحونة بالرهبة، كما أنها مثمرة بآمال عظيمة. هذه الأماكن كانت مرتبطة بالعودة والمغادرة، وبدايات الحياة ونهايتها. فبينما كان العبور اليومي لخط المد طلبا للمؤن نادرا ما كانت له طقوس، كان الإبحار طويل المسـافة يُعامل على أنه مرور من عالم إلى عالم آخر مملوء بالمعاني الرمزية العظيمة. كانت الرحلات عبر المياه تعتبر محولة ومغيرة للحياة؛ فالمرتحلون النخبة كانوا ينعمون بوجاهة عظيمة، في حين كان يُعتقد

Twitter: @ketab_n

أن الأبطال المتوفين ينتقلون إلى حياة أبدية على جزر أسـطورية مثل جزر المباركين، والتي كان يعتقد أنها تقع بعد أعمدة هرقل. تخيل السـلتيون والإسـكندنافيون أن الموتى يُوجَدون في البحر بعد الساحل، حيث ملأ هؤلاء البحر البعيد بجزر أسطورية كذلـك، والتي أضاف إليها المسـيحيون مـن مخزونهم الخاص من أشـباح الجحيم والجنة في القرون التالية. كان البحر هو المكان الذي يفضلون أن يجدوا فيه أحلامهم بالسـلام والوفرة، يجدونها عادة على جزر عدنية والتي إغراؤها سيتغلب أخيرا على الخـوف من المياه المحيطية التي تحيط هـذه الجزر. ولكن، وإلى ذلك الوقت، كان الماء مكان اللاعودة، مستودعا لكل ما هو غير مرغوب فيه على اليابسة، ليس فقط المخلفات الناتجة عن الحياة اليومية، ولكن أجسـاد المواليد المشوهة، والمنتحرين، والمنحرفين. وكونه كان مكان الوثنية للاعودة وملعب المسـيحية للشيطان معا، كان البحر مملوءا بالمخاطر، وهي مخاطر صدرت روايات تحذيرية للبحارة السذج[50].

لقد كانت الجزر القريبة من السواحل - في حد ذاتها - عتبات؛ حيث يستطيع الغربـاء أن يأتوا ويذهبوا من خلالها بحريـة، ميسرين بذلك التجارة والتواصل بين الجماعات الأرضية والتي كانـت، فيما عدا ذلك، عدائية بعضها تجاه بعض. وكونها عتبـات limen، فقد وفرت هـذه الجزر ممرات بين العـوالم المختلفة. وحيث إنه كان يعتقد أنهـا موجودة خارج إطار الزمن، كانت هذه الجزر تسـتخدم كمدافن للمتوفين. لقد استخدم الفينيقيون والإغريق هذه الجزر بهذه الطريقة، وعلى مدى قـرون عاملت المجتمعات البحرية في أوروبا هذه الجزر على أنها «أماكن حدودية، ليسـت تماما من الأرض ولا من البحر... مسـبوغة بقوى غير عادية في عقول هؤلاء الذين عاشـوا على الواجهة بين الأرض والمحيط». كانت السـواحل القديمة متخمة بالمخلوقات المهجنة ذات الأشـكال المتغيرة. في الفولكلور الخاص بشمال الأطلنطي، كان يعتقـد أن الفقمة تفقد جلدها، وذلـك حتى تتحول إلى بشر. هذه المخلوقات المعروفـة باسـم Selkies أو selchies على جزر أوركني وشـتلاند، كان يعتقد أنها تكون علاقات رومانسـية مع البشر، وتزاوج طالما انتهى بمأسـاة، وذلك عندما تقوم مخلوقات الفقمة بإعادة صياغة جلودها وتعود إلى البحر[51].

كانت مخلوقات السيلكي مشابهة، من أوجه عدة، لحورية البحر ولمخلوقات تعرف باسـم السـايرن sirens، وهي حيوانات سمكية مهجنة تعود أسـاطيرها على الأقل إلى

Twitter: @ketab_n

خمسة آلاف سـنة مضت، حيث زمن الأسـاطير البابلية. لقد كان على السواحل، حيث يتداخـل المـائي والأرضي، أن كان يسـهل تخيل التهجين. قبل أن يغامـر الجنس البشري في المحيطـات العميقة، ظهـرت في البدء المخلوقات الأسـطورية، حورية وحوري البحر mermaid وmerman، على العالم نصف المجهول للسـاحل. إن الأوصاف القريبة جدا من البشرية لبعض الحيوانات، مثل تلك التي لخروف البحر manatee، جعلت من هذه الحيوانات مادة مثيرة للاهتمام بشـكل مسـتمر. عرفهم الإغريق باسـم sirens، وذلك تيمنا بالاسـم العلمي لهـم Serranus. عندما صادف كولومبوس خـراف البحر، خلال مهمته الاستكشافية في الكاريبي، فإنه ميزهم على أنهم مخلوقات من الأدب القديم[52].

لقد بين ريتشـارد إليس كيف أن عددا متنوعا من الثدييات البحرية قد اكتسـبت أبعادا أسـطورية قبل أن يتم التعرف عليها أخيرا كحيوانات فعلية. ومع ذلك، لأن هذه المخلوقـات تكونت في الخيال الإنسـاني، فإنها اسـتمرت في الوجود مادامت اسـتمرت المخاوف والرغبات التي صنعتها. ببسـاطة، انتقلت هـذه المخلوقات من الفولكلور إلى الأفلام، ومن الدين إلى الأدب. كانت حورية وحوري البحر عبارة عن تعبيرات عن جاذبية البحـر، ولكنها كانـت كذلك تحذيرات تجاه مخاطره. فقبل القرن الثامن عشر شـكلت السواحل أساسا ما أسماه يي فو توان مشاهد طبيعية مرعبة landscapes of fear [53].

إن الإيمان بحوريات البحر قد وصل إلى أعلى نغمة على ما يبدو خلال نهايات القرن الثامن عشر، وذلك عندما أغرقت الأجسـاد المزورة، المصنوعة من جثث القرود وذيول الأسـماك، العديد منها صنع في آسيا، الأسواق الغربية. عرض مدير السيرك جي تي بارنم حوريته المسماة «حورية فيجي» في نيويورك خلال أربعينيات القرن التاسع عشر، ولكن بحلول ذلك الوقت كانت جاذبية الموضوع قد بدأت تتلاشى، حيث إنه قد أصبح واضحا أن ما كان يُعتقد أنه جنية البحر siren كان في الواقع من خراف بحر manatee المحيط الأطلنطي وأطوم dugong المحيط الهادي. وقتها، كانت السواحل قد أصبحت معروفة بشـكل أفضل، حيث غادرت عوالم الغموض والخوف بعيدا عن الساحل. لقد أصبحت وحوش البحـر الجديدة، حية البحر، والحوت العملاق، والقرش القاتل، كلها مخلوقات المياه العميقة. في القرن العشرين، عندما استُكشـفت الأعماق بشـكل شامل، تحولت هذه الحيوانات من مادة خوف إلى أنواع مهددة بالانقراض، والتي أصبح يُخاف عليها. تحرك مشهد الخوف مرة أخرى، هذه المرة إلى الفضاء الخارجي[54].

Twitter: @ketab_n

دائما ما كانت السواحل هي الأماكن التي يلجأ إليها الإنسان لاستكشاف غموض الحياة والموت؛ فمن غير المفاجئ أن تكون هذه السواحل قد ارتبطت لزمن طويل مع المقدس. كان ساحل بيرو مشهدا لطقوس دفن مطولة، وذلك منذ زمن قديم يقدر بخمسة آلاف سنة مضت، وقد وُجِدت غرف القبور على سواحل شمالي غرب أوروبا، وذلك قبل أن يبني المصريون أهراماتهم بزمن طويل. وعليه، يبدو أن تقاطع الأرض والبحر قد حفز النشاط الإنساني الرمزي منذ البدايات. لقد اعتقد الوثنيون والمسيحيون كلاهما أن الجزر والجروف الصخرية كانت «مقدسة بالنسبة إلى الآلهة». فلقد استضافت أماكن مثل جزيرة هيرونيسوس الصغيرة المقابلة لقبرص جماعة أبولو الدينية قبل أن تتحول إلى مقام للقديس جورج. جزر أخرى في المتوسط كانت مقدسة بالنسبة إلى الوثنيين، ثم إلى المسيحيين، وأخيرا بالنسبة إلى الإسلام، فعلى حافة الأطلنطي، كان يقال إن جزيرة لافريت الواقعة على مصب نهر اللوار كانت تؤوي جماعة دينية نسائية قديمة للخصوبة. مثل هذه الأماكن أصبح المسيحيون المبشرون والمهاجرون يستخدمونها لاحقا. كان الساحل الوثني موقعا لعدد كبير من الطقوس التي تهدف إلى مباركة البحارة واسترضاء هذا البحر النشط الذي كان يعتقد أن له مزاجا وإرادة خاصين به، لا يجب لإنسان أن يتحداهما من دون مساعدة من الآلهة. على طول السواحل الأطلنطية لايزال القساوسة يباركون أساطيل السفن سنويا، حتى إن كان ذلك الآن يتم من أجل السياح عنه من أجل نشاط الصيد المحتضر. لم يسبق لشيء أن نافس الساحل كمكان للغموض والسحر[55].

الحدود الأرضية الأطلنطية

بكل تأكيد، وسعت السواحل الطريق، ليس فقط للتجارة والتطور الثقافي، ولكن كذلك للغزو والاستيلاء. كان الأوروبيون يحصنون ألسنتهم الأرضية الممتدة في البحر على مدى قرون، بيد أن سواحلهم بقيت مخترقة، من دون حدود دفاعية. كان المغيرون والقراصنة موجودين على مدى ألف عام، ولكن لا شيء ضاهى القوى الدخيلة لإسكندنافيي القرن الثامن القدماء، والتي ربما كانت أحد أكثر المجتمعات الساحلية الأوروبية القديمة نجاحا، والتي استمرت في عملية التطور منذ اللحظة التي وصل فيها الصيادون الرحل إلى إسكندنافيا. منذ البداية، كان الإسكندنافيون

Twitter: @ketab_n

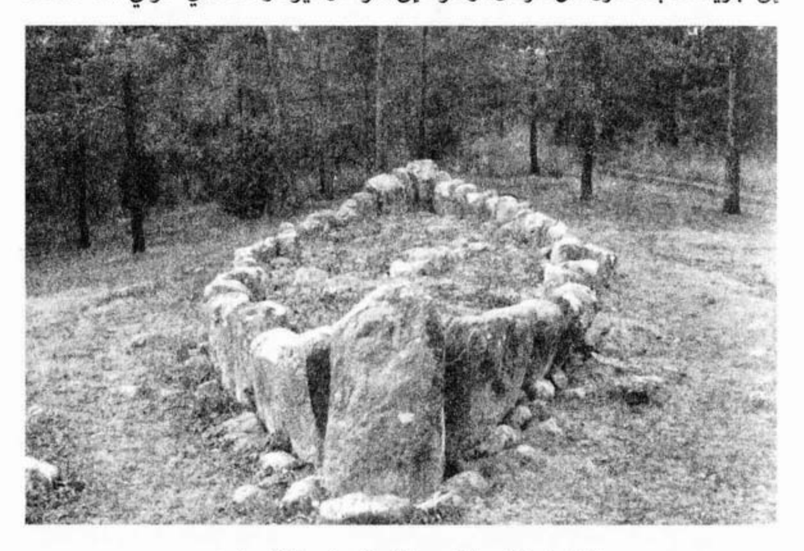
شـعبا برمائيا، وكانوا يشـعرون بأنهم في موطنهم الطبيعي في الماء كما على اليابسة، فحتـى القرنين الثالث عشر والرابع عـشر، كان موطنهم هو منطقة بلا طرق، حيث تتنقل الأشـياء جميعها عبر الماء، وحيث الرمـز الرئيسي لديهم هو القارب، والذي لم ينقل الأحياء فقط لكنه كان يوصل الموتى كذلك إلى العالم الآخر. بنى الإسكندنافيون البيوت والكنائس على شكل السفن، وكانوا يودعون موتاهم في أوعية تدفن في مقابر السفن الشهيرة، والتي لاتزال تميز المنظر الطبيعي الإسكندنافي عن أي منظر آخر. فما أسـمته جونيلا لارسون بثقافة «بحرية» قد امتد عميقا على اليابسة، إلى حيث تأخذ الأنهار القوارب السـابحة في التيارات الضحلة. استمر ذلك حتى القرن الثالث عشر، وذلك عندما تم تطبيق النظام الإقطاعي على المنطقة، حيث انتقلت القوى من الماء إلى اليابسة، وحيث «استُبدل بالقارب كرمز رئيسي الفارس على الحصان»[56].

كان لارسـوم محقا في إشـارته إلى أن الثقافة البحرية قد انتشرت بشكل أعمق على اليابسـة في تلك المنطقة عن أي مكان آخر في شـمال غرب أوروبا. ومع ذلك، فإن أفضل وصف للإسـكندنافيين هو أنهم ساحليون عوضا عن شعب بحري، حيث إنهم بقوا مرتبطين جدا باليابسة، وحتى عندما كانوا ينطلقون متجولين في الماء. بكل تأكيد، كان الإسـكندنافيون بحارة رائعين، بيد أنهم، ومثل كل البحارة القدماء، كانوا مسـتقرين بشكل كبير، حيث طوروا أنماطهم الخاصة في الزراعة وتربية الحيوانات. كوثنيـين، اعتبر هؤلاء السـاحل عتبة، مكانـا لتقديم القرابين لآلهـة البحر ولإقامة الشعائر، وذلك لتمكين سفنهم من المرور من عالم اليابسة المألوف إلى محيط البحر الخطر، وهي الشـعائر التـي كان يتم تكرارها خلال مراسـم الجنائز، وذلك عندما كانت السفينة توفر وسيلة نقل بين عالم الأحياء وعالم الموتى[57].

وحتـى أزاحهـم الضغط السـكاني من على سـواحلهم في القـرن الثامن، بقي الإسكندنافيون بحارة مزارعين، معروفين بمهاراتهم التجارية بشكل أكبر من براعتهم القتاليـة. في مناطـق مثل جزيرة غوتلند في غرب البلطيقـي، كانت المزارع تمتد إلى السـاحل، حيث كان سـكانها يتنقلون بسهولة بين صيد السـمك والزراعة. لاحقا، وعندما أصبح صيد السـمك على السـاحل النرويجي نشـاطا تجاريا بشـكل أكبر، أصبح هناك تقسـيم أكبر للعمل، بيد أن أحدا لم يتحر الحق المفترض لكل الشعوب بالتصرف على أنهم صيادون رحل بحريون أبدا في إسكندنافيا[58].

Twitter: @ketab_n

وحتى عندما أطلق الإسـكندنافيون أنفسـهم بعيدا عن موطنهم، أبحر هؤلاء، كما فعل البولينيسـيون، حاملين معهـم البذور والحيوانات الضروريـة لإعادة خلق وجود زراعي قادر على الاستمرار. من هذا المنطلق، كانوا كأنهم فينيقيو الشمال، متنقلين من سـاحل إلى سـاحل، ومن جزيرة إلى جزيرة، معيدين إنتاج ثقافتهم حيثما حلوا. تحرك الإسكندنافيون شـمالا وجنوبا، شرقا وغربا، مستخدمين الأنظمة النهرية للمنطقة التي هي روسـيا الآن، وصولا إلى البوسـفور، وذلك بينما هم يكتسـحون الجزر البريطانية، ويتحكمون في سواحل فرنسا، قبل الدخول إلى المتوسط. بحلول القرن التاسع مد هؤلاء مداهم عميقا في البحر الشـمالي بحد ذاته، مسـتعمرين جزر فارو في سنة 800، وصولا إلى آيسـلندا في خلال سنة 870. غالبا، سـبقهم الرهبان الإيرلنديون ببضع سنوات، بيد أن هؤلاء لم يكونوا ندا للفايكنغ أو للقراصنة الإسكندنافيين الوثنيين، والذين سينتقلون إلى جرينلاند بعد قرن من الزمان، وصولا إلى سواحل نيوفاوندلاند في حوالي سنة 1000.



مقبرة سفينية في جيلفار، بوجا، غوتلاند. الصورة لأو رونستروم

توازي الإنجازات الملاحية للإسكندنافيين تلك التي لمغامري المحيط الهادي، والذين كانوا يسـتكملون استيطانهم لأوقيانوسـيا النائية تقريبا في الوقت ذاته الذي كان فيه الفايكنغ يبتعدون عن سـواحلهم الأصلية. ولكن سـيكون من الخطأ التفكير في هؤلاء الفايكنغ على أنهم أي شيء غير حضارة برمائية شاطئية استثنائية عازمة على استكشاف

Twitter: @ketab_n

سواحل وجزر بحر الشمال. في الكوسمولوجيا الإسكندنافية، كان العالم مكونا من دائرتين متحدتي المركز. كانت الداخلية Midgadr مناسبة للبشر، بينما كانت الخارجية Utgadr تخص الوحوش. يفصل بين الدائرتين Oceanus(*) أو المحيط، والمعروف باسم Uthaf أو أوثاف، والــذي جعلوا موقعه في الغرب، وذلك بعدما اعتقدوه بحرا داخليا ضخما يمتد من سواحل إسكندنافيا وصولا إلى ما نعتبره اليوم سواحل وجزر أمريكا الشمالية[59].

إن النســخة الإسكندنافية لما يعرف باسم Mare Nostrum أو بحرنا، في إشارة إلى البحر المتوســط، احتوت ليس فقط على الجزر البريطانية، ولكن كذلك على جزر فارو وآيسلندا. لقد بدا أنهم تخيلوا هذا البحر على أنه محدد في الشمال بما أسموه «الساحل الذهبي»، وهو امتداد للســاحل النرويجي الذي كان يعتقد أنه يصل إلى جرينلاند، وفي الجنوب بامتداد شــمالي لأفريقيا، والذي كان يدعى فينلاند Vinland. في الغرب كانت هناك هيللاند، والمحــدد موقعها تقريبا حيث نحدد اليوم مكان جزر بافن، وماركلاند، حيث يجب أن تكون لبرادور، وحيث أرض سكرالينج وفنلندا تحتل موقع نيوفاوندلاند. وبينما نحن لا نملك أي نصوص أو خرائط من زمن الفايكنغ بحد ذاتهم، فإن مخطوطة لاحقة ستعبر عما قد يكون فهمهم المعاصر: «في جنوب جرينلاند تقع هيلولاند وبعدها ماركلاند، ومن هناك ليســت المســافة ببعيدة إلى فاينلاند، والــذي يعتقد البعض أنها توصل إلى أفريقيا». إن خريطة ســكالهولت التي رسمها الأسقف ثوردو ثوركاكسون في 1570 تبين بوضوح منطقة مائية مغلقة، بحرا متوسطا إسكندنافيا[60].

ليس هناك من دلالة على أن ليف أريكسون ومرافقيه قد فهموا أنهم عبروا المحيط أو اكتشفوا عالما جديدا[61]. كان الإسكندنافيون ببساطة يتحكمون في بحر داخلي، حيث ينشطون على الســواحل ويتنقلون بين الجزر على طريقة البحارة القدماء في كل مكان. إن ما نجحوا في فعله كان قد تم مسبقا في المحيطين الهندي والهادي: تطويق جسم مائي ذهنيا، مروضين فراغه المرعب الرهيب، وذلك عن طريق منحه سواحل محيطة به خياليا وملئه بالجزر. لقد قاموا برحلات أطول من تلك التي حاول الأوروبيون القيام بها قبلهم، لكنها لا تختلف في نوعيتها عن تلك التي أنجزتها شعوب ساحلية قديمة أخرى[62].

ستمر خمسمائة سنة أخرى قبل أن يصبح الأوروبيون مستعدين للقيام برحلات عــبر المحيطات كتلك. وكما تبين، كانت رحــلات الفايكنغ نوعا من الفترات الفاصلة والتي لم يكن لها شبيه خلال أواخر العصور الوسطى، حيث إن الأطلنطي استمر في

(*) رمز مقدس عند قدماء الإغريق والرومان، يمثل المحيط أو يشير إليه. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

كونــه عائقا ذهنيا، وكذلك طبيعيا مرعبا. أصبح الأوروبيون أكثر راحة كونهم بحارة، بيد أنهم لم يظهروا أي رغبة في أن يصبحوا من جائبي المحيطات. استمرت خريطتهم للعالم mappaemundi في إظهار موقعهم على أنه على جزيرة أرضية مطوقة ببحر شاســع، والذي فقد تدريجيا صفات النهر الغاضب المتعذر اجتيازه. في خلال أواخر العصور الوســطى امتلأ الفراغ الذي كان يمثل الأطلنطي تدريجيا بجزر أســطورية. ولكن تلك الجزر بقيت بعيدة المنال كما كانت أيام بندار.



خريطة سكالهولت للأسقف ثوردو ثوركاكسون، 1670.

الصورة مأخوذة من ويكيبيديا كومونز.

Twitter: @ketab_n

عندما كان شرق المتوسط مغلقا بالنسبة إليهم في القرن الرابع عشر، قاطعا عليهم التجارة مع الشرق الأقصى عن طريق المحيط الهندي، بدأ الأوروبيون في استكشاف إمكانات أخرى، تشمل قطع الساحل حول أفريقيا. في خلال رحلاتهم الاستكشافية على طول غرب أفريقيا، اكتشف البرتغاليون بمحض المصادفة جزر الأطلنطي القريبة لماديرا والكناري، بيد أن ذلك كان، مرة أخرى، امتدادا لتحرك ساحلي قديم، وتنقلا بين الجزر، عوضا عن كونه تجربة جديدة في المغامرات البحرية. بعدها أتت الرحلات الاستثنائية لكولومبوس، والاكتشاف غير المقصود للعالم الجديد، والذي سينفي أخيرا وتماما فكرة أن المحيط يطوق Orbis Terrarum أو العالم، مثبتا لأول وآخر مرة وجود المحيطين الأطلنطي والهادي، وبادئا عصر السفر عبر المحيطات. غير أن أوروبا استمرت في كونها حضارة شاطئية وليست محيطية. وكما سنرى، جلب المستكشفون الأوروبيون عقلية ساحلية للعالم الجديد، حيث قابلوا شعوبا ساحلية أخرى كانوا، في جوانب عديدة، يشبهونهم أكثر مما يختلفون عنهم. في أغلب الجوانب، كانت حضارة الساحل الحديثة الأولى هي استمرارية للنشاط الساحلي القديم، وقد امتدت الآن بشكل عنيف حول حافة الأطلنطي والهادي عن طريق إمبراطوريات بحرية أوروبية في الشمال الغربي أكثر ديناميكية وقوة من أي شيء آخر عرفه العالم مسبقا.

Twitter: @ketab_n

3

الجبهات البحرية للأطلنطي لبدايات العصر الحديث

«علـى مصائـد السـمك المرتحلـة، تتعلق الأفكار دوما بالعودة»

النهـر في داخلنا، البحر هو كل
شيء عنـا، البحر هـو حافة الأرض
كذلك...

تي. اس. إليوت، «النقائذ الجافة»[1]

كان الصيـادون الرحل لايزالـون يجمعون النباتـات والعلف عندما بـدأت المرحلة التالية من التاريخ الساحلي للأطلنطي الشمالي، مرحلة قطع المحيطات، في نهايات القرن الخامس عشر. يؤكـد التاريـخ التقليدي التغيير على حسـاب الاسـتمرارية. نحـن نسـمع دومـا أن رحلات كولومبـوس قد افتتحت عـصرا جديدا، بيد أنه في الواقع اسـتمرت معظم الأنشطة البحرية في الاعتماد على الإبحـار على طول البحر بدلا من عبور البحار المكتشـفة حديثا. تتابع استكشاف العـالم الجديد جزيرة بعد جزيرة، شـبه جزيرة بعد شـبه جزيرة، مسـتخدمين سفنا لا تختلف

Twitter: @ketab_n

كثيرا عن تلك المستخدمة ألف سنة ماضية. وكما سنرى، فإن أنشطة صيد السمك في بداية العصر الحديث كانت ثمرة للأنشطة السابقة في العصور الوسطى، التبادل التجاري عبر المحيطات كان امتدادا للتجارة الساحلية، كما أن الممارسات الإمبراطورية للإمبراطوريات الأوروبية في بدايات العصر الحديث تبدو مشابهة كثيرا لتلك التي كانت للإمبراطوريات البحرية في العصور القديمة والوسطى.

متى ما استطاعوا، كان البحارة في أوائل العصر الحديث يفضلون الإبحار حول المحيطات بدلا من عبورها. لقد كانوا يبحرون على طريقة costteggiare أو على طريقة الالتفاف، حيث يلتفون محتضنين الساحل بأكبر قدر ممكن. كان ما يشجع مغامراتهم النادرة بعيدا عن الساحل هو الاعتقاد الخاطئ بأن البحر كان ممتلئا بالجزر، مما يوفر مرورا قصيرا وآمنا لهم. عندما تخبط كولومبوس وصولا إلى العالم الجديد، فشل هو في رؤية أن أراضي هذا العالم لم تكن أرخبيلا آخر، يمكن عبوره بسهولة عبر المياه، لكن في الواقع كتلة أرضية لا يمكن عبورها. سيمر وقت طويل جدا، تقريبا ثلاثمائة سنة، قبل أن يعي الأوروبيون المساحة الكاملة للطابع القاري للأمريكتين وقبل أن يستوعبوا حقيقة أنهم لربما يحتاجون إلى التخلي عن أساليب الإمبراطوريات التي نشأت بحريا من أجل تلك الدول الأرضية. في خلال ذلك الوقت، صنع هؤلاء نوعا جديدا من الحضارة الساحلية، حضارة امتدت حول حافة شمال الأطلنطي، والتي سكنتها شعوب ساحلية كانت لديهم صفات مشتركة بعضهم مع بعض أكثر مما كان لهم مع جيرانهم في الأراضي الداخلية النائية[2].

إخوة البحار، «أرواح الحافة» Souls of the Edge

إن الخوف المبرر من الأضرار التي يسببها البحر قد دفع بالأوروبيين الشماليين إلى العيش بخفة على حافتهم من الأطلنطي. تعتبر السواحل أكثر العوامل الجغرافية غموضا وتقلبا. فمنذ زمن الأمواج المتقلبة العظيمة في نهاية آخر عصر جليدي، ارتفع البحر دوريا، بداية في مقتبل العصر الروماني ولاحقا مرتين خلال العصور الوسطى. خلال ثاني الفترات العديدة لارتفاع المياه خلال العصور الوسطى ما بين 1099 و 1570، أغرقت ثورات العواصف 286 مدينة وقرية في حوض بحر الشمال. لربما أفضل المدن المعروفة بتلك الحوادث هي دنويك على الساحل الأنجليني

Twitter: @ketab_n

Anglian شرق إنجلترا، كانت دنويك في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ميناء رئيسيا بتعداد ثلاثة آلاف من الناس، واشتهرت بتجارة الصوف وبكنائسها الثماني. ثم، بداية بعاصفة عظيمة في 1286، دمر ميناء المدينة حيث فقدت أحياء كاملة في البحر. بعدها ثارت عاصفتان تاليتان، واحدة في 1328 وأخرى في 1347، واللتان دمرتا التأثير التجاري لدنويك ولكن لم تمرا ميزاتها السياسية. وإلى أن جرى إبطال هذه الميزات بقانون الإصلاح لسنة 1832، كانت المدينة ذات شهرة لاذعة كونها «إدارة فاسدة»، حيث أرسلت عضوين من برلمانها إلى ويستمنستر. اليوم دنويك هي قرية بتعداد ثلاثمائة من البشر، والذين لايزالون يخسرون في مواجهة بحر الشمال. في كل مكان خلال العصور الوسطى كانت العواصف تحصد الأرواح كما كانت تحصد الأراضي. في الحادثة التي يسميها الهولنديون Grote Mandrenke، وهي حادثة الغرق العظيم في 1362، جُرف ما بين أحد عشر ألفا وثلاثين ألف إنسان[3].

لم تكن هي المياه وحدها التي أغرقت الأرض، حيث إن العاصفة الرملية التي وقعت في حدود 2500 ق.م. لربما تكون قد تسببت في هجر القرية الأوركيدية الرائعة للعصر الحجري الحديث والواقعة على سفح سكارا على حافة خليج سكيل، وذلك بعد ما يزيد على ستمائة سنة من الاستيطان. في شمال يوتلاند، بالقرب من مدينة المصيف الدنماركية سكاغين، توجد مدينة بها كنيسة، والمعروفة محليا باسم الكنيسة المدفونة، قد بنيت، بشكل غير متوقع، فوق المرتفعات الرملية. بنيت هذه المدينة في نحو 1400 لكنها هُجرت في 1591، وذلك عندما تسبب مزيج من عملية إزالة الغابات والرعي الجائر، واللذان تزامنا مع رياح عنيفة، في غمر سكاغين القديمة بالرمال. لقد عانت القرية الأسكتلندية كولبن المصير نفسه عندما مارس صناع الأسطح القشية الحصاد الجائر لقصب الرمال والذي كان يدعم التلال المحلية في أماكنها. في أواخر سنوات 1840 كان لا بد من الحفر لاستخراج كنيسة على ساحل كورنيش بعد هبوب عاصفة. من هولندا حتى سواحل البلطيق، العديد من القرى ترقد أسفل ما يبدو اليوم لمحبي الشمس وللسابحين على أنها مجرد طبيعة مسالمة تماما[4].

حتى عندما كانت السواحل تتمدد وتتقلص مع ارتفاع وانخفاض مناسيب مياه البحر، تأقلمت الشعوب الساحلية وذلك بالتحرك إلى داخل اليابسة وباتجاه الساحل. وجد الأوروبيون الشماليون أن التراجع عن البحر أسهل بكثير مما وجدته

Twitter: @ketab_n

شـعوب البحر المتوسط كون هذا البحر محاطا بالجبال والصحارى. إن نقاط تحول الأمطار المتسـعة والمائلة برقة في شـمال غرب أوروبا قد وفـرت طرقا للوصول إلى مناطق داخلية شاسـعة والتي يمكن اجتيازها بقوارب رقيقة القاعدة حاملة تجارتها لمسـافات بعيـدة أعلى الأنهار وخلال البحيرات. لقد أحسـنت شـعوب المتوسـط اسـتغلال أرخبيلاتها، فيما كان للأوروبيين الشـماليين ميزة الأرض الرطبة المتسـعة المكونة من الأنهار والبحيرات. لقد زرع هؤلاء واصطادوا السـمك، بنوا المستعمرات ومراكز التجارة، بيد أنهم كانوا دوما مستعدين للانتقال عندما كانت تهددهم المياه.

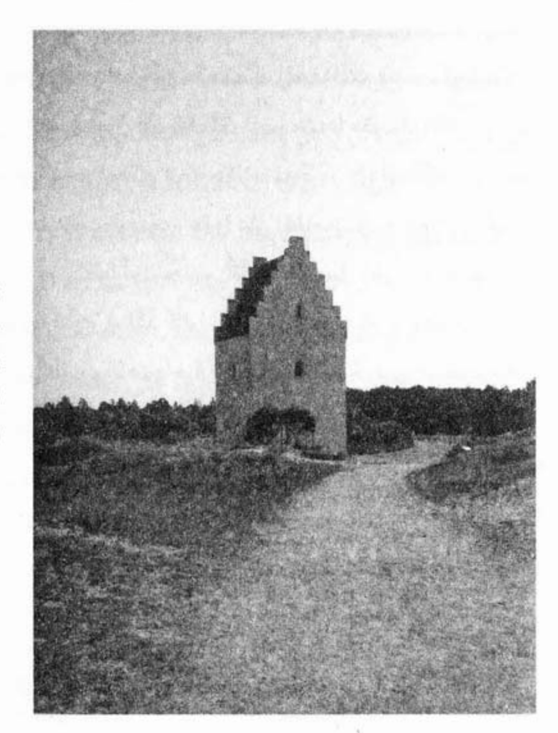
كانت المياه هي حبل النجاة لجنس الحافة هذا. لقد تعلموا كيف يتكيفون مع الفيضانات السـاحلية والتي أنعشـت مروجهم، حيث وفرت ملاذا للطيور الباحثة عن الطعام وللأسـماك، كما جددت من مخـزون الطحالب التي اعتمد عليها الناس كوقـود. لقد جرى توثيق مدى الفيضانات في منطقة جنوب غرب إنجلترا والمعروفة باسـم مستويات سمرست، في أسـماء أماكنها الجافة، جزيرة آفالون (غلاستونبيري) وجزيرة آثيني، والتـي هي اليوم محاطة تماما بالأراضي غير أنها كانت غالبا محاطة بالمياه خلال العصور الوسـطى في الفينلاند الواقعة(*) على الساحل الشرقي، جزيرة إلى (جزيرة إيلز) كانت جزيرة فعلية حتى القرن السـابع عشر، وذلك عندما جفت الأراضي الرطبة أخيرا.

لقد وفرت المياه كذلك سبيلا إلى الداخل العميق، للتجارة، وعليه، سبيلا إلى ثراء غير متوافر على الساحل بحد ذاته. لقد اعتمدت الحياة على إبقاء الأنهار والممرات المائية مفتوحة، فعندما كانت تلك تسـد بالطمي، كان يجري بناء القنوات. كانت المدن غالبا دوما ما تقع على الأنهار أو مصبات الأنهار، وكثيرا ما تتكون على الجزر التي توفر سـبلا للمياه على كل جوانبها. وبينما كانت هذه المدن تكبر في حجمها، كان يجري حفر القنوات لتسـهيل الوصول إلى مراكز هذه المدن. كانت فينيسـيا، أمسـتردام وسـتوكهولم كلها أرخبيـلات بطبيعة تصميمها، حيـث ملئت بالقنوات بجهود سكانها. لقد جرب الجميع مخاطر الفيضانات بيد أنهم كذلك تقبلوا البحر، وهي الممارسـة التي سـتهملها مدن الموانئ اللاحقة ذات الاتصال الأقوى بالأراضي الداخلية النائية[5].

(*) Fenlands أو Fens: إقليم مستنقعات طبيعي شرقي إنجلترا، تعرضت أغلب بقاعه للجفاف. [المحرر].

Twitter: @ketab_n

لطالما كانت أفضل وسائل الدفاع هي التراجع. فمنذ 500 ق.م، تعلم سكان الأراضي المنخفضة والمرتكزون على طول بحر الشمال كيف يحافظون على جفاف مناطقهم عن طريق بناء التلال الصغيرة التي كانوا يسمونها terps أو wieden. لقد بدأ البناء الجاد للخنادق فقط في القرن الثالث عشر، وذلك بوجود طواحين هوائية لتسحب المياه القادمة بعد ذلك بمائتي سنة. بالنسبة إلى هؤلاء البشر من القرن السادس عشر والذين استقروا في ما يعرف اليوم باسم هولندا، كان يبدو أن البحر «لا ينام لا في الليل ولا في النهار، ولكنه يهجم بوحشية مثل أسد يلتهم الأرض بأكملها». غير أن جهود خندقة الأرض وتجفيفها من المياه كانت بالخطورة العظيمة نفسها على الأرض كما هي خطورة البحر في حد ذاته. إن إزالة المياه تسببت في انكماش وانحسار الأرض الخصبة، ما تسبب في مزيد من الفيضانات. وبينما تمدنت هولندا خلال أواخر القرون الوسطى، جرى تجفيف الأراضي الرطبة الأقرب إلى المدن، مما تطلب مزيدا من الجهود الهرقلية لوضع البحر تحت السيطرة[6].



الكنيسة المغمورة، سكاغين، الدنمارك، هُجرت في 1775. الصورة من (ويكيبيديا).

Twitter: @ketab_n

انتشرت تكنولوجيا تصريف المياه تدريجيا في أرجاء أوروبا وأخيرا وصلت إلى العالم الجديد. لقد شكل الساحل الإنجليزي المقابل لهولندا أرضا رطبة أخرى، Fens أو أراضي مستنقعية، تلك التي سكنها الصيادون الرحل منذ العصر الحجري، والذين كانوا شعبا بحريا لا يرغب في أن تكون لديه أي علاقة بعمليات تصريف المياه التي كانت ستدمر بيئتهم الانتقالية الثمينة.

لقد اكتسب هؤلاء الناس سمعة كونهم «نمور المستنقعات»، حيث يقال إنهم كانوا يسيرون على ركائز طويلة بينما «يركزون تفكيرهم على رعي الماشية، وصيد السمك، وتربية الطيور الداجنة». كان هؤلاء مختلفين كثيرا عن الآخرين المعروفين بصفة رجال المناطق العليا والمزارعين الداخليين والذين كانوا يعتبرونهم «نوعا من البشر متوافقين مع طبيعة المكان الذي يقيمون فيه، وقحين، غير متحضرين، حقودين». كان أصحاب الأراضي المستأجرة absebtee landlords[*] ينظرون إلى الأراضي المغمورة على أنها «عديمة القيمة تماما» حيث كانوا يسرعون إلى تجفيفها. بحلول الثلاثينيات من القرن السابع عشر كان هؤلاء مستعدين لجلب مهندسين هولنديين لمساعدتهم فيما وُصِفَ بـ «المغامرات». في خلال عملية التصريف والتطويق هذه، هجّر هذا المشروع سكان هذه الأراضي المستنقعية، والذين كانوا يعتبرون المستنقعات أرضا مشاعا عظيمة، والتي كان لهم فيها حقوق استخدام بحكم مرور الوقت. اتجه هؤلاء المهجرون إلى المحاكم، غير أنهم كذلك في 1641 «تسلحوا، وبأسلوب فوضوي، عثروا على المغامرين، حطموا فتحات تصريف المياه، دمروا أراضيهم، أسقطوا أسيجتهم، أتلفوا محاصيل الذرة، هدموا بيوتهم، ثم وبالقوة استعادوا ملكية الأرض». لقد كانوا عدائيين خصوصا تجاه المهندسين الهولنديين، غير أنه يبدو واضحا من أغانيهم الاحتجاجية أن هؤلاء سكان الأراضي المنخفضة قد شعروا بأن نمط حياتهم بأكملها أصبح مهددا من قبل رجال الأراضي العليا[7].

> تعالوا، يا إخوة البحر، ودعونا جميعا نحتشد.
> لنتداول هذا الموضوع، الذي جعلنا نرتعش ونرتجف:
> فكم سنتحسر، إذا ما حدث حقيقة أن سقطت الفينز Fens،
> وحيث نعيش نحن على المستنقعات وعلى أعواد القصب، سيعيشون
> هم على لحم العجل ولحم الخنزير.

(*) إشارة إلى أصحاب الأراضي الذين يؤجرون أملاكهم من دون أن يعيشوا عليها. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

لقد نهضت جماعات بأكملها ضد هؤلاء المطوقين، «حشـــد من النساء والرجال، مســـلحين بالمناجل والمناســـف، قاذفين بكلـــمات تهديد ضد أي شـــخص يحاول أن يقودهم خارج مســـتنقعاتهم». وباســـم التطور الزراعـــي، كان المغامرون في مهمة ترويض ليس فقط قوى الطبيعة ولكن ترويض هؤلاء السائرين على الركائز الطويلة أيضا، والذين اعتبروهم أفضل بقليل من البرابرة الوثنيين[8].

أنا أغني لكبت الفيضانات ولترويض المحيط
الأنهار الغنية مسيطر ومستحوذ عليها
المياه بضفافها أسيرة كأنها حبيسة سجن
حتى تسمح لها قنوات تصريف المياه الحنونة بأن تتحرر.

سيكون هناك تغيير في الرجال وفي مواقفهم،
قلوب جامدة وقاسية مثل قلوب الهايد Hydes، ستغذى على الندم
و«أرواح الحافة» ستعي الحوار،
أياد جديدة ستتعلم أن تعمل، وستنسى أن تسرق،
سيقان جديدة ستذهب إلى الكنيسة، وركب جديدة ستركع.

ليس من المستغرب أن يكون العديد من الفنلاندريين جمهوريين وذلك خلال الحرب الأهلية الإنجليزية. كانت للشعوب الساحلية ولزمن طويل سمعة على أنهم فوق قوانين الرب مثلما هم فوق قوانين البشر. وبعد مائة سنة لاحقة كانت المستنقعات لاتزال تعتبر من قبل الإصلاحي الزراعي العظيم آرثر يونغ «بلدا شـــديد الوحشية [حتى] إنها ترعى جنســـا من الناس متوحشين كتوحش المستنقع، وهناك باتت أخلاق الجموع وصلاحهم مهددة ومدمرة بســـبب النقص في التطويق». حتى منتصف القرن التاسع عشر، كانت هذه الشـــعوب الساحلية سيئة السمعة بســـبب جموحهم، ومجموعة «أرواح الحافة» كان لايزال يعتقد أنها خارج نطاق حيز الحضارات[9].

مواجهة الأطلنطي

في البداية، اعتمد الأوروبيون إستراتيجية دفاع عميقة لحماية أنفسهم من البحر ومن الأعـــداء الذين قد يقدمون عـــبر البحر. لقد عين الأوروبيـــون موانئهم عميقا

Twitter: @ketab_n

على اليابسة، حيث مواقع المياه العذبة عوضا عن المياه المالحة. في أوائل العصور الوسطى، كانت أهم نقاط التبادل التجاري، entrepot، في السويد هي سيغتونا، الآن هي مدينة صغيرة مطوقة بالأراضي غرب أستوكهولم. بموقعها الداخلي على بحيرة مالارين، وفرت هذه المدينة منفذا لكل من بحر البلطيق وللداخل، ما جعلها مركزا ملكيا وتجاريا من 1000 إلى 1300. بعدها أفسحت المدينة المجال لاستوكهولم، وهي عبارة عن تجمع لجزر البلطيق والتي لم تكن مذكورة حتى في السجلات التاريخية إلى 1252. بحلول القرن الرابع عشر بدأت سمعة سيغتونا في الخفوت، حيث أصبحت على ما هي عليه اليوم، مدينة سياحية صغيرة من دون أهمية تجارية كبيرة. على رغم ذلك، استمر الربط بين الموانئ والمواقع النهرية العليا، وذلك حتى بداية العصر الحديث. في العالم الجديد كما القديم، تقع مبدئيا المواقع التجارية في أعلى الأنهار ضد التيار، عادة على fall line أو «خط الانحدار»، حيث تلتقي مقاطعات الأراضي المرتفعة بالسهول الساحلية. تحولت هذه إلى موانئ، بعضها مثل ألباني، نيويورك، وريتشموند في فيرجينيا تقع بعيدا أعلى الأنهار. التيارات المائية القوية والشلالات أعاقت حركة المرور في النهر لعدم إمكانية تجاوز هذه التيارات والشلالات غير أنها وفرت مواقع مثالية للطواحين والمشاريع الصناعية. في حالة نيو هامبشير، كانت مدن الطواحين على خط الانحدار مثل درهام وإكسيتر في البداية أكثر أهمية من بورتسموث الواقعة على البحر. في كاليفورنيا، تقع موانئ ساكرامينتو وستوكتون عميقا في الداخل، والتي هي بأهمية سان فرانسيسكو نفسها في الأيام الأولى لحمى الذهب.

إن الحركة باتجاه البحر كانت عملية طويلة ومعقدة، غير أننا نستطيع استبيان بدايتها في أواخر القرون الوسطى، عندما كانت نقاط التبادل التجاري في كل مكان تتجه ناحية الساحل نتيجة لملء الأنهار بالسدود والركائز، وعليه عَدَم قدرة المراكب العائمة الأكبر حجما على الوصول عميقا إلى الداخل. لقد تخلت كل من يورك ويبريس وغِنْت عن مكانتها كموانئ لتصبح مراكز تجارية مغلقة أرضيا. وكما رأينا، ارتبطت الأسواق ولفترات طويلة بالحواف وخصوصا بالسواحل، والتي كانت تعتبر أماكن محايدة حيث يمكن للتبادل التجاري أن يحدث بحرية. ومنذ القرن الثالث عشر فصاعدا نشأت في البداية تجارة شمالية تضليلية ليس في الموانئ ولكن على ساحل

Twitter: @ketab_n

فالســتربو، والتي هي اليوم جزء من المقاطعة الســويدية الجنوبية في سكانيا. وكونه جــزءا من مقاطعة الملك الدنماركي، كان هذا الشــاطئ مفتوحا للتجار الغرباء والذين كانوا يأتون في الربيع والخريف، حيث يرسون عبر الساحل ولكنهم ينشئون قرى مؤقتة تسمى fitten حيث يســتطيعون إدارة أعمالهم. في قمة شهرته، جذبت الكيلومترات السبعة من شاطئ فالستربو ممثلين عن 35 مدينة وشركة تجارية، بالإضافة إلى حشد من الممولين، الاســتعراضيين، والمومســات. خلال ذلك الوقت كانت فالســتربو، مثل مواقع الأسواق الأرضية، مكانا مهجورا، ليس بها سوى قرى لتشير إلى أهميتها بالنسبة إلى تجارة السمك العالمية[10].

مع مرور الوقت، تراجعت نقاط التبادل التجاري مثل ضفة فالســتربو لمصلحة مناطق التجارة الأكثر ديمومة. مبدئيا خارج أسوار المدن، أصبحت هذه المناطق مدنا موانئية ببنى تحتية دائمة، مرافئ عميقة محمية بحواجز للأمواج، خطوط ســاحلية ذات منشــآت خدماتية، مســتودعات، ومدن للبحارة. وحيــث إن الموانئ أصبحت تنســب إلى حافة البحر، أفسحت إســتراتيجية التراجع القديمة المجال لمصلحة وضع أحدث وأكثر جســارة، فقد بنيت موانئ جديدة وقُذفت المرافئ إلى الخارج. بحلول القرن السادس عشر لم تعد حافة أوروبا الأطلنطية نهاية العالم القديم بل بداية عالم جديد والذي بدأ يطوق الأطلنطي وما بعده[11].

ومــع ذلك، ظلت أوروبــا أكثر خوفا من البحر منها ســفرا فيه، فقد اســتمرت ساحلية بعناد شديد. في أواخر القرون الوسطى تكثفت التجارة الساحلية الأوروبية. وبالأســلوب نفسه، بدأ نشــاط الصيد، الذي كان حتى أواخر القرون الوسطى مهمة محصــورة في المياه العذبة كليــا تقريبا، يرتحل باتجاه الســاحل. مرة أخرى، عملت التغييرات في الأرض، خصوصا بناء الطواحين، والتي أتت مرفقة بعملية تثبيت الركائز الناتجة عن عملية إزالة الأشجار، وتلوث المياه الناتج عن مخلفات البشر والحيوانات، عملت هذه التغييرات على تغيير البيئة حتى إن الأوروبيين بدأوا في الابتعاد عن المياه العذبة واللجوء إلى المياه المالحة سعيا خلف مؤونة السمك الذي أصبح خلال القرون الوســطى جزءا رئيسيا من النظام الغذائي المطلوب من الكاثوليك الملتزمين دينيا. بدأ الســكان الذين كانوا يســتعيدون صحتهم بعد زيارة وباء الموت الأسود خلال القرن الرابع عــشر مجددا في انتهاك الأراضي الرطبة الســاحلية. حــارب الصيادون الرحل

Twitter: @ketab_n

الذين سكنوا هذه الأراضي الرطبة ألفية كاملة ضد عمليات التجفيف والتطويق، بيد أنهم أصبحوا يواجَهون بمؤسسات كنسية وملكية متزايدة القوى.

إن تـآكل حقـوق عامة الناس في الصيـد والجمع له تاريخ طويـل. فإلى تاريخ فتوحات النورمنديين في 1066، كان للشـعب الإنجليـزي منفذ لكل المياه المدية(*). عندمـا حـرم الملـوك النورمنديون الناس من ذلـك، حيث كانوا هـم من يقدمون تراخيـص للصياديـن، بدأ صراع قـاد إلى إلغاء امتيازات العـرش في الماجنا كارتا، أو الوثيقة العظمى، لسـنة 1215. وهكذا كان للشـعوب السـاحلية انتصارها، غير أن حقوقهم كانت محددة بالسـمك السـابح ولا تمتد إلى بقيـة القشريات. في القرون التالية، اسـتمر مـلاك الأراضي الأقوياء في التعدي على حقوق الاسـتخدام المتعارف عليها، متسببين في قيام مقاومة ثابتة من قبل شعوب السواحل والأنهار[12].

بحلول العام 1500 أصبحت السواحل والأراضي الداخلية متباينة بشكل حاد، ليس فقط اقتصاديا ولكن كذلك اجتماعيا وسياسيا. أصبح الداخل بحلول ذلك الوقت إقطاعيا تماما، تسـيطر عليه مملكات وأرسـتقراطيات مالكة للأراضي ذات قوى متزايدة، يحكم تجارتها تجار مدنيون متحمسـون لاحتكار التجارة التي كانت سابقا تحدث عن طريق الشعوب الساحلية من دون قيد أو ضريبة. لكن، وكما رفضت الأرض أن يبتلعها البحر، لم يستسـلم البحر بسـهولة للأرض. كان السـاحل مستقلا بشـكل كبير ليس فقط عن سـيطرة الأرسـتقراطيين والملكيين ولكن كذلك عن النقابات والمؤسسات المدنية. أصبح الأوروبيون الساحليون بحلول ذلك الوقت ما أسماه باري كنليف «أخوية عالمية»، والتي هي نتاج ألف سنة من النشاط الحر للتجارة والشعوب على طول الساحل. لقد قوبلت جهـود اللـوردات الداخليين لإعادة تعريـف التجارة الحرة على أنهـا تهريب، بمقاومة مـن مجموعـة «أرواح الحافة». لقد اسـتمروا في العمل من مرافـئ صغيرة وعادة ما تكون مؤقتة، حيث وُجد العديد منهم على جزر احتفظت بمكانتها خارج نطاق الدولة وباسـتقلالها. لقد جرى توصيف الساحل خلال أواخر العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة بشكل مسـتحق على أنه «منطقة للانتقال أو التحويل، جبهة «مفتوحة» على العالم العريض، منظمة ومسـيطر عليها بشـكل أقل بكثير من الإقطاعيات المملوكة أو المناطق المركزية للدولة العسكرية البيروقراطية[13]».

(*) Tidal waters: مياه فيها نشاط المد والجزر. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

الإمساك بالدفة والمحراث: صعود أول نموذج اقتصاد بحري

تتجـه نزعتنا الحالية إلى رســم خــط حاد بين الأرض والبحر، غـير أن مثل هذا التمييز يشـوه الماضي بشــكل كلي، خاصة زمن بداية العــصر الحديث، عندما كان معظــم صيادي الســمك مزارعين حيث لهــم، كما يقول الســويديون «فردة حذاء طويل في القارب والأخرى في الحقل». يقال إن الأوركيديانيين كانوا مزارعين يصيدون السمك، في حين أنه على جزر الشتلاند كان المزارعون معروفين بأنهم «صيادو سمك في أيديهم محراث». أصبح المزارعون الداخليون أصحاب ســوق ومتخصصين بشكل متزايد، غير أن هؤلاء المقيمين على الساحل خلطوا المواقع، فجمعوا بين صيد السمك وجمع النباتات والبســتنة، مســتغلين المدى المتكامل من المــوارد التي تقدمها بيئة الساحل الانتقالية. خلال العصور الوسطى شجع اللوردات الإقطاعيون مستأجريهم على مباشرة أنشــطة بحرية وذلك عن طريق المطالبة بالإيجار من السمك نفسه أو من النقود المحصلة من صيد الســمك. دفعت الكنيسة كذلك بملاك المزارع الصغيرة في اتجــاه البحر وذلك بمطالبتها بضريبة العشر من المصدر نفســه. غير أن الفلاحين المعنيــين نادرا ما كانوا يعيشــون على الســاحل بحد ذاته، فقد كانــوا يأتون البحر موســميا فقط. على الســواحل الجنوبية لديفون، احتفظوا بما كان يسمى «الأقبية» حيث كانوا يخزنون قواربهم ومعداتهم، مســتمرين حتــى القرن الخامس عشر في العيــش عــلى الأراضي الداخلية، حيث كانوا يشــعرون بأنهــم في مأمن من كل من العواصف وأنشطة القراصنة[14].

حتــى أواخر العصور الوســطى في إنجلــترا، «معظم صيد الســمك كان لايزال وبقوة في يد المزارعين الذين كانوا يصطادون بشــكل متقطع من دون تفرغ تام». شــارك النساء كما الرجال في سلسلة من الأنشطة التي كانت متغيرة بحسب الموسم والموقــع. أفضل مقارنة لهذا الاقتصاد المرن هي مع أول نموذج صناعي أرضي والذي ظهر في العصر نفســه. في هذا الوقــت كانت الزراعة مدمجة مــع الحرفة وعملية إنتاج الموارد، التعدين، النســج، الحدادة، الدباغــة، والتي جميعها كانت تحدث في إطار المســاكن وليس المصانع، حيث عادة ما يشــترك كل أفراد العائلة فيها، النساء كما الرجال، الأطفال والبالغون. كان ما قد يســمى protomaritime economy أو أول نموذج بحري للاقتصاد ينشأ حول حافة شمال الأطلنطي. ومثل تطور أول نموذج

Twitter: @ketab_n

صناعي، كان النموذج البحري شـــديد اللامركزية، حيث يحدث خارج المدن والموانئ الرئيسية، منظما عن طريق عامة الناس سعيا خلف حياة أفضل من تلك التي كانوا يحيونها كفلاحين يعملون في الأرض حصريا من دون غيرها[15].

كان الســـاحل نوعا من الواجهات، أقل تنظيما من الداخل حيث يزود الناس بدرجات أعلى من الحرية لاستكشـــاف فرص جديدة. فإذا ما كان الساحل خلال عصور أقدم قد امتد عميقا على اليابســـة، فإنـــه الآن يتجه ناحية البحر، مطوقا الجـــزر القريبة منـــه. في القرن الخامس عـــشر بدأ البرتغاليون بـــإدارة ظهورهم للداخل الأيبيري، متجهين لاستكشـــاف ســـاحل أفريقيا وكذلـــك، من خلال هذه العملية، لاكتشـــاف، وعن طريق المصادفة جزر ماديريا والأزور. اســـتدار كذلك شـــعب الباسك، البريتون، والإنجليز باتجاه البحر، ليس بحثا عن جزر جديدة بل للعثور على مؤن جديدة من الســـمك للســـوق الأرضي المنتعش. من الملاحظ أنه لم يكـــن إغراء البحر كثيرا ولكن دفع اليابســـة الذي ابتـــدأ هذا التحول الجذري. مـــا كان آخذا في البزوغ لم يكن مجتمعا بحريا بقـــدر ما كان جنس حافة حيويا وخلاقا، وهو جنس كان على وشك أن يتخذ من كل أرجاء حافة شمال الأطلنطي موطنا له.

وبحلول أواخر العصور الوســـطى تركز الفلاحون الفقراء على طول الســـواحل. فالنمو الســـكاني في القرنين الســـادس عشر والسابع عشر طرد الكثيرين من الداخل. لاحقـــا، ســـيدفع التطويق والتصفيات بمزيـــد من هؤلاء إلى الانتقال إلى الســـواحل وإلى حيـــث أول نمـــوذج اقتصاد بحري. اســـتأجر الفقـــراء أو احتلـــوا أجزاء صغيرة مـــن الأراضي حيث كانوا من الذين لا يســـتطيعون توفير ســـبل العيش لأنفســـهم. في الأراضي الداخليـــة، اتجه الفقراء المســـتنزفون ملاك المزارع الصغيرة إلى أنشـــطة متعلقة بأول نموذج صناعي ليتمكنوا من الاســـتمرار في الحياة. على الســـاحل، اتجه الفقـــراء إلى البحر ليتمكنـــوا من إنعاش الأرض. ارتفعت أعـــداد هؤلاء كما تزايدت كثافة المســـتوطنات الســـاحلية، حيث حلت مجتمعات صيد السمك المقيمة محل المواقع المؤقتة القديمة، لكن ليس بالأســـلوب الذي يمكـــن أن نتخيله. هذه الكثافة العددية على الســـاحل لم تأت بالضرورة بهذا النوع من قرى صيد السمك المترابطة والتي تشـــكل إرثا للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فقبل ذلك كان هناك نمط من

Twitter: @ketab_n

المســتوطنات الموزعة عشوائيا والذي كان مستمرا. على مواقع عديدة على الساحل الأطلنطــي «لا يوجد قرى. كل صياد يعيش في منزلــه منفصلا. فالحياة الجماعية لا تمتد لأبعد من العائلة»[16].

تــوزع صيادو الســمك المزارعون أفقيا على طول الســاحل، حيث تمركزوا حول قطع الأرض التي يســهل الوصول منها إلى القــوارب الصغيرة بدلا من التمركز حول الموانئ عميقة المياه والضرورية للســفن الأكثر ضخامة. لم تبرز القرية المتخصصة في صيد الســمك حتى القرن الثامن عشر، عندما بدأ التمييز بين صيد السمك والزراعة أخيرا وعندما انشــقت الأرض عن البحر. يجب فهم الموانئ القديمة على أنها أماكن «تغيــير، تقلبــات، وكل ما هو غــير متوقع، [حيث] إنها على نمط مــا بنيت عليه». لاحقا، برزت أســطورة قوم من صيادي السمك كشعب ذي جذور مميزة، كجزء من عرق، برزت لتعزل التاريخ الســابق لأول نموذج بحري لجنس الحافة والذي استغل كلا جانبي خط المد. إن أحد أفضل توصيفات مثل هذا الشعب تأتي إلينا من تقرير تمييزي متعال حول شــعب الثانيت، وهو مجتمع الثامسايد الواقع أسفل النهر من لندن، والذين وصفهم التقرير بأنهم «حيوانات برمائية، والذين يوفرون احتياجاتهم الحياتيــة مــن البحر والأرض . . . ماهرين في حمل كل مــن الدفة والمحراث، وذلك بحسب مواسم السنة»[17].

لقــد برزت أســطورة قــوم الصيادين المنعزلــين بالتزامن مع أســطورة البحارة المحترفــين، والتي هي نتاج بــروز توجه رومانسي تجاه البحر بدا ظاهرا خلال القرن الثامن عشر ولكن برز بكل قوته خلال القرن التاســع عشر. نحن نميل إلى أن نبالغ في تقدير نســبة البحارة المتفرغين في أوائل زمن العالم الحديث. فلطالما كان الإبحار عملا جانبيا، يتولاه الرجال موســميا (وأحيانا النساء) والذين كانوا مرتبطين بالأرض بقوة، وذلك كمرحلة من الحياة وليست كمسعى مستمر مدى الحياة. وعندما جرى تبنــي الصيد البحــري التجاري كعمل تفرغي كان هذا العمــل، بدافع من الحاجة، من نصيب أفقر الفقراء، الشــباب غير المتزوجين أو الذين لا يملكون أراضي، والذين ليســت لهم مزرعــة أو حرفة للاعتماد عليها والذين اعتمــدت قدرتهم على تكوين بيت أو أسرة خاصة بهم على قضاء ســنوات من الخدمة العازبة أو تحت عقد ملزم إما انتظارا لإرث ما وإما توفيرا لشراء مسكن وأرض من حوله[18].

Twitter: @ketab_n

لم يكـن هؤلاء الذين يصيدون السـمك مطلقا بجنس منفصـل ولكن كانوا طاقما متنوعـا، ليس بأي شـكل من الأشـكال متوافقا مـع القالب التقليـدي للبحار والذي اسـتحضره كتاب الرواية للقرن التاسـع عشر إلى الوجود. إنه خطأ في اسـتعادة الماضي عندمـا يجري وصف الصيادين بأنهم «تقليديون»، إمـا كونهم أقرب إلى الطبيعة وإما بقية باقية من ثقافة قديمة، ففي الواقع، المجتمعات السـاحلية كانت أكثر حيوية من الكثير من جيرانها سكان الأراضي الداخلية. إن أقوام الصيادين، وهم أبعد ما يكونون عن كونهم تقليديين في عاداتهم ونظرتهم إلى الحياة، كانوا نتاج تغييرات على الأرض والتي لم تعط للمحرومين من ملاك المزارع الصغيرة اختيارا سـوى «إما صيد السمك وإما الموت جوعـا». لاحقا، راقت الصورة المريحة لقرية الصيد الناشـئة كنقطة ثابتة في عالم متغير باسـتمرار لأوروبيي وأمريكيي القرن التاسـع عشر والذين كانوا يمرون بتجربة التمدن والتصنيع الموجعتين، غير أن الأسـطورة أخفت حقيقة أن تكاثر قرى صيد السـمك كان يوعز بشـكل كبير إلى المجموعة نفسـها من المتغيرات التي كانت تخلق حاجة ضخمة إلى السـمك بين أقوام المدن. تعمقا في القرن التاسع عشر، ستبقى كامل الحافة لشمال الأطلنطـي أول نموذج بحري، عالم متشرذم من المجتمعات السـاحلية الصغيرة المنعزلة (outports) والتي سيبقى لسكانها فردة حذاء طويل في القارب والأخرى في الحقل[19].

سوق السمك المتجول

ما الذي تسبب إذن في إبعاد الأوروبيين عن الساحل من دون إزالتهم تماما من الأراضي الداخليـة؟ المفارقة أن ما كان يحدث ليس في البحر بل على الأرض، تحديدا الكارثـة البيئية، هي التي غـيّرت العلاقة بين الأرض والماء خلال العصور الوسـطى المتقدمـة، بداية على الأرض ومن ثم على السـواحل في حد ذاتها. في بداية العصور الوسـطى كان الداخل الأوروبي لايزال مثقلا بالغابات، حيث جداولها «كانت تجري صافية، منعشة، ومستقرة». وعلى ما يبدو كان هناك سمك مياه عذبة كاف ليشبع الاحتياجات المعيشية وحتى لتحمل القليل من الصيد الترفيهي. وفرت ضفاف الأنهار وسواحل البحيرات حواف استثنائية الخصوبة. عندما سأل رئيس دير إنجليزي صياد سمك محليا لمَ كلف نفسه الصيد في البحر، أجاب الأخير: «أحيانا أفعل، ولكن نادرا، لأنني أحتاج إلى الكثير من التجديف للوصول إلى البحر»[20].

Twitter: @ketab_n

لقد كانت البداية في القرن العاشر أن تسبب النمو السكاني في التصحر الشديد. كانـت الأراضي الزراعية أقل قـدرة على تحمل تدفق الأمطـار، ما أدى إلى حدوث فيضانـات محلية وعملية تعريـة للأرض. بدأت الأنهار تمتلئ بالطمي والرواسـب، فَبطأت حركتها وأصبحت أكثر دفئا. تأثر سـمك السـلمون بشـكل خاص. في بعض الحالات، سُـدت منافـذ البحر، ما أعـاق دورات التبويض للسـمك المهاجر للمياه العذبة. وما كان أشـد ضررا هو السدود التي تناثرت على المجاري المائية الأوروبية والتي وضعها ملاك الطواحين والمشـاريع الصناعية الصغيرة وذلك لاستغلال الطاقة المائية. كان التهديد لدورات تبويض سـمك السلمون في أسكتلندا في غاية الخطورة لدرجة أن صدر تشريع في 1214 يأمر بفتح السـدود دوريا للسماح للسمك بالمرور. يمكـن العثور على عديد من التشريعات المماثلة في جميع أنحاء أوروبا، حيث تزايد القلـق تجاه انخفاض معدل الصيـد في الأراضي الداخلية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وبينما أصبح الداخل الأوروبي أكثر تمدنا، شكل التلوث، بسبب النفايات البشرية ونشـاطات مثل الدباغة والصباغة، مخاطر إضافية بالنسبة إلى عملية صيد السـمك، ليس فقط من أجل الاحتياجات المعيشية ولكن كذلك من أجل نمو سوق السمك التجاري في المدن الكبرى[21].

حتى القـرن الحادي عشر، لم يبدأ الصيـادون الأوروبيون حتى في مس مصادر البحر، ما عدا تلك التي لاحتياجاتهم المعيشية على الساحل ذاته. لكن الآن انخفاض مخزون سـمك المياه الداخليـة مضافا إلى ذلك ارتفاع حاجة المدن إلى السـمك قد غـير كل ذلك. فمـع الوصول إلى ذروة القرون الوسـطى، كان منع الكنيسـة لأكل اللحم والسـمك الطازج خلال أيام معينة، أيام الجمعة، أيام القديسـين، والأربعين يوما للصوم الكبير، يعني أنه كان يجري اسـتبدال اللحم والسـمك الطازج بالسمك المجفـف لمدة تتراوح بين 130 و 150 يوما في السـنة. وبينـما أصبحت أوروبا أكثر غنى وأكثر تجارية، أصبح الناس أكثر اعتيادا على أكل السـمك. كانت النتيجة ظهور أسواق السمك في المدينة، والتي لم يعد من الممكن تغطية احتياجاتها من صيد المياه العذبة. تكونت أشكال جديدة من الزراعة المائية حول برك الأسماك الممتلئة بسمك المياه الدافئة مثل سمك الشبوط عجزت بدورها عن تغطية الطلب المتزايد. عندها، ولأول مرة، طور الأوروبيون فكرة صيد السمك البحري التجاري، وذلك بدءا من أمام

Twitter: @ketab_n

الســاحل النرويجي حيث جرى اختراع عملية تجفيف سمك القد على جزر لوفوتن. من هنا فلاحقا، أصبح سمك القد ما أسماه مارك كورلانسكي «تقريبا رمزا دينيا»[22].

في القرن الحادي عشر، أصبحت مدينة برغن مركزا لتجارة القد المجفف، حيث كانت تزود معظم مناطق شمال أوروبا وإنجلترا. حطم التحالف الهانسيتي(*) احتكار مدينــة برغــن بعد ذلك بقرنين لكنه فشــل في منع الإنجليز من صيد الســمك عبر ســواحلهم. فمن الموانئ على ساحلهم الشمالي الشرقي، تحدى الإنجليز النرويجيون والهولنديون في بحر الشــمال، مطلقين سلســلة من حروب ســمك القد انطلاقا من أيســلندا ومناطق أخرى. تسببت هذه المنافسة بشــأن مخزون سمك القد القريب من الشــاطي والآخذ في التناقص، في الدفع بصيادي الســمك الأوروبيين الشماليين، والذين كانوا ســابقا ساحليين بشــكل كبير وذوي تجربة محدودة في أعماق البحار، أبعد وأبعد عن الســاحل. بدأ الصيادون المقيمون على الســواحل الشمالية لإنجلترا وأســكتلندا بالتنقيب في شمال الأطلنطي عن مســاحات سمكية جديدة. سرعان ما واجه هؤلاء منافسة من الهولنديين وكذلك من الإسكندنافيين، حيث انضم الأسطول الباسكي المرعب إلى هؤلاء من سنة 1540 فصاعدا[23].

بحلول نهاية القرن الخامس عشر، كانت القوارب بريستول تبحث عن السمك على مســافات أعمق باتجاه الغرب، وذلك ليس بهدف الاستكشــاف أو الاستعمار بل كجزء من مشروع يدور حول فكرة الســوق والذي أصبحت له الآن ديناميكية خاصة به. في العام 1497، استطاع جون كابوت أن يبلغ تجار بريستول بأنه شاهد ما أسماه New Found Land أو «الأرض المكتشفة حديثا». لم تكن الأرض في حد ذاتها بل الســمك في البحر حولها هو ما أثار الأوروبيين بدرجة أكبر وسيســتمر في إثارتهم على مدى القرنين التاليين. عندما شــاهد ابن كابوت، سيباستيان، لابرادور في العــام 1508، أطلــق عليها اســم Baccallaos أو باكالوس، حيث «وجد هو في البحر المجاور كميات عظيمة من نوع معين من الســمك الكبير بالأطنان، يســميه المستوطنون باكالوس، حتى إنه أحيانا كان يسد الطريق على سفنه». ولمرة أخرى، عرف البحر اليابسة لهؤلاء الذين كانوا يعرفون كيف يعيشون على الاثنين بأسلوب جنس الحافة[24].

(*) Hanseatic League: نقابة كونفيدرالية للتجار. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

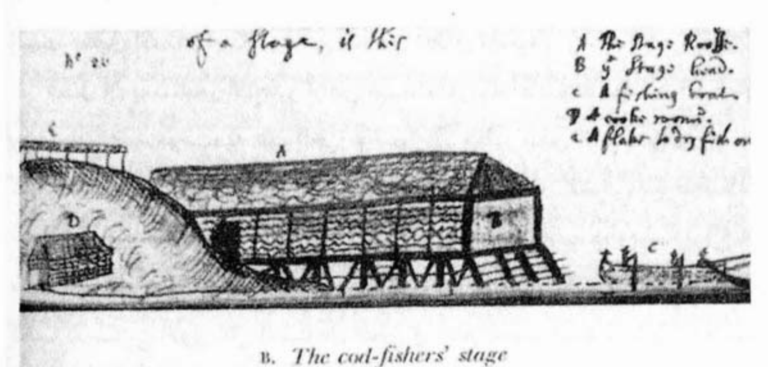
شــكل شمال الأطلنطي ما أسماه جيفري بولستر one great bioregion أو منطقة بيولوجيــة عظيمة موحدة. إن تشــابه المياه البــاردة، والظــروف الغذائية، والأجناس الســمكية حول حافته ســهلت على الأوروبيين تطبيق الأساليب التي تعلموها من على ســواحلهم هم على بحار الشمال والغرب. كان صيد الســمك الأوروبي في بداية العصر الحديث هو صيد مهاجر، له طبيعة موســمية، يختلف عن ممارسات الصيادين الرحل القديمة فقط في النطاق المتسع للتحركات التي يقومون بها. كانت مسارات الهجرة التي امتــدت في زمــن ما لعشرات أو على أكثر تقدير لمئات الأميــال، قد امتدت الآن للآلاف منها. ولقد أصبح الزمن بعيدا عن الوطن، والذي كان يقاس بالأسابيع في زمن ما، أصبح الآن يقاس بالشهور، ولاحقا، في حالات صيد الحيات، بالسنوات. بيد أن عقلية الصيادين الرحــل لهذا الزمن اللاحق كانت مشــابهة لتلك التي لجنس الحافة في العصور المبكرة. كان هــؤلاء يعملون في المجموعات الصغيرة نفســها، حيث كانوا يقاومون الانتظام مع أي مجموعات خارجية، ومســتمرين في كونهم حاكمين لأنفســهم بشكل كبير. كونهم متناغمــين مع حركة البحر وأحيائه، دوما على اســتعداد لتتبع الطرائد حيثما تقودهم، كان الصيادون المرتحلون يعملون على أســاس مبدأ أن البحر مفتوح للجمِيع. بالنســبة إليهم، حقوق الاستخدام كانت تعني أكثر من حقوق الملكية[25].

قبــل أن يســتعمر الإنجليز أراضي شــمال أمريكا، أســس هــؤلاء لمراكز تجارة ومخيمات صيد موســمية على الجزر والسواحل. تغادر سفن الصيد موانئ ويست كنتري في الربيع مسرعة الى أكثر الموانئ جاذبية على الساحل الشرقي لنيوفاوندلاند، حيث أول قبطان يصل سيكون هو «الأدميرال» المميز لهذا الموسم، وحيث يوزع هو ما كان يسمى «غرف» صيد السمك، ويسوي الخلافات بين أطقم الملاحة المتنافسة. كانت الأســابيع الأولى على الســاحل تقضى في صنع رصيف الميناء، ملاجئ خشــبية خشــنة المعيشــة، والمنصات حيث يجفف عليها ســمك القد. بعدها، يأخذ معظم الرجال القوارب الصغيرة لاصطياد ســمك القد بطريقة handline أو بالخيط المفرد فيما يبقى البقية على الســاحل «ليصنعوا السمك»، حيث يفتحونه، ويعالجونه، ثم يجففــون الصيد. بحلول القرن الثامن عــشر كان بعض الرجال يتركون خلفا ليحموا الغرف خلال الشــتاء، بيد أن المســتوطنات الدائمة لم تكن محبذة، ولم يحدث إلا في 1824 أن بدأ الناس بتمييز حقوق الملكية في المجال البحري[26].

Twitter: @ketab_n

تناوشــت جماعة «أرواح الحافــة» حول الموارد بيد أنهم أظهــروا درجة رائعة مــن التعاون في مواجهة صيادين رحل آخرين على الســواحل البعيدة. وبانتخابهم «أدميرال» ليشرف على ميناء كل صيف، كان صيادو الســمك الأوروبيون المرتحلون القادمون من أماكن مختلفة يســوون خلافاتهم من دون تدخل القوى الملكية. قام لويس روبرتس بتوصيف المشهد في العام 1638[27].

> خمســمائة ســفينة كبيرة وصغيرة كانت تبحر من إنجلترا سنويا إلى هذا الســاحل... حيــث تصل هنــاك في حدود منتصف أبريل، يرســون ســفنهم، ويقيمون أكشاكهم وكبائنهم على الساحل في خلجان وموانئ مختلفة، وهناك بوجــود مؤن الصيــد والملح، يبدأ هــؤلاء الصيد من على قواربهم وســفنهم، مســتمرين في ذلك إلى سبتمبر... وبانتهاء موســم الصيد هذا ومع بداية الجو البارد، يغادر هؤلاء مراكزهم وقواربهم، يصعدون سفنهم، يحملون أسماكهم، ينشرون أشرعة مراكبهم، ثم يعودون إلى مواطنهم الأصلية، حيث يقضي هؤلاء الصيادون الشــتاء ثم يصبحــون مزارعين، وعليه يمكن مقارنــة حياتهم بحياة حيوان القندس، والتي يقضي نصفها على الأرض ونصفها الآخر في البحر.



منصات صيد في فيرلاند، ، مرسومة في الموقع بيد الجراح الإنجليزي جيمس يونغ في القرن السابع عشر.

كانت معظم مراكــز الصيد مبادرات خاصة، حيث لم تأتها ادعاءات الســيادة الملكية إلا لاحقا فقط، تقريبا كأنها فكــرة تاليــة لتأسيســها. في أوقــات ما اصطــاد الإنجليــز مــن علــى ســواحــل كانــت اســميا تنتمي إلى فرنســا، فيمــا احتل

Twitter: @ketab_n

الأكاديون(*) المتحدثون الفرنسية أراضي هي تحت السيادة البريطانية. كانت الأرض في حد ذاتها مثيرة للاهتمام، بيد أنها بالنسبة إلى الأشخاص الذين عاشوا حيواتهم «نصفها على الأرض ونصفها الآخر على البحر» انحصرت أهميتها في مدى توفيرها منفذا إلى البحر. فكما يقول دونالد مينيغ: «كانت البحار غنية، الأراضي فقيرة. كان الدافع الرئيس إلى السيطرة على الأرض هو الحصول على أفضلية استغلال البحر». في نيوفاوندلاند وغاسبيه، كان الاهتمام بالداخل ضئيلا جدا، ينحصر في الاهتمام بالخشب لبناء غرف الصيد. لم يكن لدى صيادي الصيف أي وقت للزراعة حيث إنهم في البداية كانوا يحضرون مؤونة طعامهم معهم. لاحقا، عندما أصبح التجار أكثر ارتباطا بمشاريع صيد السمك، أدار هؤلاء نظام «شاحنة» حيث كان يجري تبادل السمك بالطعام والبضائع الأخرى التبادلية القادمة عبر البحار[28].

حتى عندما أصبحت المستوطنات الدائمة أكثر شيوعا خلال أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ظل الصيد نشاطا ارتحاليا، بيد أن القوارب كانت تغادر من سواحل نيوإنجلاند والمقاطعات البحرية في كندا Maritimes الآن بدلا من إنجلترا. كان يجري إعلام المهاجرين البريطانيين إلى جزيرة الأمير إدوارد، في أواخر 1819، بأن «ميزة التمركز على الساحل البحري لا بد أن تكون واضحة، وذلك عند مقارنتها بالوضع المزري لهؤلاء الذين جرى خداعهم ليهجروا أراضيهم الأصلية من أجل الأراضي الداخلية في الولايات المتحدة». فعلى الساحل وعلى طول الأنهار كان لهم أن يتوقعوا أن يجدوا اليابسة وكذلك منفذا للصيد، وذلك بالإضافة إلى العلاقات مع شبكات التجارة والتي شملت نيوفاوند لاند وجزر الهند الغربية. فلا عجب أن القرى التي بدأت بالتجمع حول أرصفة المرافئ والموانئ الصغيرة قد أسميت outports أو «بوابات خروج»: كان اتصالهم الوحيد يحدث عبر الماء، حيث كانوا غالبا أكثر ارتباطا بالموانئ على السواحل البعيدة عن ارتباطهم بأي شيء على جانبهم من الأطلنطي[29].

ولأنهم كانوا قادرين على الإبحار مباشرة إلى ضفاف صيد نيوفاوندلاند من بريتاني ونورماندي، سيطر الفرنسيون على مراكز صيد نيوفاوندلاند في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر. كانوا يسعون نحو مركز صيد «مائي»، حيث

(*) الأكاديون Acadians هم سلالة مستعمرين فرنسيين احتلوا أكاديا، شرق الساحل الكندي، في القرن السابع عشر. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

يعالجون سمك القد بتمليحه وتخليله، غالبا من دون أن يلمسوا اليابسة مطلقا. كان الإنجليز سادة لمراكز الصيد «الجافة»، والتي كانت تتطلب مراكز صيد موسمي مجهزة بمنصات تجفيف والمعروفة باسم flakes أو منصات. بحلول العام 1590 كان الإنجليز يهجرون موانئهم الساحلية الشمال الشرقية القديمة من أجل موانئ جديدة في ويست كونتري، والتي كانت توفر منفذا أسهل للصيد من نيوفاوندلاند. بمرور الوقت سيستطيع الإنجليز طرد الفرنسيين من نيوفاوندلاند ذاتها.

ونظرا إلى حقيقة أن سمك القد يُحفظ بشكل أفضل من أي جنس أسماك آخر في شمال الأطلنطي، استمر هو في كونه الصيد الأعظم. كان الإسكندنافيون يمارسون صيد الحيتان منذ القرن التاسع، وفي ذروة القرون الوسطى كان الباسكيين يتخذون من الحيتان الضخمة right whale والحيتان الرمادية gray whale مصدرا للحوم والزيوت وذلك على خليج غاسكونيا. وكما هي الحالة مع سمك القد، عندما استنزفت مراكز صيد السمك القريبة من الشاطئ، نقل هؤلاء عملهم بعيدا باتجاه الغرب، لينصبوا أنفسهم أخيرا على ساحل اللابرادور، مستغلين عادات الهجرة للحيتان مقوسة الرأس bowhead whales والحيتان الضخمة وذلك من خلال مضيق جزيرة بيل. كان صيد الحيتان، مثل صيد الأسماك، ارتحاليا وموسميا. كانت سفن صيد الحيتان الباسكية تغادر الساحل الأوروبي أواخر الربيع، حيث تؤسس لمراكز تنطلق منها مراكب صغيرة (chalupas) سعيا خلف الحيتان العابرة، حيث تعيدها إلى الموانئ مثل ذلك الذي في الخليج الأحمر Red Bay لكي يجري تحويلها إلى زيت في ما كان يسمى tryworks[*]. ينقل عندها الزيت إلى براميل ضخمة على متن السفن المبحرة إلى أوروبا. واليوم يقدر أنه بحلول أوائل القرن السابع عشر، قُتل ما يقرب من عشرين ألف حوت، ما غير في أنماط هجراتها ورفع بالباسكيين ليوجهوا انتباههم إلى صيد سمك القد[30].

كما أصبح صيد الفقمة تجاريا في ذلك الوقت، وذلك، مرة أخرى، بنتائج متوقعة للدفع بمستعمرات الفقمة لمغادرة السواحل، حيث كانوا يوجدون على مدى قرون، وذلك إلى الجليد القطبي، حيث، وإلى وقت قريب، كان يجري اصطيادها من أجل فرائها. سيلاقي كذلك حيوان الألفظ، المرغوب بسبب عاج أنيابه، مصيرا مشابها. فما دام الصيادون الرحل القطبيون المحليون يصطادون هذه المخلوقات من أجل تأمين الغذاء، لم يكن هناك تساؤل بشأن بقائها، لكن أصبح صيد السمك واصطياد الحيوانات

(*) هي أهم أجزاء سفينة صيد الحيتان، حيث تحتوي على قدور ضخمة لإعادة تصنيع زيت الحوت. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

تجاريا، ما أسماه كالوم روبيرتس «أول كارثة صيد سمك في العالم»، ولم يكن في الإمكان إيقافهما. بكل تأكيد، كان دمار القرنين الخامس عشر والسـادس عشر متواضعا مقارنة بالمستوى الصناعي لصيد السمك اليوم، بيد أنه جرى التأسيس لنمط وبعواقب لم يكن لأحد، وقتها، أن يتنبأ بها[31].

إمبراطوريات على طول الساحل

إن التركيـز المفرط على رحلات المستكشـفين البارزين قد أعمانا عن ملاحظة طرق تشكيل حافة شمال الأطلنطي والتي حدثت عن طريق المخاطرات المنسية لمئات الآلاف من صيادي السـمك المزارعين المجهولين، والذين لم تكن لديهم أي نية للاسـتقرار على الساحل البعيد مطلقا. فإذا ما كانت المستعمرات هي النتاج النهائي لهذه العملية، فإنها لم تكن مطلقا النية المبدئية لها. لقد أبحر كولومبوس بنوايا لم تخرج عن كونها تجارية. فمن الخطأ رسـم خريطة تاريخ الاستعمار للقرنين السابع عشر والثامن عشر بناء على العصور السابقة. فكما كان الوضع مع الإمبراطوريات البحرية القديمة، كانت النية هي لتأسيس مناطق معزولة تجارية تسهل حمايتها وليست مستوطنات زراعية أرضية[32].

وعلى نمط مشابه جدا لذلك الذي للإمبراطوريات البحرية، كانت الإمبراطوريات الأوروبية لبداية العصر الحديث متمركزة بحريا أكثر منها أرضيا. فعلى مدى ثلاثمائة سـنة تحكمت هذه الإمبراطوريات في سلسلة من المحيطات وممرات الأنهار، والتي على طولها كانت هناك مناطق معزولة ذات مواقع إستراتيجية مواجهة للبحر عوضا عن المناطق الداخلية المطوقة. لقد كان الاكتشاف الأولي للعالم اكتشافا للبحر. «فعن طريق وسيلة نقل بحرية، جرى افتتاح أسواق متسعة لكل أنواع الصناعة عما كانت توفره وسـيلة النقل الأرضية بمفردها»، كتب آدم سـميث، «وعليه فإنه على ساحل البحـر، وعلى طول ضفاف الأنهـار الصالحة للملاحة، بـدأت الصناعة بكل أنواعها بأن تتفرع وتتطور من نفسـها». جلـب الأوروبيون معهم توقعـات حضارة نهرية وسـاحلية. لقد ركزت الاستكشـافات الأولية على مصبات الأنهـار كبوابات والأنهار كممرات للداخل، وليست كمواقع للمستوطنات الدائمة[33].

لقـد جلب الأوروبيـون معهم كميـة متناثرة مـن الآراء الجغرافيـة، والحقائق، والأساطير، والتجارب، بالإضافة إلى الأوهام التي أسماها جون كيرتلاند رايت geosophy

Twitter: @ketab_n

أو «الجيوصوفيا». فمنذ العصور القديمة كان هؤلاء يتخيلون العالم بمصطلحات معزولة، جزيــرة أرضية عظيمة واحدة محاطة بالعديد من الجزر الصغيرة. لقد تخيل كولومبس نفســه قافزا من جزيرة إلى أخرى وصولا إلى شرق آســيا، ولقد كانــت خيبة أمل كبيرة أن وجد عائقا أرضيا يســد طريقه. بيد أن الخيال لم يستســلم بســهولة للواقع، حيث اســتمر المستكشفون في البحث باتجاه خطوط العرض الشمالية للعثور على ممرات إلى الهنــد. لقد كانــت الأجيال الأولى من الأوروبيين التي وضعــت قدمها في العالم الجديد من الشعوب المائية، من ســكان الجزر، الأنهار، والسواحل، كما أن الأمريكيين الأصليين الذين التقوا بهم في البداية كانوا كذلك جنس حافة، مشتركين معهم في كثير من الأفكار الجغرافلســفية، متخيلين أنفســهم على جزرهم الأرضية الخاصة بهم محاطين بالبحار المطوقة لهم. لقد اعتقد مخبرو جون ســميث المحليون من فيرجينيا أن العالم «مسطح ودائــري مثل صينية، وهم في منتصفها». لقــد أخبروه أنه باتجاه الغرب يقع بحر آخر. لقد أسمى شــعب الواباناكي الذي كان موجودا في ماين نفسه People of the Dawn أو شعب الفجر، كونهم يحيون على حافة شرقية لجزيرة عظيمة أخرى[34].



خريطة لفيرجينيا بيد جون فارار، والتي تظهر كلا من السواحل الشرقية والغربية.
مقدمة من مكتبة الكونغرس.

Twitter: @ketab_n

بتأكيد مــن الأفــكار الجيوصوفيــة المحليــة native geosophies، لم يكن مستغربا أن اعتقد الأوروبيون أنهم وجدوا أرخبيلا عوضا عن قارة. فقد أخبرتهم الجيوصوفيا الخاصــة بهم أن المياه تجري شرقا وغربا، وأن الأنهار العظيمة التي صادفوها في شمال أمريكا كانت «بحارا ساحبة إلى الداخل» والتي كانت ستحملهم سريعــا إلى مــا كان يعتقد أنها مياه داخلية، عادة مــا يطلق عليها البحر الغربي، وبعدها إلى الهادي. لقد شجع المحليون المتعاونون المستكشف الفرنسي كاديلاك في إطار هذا الخيال حيث أكدوا له أن الأنهار والبحيرات سريعا ما ســتحمله إلى نقطــة «يقال إن ما بعدها لا يوجد أرض». لقــد أحضر جين نيكول مغه ملابس رســمية مصنعة مــن الدمقس الصينــي كهدايا للملوك الآســيويين والذي توقع مقابلتهم بين شــعب الوينيباغو على بحيرة ميتشــيغن. كان المستكشف فيرازانو يبحث عن قطاع بري ضيق مثل باناما على خطوط العرض الشــمالية في 1524، عندما ظن خطأ أن بامليكو ســاوند عــلى الجانب الغربي لجزر كارولينا المتاخمة (الضفاف الخارجية) هي البحر الغربي. لقد بقيت فكرة أن العبور إلى جزر الهند كان مجرد مسيرة بضعة أيام رُكْناً إيمانيا بين مستعمري فيرجينيا، والذين تصوروا أنفســهم على جزيرة. لقد كفلت لهــم امتيازاتهم الملكية الأراضي «من البحر إلى البحر»، كما كان الوضع لهؤلاء في ماساتشوســيتس، كونيتيكت، وكارولينا. تظهر خريطة نــشرت في 1651 فيرجينيا على أنها معزولة، حيث الأطلنطي على جانب و«بحر الصين وجزر الهند» على الجانب الآخر[35].

وكــما كان الوضع في العالم القديم، كونت الأنهار والبحيرات عالما مائيا متواصلا، ممتــدا لآلاف الأميال بين الأراضي الداخلية. لقد بالغــت الخرائط القديمة في حجم ومدى الخلجان ومصبات الأنهار، واعدة بممرات مائية عميقة في الداخل الأرضي. لقد حققت سكة حديد هدسون وسانت لورانس التوقعات، على الرغم من أن التمنيات بــأن تقود أنهار فيرجينيا إلى بحيرات تجف غربا كما شرقا موصلة إلى الهادي، والذي كان يدعى وقتها بحر الهند الشرقي، قد خابت. فعلى مدى مئات السنوات، ووصولا إلى رحلة لويس وكلارك الاستكشــافية في 1804، ســيجري استكشــاف القارة بشكل أســاسي عبر القوارب، حيث يعكس ذلك ليس فقط كفاءة وسائل المواصلات المائية ولكن كذلك استمرار الاعتقاد أن العالم الجديد كان أرخبيليا عوضا عن قاريا[36].

Twitter: @ketab_n

وكـما بين ويلكومب واشـبورن «غالبا مـا تطلع الأوروبيـون إلى ما بعد أو أغفلوا الأرض الحقيقية التـي وصلوا إليها، متوقعين ممرا إلى أرض الهادي والتي بقيت خيالا في عقولهم». كان من أول الأشـياء التي قام بها فرانسيس بيلينغتون عندما ترجل عن سـفينة ماي فلاور في 1620 أن تسلق شجرة ذات مشهد تجاه الغرب، حيث أبلغ أنه شـاهد «بحرا عظيما، كما كان يعتقد». ظهر بعد ذلك أن هـذا البحر العظيم لم يكن سـوى بركة، والتي إلى اليـوم تدعى بحر بيلينغتون. وعندمـا وصل الأوروبيون إلى السـاحل الغربي لأمريكا الشـمالية قاموا بتطبيق الجغرافلسفة نفسـها، وإن كانت باتجاه مغاير، حيث فكروا بمنطق الأرخبيلات سـاعين خلف ما أسـموه مضيـق أنينـا، الذي كان يفـترض أن يوصل شرقا إلى بحـر داخلي. لقد استكشـف هؤلاء كل مصبات الأنهـار الضخمة حتى تخلوا في النهاية عن فكرة ممر شرقي. بيد أنهم عانوا صعوبة أكبر في التخلي عن فكرة أن كاليفورنيا جزيرة، وهو الخيال الذي رفض الاستسلام للحقيقة حتى القرن الثامن عشر، عندما، كما حدث مع مضيق أنينا، اختفت هذه الجزيرة أخيرا من خرائط العالم. عندها فقط قبل الأمريكيون حقيقة أنهم كانوا يحتلون قارة منيعة وليس أرخبيلا الملاحة فيه ممكنة[37].

«لقد تعلقت تجارب أوروبا في الفتوحات، والاسـتعمار، والتجارة مثل تعلق قشريات البحر بالسـفينة وذلك على سواحل محيط العالم أو أنها تقصت الجزر المقابلـة للسـواحل والمحاطة بالخنادق البحرية، «يقول سـتيفن باين. لقد كان ذلـك إرثا عن المتوسـط، حيث مـدن الموانئ كانت تنتمي أكـثر للبحر منها إلى اليابسـة. هناك، حيث الناس «يشعرون بأنهم أقرب إلى مدنهم منهم إلى دولهم وأممهـم، و(حيث) فعليا مدنهـم كانت هي دولهم وأممهـم وأكثر من ذلك»، كانت دولة الأمة الإقليمية أبطأ في تطورها. فحتى القرن التاسع عشر، كان يجري التحصل على أفضل مكتسـبات الإمبراطورية عبر الساحل وعلى طوله وليس من الأراضي الداخلية. كانت إسـبانيا الجديدة هي الاسـتثناء الـذي ثبت القاعدة. «فالمسـتوطنات (القارية) كانت مثل الإسـفنج الذي كان يمتص رأس المال»، لقد كانت تمثل اسـتثمارا سيئا إلا إذا، مثل إسبانيا الجديدة، قدمت الذهب والفضة. لقد خيبت أمريكا الشـمالية آمال هؤلاء الذين كانوا يسـعون إلى الثراء السريع،

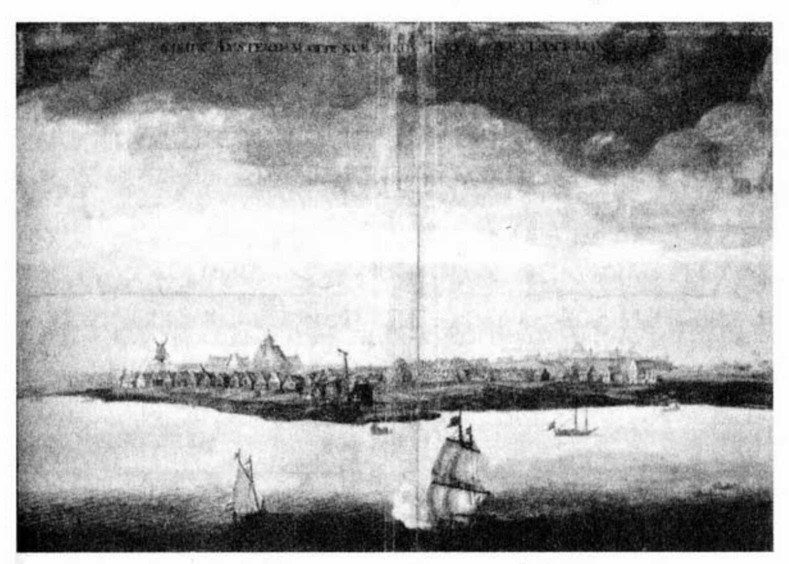
Twitter: @ketab_n

وعندما اســتقر الهولنديون، الفرنســيون، والإنجليز، فقد فعلوا ذلك على الجزر، روانوك، ســانتا كروز، ســابل، جيمس، مانهاتن، أو في الأماكن التي كان يعتقد أن لها منافذ مائية على كل الجهات، مثل فيرجينيا وماساتشوســيتس. كان البحر هو حبل النجاة بالنســبة إليهم، ولم تكن أي من المســتعمرات الشمالية الشرقية في العالم الجديــد قريبة من الاكتفاء الذاتي، فعندما يجري عزلها عن العالم الجديد، فإنها، مثل مستوطنة روانوك، تفشل تماما[38].

في العديد من الأماكن كانت المقايضة الخرساء أو التجارة الصامتة لاتزال تدار من على أســطح السفن، سامحة للمســافرين الأوروبيين بتفادي الاتصال المباشر مــع الأراضي الداخلية. تطورت الموانئ الدائمة مــن المراكز التجارية المؤقتة التي أسســها البرتغاليون على الجزر على طول الســاحل الأفريقي ولاحقا خلال آسيا. لقــد خدمت هذه الموانئ مصالحهم التجارية مــن دون أن تشركهم في تكاليف حماية المستعمرات الساحلية. بيد أن الهولنديين هم من حَسَّن تماما إمبراطورية الساحل وذلك في العالم أجمع، مستخدمين الجزر في الشرق والغرب، في فورموسا، اليابــان، سريلانــكا، وجافا وكذلــك في الأمريكتين. كانت دونا ميرويك تســميهم الأصليين «قوم امتداد الســاحل»، والذيــن كانوا يرون العالم ليس «بعيون الفلاح الذي يتطلع إلى الأرض، بل بعيون البحار». أشــارت ميرويك إلى أن مانهاتن، مثل مركز التجارة الهولندي البالغ الصغر في ناغازاكي، كانت pied-a-terre أو مسكنا مؤقتا أكثر منها ملكية رسمية. «لقد اعتبر الهولنديون أنفسهم أهل جزر وخطوط ســواحل، أهل الأراضي المغمورة والحدود المتغيرة»، والذين كانت مدنهم «جزرا صغيرة»، متصلة أكثر عن طريق الماء منها عن طريق الأرض. كانوا في العموم غير واثقين بالفلاحين، حتى فلاحيهم هم. وجهت أمستردام الجديدة، والتي تأسست في 1625، وجهها تجاه البحر وباعدت بينها وبين الداخل بقدر المستطاع، مقاومة الرغبــة في الزراعــة حيث كان تجار الشركــة الهولندية الشرق هندية يخشــون أن يثــير ذلك المواجهــات مع الهنود المحليين. لقد تنــازع هؤلاء مطولا مع قوى البحــر وكانوا مرتاحين بدرجة معقولة معه. ما كانوا يخشــونه أكثر شيء، بتعبير ميرويك المشــهود، هو أن تغرقهم الأرض. بحلول 1660 تحققت أسوأ مخاوفهم، حيث فُقدت أمســتردام الجديدة ليظهر الفلاحون الإنجليز الأكثر سلطة والذين

Twitter: @ketab_n

مارسوا عليهم الضغوطات من مناطقهم النائية القريبة من الساحل. عندما تعذر الدفـاع عن الجزيرة، تنازل الهولنديون عـن كل حقوقهم فيها في مقابل امتلاك جزيرة صغيرة أخرى في النصف الآخر من العالم، جزيرة جوز الطيب الإندونيسية الصغيرة والتي تدعى رون، وهو القرار الذي لربما يثير حيرتنا بيد أنه كان منطقيا تماما بالنسبة إليهم[39].



منظر لأمستردام الجديدة لجوهانس فينغبونز، 1664.

الصورة من ويكيميديا كومونز.

كان أوائل المستكشفين لسواحل أمريكا الشمالية يشعرون بأنهم في موطنهم في البحـر أكثر منهم على الأرض. الكثير منهم كانوا سـكان جزر بخبرة سـاحلية أكبر من تلـك في أعماق البحر. لقد اتبعت البضائع، والناس، والأفكار مسـارات متشـابهة على طول الساحل. لقد تواصلت المستوطنات في شمال أمريكا بعضها مع بعض عبر المياه. تطور ساحل الهادي لاحقا، ولكن بالأسلوب نفسه. في البداية قدِم المستكشفون، ومن بعدهم التجار، وفقط بعد زمن طويل جاء المستوطنون الدائمـون. حتـى في ذلك الوقت، كانوا يميلـون إلى مواجهة البحـر، حيث كانوا يعتمدون عليـه في توفير البدائل وإعادة التموين. وكـما يقول دان كيلي: «لقد

Twitter: @ketab_n

جرى استكشاف ساحل الهادي كونه شريكا في حركة التجارة مع الشرق أكثر منه كأرض تستحق التعرف عليها من أجلها هي». وكونها موجهة إلى السواحل البعيدة عوضا عن أراضيها الداخلية النائية، كانت الولايات المتحدة الجديدة مزدوجة السواحل شرقا وغربا منذ البداية[40].

البحر الداخلي لحضارة شمال الأطلنطي

إن الامبراطوريات المائية من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر كانت أكثر اهتماما بالمنافذ منها بالممتلكات. فباستثناء إسبانيا الجديدة، لم تكن هذه الإمبراطوريات أرضية بطبيعتها بل «شبكة من مجموعة من المراكز والمواقع الإستراتيجية على طول طرق التحرك الإستراتيجية... فهي متناثرة، ضحلة في تأثيرها القاري، غير منتظمة في الترتيب الهرمي لمناطقها». كونها نتاج مبادرات خاصة وعادة إقليمية عوضا عن كونها نتاج سياسة قومية منسقة، كانت المستوطنات الإنجليزية غالبا مختلفة بعضها عن بعض كما هي كل واحدة منها مختلفة عن المستوطنات الهولندية أو الفرنسية. ولأنها عادة على خلاف مع الوطن الأم، كانت لهذه المستوطنات سياساتها الخارجية والعسكرية الخاصة بها. كانت شعوبها متعددة الأعراق، لغاتهم كانت متعددة، وثقافتهم كانت عالمية. ما كانوا يتشاركون فيه هو ما كان يدعوه ميينغ «ثقافة الضفة»، ثقافة مواجهة للبحر ومتأقلمة أكثر مع السواحل البعيدة عنها مع الداخل القريب الخاص بها. لقد كان هؤلاء ينتمون إلى الأطلنطي، ما كان يدعوه ميينغ «البحر الداخلي للحضارة الغربية[41].

لقد كانت فكرة البحر الداخلي متلائمة مع الأوروبيين، الذين، بداية من تجربتهم مع المتوسط، كانوا أكثر شعورا بالأمان في المياه المطوقة منهم في المحيط المفتوح. إن أحدث شكل للبحر الداخلي شمل أكثر بكثير مما ندعوه اليوم العالم الغربي. فلقد غمر كذلك سواحل أفريقيا، والذي سيكون لثقافاته تأثير هائل في الأمريكتين. ولأن هذا الشكل الجديد التف شرقا وكذلك غربا، فقد حمل معه كذلك سمة الأمريكيين الأصليين الساحليين، والذين من دونهم كانت المستوطنات والاستكشافات الأوروبية ستصبح مختلفة تماما. لم تكن الممرات في البحر الداخلي

Twitter: @ketab_n

أحادية الاتجاه مطلقا. لقد تحرك المد عبر تاريخه «ليس فقط باتجاه الغرب على الجسم الأمريكي بل شرقا على الجسم الأوروبي، وداخليا فوق، وحديثا على طول الجسم الأفريقي»[42].

لقد وصل الأوروبيون الشماليون على السواحل الأمريكية عن طريق المصادفة وليس بنية مقصودة. لقد تصرفوا كما فعل الصيادون الرحل دائما، لحقوا بفريستهم حيثما قادتهم هذه الملاحقة، ممارسين نوعا من النقل الموسمي البحري للماشية transhumance، متتبعين السمك عوضا عن الحيوانات، وذلك على أساس موسمي، حيث أخذوا يذهبون لمسافات أبعد ومدد زمنية أطول، بيد أنهم دائما ما كانوا يعودون إلى موطنهم عندما كانوا يستوفون متطلباتهم. ولأكثر من قرن من الزمان، لم يظهر هؤلاء أي رغبة في ممارسة الزراعة. وعليه فإن مفهوم عصر «الاستعمار» (Colonial)، والذي يفترض الوجود الضروري للأرضي، يشوه بشكل كامل نظرتنا إلى القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، عندما لم يكن بالنسبة إلى الأوروبيين الشماليين «أي نية لأن يصبحوا مستعمرين - وبالتأكيد ليسوا مستعمرين فاشلين - ولكنهم كانوا أعضاء متنقلين ومؤقتي الاستقرار في موطنهم. لقد كيفوا أنفسهم مع مساحات أمريكا الشمالية من حيث احتياجات مجتمعاتهم في موطنهم، عوضا عن معاملتها كمساحات لمجتمعات جديدة»[43].

نوعان مختلفان تماما من مصائد السمك تكونا في الشمال الأطلنطي في نهاية القرن الخامس عشر. لقد أدار الفرنسيون، الباسكيون، الهولنديون، الإسبان، والبرتغاليون، والذين كانوا يمتلكون مؤنا جيدة من الملح، مصائد أسماكهم المائية بعيدا عن الساحل بشكل تام تقريبا. لقد كانوا يملحون صيدهم على متن السفينة، يتبلونه ويعبئونه في البراميل، ثم يتجهون إلى موطنهم عادة من دون أن يضعوا قدما على اليابسة. كان الإنجليز يفضلون تجفيف سمك القد، لكنهم كانوا يفعلون ذلك فقط في المواسم الدافئة، عائدين إلى موانئ مواطنهم قبل أن يحل الشتاء. في كثير من النواحي كان الساحل الأمريكي يعتبر امتدادا متسعا للحياة الساحلية الأوروبية، حيث كان لايزال مرتكزا، على الرغم من المسافات العظيمة ومدة البعد المتزايدة، على ميناء الوطن. فعلى مصائد السمك المرتحلة

Twitter: @ketab_n

تتعلق الأفكار دوما بالعودة. وفي أواخر سبعينيات القرن الماضي أخبر رجال سفن صيد السمك الإسبان الذين كانوا يصطادون في مياه نيوفاوندلاند، والتي يدعونها تيرانوفا، جوسيبا زيولايكا أن «هناك فقط يومين سعيدين جدا في البحر: يوم مغادرتك (تيرانوفا) إلى إسبانيا، ويوم وصولك إلى الوطن»[44].

على السواحل الأمريكية، صادف الأوروبيون شعوبا أخرى، والذين مارسوا نوعا من النقل الموسمي البحري للأسماك على نطاق ضيق. كان للأمريكيين الأصليين كذلك فردة حذاء طويل في القارب وأخرى في الحقل. لقد كانوا يمارسون صيد السمك والحيتان على طول الساحل على مدى قرون، مستهدفين الحيتان التي تدعى بالحيتان المنجرفة والتي كان يجرفها البحر إلى الساحل، ولكنهم أحيانا ينطلقون بعيدا عن الساحل في الزوارق الصغيرة. كانت مهاراتهم كصيادي سمك ومزارعين مصدر إنقاذ لمستوطني بلايموث خلال سنوات مجاعتهم الأولى في عشرينيات القرن السابع عشر، وذلك عندما كانوا يعتقدون أن هؤلاء الوافدين الجدد سيزرعون الذرة وسيصطادون من خليج ماساتشوسيتس. سرعان ما تعلم الأمريكيون الأصليون مهارات الإبحار الأوروبية، وبدأوا استعمال القوارب المصنوعة بأيادي الباسكيين لأغراض الصيد والتجارة. وبينما كانت هناك صدامات أولية كانت المواجهات الأولى عموما لطيفة ومربحة للطرفين. في رحلته في العام 1524 صادف فيرازانو شعب ناراغانسيت المتطور الذي كان موجودا في الموقع الحالي لرود آيلند، والذين أقبلوا على سفينته بلا أي مخاوف من أجل التبادل التجاري. على مسافة أبعد شمالا، وجد فيرازانو شعب الأباناكي أقل لطفا، بيد أنه وبحارة آخرين أسسوا لأسطورة المدينة الرائعة الغنية نورومبيغا التي تقع في مكان ما بالمنطقة التي ندعوها اليوم ماين، والتي استمر الأوروبيون في البحث عنها خلال القرن السادس عشر[45].

وكما كان الوضع في أوروبا، كانت الشعوب الساحلية لشمال أمريكا متعددة، وكونهم قد تعلموا أسرار البيئة الانتقالية، فقد كانوا نسبيا أقوياء وأغنياء كذلك. خلقت ممارستهم حرق الغابات تنوعا كبيرا للأنظمة البيئية بتأثيرات على حوافها التي كانت «مساكن طبيعية مثالية لعدد من الأجناس الطبيعية». ولقد استغل هؤلاء جانبي الساحل، حيث كانوا يتحركون موسميا لاستغلال الهجرات السمكية

Twitter: @ketab_n

- سمك القتار في مارس، الآيلوايف، السلامون، والحفش في أبريل - وكذلك وصول سـمك القد وأنواع الأسـماك القاعية الأخرى في مايو. لقـد كان يقدر بأن نصف مؤونة الغذاء السنوي لماين الهندية أتت من مصادر كهذه. لقد كان يقال «إنهم يتنقلون... من مكان إلى آخر وفق غنى الموقع والموسم»[46].



قارب لشعب الميووك مصنوع من نبات القصب Bateau du port de San Francisco، لوحة للفنان لوي كورس. الصورة من مكتبة بانكروفت، جامعة كاليفورنيا، بيركلي.

لم يكـن الأمريكيون الأصليون السـاحليون مأخوذيـن بتواصلهم الأول هذا، وفي الحقيقة كانت لهم اليد العليا في البداية. كان سـكان ما نسـميه نيو إنغلاند الأصليون «قد تعلموا كيف يتعاملون مع الوجود الأوروبي»، حيث قدموا أنفسهم، مثل الشـعوب الساحلية في الأماكن الأخرى، بوصفهم وسطاء بين البحر والداخل. لم يـشرك الأوروبيون الأمريكيين الأصليين في مراكز صيدهم، ولكن عندما قاد هذا النشـاط إلى تجارة الفرو أصبح هؤلاء الأوروبيون معتمدين على السكان الأصليين بشكل متزايد، حيث كان للسكان الأصليين كل الاتصالات الداخلية، كما أنهم كانوا يتحكمـون في الممرات النهرية التي كانت توصـل مخزونا أكبر حجما من الجلود الحيوانية. استمر الأمريكيون الأصليون في ترحيبهم مادام لم يحاول الأوروبيون أن يتواصلوا مباشرة مع الصيادين الداخليين. ولربما استمر هؤلاء في ممارسة سيطرتهم

Twitter: @ketab_n

السياسـية والاقتصادية على السـواحل لمدة أطول، لولا هذه الأوبئة التي لم يكن لديهم أي وسائل حماية ضدها، والتي انتقلت إليهم عبر تواصلهم مع الأوروبيين. بحلول أوائل القرن السـابع عشر، عندما قرر البيوريتانيون أخيرا استعمار ساحل ماساتشوسيتس، كان 90 في المائة من السكان الأصليين قد ماتوا[47].

بقيت السـواحل الكندية غير مسـتوطنة لفـترة أطول بكثـير. أحيانا يقول الكنديون إن سواحلهم الشرقية ما كان لها أن تُسكن أبدا. أصبح سكان الولايات المتحدة يفكرون في سـاحلهم الشرقي على أنه شاطئ، غير أن الكنديين لم يفكروا بهـذه الصورة. صحيح المقاطعـات البحرية لطالما كانت تنتمـي إلى البحر أكثر منهـا إلى الأرض، بيد أننـا لا بد من أن نكون حريصين على ألا نصدق أسـطورة أننا كأمريكيين قد قُدر لنا أن نكون مزارعين، وأن تاريخنا «يبدأ برسـو السـفينة عند جيمس [و] بعد أن ألقت سفينة المايفلاور مرساها». في الواقع، فإن التاريخ الحقيقي لكندا والولايات المتحدة لا يبدأ هناك، ولكن بعيدا عن السـاحل وعلى طول الساحل، حيث، وكما يصر بنجامين لاباري، إن أمريكا هي الأكثر بحرية بين كل القارات، على الرغم من أنه، بداية من الأمريكيين الأصليين، لطالما كانت فردة حذاء طويل في القارب والأخرى في الحقل[48].

الجبهات البحرية

يمكـن أن يقال إن السـواحل الأمريكية كانت جبهة العـالم الجديدة الأولى بالنسـبة إلى أوروبا. مثل كل الجبهات، كانت تلك في حركة دائمة، بيد أنها كانت مميزة من حيث مجابهتها لاتجاهين مختلفين. لقد بين والتر بريسكوت ويب أن الجبهة «ليست خطا للتوقف عنده، ولكنها منطقة تدعو إلى الدخول». في النهاية رحبت السـواحل بالدخول إلى القارة، لكنها في البداية أغرت سـكانها بالسـعي خلف ثروات البحر؛ فللسنوات الثلاثمائة الأولى بعد اكتشافها، كانت تلك جبهات للاستخلاص عوضا عن الاسـتيطان. فمثل جبهات التنقيب والتشجير، مرت هذه الجبهـات بدورات مـن الازدهار والتدهور، التأهيل والإخلاء السـكانيين. كانت الـثروات تُخسر بنفس سرعـة صنعها، لقد أتى واختفى هـؤلاء الصيادون الرحل التاليون تقريبا بالسرعة ذاتها لحضور واختفاء طرائدهم[49].

Twitter: @ketab_n

كان الأوروبيون الذين يستكشـــفون خطوط العرض الشمالية للعالم الجديد متأكدين من أنهم قد اكتشـــفوا نوعا من الجنة المفقودة، ليس على الأرض ولكن في البحـــر. لقد جعلت مواســـم الزرع القصيرة والتربة الفقيرة الســـاحل - في حد ذاتـــه - غير ودود تجاه المزارعين، لكنه لم يكن هناك شـــك بالنســـبة إلى العقول الإنجليزية أنهم قد اكتشفوا وفرة مائية غير معروفة على جانبهم من الأطلنطي. نـــادرا ما كان يبدو أنهم لاحظوا التأثير الســـابق للأمريكيين الأصليين على الأرض أو البحر، لأســـباب ترجع في جزء منها إلى أنهم عندما استقروا أخيرا على الساحل في أوائل القرن السابع عشر، كان السكان المحليون ينقرضون تدريجيا على مدى زمـــن، جاعلين كلا من الأرض والبحر يبدو خاليا ونقيـــا، طبيعة نقية جاهزة لأن تسلم ثرواتها إلى سادتها الجدد[50].

عندما استكشـــف الأوروبيون السواحل الجديدة، كانوا ينظرون إليها بعيون تجاريـــة. لقد نظـــروا إلى الأشـــجار العظيمة على أنها خشـــب للصـــواري، وإلى الحيوانات على أنها فراء، والســـمك على أنه الأكثر قيمة بين كل السلع الموجودة هناك. عندما تفقد الكابتن جون سميث خطوط العرض الشمالية في العام 1614، أشـــار إلى أن الهولنديين قد حصلوا على ثروات أعظم «عن طريق تجارة السمك الوضيعـــة» مما حصل عليه الإســـبان من التنقيب في إســـبانيا. «غير أن هذا هو تنقيبهم»، كتب ســـميث قائلا: «والبحر هو مصدر هـــذه الجداول الفضية لكل فضائلهم». لقد كانت نظرة ســـميث وقتها هي تلك التي لصياد وليست لبستاني، للمرتحل الحديث وليســـت لمـــزارع. لقد اعترف بعدم معرفتـــه بالداخل، ولكن «حتـــى الأطراف، في حـــد ذاتها، يمكن أن تقدم طبيعيا مثل هذه الوفرة لنا، حتى إنه لا سفينة يمكن أن تعود فارغة». لقد شجعته قرى الصيد المحلية التي صادفها على أن يحفز الاســـتيطان في نيو إنغلاند، حيث، وبخلاف الوضع في نيوفاوندلاند، يمكن الصيد على مدار الســـنة، حيث هؤلاء «الذين يصطادون أمام أبوابكم، قد ينامون بهدوء كل ليلة على الســـاحل سعيدين بما تقدمونه لهم، أو إذا ما رضيتم بذلـــك ربما يدخلون للنوم مع زوجاتكـــم وعائلاتكم». هنا كانت جنة عدن ثانية مبنية على فكرة الاستيلاء على الطبيعة ومتطلبة لعمل شاق، ولكنها واعدة بحياة أسهل بكثير من تلك التي في إنجلترا «إذا ما عمل رجل لمدة ثلاثة أيام من سبعة،

Twitter: @ketab_n

يمكــن لــه أن يحصل على أكثر مــما يمكن أن ينفق، إلا إذا مــا كان مفرطا». لقد كانت غريزة سميث هي تلك التي لمرتحل موسر أكثر منها لمزارع مالك لأرضه[51].

قارن كل رحالة تقريبا حجم ومخزون السمك المتناقص في المياه الأوروبية لما بــدا كوفرة كبيرة موجودة في الأمريكتين. لقد بــدأ الوضع مع تقارير كابوت من نيوفاوندلانــد، هي مفقــودة الآن، والتي انتشرت في كل مكان: «هم يؤكدون أن البحر هناك يمتلئ بالســمك الذي يمكن صيده ليس بالشــبك، بل بالسلال التي يجري إنزالها في الماء بوضع حجر فيها، وذلك حتى تغوص في الماء». كان ســمك القد بالغ الوفرة، وكذلك كانت الحيتان كثيرة جدا حتى إنها كانت تعيق الإبحار «إن وفرة ســمك البحر تقريبا لا يمكن تصديقها، وبالتأكيد ما كنت لأصدقها لولا أن رأيتهــا بعيني»، هكذا كتب رجل إنجليزي في تقريره. ولقد قال أحد المراقبين إن كميات الســمك في مجاري المياه كانت عظيمة جدا، حتى إنه يمكن أن يمشي عبرهــا من دون أن يبلل قدميــه. إن هذا المنظور النفعــي لم يتغير كثيرا عندما كان القبطان جورج فانكوفر والقبطان جيمس كوك يســتطلعان الساحل الغربي في نهايــة القــرن الثامن عشر. هما كذلك اعتقدا أنهما اكتشــفا ثروة تجارية من السمك والخشب[52].

في الحقيقة، لم يكن هناك أي شيء نقي حول هذه البيئة، والتي مرت بمئات الســنوات من الاستغلال عن طريق الشــعوب الأصلية. أخيرا، ظهرت دلائل على احتباس حراري وارتفاع في نسب ثاني أكسيد الكربون بفعل بشري، وذلك بسبب تقطيع وحرق الغابات الاســتوائية قبل العــام 1540. تجاهل الأوروبيون الدلائل على هــذا التاريخ الماضي، حيث اعتــبروا، على الرغم من وجــود دلائل طبيعية عــلى الزراعة القديمة، أن العالم الجديد طبيعة نقيــة لم يُعبَث بها، وتعاملوا مع الشــعوب الأصلية عــلى أنهم «أبناء الطبيعة» وأنهــم بحاجة، كما الأرض في حد ذاتها، إلى التهذيب والتمدن. وحيث إنه لم تتح لهم الفرصة لمشــاهدة الصيادين الرحل شــبه الزراعيــين، وهم في قمة قواهم قبل أن تهزمهــم الأوبئة الأوروبية، لم يكــن لدى الأوروبيــين أي فكرة كم كان هؤلاء مزارعــين وصيادين أكفاء. فلو أنهم قــد تفحصوا تلال الصدف الضخمة التي وجدوها على الســواحل الشرقية والغربية، لكانوا وجدوا أن المستويات الأدنى كانت تحتوي على محار أكبر حجما

Twitter: @ketab_n

بكثير من تلك التي في المستويات الأحدث، مما يدل على ضراوة تسببت مسبقا في تقليل أحجام المحار، والحلزونات، وبلح البحر مع مرور الزمن[53].

وعلى الرغم من أنهم استغلوا هذا التنوع في الحقول المفتوحة والغابات التي خلقتها ممارسات الحرق القديمة فإن سكان نيو إنغلاند صدقوا أنهم وجدوا غابة عذراء لم يسبق لبشر أن مسها. لقد جعلوا من أنفسهم أبطالا خارقين في قصتهم هم حول ترويض الطبيعة التي ضيعها الهنود هباء. لم يكن هناك من دلائل على أن «الهمجيين»، كما كانوا يدعونهم، كانوا من المحافظين الواعين على البيئة، لكن أعدادهم المنخفضة قد حدت من تأثيرهم. كما أن حقيقة أنهم اعتبروا أنفسهم متصلين روحانيا بالسمك والحيوانات قد تكون حدت من استغلالهم بدرجة ما. لكن، وبسبب أن التاريخ السابق لكوارثهم البيئية لم يُوثَّق قط، فقد بدا للقادمين الجدد الأوروبيين أن هؤلاء السكان الأصليين كانوا مسالمين، وأن البيئة التي كانوا يعيشون فيها نقية أبدية، وهي الأسطورة الملائمة التي بدا أنها تشرعن الادعاءات الأوروبية بالحق في زراعة الأرض وتمدين السكان باسم إلههم المسيحي، البستاني العظيم[54].

كان الأمريكيون الأصليون على الساحل الغربي يصطادون السمك من المياه الساحلية لمدة أربعة آلاف سنة قبل وصول الأوروبيين، وبينما كانوا يتنقلون موسميا على طول الساحل، وإلى حيث مواقع صيد السمك الأفضل على أنهار السلامون، فإن معظمهم كان يعمل من مستوطنات دائمة. أحد المؤرخين يصف مهاراتهم في صيد السمك والجمع على أنها «ذات كفاءة مخيفة»، بيد أنها لم تنتشر قط من أجل أغراض تجارية. هذا النشاط كان محددا كذلك بعدد معين من المحرمات والطقوس و«باحترام (جوهري) للسمك الذي يحفظ الحياة»، وهو المبدأ الذي تشاركوا فيه، ليس فقط مع السكان الأصليين من الساحل الشرقي، ولكن كذلك مع صيادي السمك الأوروبيين[55].

عندما وصل الأوروبيون إلى الساحل الغربي في مطلع القرن التاسع عشر، جلبوا معهم مجددا الأوبئة والتهجير السكاني. بحلول العام 1850 انخفض عدد السكان الأصليين إلى أقل من 6 في المائة عن مستويات ما قبل التواصل مع الأوروبيين، ما نتج عنه ارتداد إلى الوضع الطبيعي في مخزون السمك، والذي

Twitter: @ketab_n

تــرك الأوروبيين بانطباع أن الصياديين المحليين كانوا محافظين طبيعيين من دون تأثــير في بيئتهــم. لقد دفعت وفرة الســلامون وقشريات البحر بالفكرة الخاطئة بأنهم قد وجدوا جنة عدن غنية، ما شــجعهم على تحويلها منبعا تجاريا، وأخيرا على نهبها(56).

فلــو أنهم كانوا أقوى ملاحظة، لاســتطاع الأوروبيون اســتبيان الآثار البيئية للممارســات المحلية من حرق للغابات، والتي خلقت بيئات حافة غنية، ولكنها كذلك ساهمت في سد المجاري المائية. الأكثر صعوبة في تمييزها كانت آثار تجارة الهــادي في جِلد كلب البحــر، والتي غالبا ما أدت إلى تدمــير أعداد كلاب البحر المحليــة، وبالتــالي مضاعفة أعداد قنافــذ البحر التي بدورها أفســدت المواطن الطبيعيــة البحرية القريبة من الســاحل. ومع ذلــك، كان الأمريكيون الأصليون قليــلي العدد ومنتشريــن فوق قطاعات ضخمــة من الأراضي، حيــث إنهم قد يســتهلكون مصــدرا محليا ما، ولكن دوما مــا كان في إمكانهم الانتقال إلى آخر. ولقد لجأ هؤلاء الصيادون الرحل، كذلك، إلى تحديد النســل بطرق مختلفة، منها الإجهاض، حيث لم يكلفوا البيئة إلى أقصى حدودها.

ثقافة أطلنطية عبر ساحلية

خلال فترة بدايــة العصر الحديث، كانت خطوط العرض الشــمالية لأوروبا وأمريكا متصلة بعضها ببعض، عن طريق ســواحلها. لقد جرى تصدير الثقافات الشاطئية للهولنديين، والإنجليز والفرنسيين إلى العالم الجديد، حيث كانت لديهم عوامل مشــتركة بعضهم مع بعض، أكثر مما كان لهم مع ســكان المناطق النائية في مواطنهم. بحلول القــرن الثامن عشر، كون هؤلاء قلادة من المناطق المعزولة الســاحلية والجزيريــة ضعيفة الترابــط، والتي امتدت حول حافــة بحر داخلي عظيــم. كان لديهم عندئذ نوع من الثقافة المشــتركة (lingua franca)، أو لغة مشــتركة، وأســاليب حياة وأنظمة أغذية بل وحتى تخطيط إسكاني متشابهة. لم يكن البحر هو حبل النجاة الأســاسي الوحيد فقط بالنســبة إليهم، ولكنه كذلك مصدر الســلع التي ســاهمت في البداية، وبأكبر قدر، في ازدهار مناطق خطوط العرض الشــمالية. عميقا في اتجاه الجنوب ســتوفر تجارة الرقيق وعملية إنتاج

Twitter: @ketab_n

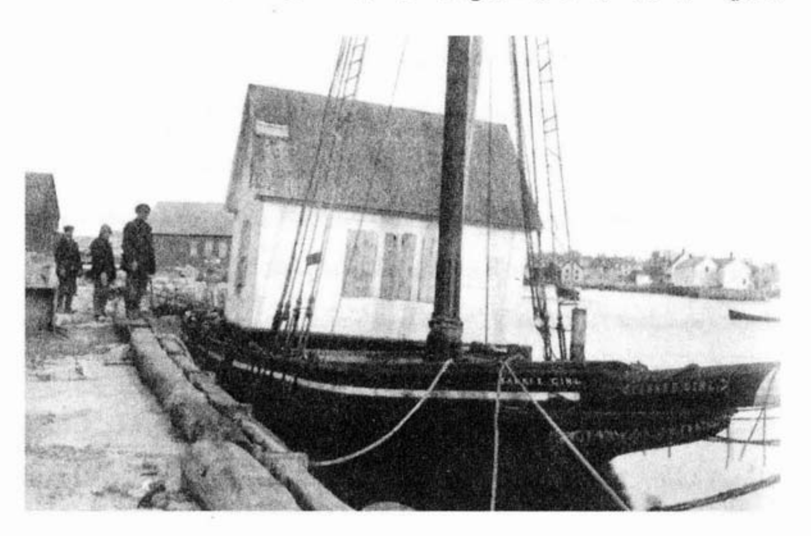
السكر مصدرا آخر للثروة، ولكن على مدى القرن الأول أو يزيد، أظهر الأوروبيون الشـماليون اهتمامـا أكبر بحقوقهـم الملاحية في ممرات مائيـة وولايات بحرية معينـة عن اهتمامهم بأملاكهم الأرضية بحد ذاتهـا. لقد عمل الأوروبيون وفقا لمبدأ هيوجو غروتن أن المحيط «لا يمكن السـيطرة عليه ولا يمكن محاصرته: لا، فهو بالأحرى يسـتحوذ على الأرض ولا تسـتحوذ عليـه الأرض». على الرغم من ذلك، فلقد اعترف هؤلاء بمفهوم حقوق الاستخدام المحلية، وهو المفهوم المشترك بين الشعوب السـاحلية حول العالم. عندما كان الصيادون من المناطق المختلفة يجدون أنفسهم يتسابقون على الموارد ذاتها، لم يكونوا يلجأون إلى حقوق الملكية الخاصة بل إلى الأعراف[57].

إن السـمة المشـتركة لكل ثقافات الضفـاف هذه كانت تَنقُّلهم الموسـمي البحري (transhumance)، وهو التنقل المسـتمر للمجتمعات في إثر طرائدهم بالأسلوب نفسه الذي اتبعه الصيادون الرحل على مدى ألف عام. كان الأمريكيون الأصليون في نيو إنغلاند متنقلين، يتحركون بشـكل موسمي، أحيانا مرات عدة في السنة. كانت بيوتهم ذات الأطر والأساسات الخشبية مغطاة بالأبسطة العشبية، أو بلحاء الشـجر، وذلك حتى يكون من الممكـن تفكيكها ونقلها عبر الماء. يقال إن هـؤلاء كانوا يحيون ببسـاطة، وإنهم «كانوا يحبـون ألا يكونوا مثقلين بكثير مـن الأدوات». في مايـن، كانوا يزورون الجـزر في الصيف، حيـث كانوا يبقون بالقرب من البحر، حتى في الشهور الباردة. لم يقضوا مزيدا من الوقت في الأراضي الداخلية خلال الشـتاء إلا عندما أصبحـوا أعمق ارتباطا بتجارة الفرو الأوروبية، وذلك عندما كان الثلج يسـهل عملية تتبع الحيوانات. في القرن السـادس عشر تتبع صيادو السـمك الأوروبيون على الساحل الشـمالي نمطا مشابها. هم كذلك اعتبروا أنفسـهم زوارا، متتبعين لطرق موسمية، عوضا عن تأسيس جذور دائمة. بالنسـبة إليهم، كانت الأرض تستخدم كمنطقة إعداد وتحضير، وليس لكي يجري الاستحواذ عليها كملكية، وهو الانطباع الذي لايزال سائدا في نيوفاوندلاند[58].

لقد كانـت بيوتهم غالبا، مثل تلك التي للسـكان الأصليين، مجهزة مقدما، فهي مصنوعة بشـكل يسـهل نقلها بالماء، أو عبر جليد الشـتاء. في قرية تيلتينغ الساحلية المعزولة في نيوفاوندلاند، هذه الممارسة، والتي يطلق عليها launching

Twitter: @ketab_n

أو «الإطلاق» لاتزال شائعة. في ماين كانت عملية نقل البيوت شائعة كذلك. وفي خـلال حرب الثورة Revolutionary War، كان Tories أو المحافظون الهاربون من كاســتين، وماين، يجلبون منازلهم معهم إلى ســانت أندروز، نيو برونزويك، حيــث لاتزال هذه المنازل مصطفة عــلى الميناء. كانت المنازل في كيب كود تنقل كذلك ويعاد تصنيعها. لقد وجد روبرت فينتش أن الســكان تعاملوا مع «بيوتهم بشــكل أقل على أنها مقرات عائلية، يجري تأسيســها للأزمنة القادمة، منها عن كونها ملاجئ مؤقتة، مثل الأصداف التي يســتعيرها الســلطعون الناسك، فتلك يجري نقلها وتبادلها، وفق الموقع والغاية، وكما تتأتى الحاجة»[59].



مبنى مدرسي يجري زجه إلى الأرض الساحلية في مدينة فاينالهافين، ماين. الصورة من جمعية فاينالهافين التاريخية.

«لم يــأت الرب بمعجزة على أرض نيــو إنغلاند. لقد قدم البحر»، كذلك كتب ســامويل إليوت موريسون. لقد كان المســتعمرون الانفصاليون، والذين وصلوا في العام 1620 شــعوبا داخلية بالدرجــة الأولى، مزارعين وحرفيين، غير مجهزين للتعامــل مع الأرض، وبدون أي مهارات إطلاقا في اســتغلال البحر. لم يكن ركاب المايفلاور بحارة. لقد كان عبورهم إلى أمريكا كابوســا، ولم تتجدد لديهم الرغبة

Twitter: @ketab_n

في العـودة إلى البحـر، ولكن كما قال دانييل فيكيرز: «لقـد أصبحوا، انطلاقا من الضرورة، شعبا بحريا». وحيث إنه لم تكن لأي منهم مهارات بحرية، فلقد تبادلوا مع السكان الأصليين من أجل السمك. لقد تمكن هؤلاء من البقاء على قيد الحياة خلال «سنوات الجوع الشديد» بمسـاعدة السكان الأصليين، ولكن، حتى عندما بدأوا في حصاد فوائض من الذرة، اكتشـفوا أنهم لم يكن لديهم محصول تجاري للدفع من أجل الضروريات المسـتوردة مـن أرض الوطن. وكونهم كانوا لايزالون في حاجـة إلى البضائع الحيوية، كانت الخطوة التالية هي دعوة لغير الانفصاليين من صيادي السـمك من مقاطعة دورسـت، والذين كانت لديهم خبرة سـابقة في مصائد السـمك المتنقلة، للاسـتقرار على السـواحل الصخرية في ماربلهيد. لم تكن مصائد السـمك متميزة عن مجتمعات الزراعة الداخلية ماديا فقط، ولكن ثقافيا كذلك. لقد كان يقال إن «البحارة وصيادي السـمك كانوا يبغضون عموما الاشتراك في أي وظيفة على الأرض. كانوا يفضلون التسكع على الساحل والحصول على قوتهم بشـكل غير منتظم مـن المحيط. إن البحار عندمـا يبتعد عن المياه يصبح مثل سمكة خارج نطاقها الطبيعي. فالجبل والغابة ليس لهما سحر عليه». حلم هؤلاء الذين اسـتقروا في المنطقة التي سـتصبح معروفة باسـم بوسطن في ثلاثينيات القرن السـابع عشر بحياة رعوية، غير أنهم أجبروا - عن طريق طبيعة الأرض العنيدة - على التوجه إلى البحر، ليسـتثمروا ثروتهم أخيرا في صيد السمك والتجارة الساحلية[60].

لم يكن الصيادون الذين جُلِبوا من سـاحل إنجلـترا انفصاليين، ولكنهم كانوا رجال كنيسة إنجلترا Church of England، والذين كان يعتبرهم البيوريتانيون أنهم «زمرة شريرة سـكيرة»، حيث أسماهم جون وينثروب «أناسا مزعجين». مع مرور الوقت سيسـتقر صيادو السـمك هؤلاء، ولكن أبدا ليس بطريقة استقرار جيرانهم الداخليين. الرجال خصوصا استمروا في كونهم رحالة موسميين، مراوحين بين «أسـفل الشرق» إلى سـاحل ماين والمقاطعات البحرية في كندا Maritimes في الصيـف. في ماساتشوسـيتس وماين احتل هؤلاء الأماكـن التي كانت عديمة

Twitter: @ketab_n

الفائدة بالنسبة إلى المزارعين، بيد أن حقوق استملاكهم كانت غير ثابتة بالنسبة إلى المناطق النائية المباشرة لأماكنهم، والتي كانت مناطق عمومية، حيث يمكن للجميع جمع الخشب فيها. كان هؤلاء مهتمين أكثر بالبحر عن اهتمامهم بالإقطاعيات الأرضية، حيث كانوا يطوفون بالسواحل والجزر، ناقلين البيوت ومؤسسين لمراسي الصيد في شهور الصيف، ثم مغادرين في الخريف لكي يبيعوا صيدهم إلى التجار الإنجليز وتجار نيو إنغلاند، ليسددوا دينهم قبل حلول الشتاء. في البداية، كانوا يميلون إلى الانتشار على طول الساحل، كل بسفينته وبقاربه الصغير. لم تأت موانئ المياه العميقة وقرى صيد السمك سوى لاحقا، حيث إن معظم رحلاتهم كانت تحدث على مراكب صغيرة عن سفن البحار العميقة. كانت تلك لاتزال حياة بحرية أولية، يحياها هؤلاء على طول الساحل وليس عبر قطع المحيط[61].

كانت المجتمعات الساحلية حول حافة شمال الأطلنطي فقيرة نسبيا، بروابط مجتمعية وعائلية ضعيفة، وبثقافة مختلفة عن تلك التي لجيرانهم الداخليين. غالبا، كان صيادو السمك من الشباب الأعزب، الذين، كما يقول كوتون ماثير، كانوا يتكلمون اللغة الوثنية للحظ الجيد (Good Fortune)، متحدثين، كما كان يفعل صيادو السمك في كل مكان، حول حظ السمك أو (Luck of Fish). نادرا ما كان هؤلاء الرجال يستمرون في صيد السمك طوال أعمارهم، هم يستقرون أخيرا، يتزوجون وينجبون الأطفال، ثم يرسلون أبناءهم هم إلى البحر. في القرنين السابع عشر والثامن عشر اللاحقين، كان للشعوب الساحلية في ماين وماساتشوسيتس مزارع «مياه مالحة» صغيرة، نادرا ما تكون بحجم يوفر لهم عيشهم مدى الحياة. كانوا يلتفتون بعدها إلى صناعة القطن، غير أن «الإبحار كان الدواء الرئيسي لبطالة الشباب»[62].

لم يصبح صيد السمك مهنة إلا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ فإلى وقتها استمرت الشعوب الساحلية في وضعها فردة حذاء طويل على الأرض والأخرى في القارب، وهو ما عزز الفرق بين الساحل والأرض النائية، وذلك حتى

Twitter: @ketab_n

نهايــة القرن الثامن عشر الذي بدأ بدخول مرحلة الحياة الصناعية الأولية، وهو انتقال إلى عصر جديد حيث ينطلق صغار الســن، من الذكور والإناث، للســعي خلــف حظوظهم في المدن الصغيرة والكبيرة. ومع ذلك، بقي البحر بالنســبة إلى العديد من الأمريكيين الساحليين، وكذلك الأوروبيين، الجبهة الحقيقية، حيث كان ذلك أحد الأســباب التي دفعت بأليكس دو توكويفيل ليكتب عن الأمريكيين في ثلاثينيات القرن التاسع عشر: «لا أستطيع سوى تصديق أنه ذات يوم سيصبحون أول قوة بحرية في العالم. لقد ولدوا ليحكموا البحار، كما ولد الرومانيون ليستولوا على العالم»[63].

على مدى ثلاثة قرون، كانت أراضي الحافة لشمال الأطلنطي قد تشكلت أكثر عن طريق البحر منها عن طريق اليابسة. كانت السواحل تنتمي إلى المياه، حيث كانت تسمى نسبة إلى ما يقع خلف الساحل: وعليه جاءت تسمية موانئ كيب كود واماينز بار. قبل أن يُستكشــف الســاحل من اليابسة، كان معروفا فقط من البحر، وعن طريق ما كان موجودا في البحر، كان المستكشــفون الأوائل مهتمين أكثر بكثير باكتشــاف ما كان مختبئا أســفل أســطحه وفي أعالي الأنهار عنهم من اهتمامهم بتخطيط المناطق الأرضية. اليوم، غالبا ما يكون الوضع معكوسا، حيث الأرض تعــرف البحر، بيد أنه لاتزال هناك أماكن لم يتغير ســوى أقل القليل فيها عبر القرون. فحتى بعد أن تحول المزارعون الصغار لجزيرة هاريس الأســكتلندية إلى الأنشــطة الأرضية حصريا، وذلك خلال القرن التاســع عشر، فإنهم اســتمروا في الحديــث حول التحــرك «في» التجهيز للذهاب إلى البحــر والتحرك «خارجا» عند العودة إلى اليابســة. في قرى صيد السمك في نيوفاوندلاند، لايزال الاستدلال والتوجيه يحدثان عن طريق المياه. لا تعني النقاط الأساســية للأرض Cardinal points، ســوى أقــل القليــل عندمــا يُوجِّــه كــل شيء إما إلى «أعلى الخليج» up the bay وإما إلى «أســفل الميناء» down the harbor. حياتهم على الأرض ما هي إلا امتداد لحياتهم في البحر. يتحدث السكان المحليون عن «الصعود على متن» climbing aboard سياراتهم و«الدخول إلى» hauling in موقف السيارة.

Twitter: @ketab_n

تســمى زيارة الجيران «الطواف أو السفر حول» أو cruising، وكما رأينا مسبقا، يشــار إلى نقل البيوت على أنــه «انطلاق» launching. وبينما هو شــائع الآن تســمية الشرفات باسم مصطبات في كل مكان، فإنه فقط في نيوفاوندلاند لاتزال تلك تسمى جسورا bridges[64].

ليســت الجغرافيا الســاحلية هي فقــط التي تختلف، ولكــن كذلك الزمن الســاحلي. من غير المفاجــئ لنا أنــه في نيوفاوندلاند، كما هــو الوضع في ماين وأماكن ســاحلية أخرى، الوقت «ليس ممتدا خطيا ولكنه منبســط، مســحوب بتيارات جذب وطرد مركزية. فكما سير السنة، كل الأشياء تنطلق من وتعود إلى هذا المكان الأوحــد». وعليه فلا غرابة في أن المؤرخين كانوا يعانون فهم الأماكن التــي لا تنــدرج مرتبة في سردهم الخطي. لقد كان على الســاحل أن ســجل تي. إس. إليوت زمنا «ليس بزمننا... زمنا أقدم من زمن الســاعات الدقيقة... »، نحن نتجاهل مفاهيم الشعوب الساحلية حول المكان والزمان نخاطر في تجاهل، فكما المــد والجزر والتيارات التي هــي معروفة بجرفها لملاك الأراضي الغافلين، فإنه لا بد من فهم التدفق الخفي للتاريخ الساحلي إذا ما أردنا أن نتعلم العيش بشكل ثابت مستدام كما فعلت الأجيال السابقة[65].

لقــد كان يقال إن «المالحين القدمــاء old salts وحديثي القدوم مثل جوني jonnies-come-lately يتحدثون بشكل مختلف عن البحر، بيد أن هؤلاء الذين يعرفونــه بأفضل شــكل لا يجدون حاجة إلى الحديث عنــه مطلقا». تأتي معظم الكتابات عن الســواحل من أقلام ملاك الأراضي، ولكن على الرغم من ذلك، فإنه مــن الممكن فهم كيف لهؤلاء الذين يســكنون طرف البحــر أن يفكروا فيه. في مايــن هــم «أكثر ميلا إلى التصديــق بالقضاء عنهم من التصديــق بالقدر؛ ولأن يركزوا [انتباههم] على دورات الحياة عنهم عن التركيز على المتغيرات المستمرة». هؤلاء الذين تعلموا أن يعيشــوا مع وليس فقط على السواحل، يعرفون أنه من الحماقة الاعتقاد بأنهم يســيطرون بالكامل على أقدارهم. لم يكن هؤلاء قدريين، ولكنهم يحترمون المد والجزر والتيارات التي تحدد إيقاع ومســتوى عالمهم. من

Twitter: @ketab_n

هذا المنطلق هم لايزالون مشـــابهين للجامعين القدماء، حراس طرائد أكثر منهم بســـتانيين، والذين يعتبرونه قدرهم أن يحولـــوا الطبيعة. يؤمن المؤرخون، الذين عملهـــم هو سرد القصص الدرامية ذات التغيير الخطي لمســـتقيم، كذلك بالقدر، وهذا هو أحد أسباب تباطؤهم في منح الطبيعة، والسواحل والشعوب الساحلية، مكانا في روايتهم. نتيجة لذلك، فقد فشـــل هؤلاء المؤرخون في سرد جزء مهم من التاريخ الإنساني[66].

Twitter: @ketab_n

4

استيطان السواحل

شيء بـارد هـي الخريطة، غير
لطيفة ومملة، وليدة الفرجار ولوح
الرسـام المحترف. لا يظهـر الخط
الساحلي هناك، تلك الخربشة غير
المنتظمة بالحـبر القرمزي، لا رمل
ولا بحر ولا صخور، إنها لا تخاطب
أي بحار.

بيريل ماركهام[1]

«لم تنتبه الشـعوب السـاحلية إلى الخطوط»

لا وجود للخطوط الساحلية في الطبيعة، إنها نتـاج مبادرة إنسـانية، جرى تخيلهـا في البداية، ثـم اكتشـافها، ثم تسـميتها، وأخيرا اسـتطلاعها واسـتيطانها. وبما أنني مؤرخ، فـإن مهمتي هي أن أسرد ليـس قصة شيء مادي بـل قصة عملية ثقافيـة، وهي العمليـة التي عـن طريقها ظهر فهمنا الحديث للسواحل. إن الكلمة، المشتقة من أصلهـا اللاتيني costa، تعني أصلا جانب (Side)

Twitter: @ketab_n

الشيء: جانب قطعة اللحم، جانب الجسد الإنساني، جانب أي قطعة من الأرض أو الماء. لقد اكتسبت الكلمة معناها الحديث فقط مع أواخر القرن الثامن عشر، حيث أصبحت وللمرة الأولى «the coast» أو الساحل، ليس فقط جانبا لشيء آخر ولكنه مكان بحد ذاته. لقد كان في ذلك الوقت كذلك أن دخلت كلمة coastline أو الخط الساحلي إلى مفرداتنا، معطية شكلا لذلك العالم حيث تلتقي اليابسة بالبحر، خالقة شيئا مختلفا تماما عن سواحل العصور السابقة[2].

لم يخلق أسلافنا فرقا حادا بين الأرض والماء كما نفعل نحن الآن. لقد كانوا يفضلون رؤية الكوكب على أنه terraqueous أو بري - مائي، وهو المصطلح الذي كان يستخدم بشكل متكرر في القرن السابع عشر. فحتى وقت قريب، قاومت السواحل الثبات الذهني والمادي. لطالما اقترب البحارة منها بخوف عظيم، حيث يعرفون أنها أكثر فجائية وغدرا من البحر بحد ذاته. لقد كان يقال عن سواحل نوفا سكوشا - اليوم تعتبر واحدة من أجمل المناظر الطبيعية في العالم - إنها كانت منفرة للزوار القدماء، هي من الأماكن «التي تتحول العين عنها باستياء مؤلم». ولكن لم يكن السكان بحد ذاتهم أقل تنفيرا، والذين حتى القرن التاسع عشر كان سكان الأراضي الداخلية يعتبرونهم برابرة، مشهورين بسوء سمعتهم بأفعال «الزنا، وتعدد الزوجات، وسفاح الأقارب، والسكر...» وفقا للجغرافيا الإنجيلية التي سادت حتى ذلك الوقت، فإن الرب قد أتلف الأرض التي كانت في يوم سوية كعقوبة على آثام البشرية، حيث سخر البحر في مواجهة الأرض وحط من السواحل إلى «لا شيء سوى الخراب». إن السواحل الصخرية التي نعتبرها الآن حصونا طبيعية، باعتبارها خط دفاعنا الأول، كانت حينها تُرى على أنها نقاط ضعف، ومصادر قوية للأوبئة والموت. لقد كان الأشخاص المرتبطون بالسواحل يُعتبرون بهمجية البحر بحد ذاته، وعليه يجب تفاديهم ما أمكن. وحتى اليوم، هناك شيء مختلف حول السواحل. فبالنسبة إلى شونا ماكيب: «مثل كل الأراضي الرطبة، يعتبر خط الساحل أو «أرضا صلبة» terra infirma، متكلسة ومحددة بالقدر نفسه، ليست بيابسة ولا ببحر، هشة ومرنة في الوقت نفسه، ترمز بالتساوي إلى الموت والبعث، والعزل والحميمية»[3].

السواحل غير المستوطنة

باستثناء إسبانيا، لم تكن هناك قوة إمبريالية أوروبية حديثة مهتمة بامتلاك خط ساحلي مستمر، حتى الجهد الإسباني كان قليلا جدا نسبة إلى الطموح. بدلا من ذلك،

Twitter: @ketab_n

أسس الهولنديون، والإنجليز، والفرنسيون مقاطعات ساحلية أو نهرية معزولة، ومراكز تجارية يستطيعون إدارة التجارة منها. لقد استوطن هؤلاء أماكن متنوعة ومنفصلة - جزرا، وخلجان محمية، وأنهرا عريضة، وأي مكان يسهل الوصول إليه عبر الماء. وكإمبراطوريات تجارية وليدة البحر، لم يكن لديهم اهتمام كبير بالأرض بحد ذاتها. عندما بدأ الإنجليز باستيطان نيو جيرسي في القرن السابع عشر، تجاهلوا تماما الشواطئ التي أتت أخيرا لتحدد الولاية وتجعل من عقارها الأثمن بين عقارات العالم[4].

كانت الأراضي ذات أهمية بالنسبة إلى الهولنديين والإنجليز والفرنسيين فقط لمجرد أنها تعطي منفذا للمياه والبضائع من خشب، وفرو، وسمك، وهي التي جذبتهم إلى العالم الجديد أصلا. في القرن السادس عشر، عسكر هؤلاء على السواحل لكنهم لم يكونوا مستعمرات دائمة. وحول ماين كان يقال «كانت اليابسة فكرة متأخرة، شيء يوضع له طرف». إن صنع هذا الطرف كان عملية ممتدة ومتنازعا عليها، عملية تصورها ثورو إلى منتصف القرن التاسع عشر على أنها بالكاد بدأت، وأنها لم تنته حتى إلى هذا اليوم. في البداية حدثت زيارة وجرى تخطيط نقاط قليلة فقط على طول الساحل، تحديدا الموانئ العميقة ومصبات الأنهر، في حين جرى تجاهل البقية. لقد كانت سواحل أمريكا الشمالية حقا terra infirma أو أرضا صلبة، عتبة توفر منفذا ولكنها تقاوم الاستيطان. لم تكن هناك ضرورة إقليمية فاعلة في أمريكا الشمالية مثل تلك الفاعلة في إسبانيا الجديدة. لقد أدار القادمون الجدد ظهورهم إلى المناطق النائية ليواجهوا البحر حيث بقوا أكثر قربا وارتباطا بأوروبا عن الداخل الأمريكي. لم يصبح المستوطنون حضارة قارية لا شاطئية إلا بعد أن فازوا باستقلالهم وبدأوا عملية بناء أمة[5].

حتى أواخر القرن الثامن عشر، كانت الضرورة المائية هي المسيطرة. ففي عصر التنقل المائي، لم يكن لأي مكان دون منفذ للمياه، نهري أو محيطي، أي فرصة في البقاء. فكما كان آدم سميث يعي جيدا، أن من التجارة والإنتاج معا يعتمدان تماما على المياه. لم تجلب هذه المياه المواد الخام والبضائع التي اعتمدت عليها التجارة فقط، لكنها كانت مصدر القوة التي أدارت الرحى والأجهزة الميكانيكية والتي بدورها حركت التطور الصناعي الأولي. فقبل أن تتجه الصناعة إلى القوى البخارية، كانت مرتبطة بالمياه. لقد وجد الهولنديون ما كانوا يبحثون عنه على مصب نهر الهدسون المتسع. لقد استفاد الفرنسيون، وهم شعب نهري عظيم، أكبر استفادة من الممرات المائية الداخلية،

Twitter: @ketab_n

فيما كانت أوائل المستعمرات البريطانية غالبا على الجزر. أدارت المستعمرات الأولية في أمريكا الشمالية ظهورها إلى الأراضي الداخلية النائية. لقد كانت المستعمرات الأمريكية لإنجلترا توصف بأنها «متشـظية، هشة في تأثيرها القاري»، حيث إنها أكثر ارتباطا بكثير بالبلد الأم عنها ببعضها البعض، كانت تبدو مثل الجزر أكثر منها أراضي يابسة[6].

إن فكرة السـاحل كحد خطي مستمر بين الأرض والبحر لم تصل حتى بدأت جهود بناء الأمة لولاية إقليمية مستقلة جديدة، مؤسسة على نوع جديد من الرأسمالية التي كانت أقل اعتمادا على التجارة منها على الزراعة والإنتاج الصناعي. عندها، ولأول مرة، جرى تخيل السـواحل على أنها مستمرة، كحواف لشيء أعظم يدعى تحديدا قارات. لم يظهر مفهوم القارات حتى اكتشاف الأمريكتين، ولم يحدث سوى في القرن التاسع عشر أن تحول مركز الجاذبية السياسية والاقتصادية من السواحل إلى المناطق الداخلية. حتى وقتها، كانت الأرض المتاخمة لسـاحل أو ميناء تدعى **hinterland** أو أرضا نائية وكان يفترض أنها تنتمي إليهما عن كونها تنتمي إلى القارة بحد ذاتها[7].

إن فكرة القارة ومفهوم «الخط السـاحلي» قد ظهرا متزامنين. كانت السـواحل في البداية ترسم من البحر، بحيث لا توجد طريقة سهلة للوصول إليها من الأرض، في حين لم تعكس مخطوطات البحر فقط اهتمام ملاك الأراضي بل البحارة أيضا الذين يسعون إلى العثـور على موانئ آمنة وأراض محمية. لقد صوروا السـاحل الذي يقع بين البينين على أنه رتيب ساكن. بالنسبة إلى البحار كانت تلك أرضا سائبة، مجهولة وبالتالي خطرة، هي شيء يجب الابتعاد عنه. وكما كان يعرف كل القباطنة الساحليين، «إن آمن مسافة بين النقاط نادرا ما تكون خطا مسـتقيما». يصغي مسـار البحار إلى التيارات، والرياح، ولسـمات الأشياء أسـفل المياه التي لم يكن ممكنا إيجادها على أي خريطة، حيث إنها معروفة فقط للمحليين، الذين كان يعتمد عليهم لقيادة السـفن الأجنبية المقتربة من السواحل المجهولة[8].

«إن المشاهد الطبيعية بلا أسماء للأماكن محيرة مربكة»: هكذا يكتب بول شيبارد، وهـذه «التي هي بلا قوالب تصنيفية، سـيئة جدا». يتفق جيمس هاملتون باترسـون مع فكرة أن طريقة ترويض مشـهد طبيعي مخيف تكون بإخضاعه لسـلطة اللغة. إن إعطاء المياه مسـميات سـاعد في تهدئة مخاوف البحارة القدماء. لقـد تغلبت أوروبا تدريجيا على رعب الفوضى المطوقة التي أسـماها القدماء **Oceanus** أو المحيط وذلك

Twitter: @ketab_n

عن طريق تسـمية وتخطيط البحار القريبة من السواحل. لقد أسموا هذه البحار على أسماء الأراضي المجاورة - بحر فرنسا، بحر إسبانيا - بيد أنه قد مضى وقت طويل قبل أن تجري تسمية الجسم المائي الذي ندعوه الأطلنطي أخيرا، متبوعا بالهادي. حتى بعد أن جرى إنجاز ذلك، كل من هذه المحيطات بقي مجهولا ضخما، شيئا يجري قطعه وليس هدفا للوصول إليه بحد ذاته[9].

الخطوة التالية كانت تسمية أكثر أجزاء البحر خطرا، ذلك الذي يقترب من الأرض. بالطبع فإن سواحل أمريكا لم تكن قط بلا أسماء، بيد أن الأوروبيين قد شرعوا في تبديل الأسماء الأمريكية الأصلية الوصفية - Far Away Island أو الجزيرة البعيدة، Burned Place أو المكان المحروق - بمصطلحات أكثر ألفة وأقل إرباكا، بيد أنهم في البداية تركوا كذلك السـاحل المستقيم من دون تعريف. عندما ازداد الازدحام الساحلي خلال القرن الثامن عشر، ارتفعت نسـبة التسـمية كذلك. فكما يبين هوراس بيك: «لا يمكن تسمية الصخور حتـى يجري إيجادها، الطرق المعتادة لإيجادها - من أجل غرض التسـمية - كان بأن تطلق سـفينة باتجاهها». لقد أنتجت الحوادث المؤسفة كلمات عامية طريفة أطلقت على بقع من سـاحل ماين. فقد دعي نتوء من جزيرة مونهيجان باسـم Cold Arse أو المؤخرة الباردة، فيما سـميت سلسـلة الصخور بالقرب مـن جزيرة كرانبيري العظمى مبدئيا باسـم Bunker's Whore أو مومسبنكر وذلك نسبة إلى امرأة غرقت بينما كانت تجدف باتجاه سفينة الكابتن بنكر لتصعد على متنها. لاحقا، التزاما بالمعايير الفيكتورية، تحول هذا الاسـم إلى Bunker's Ledge أو نتوء بنكر، فيما أُعيدت تسمية المؤخرة البادرة باسم Ragged Island أو الجزيرة الشعثاء[10].

وفي أعقـاب رسـامي الخرائط ظهر الفنانـون، ولاحقا كذلك المصـورون الذين سـيجمدون زمنيا الطبيعة الانسيابية للسـاحل. في البداية، عمل الفنانون من على متن السفن، عائدين بأنظارهم في اتجاه الأرض، مؤطرين المرسى والخط الساحلي في انسـجام مع التقاليد الأوروبية في رسم الموانئ. وعليه فقد صُورت الأماكن البعيدة والمحميـة على أنها أقل إرعابا. وقد جرى تطويع موانئ مختارة قبل أن يُتَخلص من مخاوف بقية الساحل بزمن طويل. فقط إزاء نهايات القرن الثامن عشر بدأ الفنانون في جعل الأجراف والسواحل الصخرية مواضيع لأعمالهم، وقد كان في وقت لاحق أن واجه هؤلاء البحر المفتوح في محاولة لتصوير قواه وعظمته اللامتناهيين[11].

Twitter: @ketab_n

إخضاع الساحل

كان الســاحل، في معظم التاريخ الإنساني، كما يصفه بول كارتر «متقطعا بعناد، ســحيقا، غير عقلاني، مستحيل الإصلاح». لقد كان الســاحل ينتمي إلى البحر وعليه فقد كان يعتبر خارج نطاق السيطرة البشرية. لقد استغلت البشرية سماته الطبيعية على مدى ألف ســنة، ولكن فقط نســبة صغيرة جدا من الساحل وفرت ميناء آمنا، خاصة بالنسبة إلى السفن الشراعية الأضخم حجما. لقد صدم زلزال لشبونة العظيم العــام 1755 أوروبــا حتى تعي مدى إمكان أن تكون حتــى أعظم موانئها البحرية مكشــوفة وضعيفة. إن الدمار الذي صنعه التســونامي الناتج عــن الزلزال، والذي تضخم بحكم هيكلة ميناء لشبونة، كان بعظمة ذاك الناتج عن الزلزال بحد ذاته[12].



عرض لآثار زلزال وتسونامي لشبونة العام 1755. تم نشرها في 1756. الصورة مقدمة من مجموعة كوزاك، الأرشيف الإلكتروني لمؤسسة NISEE لهندسة الزلازل، جامعة كاليفورنيا، بيركلي.

Twitter: @ketab_n

لم تجد سـفينة المايفلاور أي مرسى على سـاحل ماساتشوسيتس؛ لذا كان عليها أن تلقي بمرسـاها مقابل بلايموث وتبقي ركابها على متنها حتى يتمكن المهاجرون من بناء موقع يمكن سـكنه. لم يترك هؤلاء أي أثر أو دليل على كونهم هبطوا إلى السـاحل على الصخرة التي سـتولع بها الأجيال القادمة على أنها مكان المنشـأ في التاريخ الأمريكي. في الحقيقـة، لقد أجبروا على بنـاء جسر على الصخور وذلك حتـى يتمكنوا من التحميل هناك. الأنهر كذلك أثبتت أنها ليست بأكثر ترحيبا، فالاختراق الإنجليزي للداخل توقف على خط المنحدر حيث أوقفت التيارات المائية القوية تقدمهم أعلى النهر. لقد تفادى الفرنسـيون التيـارات النهرية عن طريق حملهم للمراكب والأدوات عبر اليابسـة، بيد أن الإنجليز اسـتخدموا سـفنا أثقل والتـي لم تكن لتتحرك حتى تعلمـوا بناء القنوات وتوظيـف أقفالها. لم يحدث ذلك حتى أواخر القرن الثامن عشر، عندما بدأت المواقف تجاه الطبيعة بحد ذاتها تتغير، وفكرة هندسـة السـاحل، واستصلاحه من أجل أغراض منفعية، بدأت بالبروز[13].

إن المقـدرة على «التفوق بالحيلة على الطبيعة، وإخضاعها» كانت ولوقت طويل حلم مخططي المـدن الأوروبيين المثقفين الذين كانوا يفكرون في توفير منفذ أسـهل للبحـر لمدن مثل بـوردو. في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسـع عشر، بدأ هذا الحلم بالتحقق عن طريق المسـح والتخطيط، راسـمين خطوطا حيث لم يكن للبشر وجـود من قبـل، صانعين «طرفا محايدا» جديدا تماما متوافقـا مع المنطق الديكارتي للبحاريـن قليلي الخبرة(*). كان ذلك أول جهد مبذول لإعادة تشـكيل السـاحل وفقا للتصميم المنطقي، ومن هذه النقطة فصاعدا أصبح الاقتصاد الرأسمالي وولايات الأمة أكثر إصرارا على جعل السـاحل متوائما مـع احتياجاتهم، وهو المجهود الذي يتعارض مع الطبيعة ويتناقض مع التاريخ السابق للسواحل والسكان الساحليين. بحلول نهاية القرن التاسـع عشر، كانت هذه الحملة الذهنية والمادية العصرية قد اكتملت بشكل كبير. لقد جرى ترويض البحر، وتحجيم «حوافه الخطرة إلى مجموعة من الإحداثيات التي يمكن قياسها». ليس فقط تحويل الساحل بشكل كامل، ولكن جرى كذلك تهجير

(*) المنطق الديكارتي إشـارة إلى نظام الإحداثيات الذي طوره رينيه ديكارت؛ حيث يجري تحديد أي نقطة في نظام من خلال تعيين علاقتها بما يقابلها من جهة بالمحور الأفقي، ومن جهة أخرى بالمحور العمودي، على مستوى هندسي مسطح. [المحرر].

Twitter: @ketab_n

سـكانه الأصليين بصورة عامة. النتيجة كانت الاختفاء، «الحقيقي والرمزي، لإنسـان الساحل، Homo littoralis» [14].

اليـوم، عندما تقترب الأغلبية منا من أي سـاحل، نفكر نحن في خط يفصل الأرض عن الماء. بيد أن الخطوط المستقيمة، وكما يذكرنا تيم انجولد، غير موجودة في الطبيعة. واقعيا، السـواحل متلاشـية، متكسرة ومفتتة. الخطوط السـاحلية هي قصص خيالية مناسبة لنا، «أيقونة افتراضية لعصر الحداثة، إشارة إلى انتصار التصميم المنطقي المفيد على تقلبات العالم المادي». بالنسـبة إلى علماء البيئة مثل راتشـيل كارسـون، «دائما ما يبقى طرف البحر حدا مراوغا عصيا على التعريف»، بيد أن تلك حقيقة ضائعة بالنسبة إلى هؤلاء من الذين نشـأوا في عالم قد تغطى تماما بالجسـور والأنفاق وجرت هندسته بشـكل تام، حتى إن، وبكلمات ويليام بنتينغ، «تقسـيمة الأرض لم يسـبق لها أن قلت أهميتهـا عما هي عليه اليوم». وكما يشـير بنتينغ، الوصف نفسـه يمكن أن يقال عن تقسـيمة البحر، الذي حتى في المدن البحرية، هو «مسـيّج بالطـرق السريعة ومنسي بشكل كبير» [15].

لطالما كان السـاحل يُستكشف باللمس والشـعور، وبالاستماع إلى أصوات الأمواج تتكـسر على النتوءات غير المرئية أو باشـتمام الأرض. بداية من القرن الثامن عشر، بدأ البصر يحل محل الحواس الرئيسية الأخرى وذلك عندما جرى دفع ما أسماه مارتن جاي «نظـام الرؤية الأفقية لعصر الحداثة» إلى المقدمة. وعلى نقيض الطرق الأخرى للتعرف على العالم، فإن البصر يباعد بالمسـافة بين المشاهِد والمراقَب. إن ثقافتنا البصرية، التي تعتمد بشدة على الرسم الخرائطي لمعرفة الطرق، قد كيفتنا لرؤية الخطوط في الطبيعة حيث لا توجد فعليا. وبسـبب طبيعتها المادية، فإن الشواطئ معروفة بصعوبة قياسها وتخطيطهـا. يُخبرنا علماء البيئة بأنـه يجب معاملة هذه الشـواطئ على أنها مناطق متسـعة حيث الماء واليابسـة لا يفترقان، بيد أننا نصر على رؤيتهما من منظور ديكارتي والذي يفرض ثنائيات binaries [16].

بـكل تأكيد، لايزال هناك مِن هو عارف بوضعية البحر، ومطلع كذلك على وضعية الأرض وعليه أن يقاوم أي تقسـيمة سـاذجة بين الاثنتين. لايزال هناك سكان ساحليون يعتمدون على البحر من أجل كسب رزقهم، والذين يمثل لهم الساحل مكانا للإحساس والرائحـة والصوت كما هو للإبصار. هؤلاء يمكن أن يوجدوا على كل سـاحل، وإن كان

Twitter: @ketab_n

بأعداد متناقصة. بالنسبة إلى الأغلبية منا، فإن البحر هو المجهول العظيم. يظهر البحر في الإعلام فقط عندما تكون هناك كارثة. لم تحمل صحف المدن الكبرى أخبار السفن منذ ستينيات القرن العشرين، وفيما عدا موسم الأعاصير، نادرا ما تعرض خرائط الطقس ما يحدث في البحر. وبكلمات ألان سيكولا: «إن النظرة المحدقة المدينية لم تعد تقع بعد الآن على خط الساحل، وفراغ معرفي يتبع ذلك». لاحظ بول ثيروكس، مقيم في كيب كود، أن «الغريب الذي يتمشى أو يقود سيارته إلى الساحل... دوما ما يرى تقسيمات»، بينما «لا يفرق المحلي بين الأرض والماء، ويستمر منطلقا، في الواقع يشاهد هو ذهنيا أسراب السمك والتيارات الملتفة والسفن الغارقة والصخور التي لا تظهر سوى في وقت الجزر- هي ليست عوائق بل سمات»[17].

إن الساحل في عقلية الإنسان المحلي أقرب بكثير إلى ذلك الذي كان مسيطرا حتى القرن الثامن عشر، عالم مائي حيث الفرق بين الأرض والبحر ضبابي، عادة ما يكون «مملكة مستنقعية (والتي) ليست بمشهد أرضي ولا مشهد بحري». بيد أن الغريب الذي يتقمص الرؤية الحداثية، مختبرا السواحل على أنها حدود، يقف على الساحل، مشاهدا فقط سطح البحر، يستمر في جهله بالسمات الخفية التي يمكن أن تعرف فقط من خلال التجربة المباشرة والمعرفة المحلية. فهذا الشخص، أو هذه، غالبا ما يتجاوز ما يربط الأرض بالبحر، حيث، ونظرا إلى جهلهم بالمفردات القديمة لمثل هذه الأماكن - **guzzle** أو الإسراف في الوقود، **creek** أو الجدول، **gutter** أو القناة، **bore** أو ارتفاع المد، **wrack** أو الحطام - فإن ملاك الأراضي لا يستطيعون تسمية وبالتالي في الأغلب لا يستطيعون فهم ما يقع بينهم وبين المحيط المفتوح. فمثل خارطة الطريق التي أوصلتهم إلى البحر، يسجل الغرباء كل ما يقع عبر الساحل كمساحة خالية، ذاك الأزرق المتوحش[18].

صُنْع الساحل الحديث

كانت عملية استيطان الساحل أكبر بكثير من مجرد عملية تأهيله بالسكان. لقد كانت تعني كذلك وضع هذه السواحل على الخرائط وهندسة سماتها لتناسب أهداف المدينة واقتصادها. فما كان يوما طرف البحر، معرفا بمدى وصول المياه، أصبح ساحل البحر، سمة من سمات الأرض. وما كان عتبة مفتوحة في كلا الاتجاهين أصبح

Twitter: @ketab_n

حدا صلبا. كل سنة تصرف الحكومات حول العالم المليارات محاولة «إصلاح» سواحلها، مجبرين إياها على الامتثال للخطوط التي رسموها في الرمال. بنت الحكومات السدود المضادة للأمـواج، والخواصر الأرضية، والأرصفة، وجرفت جبالا من الرمل، وسـحبت مزيدا كذلك لتعوض ما جُرف. وباسـم حماية السـاحل، دمـرت الحكومات مصبات الأنهار والأراضي الرطبة، مزعزعة في الواقع النظام الساحلي بتشجيعها عوامل التعرية المدمـرة والفيضانـات الناتجة عن التدفقـات البحرية المفاجئة. وكـما تظهر العلوم السـاحلية الحالية، سـيكون من الصعب تخيل نشـاط أكثر ضررا يُنفّذ باسم حماية طبيعة سواحلنا.

لقد بدأ اسـتيطان سـواحل أمريكا الشـمالية بشـكل جدي في القرن الثامن عشر ووصـل أوجّـه في أواخر القرن التاسـع عشر، عندما جرى استكشـاف وتأهيل الداخل القاري لأول مرة. لقد كان الاستيطان هذا أكثر بكثير من مجرد العملية المادية من حيث جعل قرى صيد السمك دائمة، وصنع مرافئ بموانئ ثابتة، وبناء المنارات والحصون. لقد كانـت هناك العملية الذهنية كذلك لإعادة تصـور العلاقة بين البشر والطبيعة وكذلك بين الأرض والبحر. إن الرغبة في استقرار شكل الساحل أخيرا وإلى الأبد كانت على الأقل بأهمية استقرار البشر على طول خطوط السواحل.

من وجهة نظر البحار، الساحل هو أخطر جزء من البحر، وما كان يسمى على مدى قرون «الساحل المستقيم» هو الأكثر رعبا بينها جميعا. فكما رأينا، كان البحارة القدماء يبحرون من ميناء إلى آخر، ومن مصب نهر إلى آخر، محاولين تجنبه. فما يعتبر اليوم في سوق العقار الأكثر جاذبية بين الممتلكات - الشاطئ - كان يعتبر في حينها **terra nullis**، فراغا يجـب تجنبه. لقد جرى تخطيط الموانئ ومصبات الأنهار في البداية من على متن السفن، وذلك لتسهيل الأمر على البحارة. فحتى القرن الثامن عشر، كانت المخطوطات تعكس رؤيتهم، بتركيز على الموانئ ومصبات الأنهار، بالكاد مصورة السـاحل المستقيم. لقد جرى تخطيط السـاحل المسـتقيم من أجل جمهور مختلف، هو ملاك الأراضي. إن اسـتطلاع السـواحل كان مشروعا مسـتنيرا مدفوعا بالضرورة الأرضية لتحديد خطوط الممتلـكات وتثبيت الحدود لولايات الدولة الداخلية الناشـئة. فقبـل أن تكون هناك مسـاحة، لا بد من وجود حدود. كانت الخطوط السـاحلية نتاج الضرورات السياسية لولايات الدولة المشغولة بتعزيز ودعم نفسها.

Twitter: @ketab_n

كانت الممالك القديمة مكتفية بترتيب مراكزها، تاركة سواحلها وحدود أراضيها مشوشة. وكانت الحدود القديمة «لا تعنى بتحديد الإقليم وبدء علاقة مؤثرة مع العالم الخارجي على قدر ما كانت تعنى بعزل وحماية شيء في الداخل». لم تنتبه الشعوب الساحلية للخطوط. فوفق رأي مايكل بيرسون، «شكّل الساحل جبهة ليس الغرض منها أن تفصل وتحتوي، لكنها بالأحرى تجد معناها في كونها منفذا». لقد تحرك إنسان الساحل بسهولة وبدافع من الضرورة عبر وعلى طول منطقة شملت الأرض والماء. لقد كانت خطوط السواحل لما قبل العصر الصناعي توصف بأنها مناطق للنقل والإرسال، وأنها حواف عوضا عن مناطق فاصلة. لقد كانت تلك جبهات مفتوحة والتي واجهت كلا طرفي الأرض والبحر، ميسرة الحركة وليست معيقة لها لأجناس البشر والحيوانات[19].

كانت السواحل مناطق حدودية قبل أن تكون حدودا بزمن طويل. كانت أراضي محايدة حيث يمكن للتجار من مختلف البلدان أن يلتقوا على أسس متساوية. باختصار، قربت السواحل بعض الشعوب من بعض بدلا من أن تفرقهم. في بداية العصر الحديث لم تكن السواحل أول خطوط الدفاع، حيث كانت الممالك تفضل أن تتمركز عميقا في الداخل. لقد طُورت فكرة الساحل المحصن فقط في القرن التاسع عشر، عندما أصبح التحصين الساحلي في الولايات المتحدة هو أضخم إنفاق عسكري سلمي. إن العصر البريطاني العظيم للدفاع الساحلي بدأ خلال الحروب النابليونية وقد أدى إلى بناء ما يزيد على مائة من أبراج مارتيلو. عندما روع نابليون الثالث، ابن شقيق بونابارت، البريطانيين دافعا بهم إلى حلقة أخرى من البناء في الستينيات من القرن التاسع عشر، أصبحت الأبراج، التي كانت ضعيفة أمام الأسلحة المدفعية الجديدة، تعرف باسم حماقات بالميرستون. إن الأبراج الخمسة والعشرين التي لاتزال تقف على الساحل لا توفر أي دفاع حقيقي لكنها محفوظة كجزء من التراث الساحلي البريطاني[20].

ولادة المرفأ

في عصرنا الحالي للتجديد الضخم لخط الساحل، وحين تستغل كل مدينة ذات منفذ للماء هذا التجديد كمصدر للثراء السكني والاقتصادي، فإنه يصبح من الصعب تصديق إن كان هناك وقت أدارت فيه المدن ظهورها إلى البحر، مبعدة نفسها قدر المستطاع عما كان يعتبر من صفاته الخطرة المهينة. بالنسبة إلى شمال أوروبا، لم يتحقق الصلح بين المدينة

Twitter: @ketab_n

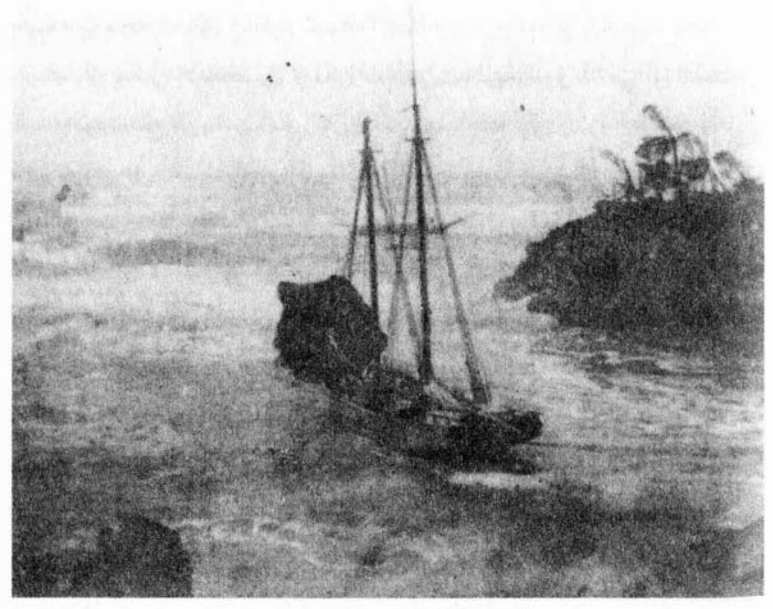
والبحــر حتى تحقق التوســع في التجارة عبر البحار في بداية العــصر الحديث. لقد كان في حينها أن وزعت أمستردام نفسها حول ممراتها المائية، وأصبح الخط الساحلي مركزا للحياة الاجتماعية للباريســيين واللندنيين. خلال الفترة نفســها، تخيل المصممون المدنيون إحضار البحــر إلى المدينــة أو المدينة إلى البحــر، وذلك على الرغم من أن هــذا العداء القديم بين النظام المديني والفوضى البحرية لم يختف تماما، خصوصا على طول الساحل الأطلنطي. إن الأساطير حول المدن الغرقى لطالما لاحقت الخيالات الأوروبية. كان يعتقد أن مدينة أفلاطون الخيالية، أطلانتس، موجودة في المتوسط بداية ثم بعد ذلك في الأطلنطي، والأساطير المحلية، مثــل تلك التي تدور حول مملكة ليونيس الغارقة، والمســتلقية في مــكان ما بين كورنويل وجزر سيســيليا، كذلك قد تلاعبت بمخاوف هؤلاء الذين يحيون على طول الســاحل. مثل أطلانتس، كانت ليونيس حكاية تحذيرية لأناس ساء مصيرهم بسبب فسادهم. كل من كان يعيش بالقرب من ســاحل ما كان يعرف بقرى ومدن قد دُمرت بشــدة بسبب العواصف، وأخــرى، مثــل دونويك، التي اختفت تقريبــا تماما. إن الربط بين البحــر والموت والخراب اســتمر ثابتا في العقول الغربية حتى نهايات القرن الثامن عشر، وذلك عندما تغلب إغراء البحر أخيرا على مساوئه. لقد اجتمع البحر بالمدينة في وقت متأخر، ومن البداية كانت تلك تركيبة غير مستقرة لم يتجاوز وجودها القرن العشرين. واليوم، لا وجود لمدينة المرفأ، ففي عصر سفن الشحن، أصبح المرفأ والمدينة كيانين منفصلين مجددا[21].

لقد كانت ولادة المرفأ نتاج ذات القوى الاقتصادية التي استوطنت السواحل في بداية العــصر الحديث. فعــلى الرغم من وجود الموانئ صنيعة الإنســان في العالم القديم، فقد أصبح شــائعا الاعتماد على الموانئ الطبيعية وضفاف الأنهر. تركت مواقع الرســو ومواقع التجارة المؤقتة القليل من الأثر على وجودها. في أوروبا الشمالية كانت المرافئ الصخرية والأرصفة الممتدة داخل البحر شــديدة الندرة، ولم تصبح أرصفة التحميل شــائعة إلا في القرن الثامن عشر. إن زوار ســيغتونا اليوم، والتــي كانت ذات يوم أكثر المواقع التجارية في الســويد ازدحاما لكنها اليوم أصغر مكان في الســويد لايزال يشار إليه على أنه مدينة، يعانــون صعوبة في تخيل أمجاد هذه المدينة الماضية. وجــود مطار أرلاندا الدولي بقرب المدينة فقط هو ما حفظها من الزوال التام. توجد آلاف مما كان ذات يوم مرافئ مزدهرة وحيث لا يوجد فيها أي شيء اليوم. لقد كانت تلك أكثر بعض الشيء من كونها شــواطئ أو شقوقا في الجروف حيث يمكن إلقاء المواد المشحونة على أظهر القوارب المنتظرة. على ســاحل كاليفورنيا، هنــاك دزينات مما كنا ندعوه ذات يــوم «مرافئ حُفر الكلب»، هي

Twitter: @ketab_n

موانئ بالكاد تكفي، كان يقال، لكلب لكي يلتف حول نفسه فيه. معظم هذه الموانئ قد اختفت من دون أن تترك أي أثر، ومن غير اسم حتى ليذكّر بوجودها السابق[22].

في شـمال أوروبا، انتقلت المرافئ تدريجيا باتجاه السـواحل، حيث أصبحت أقرب إلى المدن في حد ذاتها، مبعدة نفسـها عن نظائرها من المـدن الداخلية. لقد كان هناك تكاثر للمرافئ الصغيرة في القرن الثامن عشر، فقط ليجري استبدالها بالقليل من الموانئ الضخمة بحلول نهايـة القرن التالي. في العالم الجديد، كان كل مـن الأمريكيين الأصليين والأوروبيين يفضلون «المراسي» Landings كمواقع تجارة، محتفظين بمجتمعاتهم الدائمة على درجة من البعد عن البحر، والتي تعتبر إشـارة إلى الاحترام الذي تحمله كل الشعوب الساحلية تجاه القـوى المدمرة للمحيط والخوف من هؤلاء الذين قد يصلون بشـكل مفاجئ عن طريقه. كانت الشعوب الأصلية تفضل تجديف زوارقها إلى حيث السفن الأوروبية، مقايضين إياهم على المياه بدلا من المخاطرة بالسـماح لهم بالرسـو. في معظم الوقت، كان قباطنة السفن سعيدين بهذا الترتيب، حيث كانوا أكثر حماية لسفنهم المسلحة أو الجزر المحصنة[23].



مرفأ حفرة الكلب على ساحل كاليفورنيا الشمالي.

الصورة مقدمة من مكتبة الكونغرس.

Twitter: @ketab_n

في شــمال أمريكا، ظهرت المدن أولا على الســاحل عوضا عن الداخل. كل المدن الشــمال أمريكية الاســتعمارية الرئيســية كانت مبدئيا مرافئ بحرية، أنشئت من أجــل أغراض التبادل وفقط لاحقا طورت مؤسســاتها الدينيــة والمدنية التي كانت بذات براعتهم التجارية. وعلى العكس من إســبانيا الجديــدة، لم يكن مركز الحياة المدنية في أمريكا الشمالية هو ميدان المدينة أو ساحتها العامة ولكن كان المركز هو الميـنــاء، الذي كانت تقابله كل المباني العامة والخاصة الرئيســية، والذي كان يخدم عــلى أنه «غرف خارجية ضخمة» التــي كانت كل الطرق تقــود إليها وكل الانتباه يتوجه نحوها. فمن البداية، مَدَّ ســكان هذه المــدن أياديهم ليعانقوا البحر، حيث بنــوا المرافــئ وأرصفة الموانئ. في البداية، لم تكن مدن أمريــكا مالحة المياه امتدادا لــلأرض بقدر ما كانت امتدادا للماء. فقط لاحقا تســببت الضرورات الأرضية بملء المدن بالمرافئ والموانئ، وهي الحركة التي قاومها في البداية البوســطنيون (ســكان بوسطن) على أســاس أنها أعاقت «طريقا (مائيا) سريعا أعظم من أي طريق سابق جرى تخطيطه أو إنشــاؤه عبر مفوضية أي مدينة أو مقاطعة... لقد جرى تخطيطه وصنعه بواسطة الخالق العظيم نفسه»[24].

فعــلى جانبي الأطلنطــي، لم تكن المرافــئ البحرية الأولى تنتمي إلى الســاحل بقــدر كونها تقع على الســاحل. كان العديد منها يقع على جــزر حقيقية، وأخرى كانــت تقع على أشــباه الجزر. كل تلــك كانت منفصلة عــن الأراضي حولها. كانت للمرافئ، مثل مرفأ بوســطن، أراضٍ نائية ضحلة المياه، وبعضها الآخر لم يكن له أي منها مطلقــا. كان للمرفأ الفرنسي على جزيرة كيب بريتون، القلعة الفرنســية عند لويزبورغ، القليل من الاتصال مع ســاحل اليابسة الصخري أو مع الغابة المخيفة في الداخــل. «إن الأراضي النائية الحقيقية للويزبــورغ»، كتب جون ماكنيل: «ومصدر ثرواتها يقع عبر الســاحل». في بداية العصر الحديث، كانت المرافئ البحرية متصلة بشــكل أكبر بالمرافئ الأخرى أكثر من اتصالها بأراضيها النائية، فتلك كانت بطبيعتها entrepôts أو مراكز تجارية، وهي كلمة مشــتقة من الكلمة الفرنســية التي تعني «warehouse» أو «مخــزن». كانت المرافئ تفهم في البداية على أنها مراكز تجارية حيث يمكن أن يجري تصدير واســتيراد البضائع التجارية عن طريق المياه من دون دفع ضريبة الاستيراد[25].

Twitter: @ketab_n

إن أمســتردام الجديدة الهولندية كانت مجرد مركز تجاري، لا تنتج شيئا ذاتيا للتصدير. ســيمر وقت طويل قبل أن تطور خليفتهــا الإنجليزية، نيويورك، علاقة مع الأرض في حد ذاتها. كان ذلك واقعا كذلك بالنســبة إلى المواقع الفرنسية الأولى في ســانت كروا وبورت رويال. لم ينو البيوريتانيون الذين اســتقروا في بوسطن في العــام 1630 أن يجعلــوا منها مرفأ، ولكن عندما فشــل حلمهم في تكوين اقتصاد رعوي داخلي ، التفتوا مجددا إلى البحر ليكســبوا المال من صيد الســمك والتجارة الســاحلية. كل هذه المرافئ القديمة كانت عقدا في شــبكات معقدة حيث كانت الأرباح تصنع من البضائع المتبادلة وليس من تصدير واستيراد الأشياء من الأراضي الداخلية في حد ذاتها. فلو أن هذه المرافئ وُجدت فقط لتقوم بأعمال تجارية مع الأراضي النائية قليلة الســكان التي هي في بدايتهــا قليلة الإنتاج، ما كانت لتكون قادرة على البقاء أصلا[26].

كمراكــز تجاريــة، كانت المرافئ البحرية أماكن مقصــودة في حد ذاتها. مع ذلــك، أصبحت هــذه المرافئ أخيرا نقاط عبور إلى دولهــم. بمرور الوقت، جرى اســتبدال المخــازن بالمصانع حيث إنها أضافــت الإنتاج لنشــاطاتهم التجارية، أصبحت المرافئ أقل شــبها بالجزر عبر الساحل وأكثر ارتباطا بالأراضي الرئيسية، أولا عــبر القنوات، ولاحقا عبر الطرق، وأخيرا عن طريق ســكك الحديد. بحلول منتصف القرن التاســع عشر، لم تعد تلك تنتمي إلى البحر لكنها أصبحت نقاط عبــور بينه وبــين الداخل. ازدهــرت نيويورك عندما أصبحــت مرتبطة بالغرب الأوسط عن طريق قناة ايري في عشرينيات القرن التاسع عشر. وجدت بوسطن نفسها، من دون وسائل اتصال مائية مشابهة باتجاه اليابسة، في وضع سيئ حتى أُنقذت عن طريق السكة الحديد[27].

صناعة الواجهات المائية

في البداية، اســتغل البحارون الســمات الطبيعية، ولكن لم يمر وقت طويل قبل أن يبدأ ســكان المرافئ «بتحســين» منافذهم للماء، حيث بنوا أرصفة الموانئ ومد الجسور لتحل محل مراسي المياه الضحلة القديمة. في لندن، سبب التوسع الضخم في التجارة الساحلية في القرن الثامن عشر اكتظاظ نهر التايمز حتى إن المدينة أصيبت

Twitter: @ketab_n

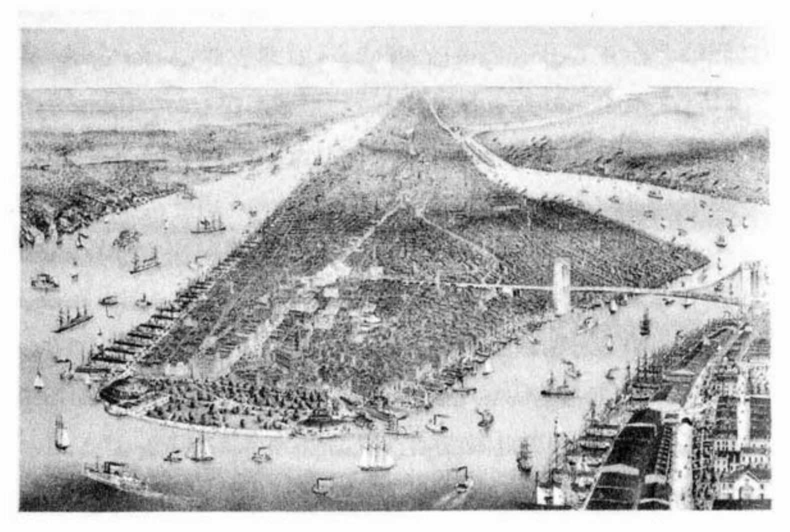
بهستيريا بناء أرصفة التحميل. تطلبت السفن المتعاظم حجمها تغييرات والتي سرعان ما تسببت في استبدال البيئة الانتقالية القديمة بحافة من نوع جديد، التي جرى وصفها بالمصطلح المخترع حديثا waterfront أو الواجهة المائية، والذي وضع فاصلا أكثر حدة بين الأرض والماء. بيد أن هذه الأعمال الفذة الصناعية تدخلت في نشاط الحَتّ الطبيعي لتيارات المياه عند مصبات الأنهار ولمياه الأنهار المتدفقة، مما أدى إلى تراكم الرواسب النهرية وبالتالي ضرورة إزالة الموانئ. لقد سبب تطويق نهر التايمز بالسدود إغلاق طريق فيضانه نحو السهول وهو ما سبب فيضانات متكررة في المدينة. في اليابان، أدى تعميق الموانئ وتقويم القنوات إلى زيادة سرعة وحجم الأعاصير، التي بدورها استوجبت خلق مصطلح جديد، tsunami أو التسونامي أو «موجة الميناء»، وذلك للتفريق بينها وبين سلوك البحار عندما تقترب من السواحل عن طريق الأنهار المتعرجة والأراضي الرطبة الساحلية[28].

وحتى عندما مدت المرافئ ممراتها باتجاه البحر، فإنها أصبحت أكثر ارتباطا بأراضيها النائية، لتنقسم أخيرا بين المقيمين الذين كانوا يكسبون قوتهم عن طريق البحر وهؤلاء الذين كانوا منتظمين في أنشطة أرضية خالصة. لقد أصبحت تلك أقل شبها بالجزر وأكثر قارية، وذلك إما عن طريق مد الجسور وإما ببناء الأنفاق. ومع بناء جسر بروكلين في العام 1883، فقدت مانهاتن طبيعتها الجزيرية. لقد كان يقال إن «القارة قد امتدت حتى إن الشخص يمكنه، بقدمين جافتين ومن دون استخدام العبارات، أن يزور كل مدينة من الأطلنطي وحتى Golden Gate أو البوابة الذهبية». بحلول ذلك الوقت، وباستثناء خطوطهم الساحلية، أصبحت مدن المرافئ جزءا لا يتجزأ من الأراضي الرئيسية، الحافة الصلبة من القارة[29].

بالتأكيد، بقيت المرافئ الصغيرة، التي فاق عددها الموانئ العميقة بكثير وذلك حتى القرن التاسع عشر، بيئة انتقالية، تربط الأرض بالبحر. في أيامها الأولى، لم يكن لمدينة سيلم خط ساحلي واحد ولكن عدة خطوط، وذلك لأنها ومثل العديد من المستوطنات الأخرى على ساحل ماساتشوسيتس، كانت محاطة بالمياه. كان الناس يتنقلون عبر القوارب، وكل الشوارع كانت تقود مباشرة إلى المياه. كان التجار، الذين غالبا ما كانوا يصحبون سفنهم إلى البحر، يعيشون أقرب ما يمكن إلى المياه.

Twitter: @ketab_n

كانــت الزراعة وصيد الســمك لايــزالان متلازمين في كل مــكان، وقليلون فقط هم مــن جعلوا من البحر مهنتهم مدى الحياة. فقــط في المرافئ الأكبر حجما في أوروبا وأمريــكا الشــمالية ظهر شيء مثل رجــل البحر أو الصياد المتخصــص تماما، وحتى عندهــا فإن فكرة «البحرية» كانت تعني مجــاورة البحر عوضا عن الانتماء الكامل إليه. هؤلاء الذين كانوا يصطادون الســمك مارســوا المهنة موسميا أو أنهم خرجوا للبحر لســنوات معدودة خلال شــبابهم، وعليه فإنهم لم يكونوا نسلا منفصلا لكن في الواقع يصعب تمييزهم عن الآخرين المنتمين إلى الشــعوب الساحلية حول حافة الأطلنطي بأكملها[30].



نظرة تحليقية لمانهاتن. كورير وآيفز، 1884. الصورة مقدمة من كوربس.

في البداية، أرســل ســكان المناطق مثل بوســطن، وفيلادلفيا ونيويورك أبناءهم إلى البحــر ليتعلموا التجارة. أصبح أكثرهم اقتدارا قباطنة ســفن وتجارا رحلا حول العالم. لقد كان الخروج إلى البحر في البداية يعتبر مرحلة في الحياة أكثر منه إشــارة إلى مســتوى طبقي. ولكن بحلول منتصف القرن التاســع عشر، أصبح كل من صيد الســمك والخروج إلى البحر عملا مستمرا مدى الحياة. ظهرت التقسيمات الطبقية على الخط الساحلي، وبحلول أواخر القرن التاسع عشر ظهر في كل مكان «بروليتاري

Twitter: @ketab_n

أعماق البحار»، الذي يجري توظيفه بشكل متزايد عن طريق المرافئ الأجنبية عوضا عن تلك الموطنية. لقد كان عند تلك النقطة أن بدأت المدن تدير ظهورها لخطوطها الساحلية. فما كان مركزا للتعارف وفخر المدينة أصبح ينظر إليه كوجود غريب، ومنطقة خطرة والتي، مثل البحر في حد ذاته، يجب أن تبقى على بعد مسافة آمنة. إن الحياة الساحلية للبيئة الانتقالية القديمة قد تمزقت إربا حيث أصبح الخط بين البحر والأرض محفورا بشكل أعمق وغير مسبوق حول الأطلنطي. ومثل النيويوركيين واللندنيين، تجنب الباريسيون الخطوط الساحلية العاملة وهؤلاء العاملين هناك. لقد فضل البرجوازيون المدنيون الآن البرك الصناعية والنوافير عن النهر الذي يجري خلال المدينة[31].

بحلول منتصف القرن التاسع عشر كانت الطبقات المحترمة تبتعد عن أرصفة الموانئ، والمدن مثل نيويورك كانت تنغلق على نفسها. لقد انقطع أعضاء طبقة التجار، الذين استفادوا كثيرا من التجارة البحرية، عن الذهاب إلى البحر فيما عدا الإبحار بيخوتهم خلال ساعات الترفيه. لقد كان في ذلك الوقت تقريبا أن تحولت أرصفة الموانئ إلى أماكن استجمام في أيام الآحاد. وكما بين أحد البوسطنيين: «إن أرصفة موانئنا.. كانت في الحقيقة متنزهات مائية للناس، ولم تكن تخلو من دروس حول الأشياء. في أيام الآحاد اللطيفة كانت عائلات بأكملها تتجه إلى هناك. في أيام الإجازات والمناسبات الاحتفالية الخاصة، كانت هذه الأرصفة جذابة جدا». بيد أن أهل المدينة المهذبين كانوا يتفادون الواجهة المائية الساحلية في عطل نهاية الأسبوع، حيث أصبحت هذه منطقة مختلفة، وعالما بين عالمين، ومثل السواحل الحدودية القديمة، كان مسكونا بمخلوقات غريبة، هذه المرة من النوع الإنساني. لقد كان هناك أن وُجد «الجديد، والحيوي، والمتغير والغريب». هناك تكدس الغرباء، والمهاجرون، وهؤلاء الساعون خلف مجموعة من النشاطات غير المشروعة: التهريب، والاختلاسات، وتجارة المخدرات، والتجارة بالبشر. بالنسبة إلى المواطنين المهذبين، أصبح خط الساحل منطقة ممنوعة عليهم، «مرتعا مخيفا للمنبوذين»، ومكانا يرتاده المدمنون، والمثليون، والمومسات. كان الذكور البرجوازيون يستمتعون بامتياز ارتياد الأماكن الفقيرة عند الحدود المدينية للبحر، بيد أنه لم يكن لامرأة محترمة أن تشعر بالراحة هناك، فيما عدا الصعود إلى عبارة أو سفينة فارهة عابرة للأطلسي[32].

Twitter: @ketab_n

كان العــصر العظيم الصعود للواجهــة المائية البروليتاريــة، تقريبا بين العامين 1850 - 1950، مميزا بسبب بيئته الفريدة والمتأثرة بشدة بالتلوث الناتج من اعتياد ســكان المدن على التفكير في البحر على أنه حوض عظيم يمكن تفريغ كل شيء فيه. سرعان ما خسرت المرافئ البحرية أطرافها الناعمة عندما دمر الحفر ودفن النفايات الأراضي الرطبة التي كانت مصدرا للحياة. عندما اســتطلع هنري هدسون لأول مرة ما كان سيصبح لاحقا ميناء نيويورك، فإنه وصفه على أنه جنة عدن، فائض بالسمك وقشريات البحر، بما في ذلك أعظم تجمعات للمحار في العالم، والتي هي قادرة على تنقيــة كل المياه في الخلجــان المحيطة خلال بضعة أيام فقط. ومثل كل الشــعوب الســاحلية، فإن هولنديي القرن الســابع عشر حصدوا هذه الــثروة وجعلوها ذات فائدة اقتصادية. وحتى القرن العشرين، كانت المدينة تتغذى على حصاد سواحلها. «كان المحــار هو الرابط بين نيويورك والبحــر وهو الرابط الذي ضاع تدريجيا»، مع ذلــك. اليوم تقريبا كل ما يقدم على نصف المحارة في مانهاتن يؤتى به عبر الجو من حول العالم[33].

بعد منتصف القرن التاســع عــشر، تحولت المدن العظيمــة ثقافيا، إن لم يكن كذلــك فعليا، إلى مدن مغلقة. فالعوالم المائية التي كانت ذات يوم مألوفة أصبحت الآن تعــرف بشــكل أقل عن طريق الخــبرات المباشرة أكثر منها عــن طريق الأدب والفن. ولكنه في ذلك الوقت أصبح ســكان الأراضي الداخلية مبهورين بالبحر كما لم يكونوا من قبل، معيدين اكتشــافه ولكن مــن زاوية مختلفة تماما، ليس عن طريق العمــل بعد الآن ولكن من خــلال أوقات الترفيه. وكما ذُكر ســابقا، في 1850، كان النيويوركيــون، الذيــن لم يعد لمعظمهــم أي روابط مع البحــر، يتدفقون إلى الخط الســاحلي في عصريات الآحاد. «تقريبا كل الرجال.. في وقت ما، كانوا يحتفظون عن قرب بالمشــاعر نفســها تجاه المحيط التي هي لي»، كما كتب هيرمان ميلفيل. لقد كان مذهولا فعلا بما شــاهده على خط ســاحل مانهاتــن: «منصوبين مثل الحراس الصامتين حول المدينة بأكملها، يقــف الآلاف والآلاف من الرجال الفانين مأخوذين بخيالاتهم المحيطية. البعض منهم يســتند إلى الركام، وآخرون يجلسون على رؤوس الجسور المائية، البعض ينظر إلى ما بعد متاريس السفن المقبلة من الصين، وآخرون مرتفعــون عاليا على الأشرعة والصــواري، كأنهم يكافحون مــن أجل اختلاس نظرة

Twitter: @ketab_n

أفضـــل باتجاه البحر. بيد أن هؤلاء جميعهم رجال يابســـة، ممـــن يقضون عطلهم الأســـبوعية بين الخشـــب والجبس - مربوطين إلى مناضدهـــم، مثبتين إلى منصاتهم، متعلقـــين بمصطباتهم، كيف إذن حدث ذلك؟ هل اختفـــت الحقول الخضراء؟ ماذا يفعلون هنا؟»[34].

لايزال سؤال ميلفيل يستصرخ إجابة. لقد كان يعتقده دافعا قديما، الدافع نفسه الذي سبب إيقاع نركسوس في غرام عارم بصورته المعكوسة في المياه حتى إنه غاص خلفها وغرق. بالنسبة إليه، قدم المحيط «صورة لا يمكن إدراكها لطيف الحياة». لقد اعتقد تي إس إليوت أن البحر ألمح إلى «خلق سابق آخر»، وهو التصور الذي شاركه فيه هنري ديفيد ثورو، وراتشـــيل كارسون، وكل هؤلاء الذين يتفقون مع ميلفيل في أن «التأمل والمياه متزاوجان إلى الأبد»[35].

نصف حياة قرية صيد السمك

لم يكن لدى هؤلاء المرتبطين بالبحر بشـــكل يومي الوقت للتحديق في المياه. لم تصل هذه العادة إلى قرية صيد السمك حتى القرن العشرين، عندما استبدلت الخطوط الســـاحلية العاملـــة حوض القـــوارب marina. مع اســـتثناءات قليلة، أصبحت هذه أماكن حيث «تعرض وتمارس جوانب من صيد السمك، ولكن حيث لم يعد الســـمك يصطاد أو يباع محليا». إن الصورة النمطية لقرية صيد الســـمك، بأكواخها حســـنة التجهيز، وخطوطها الساحلية المرتبة، وســـكانها اللطفاء، تقدم صورة زائفة لمجتمعات صيد الســـمك من الماضي. نحن نُصر على أن نُســـبغ على قرى صيد السمك قِدما مصطنعا، مسندين إلى سكانها، الذين اعتدنا نعتهم باسم «fisherfolk» أو «الصيادين»، أصولا جينية كاذبة إلى حد بعيد. تلك هي طريقة أخرى اســـتوطنا بها الســـاحل، في هذه الحالة، من خلال أوهام نتجت من النظر إلى الماضي[36].

لقد كان هناك عدد قليل جدا من قرى صيد الســـمك الدائمة قبل بداية العصر الحديـــث، ولم يكـــن حتى القرن الثامن عشر أن أصبحت هذه القرى شـــائعة أصلا. فقـــط عندما أصبح صيد الســـمك مشروعا تجاريا ظهر شيء مثـــل مجتمعات صيد الســـمك، وحتى في وقتها، بقيت تلك «مجتمعات متقلبة»، تتبع السمك، وثرواتهم

Twitter: @ketab_n

تتدفق وتنحسر كما هي الحركات غير المتوقعة للفريسة التي كانوا يعتمدون عليها. كانــت حياة مجتمع صيد الســمك الصغير عــادة قصيرة، وبحلــول منتصف القرن التاسع عشر، جرى تجاوزها بوجود المرافئ الكبيرة الحجم، وذلك عندما أصبح صيد السمك مهنة يومية كاملة وفي الأغلب بروليتارية في أعماق البحار[37].

حتى عندما تكونت القرى في الموانئ المناســبة على طول الساحل، أبقى سكانها على المســافة بينهم وبين البحر نفسه، موجهين أكواخهم باتجاه اليابسة متى تيسر ذلك. كان أول من احتل الشاطئ وبنى مساكن مقابلة للبحر هو سكان اليابسة من الطبقتين العليا والوســطى الذين كانوا مقتنعين بالقيمة الشفائية لماء وهواء البحر. بســبب إغراءات المنتجعات الصحية الداخليــة بوعود مسرفة بعلاجات إعجازية في منتصــف القرن الثامن عــشر، بدأ الإنجليز المعتلون والمصابون بوســواس المرض في التدفق إلى أماكن مثل ســكاربورو، وبرايتون، ومارجيت، حيث كانوا يدخلون البحر ويخرجون منه بواســطة أجهزة سباحة حديثة الاختراع، ويقضون ساعات لامتناهية يمشــطون الشاطئ ويشــاهدون معالمه، وهي الأنشطة التي كانت غريبة تماما على الســكان المحليين، الذين، كما بينت جين أوســتين، تفادوا المياه فيما عدا عند كسب الرزق منه. بالنســبة إليهــم «لم يكن البحر خفيا فقط - حتــى صوته ورائحته كانا ينقطعــان تماما فيما عدا خلال ســوء الأحوال الجوية. إن المناظــر البحرية متروكة فقط لأهل المدينة، الذين لم يختبروا تهديداته قط. البحار الحقيقي يفضل أن يبقى محبوسا أرضيا عوضا عن مواجهة المحيط»[38].

إن حقيقة قرية صيد الســمك تســير باتجاه معاكس لكل الصور النمطية التي اســتُثمرت بكل حرص خلال القرنين الماضيين. فكما تبين، أنها ليست نوعا من البقاء لنمط ما قديم من أنماط الحياة مطلقا. على العكس تماما، كانت القرية ظاهرة حديثة تماما، هي نتاج التحولات الاقتصادية العظيمة للعصر الحديث، أولا للثورة الزراعية ثــم الصناعية، التــي في البداية حركت عددا كبيرا من التنقــلات للناس من الداخل باتجاه السواحل. إن الفقراء المطرودين والملاك الصغار الذين فقدوا ممتلكاتهم على الأرض اتجهوا إلى صيد السمك بدافع من الحاجة، في الأغلب كملاذ أخير، وذلك منذ القرن السادس عشر فصاعدا. تكرر هذا النمط عندما اتجه مستوطنو العالم الجديد، بعد أن اكتشــفوا عدم إمكان كســب قوتهم من الأرض، إلى البحر بدافع من اليأس.

Twitter: @ketab_n

وكما عبر، بطريقة لا تنسى، ساموويل إليوت موريسون عن الوضع: «لم ينفذ الرب معجزة على أرض نيو إنجلاند. لقد قدم البحر. إن الحاجة الملحة خلقت بحارة ممن كان يجب أن يكونوا مزارعين... لقد اتجهت ماساتشوسيتس إلى البحر، إذن، ليس بدافع الاختيار، بل بدافع الضرورة»[39].

لم يكن الأشخاص العاملون منجذبين إلى البحر بقدر ما كانوا مساقين إليه. لقد كانت أحداث داخلية بقدر ما هي أحداث في البحر السبب في استيطان السواحل. في أسكتلندا، كان ملاك الأراضي العظماء الذين امتدت أملاكهم حتى السواحل مشغولين بصنع «fish-touns» أو قرى صيد السمك في القرن الثامن عشر وذلك عن طريق إجبار مستأجريهم على أن يحصلوا على مبالغ الإيجار من العمل في البحر. لم تظهر قرى صيد السمك المستقلة هناك حتى بداية القرن التاسع عشر، وبقيت تلك فقيرة ومعتمدة على تجار السمك. خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، جرى تقييد مجتمعات صيد السمك وحصرها في الموانئ بشكل متزايد، حيث أُبعدت عن الشواطئ بدفع من أحدث المهاجرين من الداخل، والمصطافين. اليوم، هم يفقدون حتى أماكنهم في الموانئ، مدفوعين إلى الأراضي الداخلية بسبب ارتفاع قيمة الأملاك وقوانين المناطق المقسمة[40].

منذ أقدم الأزمنة، كانت قرى صيد السمك نتاج الأسواق التجارية، سواء الداخلية أو تلك التي هي عبر البحار، وعليه فقد كانت معرضة لتذبذب العرض والطلب. لقد كانت تلك القرى غير مستقرة بشكل كبير وعرضة للفشل، كما كان سكانها متنقلين وغير مستقرين، ومستعدين لتجاوز القرية أو العودة إلى الزراعة عندما كانت الظروف تتطلب ذلك. في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، افتقدت هذه القرى الاستمرارية المجتمعية أو الأسرية. أما شهرتهم بزواج الأقارب فقد أتت بعد ذلك بزمن بعيد، حيث، كونهم ليسوا «جنسا مختلفا» مطلقا، كانوا مثل الشعوب الساحلية القديمة الذين كانوا يتنقلون ذهابا وإيابا عبر خط المد وذلك على مدى حياة كاملة، جامعين بين الزراعة وصيد السمك: رجال كل أنواع العمل والتجارة الذين كانت سمتهم المميزة هي تكيفهم وليس تفردهم. في بداية القرن التاسع عشر، كان شعب ماين الساحلي من بين أكثر الشعوب على الأرض سفرا وعالمية. «في الأيام الغابرة، جزء لا بأس به من أفضل الرجال هنا كانوا يعرفون مائة

Twitter: @ketab_n

مرفأ وشـيئا عن طريقة معيشــة الناس فيها»، هكذا أشار القبطان ليتل بيج، إحدى الشخصيات الخيالية لسارا أورن جيويت. كان هؤلاء كذلك أحد أكثر الأجزاء السكانية تطـورا في أمريــكا، حيث كانوا يزدرون كل ما هو قديــم لمصلحة الجديد. في أوروبا كذلك، كان البحارة يشــكلون مؤشرا إلى الاتجاهــات الجديدة في الملبس والحديث. عندمــا كون هؤلاء جزءا معقولا من الـثروة، بنوا منازل جديدة وجهزوها على طرز المدينة الحديثة. كانت ردهاتهم مملوءة بالقطع الغريبة الدخيلة - الببغاءات، بيض النعام، المرجان - كما أنهم كانوا يأكلون من أواني الصيني المســتوردة. حتى شواهد أضرحتهم كانت جديدة»[41].

إن مفهوم «الصيادين»، مثل الفكرة النمطية حول الفلاحين الفقراء، كانت نتاج الرومانتيكية الروسوية Rousseauist لأواخر القرن الثامن عشر، التي دشنت رحلة طويلة للنــاس، داخل وخارج أوروبا، غير ملوثة بالحضارة. فكما اتجه الجيولوجيون إلى أجراف البحر المتآكلة بحثا عن دلائل أحفورية لأزمان ســحيقة، مشط متخصصو الآثــار الســواحل والجــزر بحثا عما اعتقــدوه ينتمي إلى أســلافهم الذين يمكن أن يربطهم بماضيهم البعيد. خلال هذه العملية، جرى استبدال صور القرصان والباحث عن السفن الغارقة التي كانت منتشرة في القرن الثامن عشر بتلك التي كانت لفريق قارب الإنقاذ الشــجاع ولحارس المنارة. لقد جــرى ترويض صورة جاك تار، المرتبطة بالصخب والشــجار والتطــرف في إنجلترا القرن الثامن عــشر، تماما بحلول منتصف القرن التاسع عشر، حيث أصبح البحارة رموزا للوطنية البريطانية[42].

في أعقــاب خســارتها للمســتعمرات الخارجيــة، التفتت بريطانيــا إلى عملية اســتيطان ســواحلها بحد ذاتها لأسباب سياســية وكذلك اقتصادية. في العام 1786، أنشــئت جمعية المصائد البريطانية بغرض إنشــاء قرى صيد سمك نموذجية بحيث تخفــف من حدة فقر البحارة غير العاملين والمــلاك الصغار المجردين من أملاكهم. معظــم هذه القرى - توبرموري، وأولابول، ولوج بــاي، وبولتيني تاون - كانت تقع في أســكتلندا، حيــث أخرجت التصفيات الآلاف من أراضيهــم. لقد وفرت كل منها خدمات ولوازم لصيد الســمك، كما وفرت كذلك أرضية مناســبة لرعاية هذا العمل الإضافي. في لوج باي، أضعف المنفذ الأرضي عمل المسمكة عندما تحول السكان كلهم إلى الزراعة، ولكن في أكثر هذه المجتمعات نجاحا، بولتيني تاون، الواقعة في المنطقة

Twitter: @ketab_n

التي تسمى اليوم مدينة ويك، استمر اقتصاد بيئي انتقالي من العام 1803 حتى العام 1893، بما يقارب سبعة آلاف مقيم خلال موسم صيد السمك[43].

إن البحار البريطاني، الذي كان ذات زمن مصدرا لكثير من القلق، أخذ في التحول سريعا إلى مادة للتوق إلى الماضي، مقدما بصورة نمطية في الفن ومصورا في مواقع قديمة ليس لها سوى أقل القليل من الارتباط بظروف عمله الحقيقية. في الولايات المتحدة الجديدة، أخذت عملية التحويل الفولكلوري زمنا أطول لتتطور، لكن بحلول 1880 جرى تشكيل صورة «المالح القديم» بشكل مشابه، لتنهي أخيرا كل آثار عملية التحويل البروليتاري التي طغت في كل مكان كان الصيد فيه الاختيار الأوحد للإنسان الفقير. وكما قال جون ستيلجو: «بحلول العام 1910 أصبحت الشعوب الساحلية عينات أو شخصيات، وهي الصورة المتبقية، في الخيال الشعبي على الأقل، إلى اليوم»[44].

إن الفلاح الفقير وقرى الصيد الموضوعة في قوالب مثالية كانوا جميعا نتاج الخيالات الخصبة للفنانين والكتاب، إنهم الغرباء غير المنتمين الذين سيطروا على مناطق طبيعية معينة ممثلين لطريقة حياة لا يمكن وجودها في المراكز المدنية الحديثة. في إنجلترا، أصبحت القرية الريفية هي روح الإنجليزية، بينما في أسكتلندا كان مرفأ صيد السمك هو الذي أصبح يمثل نوعا معينا من الأسكتلندية الأصيلة. في المناطق البحرية الكندية ونيو إنجلاند، أصبحت مجتمعات صيد السمك كذلك حاملة للتراث الإقليمي، وحتى القومي. بلغت العملية ذروتها في 1920 و1930، عندما أصبح الاقتصاد العالمي مضعضعا. لقد بدا لكثيرين ممن يعرفون الشعوب الساحلية فقط من الزيارات الصيفية للسواحل والجزر، أنهم كانوا أكثر تجذرا، وأصحاب سلالة أنقى من شعوب المدينة. وعلى الرغم من أن الصيادين شكلوا نسبة أصغر من السكان العاملين في جزيرة كيب بريتون في نوفا سكوشا من عمال المناجم والمزارعين، فإنهم أصبحوا رمزا لكل ما يستحق أن يحافظ عليه هناك. الوضع نفسه ينطبق على أهالي ننتاكيت وشعوب قرى صيد السمك الصغيرة في نيوفاوندلاند[45].

من المفارقات أنه في أعقاب انهيار صناعة صيد السمك، أصبح لقرية صيد السمك هذا النوع من التحكم في الخيال الحديث. لم تحصل جلوسيستر، واحدة

Twitter: @ketab_n

مــن القليل من المرافـئ البحرية التــي رفضت أن تموت بصمــت، قط، على هذه القيمة الرمزية لمرفأ روكبورت القريب، الذي جعلت منه أرصفته المهجورة ومراكبه الشراعيــة المغطــاة بالعفن مصدر جــذب للفنانين. في أعقاب انهيــار صناعة صيد الحيتان في منتصف القرن التاسع عشر، بحثت النخبة التجارية في ننتاكيت باستماتة عن اســتخدامات جديدة لأرصفتها المهجورة ومساكنها المتآكلة. لقد تبين أن التاريخ كان ســلعة بإمكانها تنشــيط أســواق الســياحة والعقار. وبحلول القرن العشرين، استطاعت الصناعة السياحية المحلية أن تخفي التاريخ البغيض لصيد الحيتان خلف المظاهر الجذابة للمنازل الكولونية المجددة، مقنعين السياح بأن «التاريخ قد توقف تقريبا منذ نصف قرن مضى»[46].

إن السواحل، كما الجزر، أصبحت الآن تقدم على أنها أماكن توقف فيها الزمن. عندما ذهب الرســام الأمريكي مارســدن هارتلي باحثا عن نســخة دنيوية للأبدية، فقد اعتقد أنه وجدها على الســاحل الشرقي لنوفا سكوشا. كان يعتقد أن الشعوب الساحلية هم بقايا زمن أقدم، وقد كانوا مثيرين للإعجاب بسبب ذلك. وعلى الرغم من ميولهم التنقلية، كانوا يصنفون على أنهم «ســكان أصليون»، مكتســبين صفات المكان حيث تلتقي الأرض بالماء. في فرنســا، كانت الشــعوب الساحلية تعامل على أنها غريبة ومثيرة، حيث كانوا يتخيلونها بداية، ويشــبهونها بالتاهيتيين والأستراليين الأصليــين. بيــد أنهم لم يعــودوا معتبرين همجــا، حيث إنه حتــى عندما تخلصت الســواحل من سمعتها كأماكن خطرة، كان سكانها يُعاد تخيلهم على أنهم صيادون ظرفــاء غرباء، شــخصيات بريئة غير ضــارة. بحلول نهاية القرن التاســع عشر، كان شــائعا العثور على سياح فرنسيين يؤدون دور الصيادين بالطريقة نفسها التي لعب بهــا الأمريكيون من دون الهنود، كطريقة للتخلص من قيود الحضارة وللتواصل مع نفوســهم القديمة. أصبحت الشعوب الساحلية، المرســومة والمصورة ولكن نادرا ما تفهم حقيقة من قبل الســياح والذين تقع هذه الشــعوب تحت نظراتهم المحدقة، أصبحت هذه الشــعوب، مثل قرى صيد الســمك، منمطة بشــكل متزايد، ممتثلة للأعراف المتجانسة لتجارة السياحة. في روكبورت، وهي قرية الفنانين المفضلة، تغير الكثــير ولكن جرى الاهتمام بأن يبقى بيت صيــد أوحد والواقع على رصيف برادلي على حالته تماما وذلك من أجل رسامي هذا النوع من المواضيع. عندما جرى تحطيم

Twitter: @ketab_n

ما كان يعرف باسم Motif Number 1 أو «الرسم رقم 1»(*) عن طريق عاصفة في العام 1976، جرت إعادة بنائه بسرعة كبيرة، كونه أيقونة ثابتة ليس فقط لروكبورت ولكن لكل قرية صيد سمك على ساحل نيو إنغلاند[47].



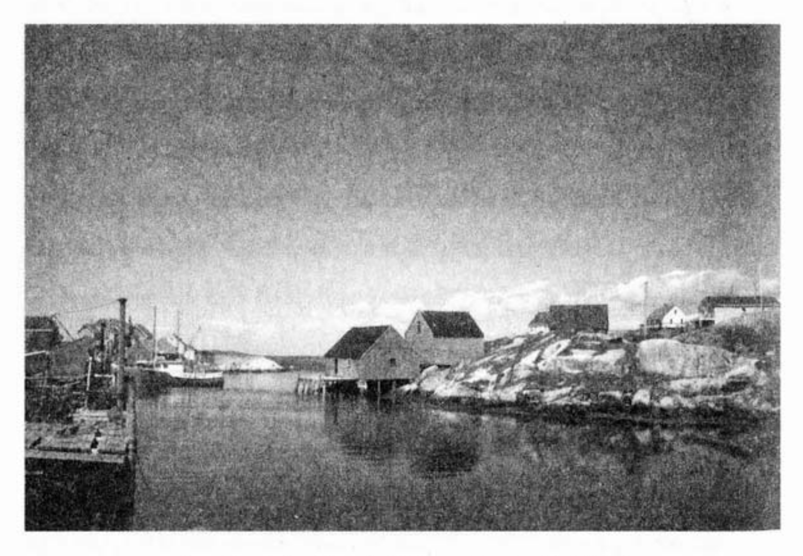
أيقونة الفنانين Motif Number 1. روكبورت، ماساتشوسيتس.
الصورة من ويكيبيديا.

لقد استرعت منطقة جون بيجي في نوفا سكوشا، والتي هي ربما أكثر الأماكن رسما وتصويـرا على ســاحل أمريكا الشرقي، انتباه كندا في العــام 1944 عن طريق كتابات جــاي. اف. بي. لايفــزي، وهو رجل إنجليزي ولد على جزيرة وايت، والذي وجد هناك «عالما بشريا نابضا صغيرا مثبتا على بحر مضطرب». بيد أنه كان الرسام الكاتب ويليام إي. ديجــارث، الذي بــدأ بالاصطياف في الجون في 1930 ثم انتقل إلى هناك بشــكل دائم في 1955، الذي قدم الأكثر ليحقق الرؤية الرعوية للايفزلي. كان ديجارث فنلنديا ســاحليا بخلفية ســويدية والذي هاجر إلى كندا في العام 1926. كونه تدرب على أن يكون رساما، فإنه خصص حياته ليجد ما كان يسميه «أجمل مكان على الأرض». لقد

(*) نموذج مطابق لكوخ صيد قديم، يرتاده الفنانون كثيرا لرسمه. يقع في ولاية ماساتشوستس الأمريكية. [المحرر].

Twitter: @ketab_n

حدد هذا الموقع على حافة خليج سـانت مارجريـت بين مجموعة من المنازل لاتزال بلا كهرباء أو سـباكة داخلية، وإن كانت تسـهل القيادة إليها من مدينة نوفا سكوشا الرئيسية، هاليفاكس. وبحنين عميق إلى «عصر ماضٍ للبحر»، صادق ديجارث القطاع المتضائل من صيادي السـمك المحليين وبدأ بتحويل المكان من خلال رسـوماته ومن خلال كتيب أخرجه اسمه This Is Peggy's Cove أو«هذه منطقة جون بيجي». إن اسم منطقة الجون قد جرى اشتقاقه من الخليج الذي كان جزءا منه، بيد أن ديجارث اخترع بيجـي خيالية، امرأة نجت من حادثة غرق سـفينة والتي يفترض أنها أعطت اسـمها للجون عندما تزوجت أحد منقذيها المحليين. كان السكان المحليون مقتنعين بـأن ديجارث «قد اخـترع القصة»، قائلين «لا بد أنه فعل، فلم يسـمع أحد آخر بها مطلقـا». غير أنهـم لم يعترضوا كثيرا، لأنه بحلول خمسـينيات القرن العشرين كانت السـياحة قد حلت محل صيد السـمك كمصدرهم الرئيـسي للدخل. أصبح ديجارث المتعهد المسؤول عن شهرة القرية وثروتها وذلك حتى وفاته في 1983[48].



الخط الساحلي في جون بيجي، نوفا سكوشا. الصورة من ويكيبيديا.

إن ظهـور جون بيجي ومثيلاتها حول الأطلنطـي كان النتاج النهائي لعملية طويلة من الاسـتعمار الثقافي، والتي مع أواخر القرن التاسع عشر كانت قد محت تماما الرؤية

Twitter: @ketab_n

القديمة للسواحل على أنها قبيحة ومشؤومة. إن تمكن لايفزي وديجارث من تخيل الشعوب الساحلية والذين كانوا بالكاد متمسكين بوجودهم المتقلقل على أنهم أكثر استقرارا من جيرانهم الأرضيين ما كان سوى عمل فذ لخيالاتهم النشطة. «جزيرة الهدوء، ملجأ ودود من كل اضطرابات العالم»، كان ذلك ما كتبه لايفزي بشأن مكان كان في الواقع يختبر انهيارا اقتصاديا وتناقصا سريعا في السكان. اليوم القليل من المراكب فقط بالكاد تترك الميناء، بيد أن الصورة النقية لقرية صيد السمك محافظ عليها عن طريق القوانين التنظيمية من ستينيات القرن العشرين والتي تضمن عدم تغير الصورة المرئية لجون بيجي، مهما كان يحدث لعملية صيد السمك نفسها[49].

تقلد الحياة الآن الفن، حتى على حساب الحياة نفسها. فمن أسكتلندا إلى نيوفاوندلاند، تستمر قرى صيد السمك بل تزدهر مع غياب عملية صيد السمك. إن المقاطعة الساحلية لمنطقة بكي تعتاش على التجارة السياحية، حيث إن شعارها هو «مستقبلنا موجود في ماضينا». لقد اختفت العديد من مستوطنات صيد السمك، بيد أن أخريات أعادت صنع نفسها على أنها نسخ جمالية نظيفة من شيء لم يكن له وجود فعليا مطلقا. فكما لاحظ جان جوس: «أن الطبيعة البحرية جذابة فقط في الماضي أو من على مسافة... حيث إن طبيعتها «الرملية» عن قرب غير ملائمة لاحتياجات الطبقة الوسطى»[50].

إن صور صيادي السمك الذين يستحضرهم الفنانون والكتاب بداية من أوائل القرن التاسع عشر قد حملت أوجه شبه قليلة لهؤلاء الذين عملوا على السواحل. لدينا توصيفات حقيقية قليلة للعمل البحري، خاصة للعمل الخاص بالنساء والذين كانوا جزءا لا يتجزأ من هذا الاقتصاد. هناك كذلك عدد أقل من الأشكال الجديرة بالتصديق في المشاهد البحرية عنها في المشاهد البرية. لقد كانت السفينة، والتي هي مصدر فخر التاجر، غالبا في المقدمة. إن الحياة في أعالي البحار لطالما ألهمت الفنانين والكتاب، بيد أن صيد السمك من على الساحل والنقل الساحلي فشلا في تأجيج خيالاتهم. في البداية، هؤلاء الذين كانوا يستكشفون الساحل من البحر قد تجاوزوه لما يقع بعده على الأراضي الداخلية. «بالنسبة إلى المشاهد اللبق القديم»، كتب إيان ماكاي، «كان خط الساحل قبيحا وغير مثير للاهتمام والصيادون بدائيين، منبوذين من «مسيرة التقدم» جديرين بالشفقة. لم تكن الخطوط الساحلية في روكبوند وصياديها ذوي اللحى الشائبة

Twitter: @ketab_n

لتُرى على أنها رموز ملهمة لنوفا سكوشـا». غير أنه جرى لاحقا تحويل السواحل وبقايا السـكان الذين عاشـوا عليها إلى حصـون لمجتمع كان، في عيون أشـخاص مثل ليفزي وديجارث، قد جـرى تقويضه على مدى قرن من الصناعة والتمدين. إن ما وصفه جين ديديـير أربابن على أنه عملية ممتـدة عبر قرن كامل «إنهـاء همجية» desavaging الشـعوب السـاحلية قد أتت بالمعجزات. إن الأشـخاص الذين كانـوا يوصفون بأنهم بجموح السـواحل نفسـها أصبحوا اليوم يصورون عن طريق برنـارد ديفوتو على أنهم «أشـخاص من صخر الغرانيت»، إنهم يانكي منطقة ماين ذوو الشخصيات التي لا تهتز والذين يستطيعون مقاومة كل عواصف الحداثة، بما فيها كارثة الكساد العظيم. عندما ذهـب الفنان الأمريكي مارسـدن هارتلي إلى نوفا سكوشـا في 1935، فإنه، مثل ليفزي وديجارث، كان يبحث عن «حجر ثابت في عالم متغير»[51].

نهاية اليابسة

بالنسبة إلى راتشيل كارسون، «الحد الفاصل بين البحر والأرض هو السمة الأكثر سرعـة في المـرور والأسرع زوالا عـلى الأرض». وعلى مدى ألف سـنة، كانت كذلك الأكثر خطرا. فحتى وقت متأخر مع بداية القرن التاسـع عشر كانت بريطانيا تخسر تقريبا ألف سفينة سنويا، أغلبها تحطم بالقرب من الساحل والكثير منها في المرافئ بحد ذاتها. إن بناء الموانئ والسـدود الدائمة والتي جعلت المرافئ عند خطوط المد أكـثر فتنة وإغـراء قد جعلتها كذلك أكثر غدرا وذلك بسـبب تقليل عملية التعرية الطبيعيـة، وتضييق القنوات، ورفع مسـتويات المد. لقـد أطلقت هذه التهديدات تجاه الازدهار السـاحلي أول مجهود ثابت ضخم لفهـم البحر، وهو المجهود الذي تركز أولا على عملية المد والجزر وفقط لاحقا تحول إلى علم أعماق البحار[52].

بحلول نهاية القرن التاسـع عشر، أصبحت السـواحل التي كانت ذات يوم أرضا مجهولة من بين أشـهر ملامح الأرض. أصبح تحطم السفن بالقرب من الساحل نادرا، حيث فقد الساحل ارتباطه بالخطر ليصبح مكانا للترفيه. وكونها لم تعد أراضي حدودية أو جبهات، فقد جرى إعلان السـواحل البحرية على لسان اللورد كرزون «الأكثر عنادا وفاعليـة، والأقـل قابلية للتغيير» بـين كل الحدود تحديدا لأنها بـدت طبيعية جدا. على مدى أقل من قرن، فإن عملية الاكتشـاف والمسح والتسمية كان لها تأثير تطبيع

Twitter: @ketab_n

السـواحل وأقلمتها مع الناس، حتى إنها حفرتها في أذهان الأشـخاص الداخليين. لقد أُفرغت السواحل من أهميتها التاريخية الأصلية لتصبح أماكن يبدأ عندها التاريخ أو ينتهي، ولكن ليس بعد أماكن حيث كان يصنع فيها هذا التاريخ[53].

في 1835 كان لايزال ممكنا بالنسـبة إلى أليكس دو توكويفيل أن يتخيل مستقبلا بحريا لأمريكا. مع نهاية القرن كانت الأمة تنظر إلى نفسـها، كما فعلت معظم القوى الأوروبيـة العظمى والتـي كانت أمريكا تقارن نفسـها بها، كأمـة قارية. لقد جرى الاستيلاء على كل من الجغرافيا والتاريخ عن طريق ما أسماه دنيس كوزغروف «نظرة الأقلمـة» (territoriallzing)، والتـي كانت مبنية على أن الأمـم بطبيعتها وحدات حدوديـة، مركزية، أرضية. إن أراضي الرسـو في جيمس تـاون وبلايموث قد أصبحت مناطق الأصول الأسـطورية لأمريكا. إن السواحل الصخرية والتي خشي البحارة ذات يوم الهبوط عليها أصبحت الآن أسسا مبجلة لمزار الأمة. لقد أصبحت صخرة بلايموث، والتي لا توجد أي إشـارة إليها في سجلات الهجرة الأولية والتي في الحقيقة قد أزيلت من السـاحل بحلول العام 1774، رمزا للمنشـأ. وعندما أعيدت إلى مكانها الأصلي في 1859، ومع نهاية القرن أصبحت موقعا سياحيا قوميا[54].

بحلـول ذلـك الوقت كان التاريخ قـد اتخذ منحى أرضيا، فلـم يعد متحركا عبر السواحل، أو، كما يقولون في نيو إنجلاند، «أسفل الشرق»، ولكن من الشرق إلى الغرب بشكل حازم. لقد كان هناك زمن في بداية القرن التاسع عشر عندما تخيل الأمريكيون أنفسـهم يدخلون إلى الهادي ليسـتكملوا أقدارهم، بيـد أن الجبهات البحرية كانت مغلقة كما أن «إمبراطورية الحرية» لجيفرسون ستتوقف متعثرة على الساحل الغربي عوضا عن التقدم فوريا إلى هاواي وما بعدها. لقد أشار جوناثان رابان إلى أن «الناس التـي تعيش على القارات تعتاد اعتبار المحيط على أنـه نهاية الرحلة، إنه النقطة في نهاية السـفر الطويل. عندما وصل الأمريكيون الشـماليون إلى الهادي لم يكن هناك شيء يستوجب عمله سوى بناء ولاية كاليفورنيا الواقعة في نهاية العالم[55].

إن أحد أبعاد سـطوة وسـيطرة انتصار رؤية الأقلمة كان عدد «نهايات الأرض» التـي بدأت تلوح على سـواحل أوروبـا وأمريكا. أكثرها شـهرة، والواقعة على نتوء خليجـي يقـع جنوب أقصى الغرب من كورنوال، سُـميت في وقـت مبكر في القرن الرابع عشر باسم Landesynde أو لانديسند، والذي يعني «نهاية الأراضي الصلبة».

Twitter: @ketab_n

نهايات أرضية أخرى، مثل كيب فينيستير في إسبانيا وفينيستير في فرنسا، هي كذلك مواقع غربية. وكذلك هي نهايات الأرض في كاليفورنيا، واحدة في الباجا، والأخرى في بريسايديو بوينت غرب سان فرانسيسكو[56].

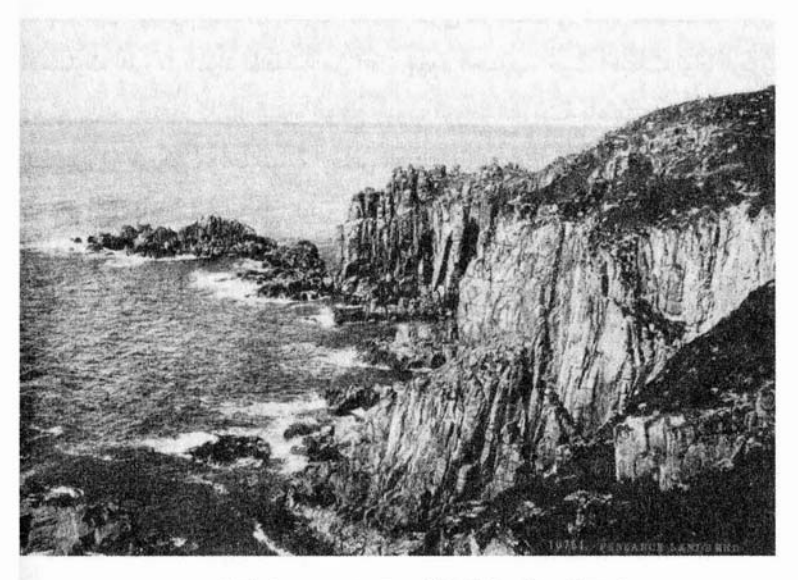
بحلول بداية القرن العشرين، أصبح الساحل الغربي جبهة أمريكا الأخيرة. لقد كان مناسـبا أن المعرض الدولي لباناما-الهادي قد جرت اسـتضافته في سـان فرانسيسكو في 1915. ومـن أجـل هذا المعرض، قام جيمس إيرل فريـزر بنحت محارب هندي منهك منهـار على حصانه من مادة الجص، وهو رمز للهزيمة الأخيرة للهنود على أيدي حضارة البيض المقبلة. لقد كان عمل End of the Trail أو «نهاية الأثر» صورة غاية في الشعبية، حيث خطط فرايزر لأن يغطيه بالبرونز ويضعه مواجها الغرب على بريسايديو بوينت، عاليـا فوق الهادي. بيـد أن الحرب العالمية الأولى تدخلـت في هذه المخططات. جرى الاسـتيلاء على كل المواد المعدنية من أجل جهود الحـرب، حيث أحبطت نوايا فريزر. ومـع ذلك، يحتفظ ذلـك النتوء الواقع جنوب البوابة الغربيـة بأهميته كموقع لنهاية الطريق، إن لم يكن موقعا لنهاية الجنس الهندي، بالنسبة إلى الكثير من الأمريكيين.

إن الميل ناحية الغرب كان مغروسـا بعمق في الثقافة الغربية. لقد نظر السـلتيون غربا باتجاه البحر بحثا عن أرض الموتى الخاصة بهم، ووضع الرومان أبطالهم الموتى على جزر في البحر الغربي، والمسـيحية، والتي كانت مواقعها المقدسـة تقع أصلا في الأراضي المقدسـة الشرقيـة، أصبحت تتوقع البعث الثاني للمسـيح أن يكـون في الغرب، حيث ليـس فقط الأرض ولكن الزمن كذلـك كان يعتبر منتهيا. في أذهـان المعتقدين، تحرك الخـلاص من الشرق إلى الغرب، مصطحبا نهاية الزمـان معه. لقد أصبح الغرب مرتبطا بالموت ولكن كذلك بالبعث. في الفكر المسيحي، كانت النهايات دوما مرتبطة بالبدايات الجديدة. لقد وجد جون ويسـلي، الذي زار نهاية أرض إنجلترا في 1743، الساحل هناك على أنه «منظر مريع» ولكنه توقع، وطبقا للجغرافيا الإنجيلية لذلك الزمن، أن بشاعته، والتي هي نتاج الخطيئة الأولى، «ستذوب عندما يظهر الرب يوم الحساب»[57].

وفي حين أنها كانت ذات يوم مواقع وصول لليابسـة بالنسـبة إلى البحارة، فإن نهايات الأرض هذه لم تكتسـب معانيها من سـكان الأراضي الداخليين حتى حلول القرن التاسـع عشر، وذلك عندما أصبح للسـواحل منفذ مـن الأرض. عندما أطلق ريتشـارد آيتون والرسـام ويليام دانيل رحلتهما الاستكشـافية لساحل إنجلترا الذي

Twitter: @ketab_n

أسمياه «المهمل المجهول» في 1813، فإنهما خططا للذهاب عبر البحر ولكنهما وجدا الرحلة غاية في الخطورة وقررا عوضا عن ذلك أن «يبحرا على ظهور الخيل»، فاتحين الشــهية للســفر باتجاه الســاحل والذي تزايد عبر الوقت. وبينما هو ليس واضحا تمامــا لم اختارا أن يبدآ رحلتهما عنــد Land's End أو نهاية الأرض، فإنه من المؤكد أن المكان كان قد اكتســب منذ زمن معنى خاصا بالنسبة إلى الجماهير التي «كانت تمعــن النظر باتجاهه، ناحتين أســماءهم على الأرض، ثم مغادرين، بذلك الشــعور بالرضا الكامل والذي يجب أن يحظى به الإنسان الذي يعتقد أنه فعل كل ما يمكن فعلــه». لقد اتبع آيتون ودانييل «العرف المعتاد بالذهاب إلى الحافة القصوى لتلك النقطة» قبل الاستمرار حول الساحل باتجاه عقارب الساعة[58].



Land's End أو نهاية العالم، كورنوال. الصورة من مكتبة الكونغرس.

مــن الممكن أنهم كانوا شــهودا على بقاء طقْس قديــم، إذ إنه، وكما لاحظ دبليو. إتش. هدســون بعد ذلك بمائة ســنة أن «الربط القديم للمكان يستمر، وإذا مــا جــرى توقيت الزيارة بشــكل صحيح، لربما اســتطاعوا اســتثمارها في اســتجلاب جاذبية ومهابة هي ليســت لها في الواقع». ولكــن إذا ما كان هناك

Twitter: @ketab_n

أي معنى سلتي أو مسيحي مرتبط بنهاية الأرض في كورنويل، فإنها سرعان ما ستستبدل بروابط رومانتيكية والتي كانت لها أصول شديدة الاختلاف وتامة الحداثة. عندما بدأ آيتون ودانييل رحلتهما، كان الساحل يشكل إلى حد كبير أرضا مجهولة للجميع فيما عدا بالنسبة إلى المحليين. على سواحل إنجلترا فقط المنتجعات الأنيقة الحديثة هي التي اجتذبت الزوار. كان ما بقي من الساحل يعتبر مكانا غير صحي وخطرا لدرجة أن المنارات وأبراج المراقبة فقط هي ما كان لها وجود هناك. كان هؤلاء المسافرون الشجعان مستكشفين حقيقيين للمجهول، متحمسين «لعرض عظمة مشهده الطبيعي، ووظائف وسلوكيات الناس، وأساليب الحياة في أكثر أجزائه برية». فحتى ذلك الوقت، كانت البرية تحديدا، هي التي يجري تجنبها. الآن، أصبحت تلك الصفة هي الأكثر جاذبية للساحل. فهذه الأرض بعينها الأرض terra nullus التي لا تنتمي إلى أحد والتي يوماً كانت طاردة أصبحت الآن جاذبة، تاركة مجالا واسع لزوارها لأن يستثمروها بأكثر خيالاتهم جموحا[59].

في خلال القرن التاسع عشر، أصبحت نهاية الأرض في كورنوال واحدة من أشهر المناطق في بريطانيا، يرتادها عشرات الآلاف القادمين عبر الطريق الأرضي أو القطار طاعة لما أصبح في حينها تقليدا في الذهاب إلى آخر الحافة. من شَهِدَ هذا التقليد شبهه بالحج. قارن ويلكي كولينز منطقة نهاية الأرض بإسرائيل بيد أنه لم يستطع استبيان أي دوافع دينية واضحة عند الحجاج. وصف دبليو إتش هدسون هدف الوصول هذا بمصطلحات دنيوية تماما، على أنها «الهدف الأعظم والأخير لرحلة إلى الإقليم الواقع في أقصى حدود الغرب في إنجلترا، إنها الشمال الأقصى (Ultima Thule) الخاصة بها أو هي منطقة أقصى شمالها». بالنسبة إليه كانت منطقة نهاية الأرض «اسما يفاجئنا بأكبر قدر في طفولتنا عندما كنا ندرس جغرافيتنا، والتي تملأ الذهن بأشخاص خياليين وصور حول أرض قاحلة موحشة وأحلام حول نتوء خليجي منعزل، إنه المكان حيث آخر إنسان في إنجلترا سيكون موجودا في انتظار الموت في نهاية العالم»[60].

بحلول أواخر القرن التاسع عشر أصبحت منطقة نهاية الأرض غاية رئيسية للمسافرين بشكل يومي، البعض منهم قادم من مناطق بعيدة ببعد المستعمرات

Twitter: @ketab_n

في حـد ذاتها فقط ليقفـوا، وإن كان للحظات قليلـة، في مواجهة الشرق على هذا الجـرف البحري الناتىء والمهترئ قبل أن يعـاودوا الصعود على قطاراتهم عودة إلى مانشستر، لندن. «لطالما أردت رؤية منطقة نهاية الأرض، والأمر كذلك بالنسبة إلينا جميعا»، هكذا نقل هدسون عن أحد الرجال العاملين، «لقد أتينا لرؤيتها ولا شيء آخر». كان العديد من الزوار كبارا في السن يرتحلون إيفاء بوعد رعوه منذ الطفولة، عـلى أن يقوموا بالزيارة قبل أن يوافيهم الموت. وبمجرد أن يقضوا هذه الزيارة، فلا سبب لديهم لأن يتباطأوا ولا لأن يعودوا إلى ذات المكان. بالنسبة إلى القلة الأغنياء هناك فندق يطل على البحر، ولكن بالنسـبة إلى الأغلبية كانت زيارتهم تمتد فقط لدقائق قليلة[61].

لقد عَبّر السـكان المحليون عن دهشتهم من هذا التصرف. فهؤلاء الذين عاشوا بالقرب من المنطقة كانوا يعرفونها على أنها خطرة مشؤومة. «لم يسبق لي أن رأيتها ولا أود في يـوم أن أفعل»، هكذا أخبر رجل من كورنوال هدسـون. فأيا كان المعنى المحلي الـذي كان للمنطقة، فإن هذا المعنى فُقد الآن. لقد أصبح المكان ينتمي إلى المساحة الخيالية للأمة، وهو مكان أصبح يعرف خلال القرن التاسع عشر عن طريق سـواحله من الجنوب إلى الشـمال كما من الشرق إلى الغرب. لقد أطلق هدسـون على منطقة نهاية الأرض اسـم «ملكية قومية»، جزء غير قابل للمصادرة من تركيبة الأمـة البنيويـة. ففي العصر الذي أصبحت فيه مواقع طبيعية معينة مقدسـة من خلال خرائط الفصل المدرسي وطوابع البريد وأصبحت تذكر للمرة الأولى في النشـيد الوطني، أصبحت السواحل رموزا للهوية والأمن القوميين[62].

لقد مارسـت السواحل دورا بارزا بنحو متزايد في بروز جغرافيا قومية مترابطة. في 1832 كان لايزال ممكنا بالنسبة إلى دانييل ويبستر أن يقف في ردهات الكونغرس الأمريكي معلنا: «ماذا عسـانا أن نأمل فعله في الساحل الغربي، ساحل يمتد إلى ثلاثة آلاف ميل، صخري القاعدة، كئيب، سيدي الرئيس. لن أصوت أبدا على صرف سنت واحد من خزانة الأمة لتقريب الساحل الغربي إنشا واحدا من بوسطن عما هو عليه الآن». على الرغم من ذلك، وبحلول نهاية القرن التاسـع عشر، أصبحت السـواحل تعـرف أمريكا. فالأمـم التي ليس لها منفذٌ إلى البحر أصبحت تشـعر بنقصها. لقد عوّضـوا هـذا النقص بأن شـكلوا قوات بحريـة، معظمها يعمل فقـط على الأنهر

Twitter: @ketab_n

والبحيرات. لايزال لبوليفيا، والتي فقدت منفذها على الهادي خلال الحرب المعروفة باسم حرب الهادي في أواخر القرن التاسع عشر، أكبر هذه القوات البحرية. تَنْحصر مهمة هذه القوات في الوقت الحالي في القيام بدورات حراسة في بحيرة تيتيكاكا، بيد أن هذه القوات تبقى ذات أهمية رمزية عظمى للبوليفيين، الذين انتعشت آمالهم طويلة الأجل بالعودة إلى البحر في 2010 عندما أقرت اتفاقيات المنفذ مع بيرو[63].

لقد اســتخدمت عبارة «من الساحل إلى الســاحل» أول مرة لوصف الولايات المتحــدة خلال خمســينيات القرن التاســع عشر. عندما ألفــت كاثرين لي بيتس «أمريــكا الجميلة» في 1893، كانت من فورها قــد هبطت على قمة بايك، والتي منها «كل ســحر أمريكا بدا معروضا هناك في هذا المدى الشبيه بالبحر». إن هذه «الأمواج الكهرمانية (المتألقة) من القمح» قد استحضرت سخاء المحيطات، بيد أن خيال بيتس قد امتد فقط من «بحر إلى بحر لامع»، حيث إنه بحلول ذلك الوقت عرفت الولايات المتحدة نفسها ليس على أنها أمة بحرية ولكن أمة قارية. في 1879 دفع رجل من كورنوال يعرف باسم روبرت كارلايل بعربة يدوية من منطقة نهاية الأرض إلى منطقة جون أوغروتس في أقصى شمال أسكتلندا. ومنذ ذلك الوقت، فإن تقصي مســاره أصبح شــيئا من التقليد الوطني. إن ربط الحواف أصبح استعراضا لبطولة شخصية ولكن كذلك شهادة على الوحدة القومية. إن «مرتحلي النهاية إلى النهاية» الذين يســيرون، ويقودون الدراجة، أو يقودون السيارة على هذا الطريق يتنافســون فيما بينهم على أرقام السرعة القياسية، بيد أن الرحلة تمثل كذلك نوعا من الحج القومي وكذلك، شــبها بمثيلاتها من الرحلات الدينية، هي مصدر للهوية الجمعية لهؤلاء الذين يقومون بها. لقد أصبحت السواحل توفر نوعا من التماسك الذي لم يســتطع الداخل أن يوفره. فكما اكتشــف بول ثيروكس عندما قام لاحقا بتقليــد طــواف آيتون ودانييل، «بريطانيــا ما هي إلا ســواحلها». لم تعرف دولة أخرى بســواحلها كما عرفت هذه الأمة الجزيرية، بيد أنه في كل مكان حول حافة الأطلنطي ما كان ســابقا يعتبر مناطق غريبة معزولة أصبح اليوم يحتضن على أنه مصدر للفخر والمتعة القوميين[64].

بحلول نهاية القرن التاســع عشر، اتخذت الســواحل مَظْهَرا جديدا تماما. فهذه الســواحل التــي كان لها ذات يوم جغرافيا سَلِســة وكانت مأهولــة بأجناس حافة

Twitter: @ketab_n

متنقلــين، أصبحــت الآن متحجــرة زمانيا ومكانيــا. لقد توقفــت تحركاتها وبدا أن الزمــن توقف. إن الســاحل القديم اليوم ليــس إلاّ حطاما، يعلــوه ما يصفه جون غيفر بأنه «ســاحل ومرفأ ثان مكون من محــلات الآثار القديمة والهدايا، والمطاعم، والمقاهــي، والحانات، حيث يشرب الناس نبيذ الجن على أضواء الشــموع، محاطين بآلات الحرث، وشباك السمك، والنظارات المكبرة وغيرها من الأشياء الأثرية الخاصة بأسلوب حياة شاق ومنظم والذي لا يعرفون شيئا عنه». اليوم أصبح ديكور الساحل الثــاني على الأغلب مصنعا وليــس أثريا. يتحدث جون ماكيني عن انتشــار المتاجر على ســاحل كاليفورنيا، الذي تطور إلى الحد الذي «أصبــح معه الزوار غير قادرين على الوصول إلى الخط الساحلي، وغير قادرين على رؤية السواحل بسبب المتاجر». وحتى «الشاطئ الزجاجي» الذي يباع في محلات الهدايا يأتي ليس من الساحل ولكن من المصانع الداخلية. إن ســيريالية الســاحل الثاني تزداد وضوحا يوما بعد يوم، إنه صنيعة خيالات سكان الأراضي الداخلية، وهو مستمر بدفع من حاجاتهم ورغباتهم. لقد اســتحوذ هؤلاء على مدخرات الساحل الأول واستخدموه ليشرعنوا جغرافياتهم الأسطورية ورواياتهم التاريخية الخيالية[65].

Twitter: @ketab_n

5

الاكتشاف الثاني للبحار

يعتبر البحر أحد أكثر الرموز «عالمية» في الأدب، إنه من دون شك الأكثر تلونا.

جوناثان رابان[1]

«مع مرور الوقت، سيقف العلم على قدمين بحريتين»

لقد جرى اكتشاف المحيطات مرتين. في عصر الاكتشاف الأول، كانت البحار تستكشف وتخطط على أنها وسائل للوصول إلى الأراضي البعيدة، غير أن القليل من الانتباه كان يعزى إلى المياه بحد ذاتها. لقد كان يقال إنه «بالكاد تركت أعماق البحر أثرا... حتى مستكشفو المحيطات كانوا أكثر تكيفا مع الأرض منهم مع المحيط، لقد استخدموا البحر فقط كطريق سريع لبلوغ الأرض اليابسة التالية». لقد كان ذلك اكتشافا عن طريق البحر أكثر منه اكتشافا للبحر. لقد كان العلم في بداية العصر الحديث يعرف عن السماوات أكثر مما يعرف عن المحيطات، ومزيد من الانتباه كان يعزى إلى استخراج الثروات من

Twitter: @ketab_n

البحر، تحديدا السمك، عنه تجاه المياه بحد ذاتها. لقد كان كل ما يقع تحت السطح - في الأعماق - يعتبر هاوية لا يسبر غورها، لا يمكن اختراقها ولا فهمها، منطقة ميتة مظلمة تحاصر كل ما يغرق تحت سطحها، وهي لا تظهر أسرارها مطلقا. حتى القرن التاسع عشر، يقول جيمس هاملتون - باترسون، كان فهمنا للبحر «صناعيا بكل ما في الكلمة من معنى... سطح يمكن الإبحار عليه، من دون شك، فوق الهاوية»[2].

أنتج الاكتشاف الثاني للبحر، الذي بدأ في القرن التاسع عشر، توسعا ضخما في معرفة البحر بحد ذاته، الآن كمخلوق حي ثلاثي الأبعاد بتاريخ وجغرافيا خاصين به. لقد حقق الزمن الحديث ما لم يحاول القيام به أي عصر آخر: اكتشاف أعماق البحار. في الوقت ذاته، جلبت هذه المحاولة اكتشافا آخر، وهو اكتشاف أدبي فني بقدر ما هو علمي، عصر نهضة رمزي وليس فعليا، والذي كانت له تداعيات مماثلة إن لم تكن أكبر حجما بالنسبة إلى الثقافة الشعبية في العصر الحديث.

منذ العصور القديمة، كانت المحيطات تعتبر غريبة تماما عن بني البشر. كان الشخص يخرج إلى البحر بدافع من الضرورة وليس الرغبة. كانت الرحلة «شرا ضروريا، هي رحلة عبور ذاك الذي يفصل ويقصي»، كتب دبليو. إتش. أودن. لقد كان القدر، وليس الاختيار، هو الذي دفع أوديسيوس عبر الساحل. وطوال الرحلة كانت فكرة «nostos»، أو العودة إلى الديار، وليس البحر، هي المسيطرة على وعيه. بالنسبة إلى مسيحيي العصور القديمة، كان البحر يقارن بالصحراء، التي ألهمت أول جيل من رجال الكنيسة. لقد أطلق القديس بريندان قاربه في فراغ البحر الضخم على أمل أن يجد الرب هناك. كانت تلك رحلة peregrinato، رحلة عناء، المقصود بها اختبار الإيمان تحت أكثر الظروف صعوبة[3].

لقد حذر إيراسموس من أنها «حماقة أن تثق بالبحر»، كما كتب جون دون في العام 1619 أن «البحر ليس مكانا للعيش، بل ممر إلى حيث أماكن معيشتنا». لقد كانت تلك هي الطريقة التي فهم بها ويليام برادفورد محنة المايفلاور. بالنسبة إليه كانت الرحلة «بحرا من المشاكل»، غير أن احتفاظه بوصف «بشعة وبرية خربة» للأرض التي كانت قبلة الحجاج كان ذا مغزى. فبالنسبة إلى هؤلاء المسيحيين، كانت الرحلة هي مواجهة ليست مع الطبيعة ولكن مع ما وراء الطبيعة. لقد كانت الرحلة إلى أمريكا بحد ذاتها ضربا من العبادة وذلك بطاعة القوة الإلهية، وليست فعلا إراديا حرا كما سيعتقده المراقبون الأكثر دنيوية في رؤيتهم لاحقا[4].

Twitter: @ketab_n

لم يكن البحر خطرا فقط بل بشــعا كذلك، غــير جدير بالتناول الفني أو الأدبي. بالنسبة إلى شكسبير كان البحر خلفية عوضا عن كونه مادة أساسية. لقد كان الرسم والرواية حول البحر في بداية العصر الحديث فقيرين بشــكل يثير الدهشة خصوصا بالنســبة إلى المحيطات بحد ذاتها. كان التركيز وقتها يكاد يكون كاملا على الســفن وعلى مهارات الرجال الذين كانوا يشغلونها، حيث البحر بحد ذاته يكاد يكون فكرة لاحقة. في روايات البحر للقرنين الســادس عشر والســابع عشر، تركز الاهتمام، كما كان في اللوحــات البحرية، على تفاصيل مهارة البحار. بعد العام 1750 قل الاهتمام بعمال البحر الكادحين بشكل كبير حيث أصبحت الرواية الإنجليزية منغلقة أرضيا، «مقسمة إقليميا» إذا جاز التعبير. عندما أعيد إحياء روايات البحر في القرن التاسع عشر، فإنها كانت مهتمة بنفسيات الرجال أكثر من اهتمامها بعملهم في البحر[5].

لقــد بدأ البحر بحد ذاته يبرز بقوة فقط عندما تمت الســيطرة على الأرض أخيرا. لقد اســتغرقت العملية من الوقت تقريبا حتى القرن العشرين ليجري استكشاف كل القارات واستيطانها. حتى ذلك الوقت، كانت المناطق خلف السواحل يشار إليها على أنها مناطق نائية hinterlands حيث كانت مرتبطة بالرجعية والتخلف. بوصول القرن العشرين، انعكســت مواقع الســواحل والمناطق الداخلية، حيث الأولى، توصف اليوم بأنهــا «قلب الأرض»، قد أصبحت مركز الجذب الاقتصادي والســياسي. لقد كانت أول مرحلة للتطور الرأســمالي تجارية وبحرية، أما الثانية فكانت زراعية وصناعية، وأرضية تماما. عندما أفســح عصر الملاحة العظيم الطريق للعصر البخاري في النصف الثاني من القرن التاســع عشر، تراجعت البحار بينما فتحت القارات أبوابها. لقد كان القدر الآن مــع الأرض وليــس مع الماء وذلك لأول مرة على مدى قــرون. لم يكن العصر الصناعي الجديــد مرتكزا فقط على تجارة البضائع بل على تصنيعهم، ما أعطى أفضلية للأراضي الضخمة بسكانها القادرين على مواكبة الإنتاج والاستهلاك الضخمين. لم يكن لدولة أن تكون أرضا نائية، حيث إن المستقبل آنذاك كان للأراضي المركزية التي وصفها الجغرافي هالفورد جاي. ماكيندر في العام 1904 بالمحاور المستقبلية لتاريخ العالم[6].

غير أنه حتى عندما اســتدارت الشــعوب عن البحر كمكان للعمــل والقوة، فإنها عادت إليه، كما لم تفعل من قبل، وذلك كمكان للترفيه الجســدي والروحاني. في القرن التاســع عشر بــدأ البحر بحد ذاته، على عكس الســفر والبحــارة، في الدخول إلى الفن

Twitter: @ketab_n

والأدب بطرق حديثة وغير مسبوقة تماما. ففيما أسمته مارجريت كوهين «تسامي البحر»، أُعطي البحر مكانة ثقافية جديدة، وقوة جمالية عليا. لقد أصبح المحيط ينبوعا من الصور والرموز - حيث السفن المحطمة هي الأكثر انتشارا فقط - والتي استمرت في السيطرة على الثقافة الغربية إلى اليوم. حتى عندما انخفضت أرقام هؤلاء الخارجين إلى البحر لكسب قوتهم بصورة كبيرة، بدأ مزيد من الناس في وصف حياتهم على أنها رحلة بحرية. وكما وصف أحد الطلبة المهتمين بهذا التحول في الأحداث بأن هؤلاء الذين «يعيشون على الأرض يفضلون مع ذلك، في خيالاتهم، أن يصفوا حالتهم العامة في هذه الدنيا بمصطلحات الرحلة البحرية». في الوقت ذاته، فإن القيم التي كانت ذات يوم مرتبطة بالأرض، لا سيما البرية، قد تحولت إلى ما عبر الساحل. إن الطبيعة النقية، التي أصبحت بحلول ذلك الوقت نادرة في الأراضي الصناعية، قد وجدت ملجأها في المحيطات، فيما الغموض الذي كان مرتبطا ذات يوم بما يعرف باسم terra cognita أو الأرض المجهولة قد انتقل إلى الأعماق. في الوقت ذاته، فإن الجلال، الذي كان مرتبطا في السابق بالجبال والغابات، أصبح مرتبطا بمياه الأنهار المتدفقة Whitewater[7].

البحر بوصفه ذوقا مكتسبا

أصبح البحر في بداية العصر البحري العظيم أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ولأول مرة، جزءا من الثقافة الأرضية الغالبة. بعد ذلك، ولأول مرة، تبنت الطبقات الوسطى الأمريكية والأوروبية ما أسماه هنري ديفيد ثورو «صبغة بحرية». بالنسبة إلى بعض الشباب مثل ريتشارد هنري دانا، كان الإبحار بالصاري (Mast) المرفوع هو طقسا للعبور. وقد نشأ ولع بالإبحار باليخوت على كلا طرفي الأطلنطي، حيث أصبحت الرياضات المائية منتشرة جدا. خلال نصف القرن التالي، الملايين من أهل بلد دانا، الذين وصلوا في البداية عبر البحر، سيلتفتون إليه بخيالاتهم، والبعض منهم بأجسادهم. بداية من منتصف القرن التاسع عشر كان هناك عادة رجال من ذوي العقيدة الإنجيلية، والذين مارسوا الإبحار ليس للوصول إلى مكان ما بل لاسترداد ذلك الشعور بالاستقلال الرجولي والتوجه الأخلاقي الذي لم يعودوا قادرين على إيجاده في حياتهم اليومية على الأراضي الداخلية. يقول جوناثان رابان إنه «نادرا ما كانت رحلات القوارب الصغيرة تغيب عن نظر مجتمع كانوا

Twitter: @ketab_n

يحاولون تنظيمه، فهم قد اســتخدموا البحــر لإثبات شيء ما للأرض». غير أن أغلب هؤلاء الذين عادوا إلى البحر لم يبتعدوا مســافة أكبر عن الساحل. وحتى اليوم، فإن معظمنا يتحصل على صبغته البحرية ليس على الماء ولكن على الشاطئ[8].

غير أنه حتى هؤلاء الذين لم يسبق لهم أن تعدوا خط المد قد تبنوا الرموز البحرية وجعلوا من البحر رمزا للحياة على الأرض. لقد وقع هؤلاء في حب القارب اللعبة وبذلة البحار، وبدأوا استعمار الساحل لأسباب ترفيهية وكذلك لأسباب صحية، كما أنهم ملأوا قاعاتهم التي تقع في المدينة أو في ضواحيها بأحواض الســمك والمشــاهد البحرية. وكما قال أحد المؤرخين: «خلال القرن التاسع عشر، تغلغل المحيط في عقول، وبيوت، وأحلام، وحوارات الأناس العاديين». لقد فعل المحيط ذلك من خلال فن رســم المناظر البحرية، مــن خــلال أدب المغامرات، ومــن خلال طرق أكــثر اعتيادية ويومية: جمع الســمك الاستوائي، والصدف، والمرجان، وعظام الحيتان المنقوشة. «عادة ما يبدو أنه كلما أصبح الناس أكثر تمدنا»، كتب جيمس هاميلتون - باتيرسون، «أرادوا أن يحوطوا أنفسهم أكثر بتعويذات الطبيعة على حوائطهم، وعلى أرففهم، وفي حلقات مفاتيحهم»[9].

في القرن التاسع عشر، بدأ الناس في العودة إلى البحر بحثا عن قيمة شعروا بأنها مفقودة في البيئة الصناعية الجديدة، شيء أطلقوا عليه برية. ظهرت الرغبة في اختبار الطبيعــة غير المروضة في القــرن الثامن عشر بين مجموعة مــن الذواقة الأوروبيين والذين بالنســبة إليهم كانت قوة البحر الرائعة، كما شــاهدوها من على اليابســة الآمنة، محفزا ذهنيا وعاطفيا قويا جدا. إن الهلع والدهشة اللذين ربطهما الأشخاص المتدينــون بالقوى الخارقة للطبيعة، جرى الآن تحويلهما إلى الطبيعة بحد ذاتها. في العام 1712 كتب جوزيف آديســون حول «الرعب اللطيف» الذي تثيره العواصف: «بــين كل الأشــياء التي رأيتها، لا شيء يؤثــر في الخيال مثل البحــر أو المحيط... إن محيطا مضطربا، بالنسبة إلى إنسان يبحر فيه، هو، كما أعتقد، أضخم مادة يمكن له أن يراها تتحرك... من الطبيعي أن تثير مثل هذه المادة في داخلي فكرة وجود عظيم فتقنعنــي بوجوده على قدر ما يفعل البرهان الميتافيزيقي». في فرنســا، كان دنيس ديديروت منجذبا إلى الساحل لأســباب مشابهة، فيما فضل الإنجليزي إدموند بيرك البحر على اليابســة كذلك كمنشــط للعقل والروح. لم يختبر ذلك شخص أفضل من جول فيرن، الذي كتب: «إن العقل الإنســاني يســتمتع بالمشاهد الضخمة للكائنات التي تفوق الطبيعة. والبحر هو الوسيلة الأفضل، هو البيئة الوحيدة حيث مثل هذه

Twitter: @ketab_n

المخلوقات الضخمـــة - والتي مقارنة بها تعتبر الحيوانـــات الأرضية، كالفيل ووحيد القرن، كأنها أقزام - يمكن لها أن تتكاثر وتتطور»[10].

إن الخيال الرومانطيقي لبداية القرن التاســع عشر، الذي كان يركز في البداية على هيبة الجبال، تحول أخيرا إلى الســاحل الجامح، مكان كان الجميع يتحاشــاه ســابقا ما عدا هؤلاء الذين كانوا يكســبون عيشــهم عليه. فإذا ما كان يتوقع من جيشــان البحر في العصــور الأقدم أن يذكر بصــور من الطوفان الوارد في الكتــاب المقدس، من الموت والخراب، الآن، وفي عصر أكثر دنيوية، فإن المياه نفســها تعد ببعث جســدي وروحاني. كانت ســواحل بريطانيا وفرنســا بحلول ذلك الوقت مســطرة بالمنتجعات التي تقدم بركات مياه البحر، في البداية فقط للطبقات الراقية، ولكن بحلول منتصف القرن التاسع عشر، قدمتها للطبقات الوســطى كذلك. في القرن العشريــن، لحقت العامة بهؤلاء إلى أكثر أماكن الاستمتاع حداثة وعصرية، الشاطئ.



عرض وينسلو هومر للهيبة الساحلية في براوتس نيك، اللوحة بعنوان دريفت وود، 1909. حقوق النشر لمتحف الفنون الجميلة، بوسطن.

Twitter: @ketab_n

إن التجربة الجسـدية المباشرة للبحر استبدلت بألفة خيالية ليست أقل وضوحا ولا سـيطرة. فحتى القرن الثامن عشر، كان البحر بحد ذاته غير مرئي بشـكل كبير، حيـث كان مثـيرا للاهتمام لمـا يحتويه من السـمك، ولما يربط مـن أراض وليس لذاتـه، حيث نادرا ما كان يظهر في طليعة الفـن أو الأدب وذلك حتى جعلت منه الحركـة الرومانطيقية للقرنين الثامن عشر والتاسـع عشر موضوعا مناسـبا للاثنين. لكـن بمجرد الوصول إلى هذه النقطة الحاسـمة، سرعان ما أصبح البحر مدموجا في الفنون الشعبية. بعدها، سرعان ما أعطت التصويرات الخيالية للبحر شكلا لحقائق ملاحية بحرية جديدة. فضلا عن ذلك، أصبح البحر هو خشـبة المسرح حيث يجري تمثيل الحالة الإنسـانية بأكثر الأساليب ميلودرامية. فالأحلام والكوابيس التي كانت في السـابق تُعكس على المناظر الطبيعية الأرضية أصبحت الآن منصبة على المناظر البحرية. حتى عندما أصبحت المحيطات لأول مرة مادة للعلم، كان البحر يمر بجولة أسطورية أخرى[11].

مع مرور الوقت سـيقف العلم على قدمـين بحريتين، بيد أن علم المحيطات كان آخـر المعارف الجديدة الوليدة، وحتى اليوم فإن جزءا صغيرا جدا من أعماق المحيطـات، عـلى الأكثر 5 في المائة، هـو فقط المعروف بشيء مـن التفصيل. إن المفاهيم الشـائعة حول المحيطات لاتزال نتاج الأفـلام والروايات أكثر منها نتاج الأبحاث. يبقى البحر، كما كان في الكتاب المقدس، أقصى درجات «الآخر»، غير أنه الآن ظاهـرة طبيعية عوضا عن فوق طبيعية. وكما كان الوضع خلال الاكتشـاف الأول للبحر، رسـم الخيال الطريق الذي سيتبعه المستكشفون. سيستشف العلم طريقـه من كتاب مثل جـول فيرن وهيرمان ميلفيل، اللذيـن كانا من أوائل من تحرك عبر السـاحل ليس لاستكشـاف طبيعة البحر فقط بل لاستكشاف الطبيعة الإنسانية كذلك[12].

وفيما كان هامشيا ذات يوم بالنسبة إلى الثقافة الغربية، انجذب البحر الآن إلى مركز الوعي الجمعي لهذه الثقافة، حيث أصبح رمزا رئيسـيا لكل السلوك الإنساني. لقـد وصف رابان البحر بأنه أكـثر الرموز تلونا وذلك لأنه «ليس مادة معرفة... إنه، بالأحرى، السـائل الأعظم والعنصر الأكثر عنفا، يعيد تشـكيل نفسه من جديد من أجـل كل مياه ومن أجل كل جيل». خلال القرن التاسـع عـشر اتخذ البحر موقعا

Twitter: @ketab_n

جديد تماما في الجغرافيا الأسـطورية للثقافة الغربية. فما أشار إليه جوزيف كونراد عـلى أنه «البحر الخالـد» أصبح ملجأ للآمـال والمخاوف التي لم يعـد من الممكن استيعابها على الأرض[13].

حتى عندما أصبح معظم الأمريكيين والأوروبيين أقل ارتباطا جسديا بالمحيطات، فإنهم أصبحوا أكثر قربا منها ذهنيا وخياليا. لطالما كانت للمياه قوى مقدسـة، لكن الآن ولأول مرة قدم البحر نوعا من التوبة الدنيوية. لقد أصبح رمزا للأبدية، ومصدر راحة لهؤلاء الذين، وعلى إثر فقدانهم الإيمان بالفكرة الإلهية للحياة الأبدية، أصبحوا يـرون في ما يبدو تدفقه السرمدي دليلا على خلود الطبيعة وأبدية الحياة. هناك في المـكان الذي تلتقي فيه الأرض بالماء، لم يكن للوقت والتاريخ أي سـيطرة. أصبحت الأرض مرتبطـة بالحـدود، وبالبدايات والنهايات، غير أن البحـر أتى ليمثل الثراء، ما يبـدو أنه مصدر متجـدد لانهائي، وجبهة جديدة تماما للاستكشـاف والاسـتغلال. بالنسـبة إلى جوزيف كونراد، الذي كان يحتقر ما حدث للأرض في العصر الصناعي، كان البحـر هو الاختيار العملي الأوحد. فقط في زمننا هذا جرت مقارعة أسـطورة البحـر اللامتناهي بالنتائج المثبتة للتلوث وبالنهب غير المقنن لمياه العالم، ولكن مع ذلك، تستمر فكرة البحر الخالد في الثقافة الشعبية[14].

آفاق جديدة

كان الاكتشاف الثاني للبحر من إنجاز سكان الأراضي الداخلية مثل هنري ديفيد ثورو وراتشيل كارسون وليس إنجاز البحارة، وهما من الكتاب الذين كانت خبراتهم العملية بالمحيط محدودة ولكن كان خيالهم لا حد له. لقد أتوا إلى البحر ليكتشفوا ليـس ذاك الكامـن وراءه فقط بل وذاك الكامن في دواخل أنفسـهم. بالنسـبة إلى الأجيال الأقدم كان البعد الملهم للدهشـة هو البعد العمودي، خصوصا السـماوات في الأعلى. حل مراقب الميـاه مكان مراقب النجوم، حيث اتخذ البعد الأفقي معنى جديـدا وحيث أصبح الأفق بحد ذاته جبهات للخيال، خصوصا بالنسـبة إلى هؤلاء الفنانين الذين توافدوا إلى الساحل لأول مرة. في البداية كانت طبيعة البحر الشرسة هي التي اجتذبتهم، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا عمقه الزمني كما عمقه المكاني. على الأرض، بـدا أن التغـير الصناعي قد عزل الماضي، ولكن البحر، الذي يشـار إليه الآن

Twitter: @ketab_n

بشــكل متزايد على أنه «أبدي» أو «خالد»، بدا أزليا، مُســتودعا لذلك الذي اختفى مــن فوق الأرض. حاجــج جول فيرن بأنــه، ولأن البحر لا يتغير أبــدا، «لم لا يكون البحــر قد احتفظ، في أعماقه المجهولــة، بالبعض من هذه العينات العملاقة للحياة لعصر آخر؟» كما أن أناس البحر، والبحارة والصيادين، الذين كانوا سابقا غير مرئيين بالنســبة إلى الفنانين والشعراء، أصبحوا وبشــكل مفاجئ ذوي أهمية كبقايا لما هو قديم وباق. إن المنظر البحري، والذي كان ذات يوم نوعا فنيا ثانويا، أصبح رئيســيا خلال القرن التاســع عشر، مستحضرا مناظر للحياة البحرية في ردهات هؤلاء الذين لم يقتربوا قط من الساحل فضلا عن الدخول إلى البحر[15].

في إنجلــترا، وحيــث بقــي النزر القليــل من البريــة الداخلية، اجتــذب البحر «المتوحــش» الرومانطيقيــين منذ وقت مبكــر. في أمريكا، حيث الوفــرة الكبيرة في الأراضي غير المروضة، اســتغرقت رحلة البحث عــن التجارب الروحانية المهيبة وقتا أطــول حتى تضع تركيزها على المحيط. ومع ذلك، خلال القرن التاســع عشر، أصبح الاتســاع غير المحدود للبحر أكثر جاذبية من أي وقت مضى. إن «ضخامته الأفقية»، مرفقــة بحركته المســتمرة وبأعماقــه الغامضة، كانت لها جاذبيــة عظيمة على كلا طــرفي الأطلنطي. أصبح البحر مرآة سيســتخدمها ســكان الأرض للتفكير في حالتهم الشخصية. ستستخدم المجتمعات المتجهة إلى التصنيع بسرعة كبيرة، وخصوصا رجال هذه المجتمعات، البحر لتقدير أنفسهم، ولاختبار لياقتهم ورجولتهم في عالم لم يعد يقدم لهم تحديات كافية[16].

حتــى عندما قل التشــارك الفعلي مع البحر، فإن وجــوده الرمزي والمجازي ازداد قــوة. يخبرنا هانــز بلومينبيرغ أنه في العصر الذي كانت فيه ســفن الدول تتهددهــا الثورات، تألقت فيه رمزية حطام الســفينة بشــكل غير مســبوق. في العصر الفيكتوري، اكتشــفت كذلك الجموع الإنجليزية نفســها متأخرا على أنها شعب بحري. إن مهنة البحار العمومية، والتي كان يجري تفاديها سابقا على أنها شيء يقــترب من العبودية، أضبحت الآن تمجد على أنها محترمة وبطولية. وبينما أصبح التواصل مع الأرض أساســيا للشــعور بالقومية إبان القرن التاسع عشر في فرنســا وألمانيا، كان البحــر في بريطانيا هو الذي أثار المشــاعر الوطنية القوية. لاحظ روبرت لويس ستيفنسون أنه «إذا ما تمنى رجل إنجليزي مثل هذا الشعور

Twitter: @ketab_n

(الوطنـــي)، لا بـــد له أن يكون عن البحـــر... إن البحر هو نهجنـــا وحصننا، لقد كان موقعا لأعظم انتصاراتنا ومخاطرنا، ولقد اعتدنا من خلال وصلاتنا الشـــعرية الغنائية أن ننســـبه إلى أنفسنا». خلال العصر الفيكتوري، سيصنع الإنجليز هيكلا معظما من الأبطال البحارة وسيسبغون على جاك تار(*) نبلا لم يتمتع به أي جيل سابق من البحارة قط[17].

حينئذ اعتبر البحر «الموطن الطبيعي للرجل الإنجليزي»، وحقا مكتسبا بالولادة بالنسبة إلى الأمة، ودعوة وتبريرا للتوسع الإمبريالي. إن الطبيعية الجزيرية لبريطانيا، والتي كانت ســـابقا تُرى على أنها عيب، أصبحت «قرارا حكيما من العناية الإلهية»، فهـــي تحمي من الغزو الخارجي كما أنها وســـيلة للنفاذ إلى العالم الأوســـع. «نحن نمتلك بحرا رائعا»، أعلن تشـــارلز ديكنز، «صحيا لكل الناس، مفيدا للجســـد، مفيدا للذهـــن». وعلى الرغم مـــن أن عصر الرحلات العظيمة قد ولى منذ زمن، فإن البحر قد زود الإنجليز برؤية لأنفســـهم ترتد إلى الماضي باعتبارهم «أمة» بطلة بشـــكل لا يمكـــن لمحيطهم الأرضي الضعيـــف أن يقدمه أبدا. وفي أمريكا كذلك، تطور هناك ما كان «بشـــكل جوهري ثقافة ســـاحلية بحرية الوعي وبتقليد أدبي متطور يستقر في الدوافع الرومانطيقية»[18].

غـــير أن البحر كان يؤدي دورا على مســـتوى شـــخصي كذلـــك، كرمز مجازي للحيـــاة بحـــد ذاتها. ففي عصر بدا فيه كل شيء في حالـــة من التغير، صور البحر وبشـــكل مجازي تدفق الحياة. «هنا»، كتب جاي. جي. فرانســـيس حول شاطئ البحر: «نحن نفكر بشـــكل أفضل من تفكيرنا من على أي مشهد أرضي، يستطيع الرجـــل أن يتأمل ويســـتلهم». كان المـــد مذكرا بالطفولة والشـــباب، فيما الجزر بالكبر، بينما خط الأفق «يحكي عن مســـتقبل مضمـــون، عن أبدية ثابتة». والآن وقد أصبح كل شيء يرى على أســـاس التغيير والتطـــور، أصبحت الرموز البحرية توجد في كل مكان في الفن كما في الأدب. تقليديا، كانت الصورة المفضلة لمســـيرة الحياة هي Ages of Man أو «أعمار الإنسان» والتي هي عبارة عن سلم يصعد ويهبط وتبدو عليه كل مرحلة من مراحل الحياة من الولادة وحتى الموت ساكنة. فيما قبل القرن التاسع عـــشر، كانت رحلة الحياة تقدم بشـــكل أرضي على أنها

(*) مصطلح إنجليزي شائع يشير إلى رجال البحر. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

شـــارع أو طريق، غير أنه في العام 1842 قـدم الفنان الأمريكي توماس كول أربع لوحات أســماها «رحلة الحياة» Voyage of Life والتي سرعان ما أصبحت أكثر تمثيل لمســيرة الحياة شـهرة. في هذه اللوحات يظهر أشـخاص يمثلون الطفولة، والشــباب، والرجولة، والشيخـوخـة على متن قارب يبحر في نهر سيقود أخيرا إلى البحر، ممثلا الموت[19].

الآن، اتخـذت فكرة الرحلـة البحرية أهمية جديدة تمامـا. لقد كانت هي الرحلـة بحد ذاتها، وليـس موقع الوصول، التي أعطت للحيـاة معنى. فما كان مرتبطا في الســابق بالقدر، ويخاض فقط بسبب الضرورة، أصبح الآن هو طموح كل شــاب. أصبح البحر مرتبطا بالنماء، بينــما الأرض مرتبطة بالجمود. وما كان ذات يوم الملاذ الأخير بالنســبة إلى الفقراء، أصبح الخـروج إلى البحر ولأول مرة ينظر إليه على أنه نشاط مشرف. ففي كل من إنجلترا وأمريكا الشمالية أصبحت الرحلة البحرية بالنســبة إلى نخبة معينة طقســا افتراضيا للعبور، حيث يميزهم هــذا الطقس ليس فقط عن رجال اليابســة العوام، لكن عــلى ما يبدو أنه كان الأهم، عن كل النســاء. من المفارقات أنه حتى حـين أعيد تصور البحر على أنه أمومي والســفينة على أنها أنثى أصبح الإبحار أكـثر حصرا على الذكور عما كان عليه في القرون الســابقة. وفي تغيير تام لمفهوم القدماء لفكرة العودة إلى الديار، أصبح البحر هو الموطن الآن. بالنســبة إلى الرجال، فالخروج إلى البحر اســتحضر شعور الارتواء الرجولي، بالنسبة إلى النساء، في «مجاورة البحر المحتضن الأمومي، تزدهر الغرائز الأنثوية». وحيث أصبح البحر يُرى على أنه رحم كل الحياة، أصبح الســاحل هو الحاضنة، حيث أخذ يرتبط بشكل متزايد بالطفولة عندما أصبحت عديد من الطبقات الوســطى الفيكتورية تســافر بشــكل أسري لقضاء عطلاتها هناك. فقبل أن يُجَنســن الشــاطئ، جرى توليفه، حيث أصبح محيطا ينتمي إلى الأمهــات والأطفال، ويتذكــره الرجال بحنين كجنة مفقودة مــن الطفولة لطالما اجتذبتهم باستمرار ككبار[20].

إن الجيــل ذاته الذي أســس لفكرة الزمــن العميق لنظرية التطــور كان على الاهتمام نفســه بأعماق المحيط. إن الألغاز التي كان يعتقد ذات يوم أنها موجودة عــلى الأرض انتقلــت الآن عبر الســاحل. أصبح البحر هو البريــة الجديدة والجبهة

Twitter: @ketab_n

الجديـدة، والأفق القـادم للطموحات الإنسـانية، يحمل على عاتقـه ثقل تحقيق الأمنيات والأحلام والتي كانت تسـتثمر على الجبهـات الأرضية ذات يوم. إن قدرة خيال البشر على تجاوز قواهم في الملاحظة تعني أنه حتى عندما سـبر العصر الثاني للاستكشاف أغوار البحار بأعماق أكبر، أصبحت المحيطات هي آخر موقع للجغرافيا الأسطورية، والتي، كما تذكرنا ميرتشا إلياده، هي الجغرافيا الوحيدة التي لا يستطيع أن يستغني عنها الإنسان[21].

كيف أصبح البحر بريا؟

لقـد كان البحر مرتبطا ولزمن طويل بالبرية، ولكن ليس النوع الذي اجتذب الجيـل الرومانطيقـي. إن الكلمة Wilderness أو البريـة، هي واحدة من تلك الكلمات المتحولة، دائمة التغير في المعنى والتطبيق. وحيث إنها ارتبطت بالأماكن غير المناسـبة للحياة البشريـة، فإنها انطبقـت على الأراضي المقفـرة، خصوصا الصحاري والغابات الخطرة، وذلك قبل أن ترتبط بالبحر بحد ذاته. لقد أصبحت البريـة مكانـا لاختبار عمق المشـاعر والتـي كانت مقدرة جدا بـين أجيال من الرومانطيقيـين الأوروبيين والأمريكيين. خلال القرن التاسـع عشر، لم تعد البرية شيئا مخيفا يجري تفاديه بل أصبحت مكانا يجري التمتع فيه وتستوجب حمايته.

في العديـد من الثقافات يرتبط البحر بقوة تفـوق الطبيعة. فالبحر غالبا ما يكـون موقعا للموتى، أو للخالديـن. كان ذلك حقيقيا لكل مـن الصين وأوروبا الوثنية. لقد عرفت المسيحية البحر على أنه مملكة الشيطان، غير أنها احتفظت بالقـوى العظمى للـرب. في جغرافيا الكتاب المقدس تطيـع المياه إرادته، حيث تبقى غامضة لا يمكن التنبؤ بظروفها. فلم يكن حتى القرن الثامن عشر أن أصبح ممكنـا تصـور أن المحيطات قد تكون معرضة لقوانـين الطبيعة، بل مضى وقت أكـثر قبـل أن يجري تفصيل هذه القوانين عن طريق علـم المحيطات الحديث. حتى ذلك الوقت، شـعر البـشر بأنهم في موطنهم الطبيعـي فقط على الأرض. كانت الوحوش لاتزال تظهر كرسوم على الخرائط البحرية وذلك بعد أن اختفت مـن خرائط الأراضي الداخلية بزمن طويل. لطالمـا كان يجري دفع المخاوف إلى أطـراف العالم الذي يعرفه البشر، وفيما أصبحت القارات معروفة أكثر، أصبحت

Twitter: @ketab_n

المحيطات مستودع المخاطر التي لم يعد يمكن تخيل وجودها على الأرض. هناك تكمن الحيتان البيضاء وأسـماك القرش القاتلة، التي سـترتفع قيمتها في الثقافة الشـعبية مع مرور الوقت، في البداية في الأدب ولاحقا في الأفلام. لقد اسـتمرت الأعـماق في الاحتفاظ بأسرارهـا لوقت أطول بكثير مما فعلـت حتى أكثر بقاع الأرض انعزالا، مبيحة نشـاطا أعظـم بكثير للخيال. كانـت المخاوف والخيالات تتعاظم كلما ابتعد الإنسـان عن السـاحل، حيث كانت تلـك «مرجعية متكررة للأشخاص الذين لم يسبق لهم أن عملوا في البحر أو عاشوا على الساحل»[22].

وفيـما تعددت الحضارات عـلى الأراضي حول العالم، لم يعد للبدائي النقي من مكان للذهاب إليه سـوى البحر. بحلول نهاية القرن التاسع عشر - وإلى اليوم - كان يعتقـد أنه، بين كل الأماكن على هـذا الكوكب، كانت المحيطات الأقل تأثرا بالبشرية. إن الإشارات المتكررة إلى «البحر الأبدي» تجعله يبدو كأن مياهه تبقى أبعـد من وصـول الزمن إليها، وهو الوهم الذي أسـهم في غياب المحيطات عن المعالجـة التاريخية الجادة، وعن المؤرخين البيئيين. كانت البرية تجتذب تحديدا سكان المدينة والذين كانوا يبحثون فيها عن مصادر للإلهام الاجتماعي والشخصي التي كانوا يشـعرون بأنها تَنْسَلُّ من بين أيديهم في المجتمع الصناعي الرأسمالي. ومع الشـعور بفقدان التواصل مع الطبيعة، بحث الأوروبيون والأمريكيون عن مسـاحات، حيث أنقى أشـكال الطبيعة يمكن إيجادها وحمايتها. كانت الجبال، والغابـات، والصحاري أول ما أشـير إليه وفُهم على أنـه برية. كان البحر آخر ما جـرت حمايتـه، عموما لأنه بدا غير محدود بشـكل كبير حتـى إنه لا يمكن أن يتعـرض للخطر. وبينما جرى استكشـاف القارات تماما، فـإن الجبهات الأرضية أصبحـت قليلة. فقط في الولايات المتحدة وكنـدا كان هناك مجال للبرية، ولكن بحلول نهايات القرن التاسـع عشر أصبح الأمريكيون الشماليون ينظرون كذلك إلى أعـماق البحـار على أنها «فراغ عظيم، صُوّر بشـكل مثالي عـلى أنه مجتمع خارجـي، ومنطقة برية من الطبيعة التي كانت متناقضة مع الأماكن الاجتماعية على الأرض التي يمكن تخطيطها، والتحكم فيها، وتطويرها»[23].

لقد كان الأمريكيون الأصليون مثل شـعب الماين والواباناكي من بين أوائل مكتشـفي البحر كجبهة جديدة، جرى دفعهم بعيدا عن السـاحل في البداية

Twitter: @ketab_n

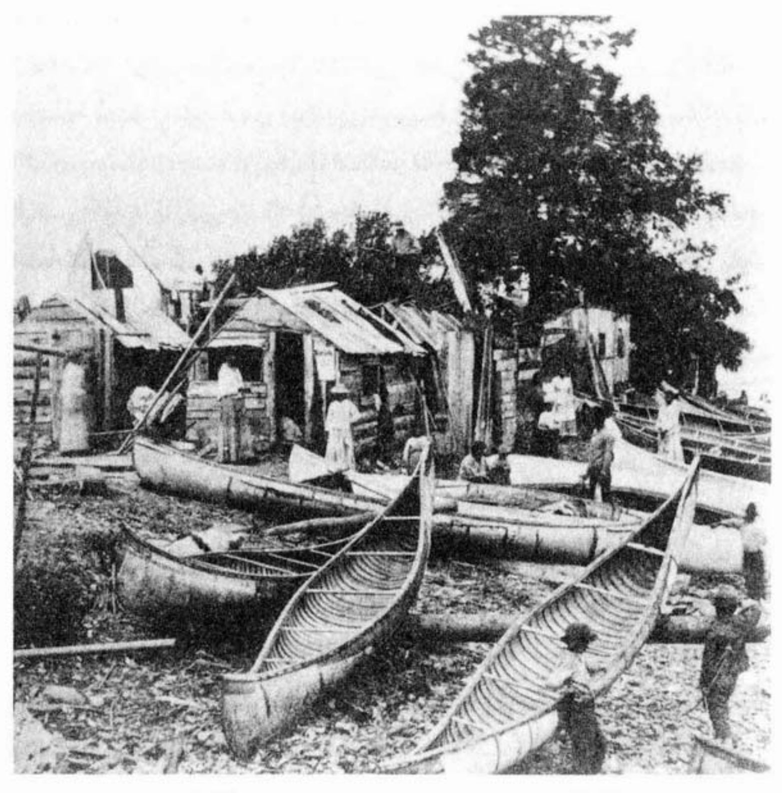
عـن طريق المسـتوطنين الأوروبيين ومن ثـم تهجيرهم مـن مناطق الجمع والصيد الداخلية الخاصة بهم عن طريق التوسع الأبيض في الزراعة وفي عملية قطع الأشجار. وحيث إنه جرى سَدّ أنهار سمك السلمون بسدود بنتها شركات قطـع الأشـجار، لم يكن لدى الواباناكي من خيار سـوى العودة إلى السـاحل لصيد السـمك. وهناك اكتشفوا فرصا تجارية جديدة تفتحت لهم عن طريق السياحة الساحلية[24].

لقـد ازدادت الأعداد السـاحلية للواباناكي في نسـبة وتناسـب مباشرين مع ارتفـاع عدد زوار الصيف البيـض. بداية من منتصف القرن التاسـع عشر، كان هؤلاء يخيمون مجددا على السواحل التي كانت على مدى مئات السنوات بقاع صيد وتجميع لأسلافهم، ولكن هذه المرة هم يستغلون مهاراتهم في كسب قوتهم من أجل أغراض تجارية. فبحصادهم للعشبة الحلوة sweetgrass، أسسوا تجارة صنع سـلال قوية. لقد عادوا إلى صيد الفقمة مـن أجل صنع نوع من الأحذية، فيما أصبح صيد خنازير البحر، الذي كان في السابق نشاط كسب معيشة ثانويا، ومشروعا تجاريا رئيسـيا، مزودا المنـارات والزراعة الميكانيكية بمصدر ثمين لنوع ممتـاز من زيت الإنارة والتشـحيم. وعليه، لقد كان الأمريكي الأصلي «يسـتفيد من الآليات نفسها التي دفعت به وأنشطته خارج الغابات». ومع ازدياد القيود بسـبب قوانين الأعمال، اتجـه هنود ماين إلى البحر كآخر برية بالنسـبة إليهم. لقد كان يقال إنه «عندما أصبحت الغابات مراعي، عندما أدارت أنهار السلمون المناشير، ذهبوا (هم) إلى البحر حيث لا توجد أسيجة، وفؤوس، أو محاريث»[25].

لقد كانت هي ذات اللحظة التي اكتشف فيها هنري ديفيد ثورو البحر على أنه برية. لقد توصل إلى ذلك نتيجة لزيارتين إلى كيب كود، الأولى في العام 1849، والثانية في العام 1855، ثم نشر تجاربه خلال الستينيات من القرن التاسع عشر، حيـث كتب أن «المحيط هو بريـة تمتد حول العالم، إنه أكثر توحشـا من غابة البنغـال وهو مملوء بالوحوش». لقد التصق هـذا التوصيف المجازي، كما فعل مفهومه حول البحر على أنـه غير محدود ونقي، يقف خارج حدود التاريخ. إن مفهوم البحر على أنه برية لم يكن شـيئا تعلمـه ثورو من البحارة الذين قابلهم عندما كان يقيم مؤقتا في كيب كود، فمثل هذا المفهوم كان غريبا تماما بالنسـبة

Twitter: @ketab_n

إليهـم. لم يتعامل ثورو مع الماء في أي وقت، كل ملاحظاته كانت من الســاحل، مما صنع منه متســكع الســواحل الأول في أمريكا. بيد أنه كان يعتقد أن طرف البحــر كان يطل على عالم جديد تمامــا، وجبهة جديدة للنمو الروحاني. أصبحت المحيطات بالنســبة إليه نســخة أكبر وأكثر إلهاما من بركة والدن. فبالنســبة إلى ثورو وكذلك للواباناكي، كان البحر مكانا بلا أسيجة[26].



منظر من الساحل لمخيم هندي عند ميناء بار، ماين، 1881. الصورة لكيلبيرن بروذيرز، مقدمة من متحف آبي، ميناء بار.

لطالما كان البحر مرتبطا بالمخاطر والموت، بيد أن حطام السفينة أصبح الآن الرمز الرئيسي للكوارث الإنسانية حتى جرى استبداله بحوادث تحطم طائرات المســافرين اقترابا من زمننا الحالي. لقد كان هناك عدد كبير من حطام السفن

Twitter: @ketab_n

عبر التاريخ، بيد أنها لم تكتسب أهمية رمزية كبيرة مطلقا، ليس فقط للبحارة ولكن لسكان الأرض كذلك. قبل القرن التاسع عشر، كانت حوادث السفن شائعة جدا إلى درجة التحول إلى شيء مهم بالنسبة إلى الشعوب الساحلية، غير أنها كانت ذات أثر قوي في سكان اليابسة. وبينما كان يرتحل باتجاه كيب كود في العام 1849، انحرف ثورو عن مساره باتجاه الساحل، حيث اجتذبه إعلان مكتوب يقول: «الموت! مائة وتسع وأربعون روحا فقدت في كوهاست». فقد تحطمت سفينة سانت جون الشراعية، وهي سفينة مهاجرين من غالواي، مجتذبة أعدادا ضخمة من إيرلنديي بوسطن إلى الساحل. وحتى فيما كان الثكلى يجمعون جثث أقربائهم، استمر المحليون في عملهم في جمع طحالب البحر «كأنه لم يكن هناك أي حادثة في الدنيا». لم يكن ذلك بسبب نقص التعاطف، بل كان ذلك يعكس وعيا بحريا مختلفا وقديما والذي كان يقبل الموت في البحر على أنه حتمي لا مفر منه. لقد كان لفكرة حطام السفينة معنى مختلف عندما كانت حوادث الغرق جزءا من النظام الطبيعي للأشياء، هي شيء يجب ألا يعطل عمل هؤلاء الذين كان مصيرهم أن يموتوا وأن يحيوا عن طريق البحر[27].

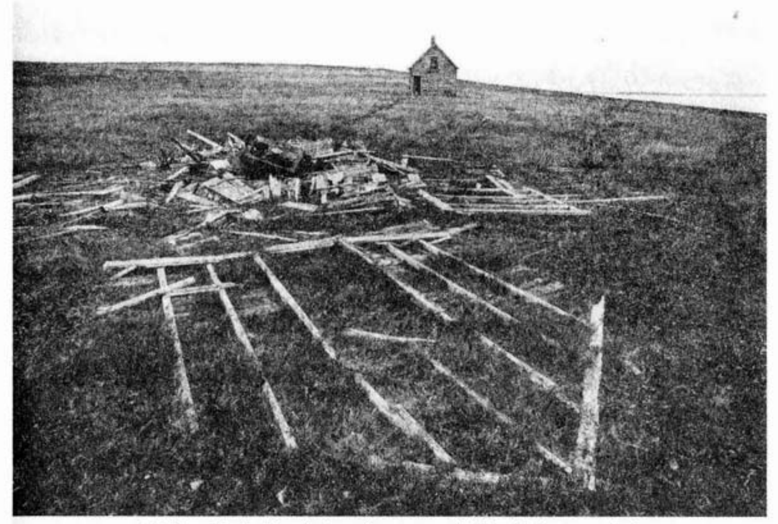
لقد كان تحطم السفن متكرر الحدوث في القرون السابقة إلى درجة أنه لم يكن موضوعا هائلا جديرا بالذكر. لقد جرى التعرف على مواقع ما يقرب من ثلاثة ملايين سفينة محطمة عن طريق علماء الآثار الحديثين، ومزيد من هذه المواقع موجود حول العالم من دون شك. في القرن التاسع عشر، كان للمنارات المتزايدة والعاملة بشكل أفضل مرفوقة بتطوير القوى البخارية أن خفضت وبشكل ملحوظ أعداد السفن المحطمة. بيد أنه كان تحديدا في ذلك العصر الذي لم يكن للسفن فيه أن تغرق أن تعاظم الفزع من هذه الحوادث بالنسبة إلى سكان اليابسة، الذين بالنسبة إليهم أتت هذه الحوادث لتبرز العجز الإنساني في مواجهة قوى البحر العظيمة. في رواية لواشنطن إيرفينغ، يبرز التصادف مع حطام سفينة منجرف أفكارا بشأن الضياع المطلق. في القرن التاسع عشر، أصبح حطام السفن رمزا لقوى الطبيعة ولعجز المحاولات الإنسانية عن التحكم في أقدارهم سواء على الأرض أو في البحر[28].

Twitter: @ketab_n

في أدب القرن التاسـع عشر، أصبح البحر هو الموقع الرئيسي للخطر والمغامرة، الطقس الأهم للعبور بالنسبة إلى صبية اليابسة الذين يتوقون إلى تأكيد رجولتهم. في إنجلترا كان البحر يعتبر «البرية الوحيدة غير المروضة، حيث ربما لايزال الإنسان صغـيرا ووحيدا بين ضخامة الخلق... إن الذهــاب إلى البحر كان هربا من المدينة ومــن الآلة»، كما بــين رابان. في العصور القديمة، خدمــت الجبال والغابات غرضا مشابها، وقد استمرت في ذلك بالنسبة إلى السكان الأمريكيين الأصليين على ساحل شــمال غرب أمريكا، الذين طالما اتجهوا إلى الأراضي الداخلية في رؤاهم الارتحالية. ولكن بالنســبة إلى الأمريكيين الأوروبيين، الذين كانوا مستمرين في عملية التطهير مــن جميــع آثار البريــة في الأرض، فالمحيطات فقط هي التــي قدمت درجة من التحدي تضمن استنهاض البطولة في الطبقة الاجتماعية للرجال المهذبين التي كان ينتمي إليها ثورو في حد ذاته. لقد شعر رجال الطبقة الوسطى أواخر القرن التاسع عشر بأنهم ورثوا عالما يتقلص باســتمرار، عالما أُخلي من الأشــياء البرية المتوحشة الضرورية للمحافظة على رجولتهم. «لا أستطيع سوى أن أشعر كأنني قد عشت في بلد مروض ومخصي إذا جاز التعبير»، كتب ثورو في العام 1855. لقد كانت النكهة البحرية، التي كان يكتسبها وهو آمن على الساحل، هي خلاصه[29].

لم يكــن هناك شيء مُفقِــدٌ للرجولة أكثر من ذلك العــالم الأليف الفيكتوري شــديد الأنوثــة، وعليه لم يكن مفاجئــا أن الرجولة أصبحت مرتبطة بالمســاحة الوحيــدة التــي، وبحلول منتصف القرن التاســع عشر، كانت النســاء مبعدات عنها منهجيا، أعني البحر. في القرون الأولى، كانت النســاء فعليا جزءا من العالم الســاحلي، مشــاركات تقريبا في كل جوانب التجارة وصيد الســمك. بيد أنه مع وصول الطاقة البخارية أصبحت النســاء مقيدات بشكل متزايد فقط بالأنشطة الســاحلية، أو، عندما كان يســمح لهن بالصعود على القوارب، كن يُقَيَّدْنَ بدور الراكب السلبي. وعلى الرغم من أن البحر كان يُقَدَّمُ مرارا وتكرارا على أنه مؤنث وشــبيه بالرحــم، بيد أنه أصبح يُرى على أنه محيط حــصري بالرجال. لقد جرى نســيان مشــاركة المرأة ســابقا في العالم البحري وذلك عندما أصبح البحر يؤدي خدمــة رمزية أخرى وذلك عن طريق تأكيد، بــل وتضخيم، الفروقات الجندرية الطرق التي لم يعد لليابسة القدرة على أدائها[30].

Twitter: @ketab_n



تامبلهوم Tumblehome، للمصور بيتر رالستون. الصورة مقدمة من الفنان.

في أدواره الجديـدة باعتبـاره برية، قدم البحر مهربا مـن الزمن، من التاريخ في حـد ذاته. ومع صعود الدولة الأممية الأرضية، أصبحت الأرض أكثر تأريخا وبشـكل مكثـف، مـما عزل دور البحر. الآن بـدأت التواريخ الأممية وانتهت على السـاحل، فيما أصبحت فكرة الأبدية أكثر ارتباطا بالمحيطات من أي وقت مضى، كأنها محاولة لإزالتهم من مسيرة الزمن التخريبية التي بدت مستمرة من دون هوادة على الأرض. إن السرمدية كانت شـيئا أتى ثورو باحثا عنه في زياراته إلى كيب كود، ولقد وجدها على السـاحل: «نحن لا نربط فكرة القِدم بالمحيط، ولا نتسـاءل كيف بدا منذ ألف سـنة مضت، كـما نفعل مع الأرض، حيث إنه كان متوحشـا ويصعب غور أسـباره بذات الدرجة دوما». وعليه، كان البحر محصنا من الخسـارات التي عانتها اليابسـة باستمرار. لقد كان خالدا [31].

لقد وجد ثورو شـيئا ملهما روحانيا ومتجددا باسـتمرار حول البحر. سنوات عدة قبـل جولات كيب كود، وبينما كان يعيش لمدة قصيرة على جزيرة سـتاتن، كتب ثورو «أن أفضل موقع للسكن الإنساني كان على طرف الأرض، حيث هناك ربما تغوص عميقا الدروس والتأثيرات المسـتمرة للبحر في حياة وشـخصية رجل الأرض، ربما مزودة خياله بصبغة بحرية». وبسبب كونه سـليل أسرة تجارية ساحلية من ماساتشوسيتس، لطالما

Twitter: @ketab_n

شعر ثورو باتصاله بالبحر. «إنها كلمة نبيلة، البحار.. يجب أن يكون في داخل كل واحد منا مزيد من معاني هذه الكلمة.. لربما يجب أن نكون بحارة وأرضيين بشــكل متســاو، وحتــى جبالنا الخضراء تحتاج إلى بعض من خُضْرة البحــر لنختلط بها». يبدو أن ثورو لم يكــن رجل الأرض الذي طالمــا دُفع به أن يكون، ولكنه لم يكن بحارا كذلك بالطريقة التي كان بها أســلافه. هو كان عوضا عن ذلك مؤسســا لنســل جديــد من بين أجناس الحافــة، مديــرا وجهه تجاه البحر فيما هو متجذر بقوة عــلى الأرض. لقد كان هو من أوائل من أســمتهم إميلي ديكنسون «مراقبي المياه الساحليين». سرعان ما سينضم إليه آخرون، بمن فيهم والت ويتمان، الذي كتب عن الشاطئ أنه مكان يشير إلى «التواصل، والتقاطع، والصَّلْب يتزاوج مع السائل - ذاك الشيء الغريب الجذاب»[32].

إن هؤلاء الذين كانوا يكســبون عيشــهم من البحر نادرا ما عبروا عن أي مشــاعر تجاهــه غير حتمية القــدر. لقد كانوا يقضون أوقاتهــم الترفيهية مصوبين ظهورهم إلى البحر، متجاهلين هؤلاء المهتمين «بملاحقة الســاحل» عــلى أنهم غريبو الأطوار، وحتى معتوهون. إن الانتشــاء بالبحر لم يكن جزءا من الثقافــة البحرية القديمة. لقد وصف رالــف والدو إميرســون «حياة البحــر بأنها ذوق مكتســب، مثل ذاك الذي نكتســبه للطماطم والزيتون. «ما أشــار إليه ثورو على أنه صبغة بحرية كان شــيئا يتحصل عليه ســكان اليابسة. إن قصيدة إيميلي ديكنســون «الابتهاج هو في ذهاب» توضح تماما أن حب البحر كانت له جذور أرضية:

الابتهاج هو في ذهاب
روح أرضية إلى البحر،
عابرة البيوت - عابرة الألسنة الأرضية
إلى حيث الأبدية العميقة
أن تناسلنا كما حدث، بين الجبال،
هل يستطيع البحار أن يتفهم
هذه النشوة الإلهية
لغرة الشأو البادية من اليابسة[33].

بالنســبة إلى هربرت. جي. ويلز هناك «لا يوجد رومانســية للبحر في سفينة إبحار صغيرة كما رأيتها أنا. إن الرومانسية هي في ذهن رجل الأرض الحالم»[34].

Twitter: @ketab_n

الساحل الاستشفائي

لقــد كان الأوروبيون والأمريكيون منجذبــين إلى البحر حتى عندما أصبحت أعداد من يعبر خط المد منهم أقل فأقل. لقد كان الســاحل جذابا في البداية بســبب صفاته البرية المهيبة، بيد أنه في النهاية لم يكن الساحل الصخري ولكن الرملي، ما ندعوه اليوم بالشــاطئ، هو ما أصبح أكثر صفاته جاذبية. لقد كان الشاطئ اختراعا للعصر الحديث، صور طبيعية جديدة تماما ثقافيا كما هي ماديا. يخبرنا المعجم الإنجليزي لأكسفورد بأن الكلمة المحلية beach أو شــاطئ كانت تعني في الأصل نوعا معينا من الصخور والذي يدعــوه الإنجليــز «shingle» أو «حصى» أو «cobble» أو «الأحجار المســتديرة». لقد تطلب الأمر فترة زمنية قبل أن تصبح الكلمة اســما لنوع مميز من الأماكن. إن شواطئ الحصى والأحجار المســتديرة أكثر شــيوعا في أوروبا، بينما الشــواطئ الرملية منتشرة في الأمريكتين وفي أستراليا، بيد أن القاسم المشترك بينها هو الطريقة التي تشكلت وتغيرت بهــا عن طريــق حركة المياه. تحمل الأنهار الأحجــار إلى البحر، حيث يجري طحنها إلى قطع أصغر ثم تُلقى على طول الســاحل. إن الشــواطئ، وأكثر من أي أجزاء أخرى من الســاحل، تتغذى على الحركة. لقد كان يقال إن «الشاطئ هو المكان الذي تتوقف فيه الرمال لترتاح لوهلة قبل أن تواصل رحلتها إلى مكان آخر». عندما تجف الأنهر وتتراجع التيارات الساحلية تموت الشواطئ وتختفي[35].

ولأن الشــواطئ حية ودائمة التغيير، تكون عصية عــلى التعريف وعصية أكثر على التحديد. لا عجب إذن أن لم يكن لأسلافنا أسماء ولا مشاعر تجاهها. لقد كانوا يخافون طبيعتهــا المتقلبة حيث بذلوا مجهودا قليلا للتحكم فيها. اليوم، عندما نســتثمر الكثير من الجهود في موازنة واســتقرار الشواطئ وذلك من خلال تغذية الشواطئ وإجراءات أخرى، فإنها تســتمر في التملص من قبضتنا. وعليه فنحن نتحدث عن الرمال المتحركة ومخاطر البناء على الرمال. فبين كل الملامح الســاحلية، وبعيدا عن الأراضي الرطبة، فإن الشــواطئ هي الأكثر ســيولة بين كل مظاهر الطبيعة، إنها terrae infirma أو الأرض اللينة العظمى. اليوم تعتبر الشواطئ حول العالم من أكثر الأماكن اصطناعية. إن الرمل، وتحديدا الرمل الأبيض، أصبح هو المعيار العالمي للشواطئ حتى في الأماكن التي تكون فيها هذه الشواطئ صناعية تماما ومستوردة. إن ما كان ذات يوم مادة بلا قيمة أصبح الآن رمــزا لا يقدر بثمن. إن العديد من الشــواطئ اليوم هي من صنع الإنســان تماما، والبعض منها داخلي كذلك، بعيدا عن البحر وعن الطبيعة بحد ذاتها[36].

Twitter: @ketab_n

إنه تحول مذهل، فعندما استقر الأوروبيون والأمريكيون على السواحل في البداية، فإنهم بالعموم تجاهلوا، بل تفادوا، ما يعتبر اليوم أكثر الامتدادات الساحلية جاذبية. عندما جرى الاقتراب منه في البداية عبر البحر، كان الشاطئ يستخدم للرسو ولكن ليس للاستقرار. لم يكن سكونه القاحل غير مضياف فقط ولكنه منفر. لقد ارتبط الشاطئ طويلا بالأوبئة والموت، وسيمر وقت طويل قبل أن تستبدل سمعة الشاطئ الجهنمية بتسميته الجديدة كجنة أرضية. وحتى الآن لايزال الرعب يلاحق الشاطئ، متفجرا بذعر دوري حول هجمات القرش والمخاوف المستمرة من تلوث المياه وسرطان الجلد[37].

لقد مرت قرون قبل أن يصبح الشاطئ هدف وصول وليس نقطة انتقال بين الأرض والبحر. قبل القرن التاسع عشر، كان الشاطئ هو أسهل مكان لإرساء قوارب المياه الضحلة. لقد أرسى أسلافنا سفنهم على الشاطئ لزمن طويل قبل أن يفكروا في النزول للشاطئ بأنفسهم. فحتى هؤلاء الذين كسبوا قوتهم من البحر تفادوا الخط الساحلي، حيث بنوا مساكنهم على الأرض موجهين بعيدا عن البحر. فلزمن طويل، لم يجد الزوار سوى القليل الذي يبهجهم حول الساحل. فحتى سنة 1903، قال مسافر سويدي على الساحل الغربي للدولة إنه «خلال كل الرحلة، لم أشهد مكانا واحدا جميلا»[38].

عندما بدأت الطبقة الراقية الإنجليزية في بدايات القرن الثامن عشر هجر المنتجعات الأرضية من أجل تلك الواقعة على الساحل، لم يكونوا يقصدون المياه الدافئة والشواطئ الرملية. لقد كان التخلص من الألم عوضا عن البحث عن المتعة هو ما حرك أول تدفق نحو البحر. كان المرضى والمتنقهون ينجذبون إلى المميزات العلاجية الرفيعة الشهيرة لمياه البحر الباردة. بيد أن العلاجات التي وجدوها هناك كانت، وفق مقاييسنا، أكثر جهنمية منها نعيمية. لقد أتوا ليس ليسبحوا ولكن ليستحموا، ولقد كانت تجري مساعدتهم لاستكمال هذا النشاط عن طريق ما يسمى آلات الاستحمام، والتي كانت كبائن على عجلات تنقلهم عبر الشاطئ وإلى المياه، حيث، وبمساعدة عاملين مستأجرين، كان يجري غمس الرجال والنساء على حد السواء في البحر كجزء من علاجاتهم النفسية والجسدية، والتي كانت تشتمل كذلك على شرب مياه البحر، والتي كانت تعتبر طبية في ذلك الوقت. قبل أن تصل سكك الحديد إلى ساحل نيو جيرسي، كانت الرحلة إلى هناك توصف بأنها «عقوبة أكثر منها

Twitter: @ketab_n

متعة... كانت الرحلة مرهقة كتلك التي يَتَجَشَّمُها المسلمون إلى مكة». لاحقا، عندما بـدأت الطبقات الراقية الإنجليزية بالتطلع جنوبا إلى المتوسـط بحثا عن علاجاتهم، كانوا يذهبون خلال الشتاء، حيث إنه لم يكن حتى القرن العشرين أن حلت الشمس محل المياه الباردة كإكسير للصحة والنشاط[39].

ليس كل ساحل يصلح لأن يكون منتجعا. لقد جرى اختيار الشواطئ الإنجليزية في البداية كونها مسطحة، حيث كان لها أسطح صلبة مما وفر منفذا سهلا لآلات الاستحمام، والتي كانت تغوص في الرمل الناعم. وفق مقاييس اليوم، كانت المقاييس المفضلة قبيحة وغير مريحة. لقد كانت هذه المقاييس مرتبطة أكثر بالعجزة عن الرياضيين، بالأجسـاد الموبـوءة عن الصحية. لم تنتشر مهارات السـباحة حتى القـرن العشرين. فالخوض في المياه والانغماس فيها برزا على سـاحل جيرسي، وهذه الأنشـطة هي أحد الأسباب التي جعلت المياه الضحلة مواقع شاطئية مفضلة. وفيما كان الاستحمام العاري مقبولا حتى منتصف القرن التاسـع عشر، فإن الوسائل المختارة للوصول إلى البحر بقيت هي ذاتها آلة الاسـتحمام، والتـي لم توفر فقط احتياطا أمنيا ولكنها كذلك كانت تخبئ الجسـد، وهي الخدمة التي كانت تقدرها النساء تحديدا. ولكن بحلول نهاية القرن التاسع عشر كانت المياه المالحة تفقد سـمعتها العلاجية، حيث كانـت الأعداد المتزايدة من الناس تأتي البحر من أجل متعة السـباحة الخالصة، والتي هي نوع من الرياضة التي أخذت شـعبيتها في الازدياد. لقد حلت أزياء الاسـتحمام للرجال والنساء موضوع الخصوصية جاعلـة من آلة الاسـتحمام عديمة الفائدة. كانت هـذه الآلات تقف على حافة الرمال كغرف تبديل لمرتادي الشـاطئ الجدد. لاحقا، سـتتطور هذه الآلات إلى أكواخ شاطئ مواجهة للبحر ثم إلى منازل شـاطئية. بحلول ذلك الوقت، كان الشاطئ في حد ذاته قد أصبح هدف الوصول[40].

ولكـن قبـل أن يكون الشـاطئ مكانا للسـباحة أو التشـمس، كان مكانا للمشي، والركوب، وأخيرا للاستكشـاف. لقد جرى اكتشاف السـاحل الإنجليزي عقليا وروحانيا قبل أن يُستكشـف حسيا بزمن طويل. لقد وجد علماء الآثار في أجراف البحر «أرشيف الأرض» الأحفـوري. في البدايـة، أكدت العجائب الطبيعية الموجـودة على حافة البحر ولم تضعف الجدل بشـأن وجود تصميم إلهي. مع مرور الوقت، ستؤرخ الأحافير بداية الحياة بوقت أقدم بكثير عما اقترحته قصص الكتاب المقدس، ولكن خلال معظم القرن

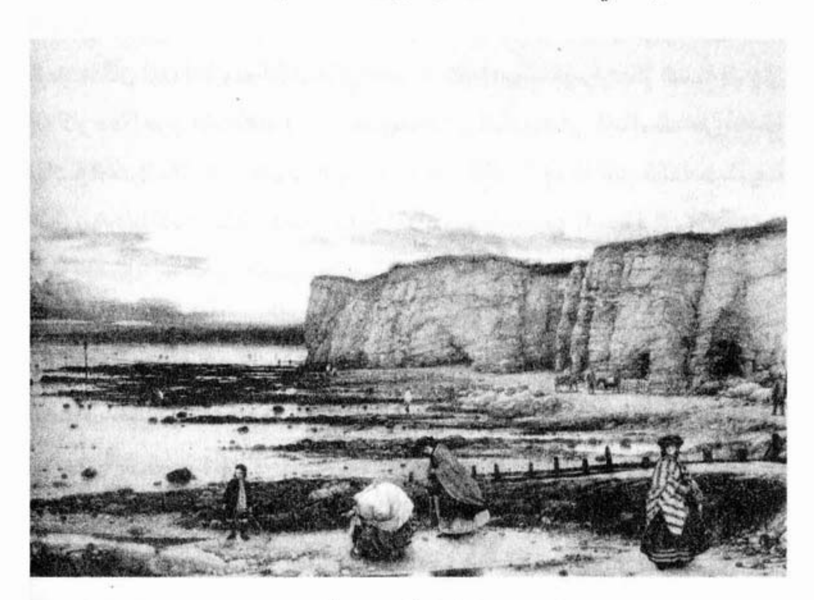
Twitter: @ketab_n

التاسع عشر كان الدين لايزال في موطنه الطبيعي على الشاطئ. كان الساحل غاية أولية ليس فقط للمسافرين عبر الزمن ولكن كذلك لعلماء النبات والحيوان المبتدئين، والذين، في عصر ما قبل مهنية العلم، قد اشتملوا على العديد من النساء. يمكن مشاهدة هؤلاء النساء وأطفالهن وهم يستكشفون أحواض الصخور، غارسين أياديهم للحصول على عينات، والتي ستجد طريقها إلى الحوض المائي المنزلي، والذي كان صخب الطبقة المتوسطة الأمريكية والأوروبية في منتصف القرن التاسع عشر. بعد ذلك كانت هناك الرغبة العامة لتمشيط الشاطئ، الذي إليه توعز مجموعات الأصداف، وصخور الشاطئ، وزجاج البحر التي كانت تملأ الردهات وغرف الأطفال الفيكتورية. على المدى البعيد كان لهذا التجميع المركز نتائج وخيمة. كان إدموند غوس يتذكر الساحل على أنه كنز دفين جرى اكتشافه في خمسينيات القرن التاسع عشر. لقد أسف على أنه مع نهاية القرن «كل شيء كان قد انتهى. إن حلقة الأحياء الجميلة التي كانت مرسومة حول سواحلنا كانت حلقة رقيقة وهشة. لقد بقيت واستمرت كل هذه القرون كنتيجة كلية للإهمال، إنه الجهل الحميد للإنسان... لن يرى أحد مجددا على ساحل إنجلترا ما رأيته أنا في بداية طفولتي»[41].

كان رد الفعل الغريزي الأول للأوروبيين والأمريكيين، مع الأخذ بعين الاعتبار الخوف طويل الأمد من البحر، هو دفع هذا البحر إلى التراجع وذلك عن طريق مد اليابسة بأكثر قدر ممكن. بحلول منتصف القرن التاسع عشر، نُقلت الفنادق والمساكن الأنيقة، والتي جرى بناؤها سابقا بعيدا عن الساحل ومواجهة في غير اتجاهه، إلى مواقع أقرب إليه، صانعة لأول مرة خطا ساحليا ظاهرا ومستقرا في العديد من مدن المنتجعات والنوادي الصحية. فما كان ذات يوم حدا مساميا بين الأرض والبحر أصبح الآن حدا منيعا غير قابل للاختراق، مكتملا بحائط بحري ومتنزهات مبنية لهذا الغرض. في القرن الثامن عشر، عندما لم يكن الناس يقضون الكثير من الوقت على الشاطئ مثلما كانوا يقضونه عند الشاطئ، كانت الرمال والحصى لاتزال مواد غريبة، مساحتها هي مساحة حدودية مملوءة بالقلق بين الأرض والبحر، بين الحضارة والطبيعة. وحتى السنوات المتأخرة من سبعينيات القرن التاسع عشر كان زوار مدينة أتلانتك يشتكون من الرمال التي كانت تنزلق في كل مكان. لقد صُنع الممشى ليبقي الطبيعة حرفيا تحت السيطرة. إن ذات الكراهية تجاه البرية الساحلية تبرر الأعداد الضخمة من الجسور

Twitter: @ketab_n

المائيــة وممــرات المشي والتي جرى بناؤها في أواخر القرن التاســع عــشر. في بريطانيا وحدها جرى بناء ما يزيد على ستين جسرا مائيا بين العامين 1850 و1900. كانت هذه الجســور الأولى المصنوعة للترفيه ما هي فعليا إلا امتدادات للأرض حيث كانت تحمل الزوار فوق وليس إلى الشــاطئ في حد ذاته، حيث كانت تحميهم من روائحه ومناظره البغيضــة فيما توفر لهم نقطة نظــر آمنة ليتطلعوا إلى كل من البحــر والبر. كما أنهم حرصوا على ألا يجري جلب الكثير من رمال الشــاطئ ومخلفاتــه إلى الفنادق والمنازل الأنيقة الساحلية التي اصطفت الآن على الواجهة الساحلية[42].



خليج بيغويل في كنت، ذكرى من 5 أكتوبر 1858.

الصورة من ويكيميديا كومونز.

وفي وقت لم يكن فيه الشــاطئ في حد ذاته بَعْد مكانا ليتطلع منه الإنســان أو ليُرى الآخرون منه، أدت الجســور المائية وممرات المشي هذا الغرض. لقد ســمحت هــذه للزوار بــأن «يخدعوا الطبيعــة»، مقتربين أكثر ما يمكن مــن البحر من دون التخلي عن أي من زينة الملبس وأنماط السلوك اللائقة والتي شكلت مفهوم الاحترام بالنســبة إلى الطبقة الوســطى الفيكتورية. وكمكافأة إضافية، فــإن البنية التحتية

Twitter: @ketab_n

الجديدة منعت الاختلاط بهؤلاء الناس الذين كانوا يحتلون الشــواطئ لزمن طويل، وهم صيادو الســمك وجامعو النباتات المحليون. إن الخط الساحلي جديد التكوين كان كذلــك خطا طبقيا، وحــدا اجتماعيا لا تقل درجة تخطيطــه والدفاع عنه عن الســاحل في حد ذاته. في البداية، حاول الــزوار تفادي «الرعاع» ليس إلا، وذلك عن طريق عزل أنفسهم مكانيا عن الشاطئ، مبقين إياه حرفيا ورمزيا أسفلهم. ولكن مع مرور الوقت، أصبح إغراء البحر والشاطئ - في حد ذاته - شديد القوة. بحلول نهاية القرن التاسع عشر كان لا بد للمقيمين القدامى من أن يُرحلوا، لقد جرى إخفاؤهم، كما حدث مع «الأهــالي الأصليين» الآخرين عندما قررت الطبقة الراقية المدينية أن تعزل الجبال والغابات من أجل أغراضهم الترفيهية والجمالية الخاصة[43].



بلاك بول، إنجلترا،
الصورة لإليوت إيرويت،
بترخيص من ماغنوم.

Twitter: @ketab_n

لقد أُزيل سكان الساحل، كما أُزيلت الهضبات وغيرها من الأماكن سابقا. ولكن حيث إن مقدمة الشاطئ طالما كانت تعتبر شعبية، فإن هذه آخر حركات التطويق العظيمة، قد استُقبلت بمقاومة قوية من السكان الساحليين المقيمين، خاصة صيادي السمك وجامعي النباتات والذين كانوا معتادين على إرساء قواربهم على الشاطئ في أكثر البقع المرغوبة، وتخزين معداتهم، ومعالجة السمك على مرأى واشتمام من سابحي الطبقة الراقية. وكما في حالة مصارف فنلاند السابقة، كان الصراع بين آخر أشخاص الحافة وأواخر القادمين الجدد شديدا بالفعل، ومنذ بداية القرن التاسع عشر، ولكن مع مرور الوقت، فقد الصيادون والجامعون أماكنهم، حيث دُفِعوا إلى موانئ قريبة، لتُسحَب منهم مجددا عندما بدأ أهل اليابسة التوق إلى شراء أملاك الواجهة الساحلية.

يصف جين - ديدير إيربراين هذه العملية بأنها «مُدَمِّرة» للشاطئ، فهي «احتلال جمالي للساحل عن طريق أيديولوجية قضاء الإجازة»، نتج عنها الاختفاء «الحقيقي والرمزي» للإنسان الساحلي، Homo littoralis». إنّ دليلا إلى منطقة هاستينغس لسنة 1858 يطمئن الزوار بأنه «قد جرى تحسين الشاطئ بشكل كبير، بإزالة أكواخ صيد السمك القديمة غريبة المنظر، والتي سابقا كثيرا ما أعاقت منظر البحر». لقد دافع صيادو السمك، وجامعو المحار الفرنسيون عن حقهم في المرور إلى البحر حتى نهاية القرن التاسع عشر، غير أنه حتى هؤلاء جرى نفيهم أخيرا إلى المرافئ المحلية. في القرن العشرين، طُرِدت الشعوب الساحلية من كل مكان ما عدا أقل المناطق جاذبية على الشاطئ. أخيرا، وبصورة ذات مغزى، جرى مسح كل ذكرى لوجود إنسان الساحل[44].

إمكانية الفراغ

لقد خُلِقَ الشاطئ من العدم، من دون أن يوفر شعورا بالمكان، أو شعورا بالتاريخ والمرتبطين بأماكن قضاء العطل الأخرى مثل القرية الريفية. وعليه فقد بدا الشاطئ على أنه لا مكان، فراغ، وبقي كذلك منذ ذلك الحين. من البداية كان فراغه، تصحره الاصطناعي، جزءا من جاذبيته. لطالما بحث تجار العقارات عن أماكن خالية لبناء الأندية الصحية والمنتجعات. منذ البداية، كانوا يتنافسون على المساحة الساحلية المحدودة، والتي أصبح إيجادها أكثر صعوبة. لقد أثبتت الطبيعة أنها العدو الأول لمشاريع المنتجعات المزدهرة على طرفي الأطلنطي. فحيثما وقفت الأراضي الرطبة

Twitter: @ketab_n

والسواحل الصخرية في طريق التوسـع في الواجهات الشاطئية، كانت وببساطة تملأ أو تسوى بالأرض[45].

في خلال القرن التاسـع عشر، كان الشـاطئ يُغَيَّر ويُتْلَف حتى مع إعادة تشـكيله كأنقى الصور التعبيرية للطبيعة. لقد أزيلت الأحياء النباتية والحيوانية الطبيعية وحلت الرمـال الجدباء أو الحصى محلها. في بريطانيا اليوم لا تُوجد تقريبا أي شـواطئ عذراء، وفي أمريـكا الشـمالية يوجد أقل القليل منها، ما عـدا في المناطق التي جرت المحافظة عليها عن عمد. إن مفاهيم أهل اليابسـة تقول إنه لا بد من تنظيف الشواطئ من كل ما هو ذو رائحة أو قبيح المظهر. في القرن التاسع عشر، كان الشاطئ مغطى بالمخلفات الطافيـة وما يرميه البحر على الشـاطئ. كان حطام السـفن يجتـذب مجاميع الناس، وكانت السـفن الثقيلة تُترَك لتتعفن في الرمال. الآن، أصبحت الشواطئ مرتبطة بالحياة عوضـا عن الموت، فتذكارات الموت هذه لم تعـد مقبولة، كما أن الحياة الطبيعية التي كانت تجتذب الصيادين والجامعين ذات يوم لم يعد يسمح لها أن تتجمع هناك كذلك. اليوم، أُخليت الشـواطئ ونُظِّفت بوسائل ميكانيكية. رمالها نادرا ما تكون نتاج نشاط طبيعي للبحر، ولكنها مجروفة أو مشحونة إلى هناك.

غـير أن هـذا التصحر هو الجاذب الرئيسي للشـاطئ الحديث. لقـد كان يقال إن «أنقـى أشـكال العطاء هـو الفراغ في ذاته». لقد سـكن الرجال المقدسـون ذات يوم الصحارى بسـبب ما تقدمه روحانيا. لاحقا، اجتذبت الجزر المهجورة الرحالة والنساك. بيد أن الفراغ الشاطئي اليوم غالبا ما سيثير إمكانية شعورية لا روحانية. هناك نستطيع أن نخلي أنفسـنا من كل الهموم والمسـؤوليات المرتبطة بحيواتنا العادية، وعليه ظهور مصطلح العطلة vacation. في الفترات الزمنية السابقة، كانت كلمة عطلة تعني إيقافا لا إراديا عن العمل أو فقدانه. فقط في نهاية القرن التاسـع عشر حملت الكلمة معاني أكثر إيجابية[46].

بمصطلحـات لغة البحار «أن تكون على الشـاطئ» كان يعنـي ذات يوم أن تكون بلا عمل ومعدما تماما. بيد أن الشـاطئ لم يعد مرتبطا بالمعدمين المعزولين. وفيما تعتبر الشـواطئ المكان المفضل للعائلات مع أطفالها، فإنها مرتبطة كذلك بالغريب والإغرائي. تشـير الشـواطئ إلى الطبقة الاجتماعية، كما أنها تكشـف عن الهوية الجنسية وغيرها من الهويات. كانت الشـواطئ تسـتخدم لفرض العزل الجنسي والعرقي، ولكن في حالة شـواطئ العراة والمثليين، يمكن رؤيتها على أنها مانحـة للقوة. كونها مملوءة بالمهتمين

Twitter: @ketab_n

بكمال أجسامهم وبعشاق الشمس، تلك هي أماكن حيث نتخلص فيها، ولو لوقت قصير، من تقاليدنا. ونجد طبائع جديدة لأنفسنا. فكونها عتبة، فإن حافة البحر لطالما أشارت إلى إمكان تغيير الأشكال، وكانت في سابق الأزمنة أماكن تلازمها مخلوقات نصف حيوانية، نصف إنسانية مثل حورية البحر ومخلوقات السيلكي. هذه المخلوقات اختفت، غير أن التغيير لايزال مرتبطا بالرمال المتحركة، كما لم يرتبط سابقا بأي بيئة أرضية. تبقى المياه وسيلة درامية للتحول الديني، ولايزال الساحل هو موقع التعميد، بيد أن الشاطئ أصبح كذلك مكانا للتجديف وعدد آخر من الطقوس الدنيوية الجديدة، خاصة تلك المرتبطة بالعائلة[47].

إن الشاطئ هو ما يعرّفه مارك أوجيه على أنه اللا ـ مكان non place، شيء لتعبره لا لتسكن فيه. إن اللا ـ أماكن تحظى بأقل اهتمام من الجغرافيين، فالقليل من الشواطئ لديها مؤرخوها. يبين الشاطئ بداية ونهاية، ولكنه لا يوفر سردا في المنتصف، فالشاطئ ليس لديه تاريخ، ومرتادو الشواطئ لا روابط لهم مع أفراد إنسان الساحل السابقين. عوضا عن ذلك، تظهر الشواطئ نفسها على أنها نقطة عودة أبدية والتي تعد بألا تتغير أبدا - مكان حيث لا يحدث شيء مطلقا. وكما يقول أرباين، نسيت الشواطئ تاريخها. لقد محا التجديد أغلبية آثار الحياة السابقة للشعوب الساحلية؛ فحتى قرى صيد السمك الباقية هي منفصلة عن الماضي، مجرد تصور لحيوات عاملة سابقة قد انقرضت الآن. إن جاذبية الشاطئ تقع في حقيقة أنه يبعد كل «ما له علاقة بالعمل»، فعلاقته الحقيقية بالطبيعة والتاريخ يجب أن يجري إخفاؤها دوما، حيث إن الشاطئ يقدم نفسه في الثقافة الحديثة على أنه مكان أساسي للهروب، مكان للسلوان والنسيان[48].

إن الساحل الذي ظهر في القرن التاسع عشر قد قدم نفسه في البداية على أنه طبيعة وحشية ولكنها سرعان ما رُوضت، حيث حظيت ببروتوكولها وقواعد سلوكياتها الخاصة بها، والتي ستصبح في النهاية غاية في العالمية، حتى أن الشواطئ بدأت تشبه بعضها. لقد فقد الشاطئ، كحال كل اللا ـ أماكن الحديثة، اتصاله بالشعور المحلي. فبمجرد أن جرى تهجير كل سكانه الأصليين ومحو ماضيه، أصبح مستعدا لإعادة البناء كعالم منفصل، لا ينتمي إلى الأرض ولا إلى البحر، بمساحاته الخاصة، بمعماره الخاص، وبأزمانه الخاصة. فمنذ بداية القرن التاسع عشر فصاعدا، جرى تحويل المنتجعات الصحية القديمة إلى أماكن لهو، مدن ملاهٍ فاخرة، والتي في حين كانت تتردد عليها الطبقات الاجتماعية العليا في البداية، سرعان ما اجتاحتها طبقة المدينة البرجوازية. بحلول منتصف القرن

Twitter: @ketab_n

التاسع عشر، أخذت الطبقة العاملة من المرتحلين يوميا بالتدفق من المدن الصناعية. في البداية حضروا على أنهم مقيمون، حيث استأجروا الغرف الإضافية من زوجات صيادي السمك. أقام المتنزهون الأفضل حالا في الفنادق حديثة البنيان. وسعيا إلى تأكيد درجتهم الاجتماعية، بدأ الأغنياء إما بالارتحال إلى مكان آخر وإما بتخصيص الساحل، مُشيِّدين بيوتهم الشاطئية الضخمة الخاصة بهم. لقد قامت الطبقات الوسطى بمحاكاتهم على مقياس أصغر، وبحلول ثلاثينيات القرن العشرين كانت هناك مدن كاملة من العشش المتواضعة المستوى التي أخذت تزحم سواحل كل من أوروبا وأمريكا الشمالية. بعد الحرب العالمية الثانية، جلبت ثورة المركبة الآلية معها فكرة منتزهات العربات الكبيرة (الكارافان). لأول مرة، كان لدى الأشخاص العاملين وقت إجازة كاف لينضموا إلى ذلك التيار المتدفق نحو البحر، وعندئذ بدا أن «ساحل البحر ينتمي إلى الجميع». وفيما كانت ذات يوم منازل موسمية، بحلول سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته أصبحت المجتمعات الشاطئية ضواحي ساحلية، مسكونة على مدار السنة من المتقاعدين والذين قرروا تحويل منازلهم الصيفية إلى أماكن إقامة دائمة. الآن هي مجتمعات غرف نوم كذلك، حيث العاملون الذين يتنقلون من المدينة إلى الساحل البحري من أجل قضاء عطلاتهم يعودون إلى التنقل يوميا من الساحل إلى أماكن عملهم[49].



مجموعات مختلفة من المحدقين باتجاه البحر، الصورة لإليوت أرويت.
بترخيص من ماغنوم.

Twitter: @ketab_n

الشاطئ موقع طقوسي

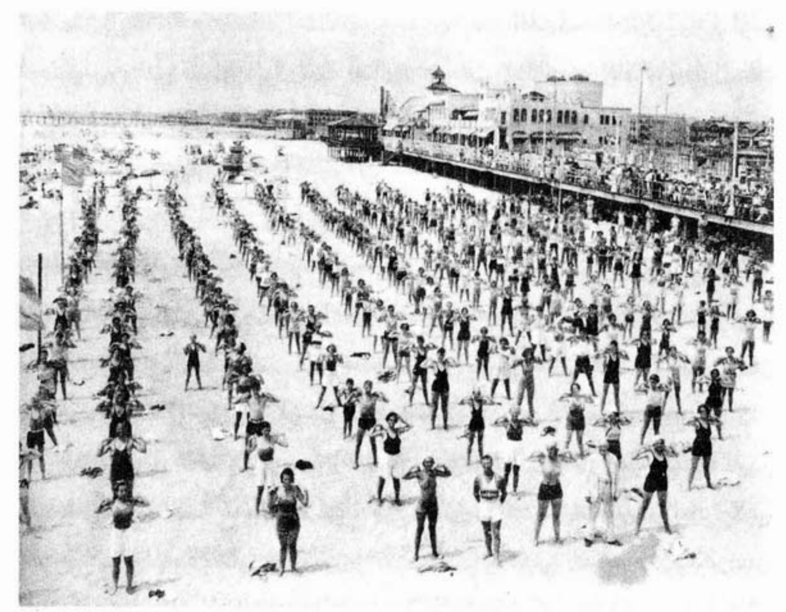
إن مـا بدا على أنه رحلة قصيرة سـيتطور أخيرا إلى ما نعرفه الآن باسـم عطلة العائلة. في منتجعات مثـل منتجع الليدو في روما، كيب ماي في فيلادلفيا، وبرايتون في لندن، والتي جميعها تبعد مسـافة رحلـة قطار قصيرة عن المدن، تثبت الأمهات والأطفال أنفسـهم على السـاحل الصيفي، في حين يلحق الآبـاء بهم في عطل نهاية الأسـبوع. في بداية القرن التاسـع عشر أصبح الشـاطئ مرتبطا بالعائلة النووية(*). لقـد أصبح متصلا بالطفولة، وفيـما أصبح الأطفال هم المحـاور المكانية والزمانية والتـي تدور حولها حياة العائلة، اكتسـب الشـاطئ معنى خاصا عـلى أنه المكان الوحيـد الذي «يحاول فيه الكبار أن يصبحوا صغـارا». لقد كان ذلك مهما تحديدا بالنسـبة إلى الرجـال، والذين في طور الحياة اليومية قد تحولوا إلى غرباء بالنسـبة إلى أطفالهم، والذين بالنسـبة إليهم كان الشاطئ رابطا ليس فقط بصغارهم، ولكن كذلك بطفولتهم هم، والتي يتذكرونها الآن من خلال عدسات الحنين الوردية[50].

مسـبقا مع نهاية القرن التاسـع عشر بدأت العائلات في العودة سنة بعد سنة إلى المنتجعات الشـاطئية ذاتها، حيث أخيرا بدأت تسـتثمر في الممتلكات الساحلية والتي يمكن تمليكها من جيل إلى جيل، فما كان ذات يوم رحلة سـياحية تزين الآن بزينـة الحج الدنيوي. وبتقديس الشـاطئ على أنه المنطقة المثـلى لقضاء العطلة، اكتسبت الحياة هناك قيمة طقسية متزايدة. وحيث إنه لم يعد مكانا لعرض القيمة الاجتماعية، فقد خدم الشاطئ كمساحة استعراضية للطقوس العاطفية الدالة على التماسـك العائلي. وكما وصفه إيربابين، أصبح الشـاطئ «موقعا طقسيا» و«سجادة صلاة» من أجل أداء طقس معين، فعلى مدى أغلب أيام الأسـبوع، يكون الشـاطئ هو مملكة النساء والأطفال، ولكن في عطلات نهاية الأسبوع كان يمكن للعائلات أن تعيد تشـكيل نفسـها، وأن ترتفع إلى تلك النسخة المثالية التي رسمتها لنفسها. بين كل المناسـبات العائلية الأخرى التي ظهرت خلال مدة القرن الماضي أو نحوه، كانت عطلة السـاحل البحري تتطلب أكبر قدر من الاسـتثمار، حتـى عندما كانت توفر أفضـل العوائد. وفي أواخر القرن العشرين حلت الشـواطئ محـل الجبال، والقرى الريفية مناطق مفضلة للأوروبيين والأمريكيين الشماليين[51].

(*) تعبير يشير إلى العائلة المكونة من الأب والأم والأبناء. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

بالنسبة إلى الهارب من سرعة الحياة الحديثة، لا شيء يمكن له أن ينافس الشاطئ. لقد توقف الزمن عند حافة الرمال، لقد أصبح الشاطئ المكان المفضل في العالم لعمل لا شيء. لقد كان الشــاطئ لا مكانا، حيث يفترض أن يحدث شيء هناك. معلق بين الماضي والحاضر، إنه مكان للحلم وليس للفعل، كل ما يذكر بالعمل قد أُبعد منذ زمن. بحلول ســبعينيات القرن العشرين كان أكثر الأســباب التي قدمها سكان لوس أنجلوس شيوعا حول سبب قدومهم إلى شواطئ الهادي هو أن هذه الشواطئ لم تكن فقط الأكثر بهجة، ولكن كذلك الأكثر أمنا بين كل الأماكن العامة «إنما الرمال كالمحراب بالنسبة إليّ»، تقول إحدى السيدات الشابات: «وأنا هناك، أسترخي وأهدأ تماما»؛ فحتى وقت قريب، حتى الأنشــطة الجســدية العنيفة كانت تعزل بعيدا، وكما رأينا مســبقا، ظهرت السباحة في وقت متأخر على الشاطئ. أما ركوب الأمواج فوصل فقط في ستينيات القرن العشرين، وكذلــك جرى تنظيمها في معظم المناطق الشــاطئية. الرياضات القصوى العنيفة، مثل الطــيران الشراعــي المعلق وركوب الرياح، كان لا بد لهــا أن تبحث عن مأوى آخر على الساحل، في أماكن كان تعتبر سابقا أكثر رهبة منها متعة[52].



صف الصحة الشاطئي في أوشن سيتي، نيو جيرسي، في عشرينيات القرن العشرين.

الصورة مقدمة من مكتبة الكونغرس.

Twitter: @ketab_n

وحيث إن الشاطئ هو اختراع حديث تماما، فسرعان ما ارتبط بدرجة من الحنين نادرا ما تلتصق بالسمات الجغرافية الأخرى. إن الذكريات الجميلة تعيد الكبار إلى رمال طفولتهم، ولكن مثل ملايين الصور التي تسجل الحياة الحديثة على الشاطئ، فإن الذاكرة تجمد الوقت وتغرب التاريخ الحقيقي لمثل هذه الأماكن. فمنذ قرن مضى، هؤلاء المحظوظون بما فيه الكفاية ليشتروا بيوت صيادي السمك المهجورة بدأوا بفعل ذلك. الآن الأكثر شيوعا هو بناء منازل جديدة تقترب من الساحل بأكبر قدر ممكن. خلال سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته، كانت نسبة 80 في المائة من كل أعمال الإعمار في الولايات المتحدة يحدث في المناطق الساحلية، عادة على الشاطئ مباشرة. وفيما كانت ذات يوم أقل مناطق البلد سكانا، أصبحت السواحل الآن الأعلى كثافة سكانية. في أوروبا كان هناك حراك مشابه باتجاه البحر. هناك، وحيث اليابسة أكثر ندرة، أصبحت سواحل بلجيكا، وإسبانيا، وإيطاليا كأنها مدن كبيرة. في كل من أوروبا وأمريكا الشمالية أصبحت السواحل تعرف الأراضي الداخلية بدرجة غير مسبوقة في الماضي. في كل سنة خلال سبعينيات القرن العشرين، كان اثنا عشر إلى ثمانية عشر مليون شخص يزورون الشواطئ العامة الرئيسية في لوس أنجلوس، والتي كانت بطول ثلاثة أميال وشكلت 353 هكتارا فقط. بحلول ذلك الوقت لم تعد هذه الرمال تعرف الساحل المباشر لها فقط، ولكنها أصبحت مساحات حلم لمنطقة عصرية ضخمة[53].

التحديق في الماء

لقد أصبح الشاطئ المكان المفضل في العصر الحديث من أجل الاستغراق في أحلام اليقظة. في العصور السابقة، أطلقت الجبال والغابات العنان للخيال، ولكن في القرن الواحد والعشرين كان هو البحر الذي «يسحب الذهن للخارج وبعيدا». كان الهندوس في الهند يقيمون مزاراتهم عند طرف البحر، والذي هو بالنسبة إليهم «نهاية الأرض، حافة الحياة الأرضية، حيث يمكن للأتقياء والمتأملين أن يحدقوا عبر الفراغ، ذلك «الماء الأسود» المذكور في الأدب السنسكريتي القديم. إنهم يخوضون في المياه حتى تغمر كواحلهم وملابسهم كاملة، حيث يغمرون أنفسهم في المياه ولكن نادرا ما يسبحون. لقد رأينا كيف أنه في أوروبا ما قبل المسيحية كان الساحل

Twitter: @ketab_n

يعامل على أنه بوابة إلى عوالم أخرى، حيث أصبح موقعا للطقوس ومراسم الدفن. كان المسيحيون أقل احتمالا في إقامة كنائسهم على حافة البحر، حيث إن خيالاتهم كانت مجذوبة إلى الأعلى وليس إلى الخارج. في العصور الوسطى، عندما كانت الحياة مقيدة فعليا وبشدة، كان يبدو أن العالم ينفتح عموديا فقط، حيث كان الخيال موجها في اتجاه السماء أعلاه، عوضا عن العوالم البعيدة في الجانب الآخر[54].

في عصر الاكتشافات، أصبح العالم، ولأول مرة «متسعا في سطحه، منخفضا في سقفه». أصبح البعد الأفقي غاية في الأهمية، حيث اتخذت الجبهات، البحرية والأرضية، أهمية رمزية، وكذلك مادية غير مسبوقة. مع إغلاق الجبهات الأرضية في أواخر القرن التاسع عشر، مع ذلك، اتخذت الجبهات البحرية معنى جديدا. لقد أصبحت أكثر أهمية من أي وقت مضى لتعريف ولحماية الهويات القومية. في نهاية القرن التاسع عشر، أصبح الإنجليز مقتنعين بأن «حرية إنجلترا كانت محفوظة في الماء المالح - الماء المالح هذا هو القناة الإنجليزية... هذا «الشريط الفضي» الذي يفصل إنجلترا السعيدة عن الصراعات القارية»[55].

مع إغلاق الجبهات الداخلية، كان الأمر متروكا للساحل البحري ليوفر منفذا من دون عائق نحو الأفق. كان البرجوازيون الفيكتوريون هم أول من اكتشف الكيفية التي وفر بها الأفق «مساحة يمكن للخيال والرؤية الداخلية أن يسافرا من خلالها». في القرن العشرين، أصبح الساحل مساحة الحلم المفضلة للجموع. إنه «دائما ومبدئيا مفتوح - لاستقبال محتوى جديد، بنيان جديد، واحتمالات جديدة». يقول يي - فو توان بأن ساحل البحر الحديث هو مميز بين المظاهر الطبيعية الحديثة، وذلك من حيث توفيره بشكل متزامن للملجأ والمهرب، الأمان والآفاق المفتوحة. في عالم يترك القليل للخيال، نتوق نحن إلى «عالم ما ورائي والذي، بطبيعته، لا يمكن الوصول إليه لا حقيقة ولا تصورا»[56].

لقد أصبح الارتحال نحو الآفاق أكثر شخصية من أي وقت مضى. إنه أساسي بالنسبة إلى السياحة الحديثة، بيد أننا لا نحتاج - بعد الآن – إلى أن نسافر مسافات بعيدة لإيجاد آفاق جديدة. في الأزمنة القديمة كان من الضروري عبور الشواطئ لإيجاد فرص جديدة. اليوم نحن نحتاج فقط إلى أن نتجه إلى الساحل. إن أذهان الملايين تسافر بعيدا حتى عندما تبقى أجسادهم ثابتة على الشاطئ. ومثل الهندوس

Twitter: @ketab_n

في الهنــد، فإن هؤلاء على الأغلب سـيخوضون في الماء على أن يسـبحوا فيه. عندما تنزهنا مشيا على سواحل بريطانيا خلال ثمانينيات القرن العشرين، كان بول ثيروكس مفتونا بالأشـخاص الذين وجدهم تحت كل أنواع الطقوس الجوية يقضون ساعات لا متناهية محدقين في البحر «بدا البريطانيون بالنسبة إليّ شعبا يقف إلى الأبد على سـاحل متهالك ماسحين الأفق بأنظارهم». لقد قرر ثيروكس أن تلك كانت «طريقة الشخص الفقير في السفر - أن يقف على ساحل البحر ويحدق في المحيط. أنا أعتقد أن هـؤلاء الناس كانوا يتخيلون أنهم هناك عند الأفق المنتظر، عند البحر... نادرا ما شاهدت أحدا يوجه ظهره تجاه البحر (لقد كانت تلك أندر وضعية يتخذها إنسان على الساحل). أغلبية الناس كانوا ينظرون تجاه البحر بوجوه آملة قلقة، كأنهم من فورهم تركوا موطنهم الأصلي»[57].

بيـد أن ذلـك لم يكن فقط غرابة أطـوار بريطانية. يصف دبليو. جي. سـيبالد الألمان الذين يمكن الظن خطأ أنهم صيادو سـمك: «أنـا لا أعتقد أن هؤلاء الرجال يجلسون بجانب البحر طوال النهار وطوال الليل حتى لا يفوتوا وقت مرور السمك الأبيض، ارتفاع السـمك المفلطح، أو قدوم سـمك القد إلى المياه الأكثر ضحالة، كما يدعون أنهم يرغبون فقط في أن يكونوا في مكان حيث يكون العالم خلفهم، ولا شيء أمامهم إلّا الفراغ. في الواقع، تقريبا، يستحيل اليوم أن تمسك بأي شيء يصطاد سمكا من الشاطئ»[58].

لقد كتب هيرمان ميلفيل ملاحظاته مسـبقا حول الكيفية التي كان بها سـكان مانهاتـن منجذبين لحافة المياه خلال منتصف القرن التاسـع عشر «ولكن انظر! ها هي الجموع قادمة، مهرولة بشكل مباشر نحو المياه، حيث تبدو مُصِرَّة على الغوص. غريب! ما من شيء سـيرضي الجموع غير الحدود القصوى لليابسة، فالتسكع أسفل الجانب المظلل من هذه المسـتودعات هناك لا يفي بالغرض. كلا، بل لا بد أن تلك الجموع سـتقترب من الماء على قدر ما تسـتطيع مـن دون أن تقع فيه... كل أهل اليابسة يأتون من الممرات والأزقة، الشوارع والجادات - شمالا، شرقا، جنوبا، وغربا. غير أنهم يتحدون هنا. نعم، كما يعرف الجميع، فالتأمل والمياه متزاوجان إلى الأبد». بالنسـبة إلى ماثيو آرنولد، كان شاطئ دوفر يفوح بالفقد: «لقد جلب إلى ذهنه المد والجـزر العكرين للمعاناة الإنسـانية». اليوم، للتحديق المـائي أغراض عدة بيد أنه

Twitter: @ketab_n

أصبح شــائعا جدا حتــى أنه أصبح عاديا. إنه منتشر في كل جــزء من العالم الغربي، خاصة على السواحل المواجهة للغرب، حيث «الغروب» هو طقس ليلي يومي[59].

في الســابق، كانت أَنْفَس المشــاهد البحرية الفنية تحتوي وبشكل مستمر على الســفن وعلى الأنشــطة البحرية الأخرى، وذلك تقديرا لهؤلاء الذين كانوا يكسبون قوتهــم من البحر. بيد أنــه في وقتنا هذا اختفى الأشــخاص العاملون من اللوحات والصور، كما اختفوا من الشاطئ بحد ذاته. بداية من القرن التاسع عشر، انقطعت العيون عن التجول في الميناء أو بالقرب من الســاحل، حيث أصبحت موجهة بشكل متزايد في اتجاه أفق البحر. في أوقاتنا هذه «البحر هو للتحديق فيه بل وللاحتفاء به كذلك»، كتب فيليب ســتينبيرغ «ولكن كمكان حقيقي للإنتاج والتنقل فقد اختفى بشــكل كبير». إنه فراغ المحيط الذي هو محط النظر. وكما لاحظ مايكل توسيغ، لم يعد البحر مكانا للسكن بعد الآن ولكن مكان للتأمل[60].

الكل يرغب في منظر مفتوح لا يعيقه شيء، والشاطئ، بعد أن جرت تصفيته من الأشخاص والأشياء المشتتة للانتباه، هو المكان الأمثل للحصول على ذلك. في السويد كان «فراغ وبســاطة المنظر الأرضي الطبيعي في ذاتيهما، ما وفر فرصة للإنسان ليجد نفسه، مدخلين الإنســان في حالة ذهنية تأملية أو شبيهة بالغيبوبة». بدأت المنازل ذات الإطلالة البحرية مســبقا بتحقيق أرباح خلال نهاية القرن التاســع عشر. لقد جرى تدوير أكواخ صيادي الســمك القديمة، والتي كانت تبتعد واجهتها عن البحر، أو أُعيد بناؤها حتى تتناسب مع المتطلبات الثقافية الجديدة. في وقتنا الحالي، يبدو أنه لا شيء يهم مثل الإطلالة. لقد أصبحت «لا تقدر بثمن»[61].

بينــما هم منجذبون لنقاء البحر واختلافه، فإن ســياح الســاحل اليوم هم أقل احتمالا في التعامل مع البحر أو المغامرة من خلاله. وكما لاحظ جون ســتيلغيو، «إن بريته، فضائيته، وطبيعيته تجتذب الســواحل، بيد أن ســواح هذه الأيام يريدون أن يتفرجوا، لا أن يفعلوا». في أعقاب هذا العشق للمناظر البحرية في القرن التاسع عشر، أصبح البحر في حد ذاته مشــهدا تصويريا picturesque. لم تعد الرمال الممســوحة والمنظفة تضيف الكثير إلى المنظر الجميل، حيث الآن بعد أن زالت رائحة وإحساس المسمكات القديمة، لم يعد هناك الكثير الذي يعتبر تجربة شعورية عدا تلك البصرية. في الســابق، كان الرومانطيقيون يفضلون السواحل الصخرية على أنها أماكن مخيفة

Twitter: @ketab_n

لاختبار الشـعور بالهيبة، ولكن اليوم نحن نسـعى خلف الشواطئ الخفيفة الميلان والمحمية بشـباك القرش وحراس الإنقـاذ. لقد أصبح ذلك هو المكان الأمثل «للحلم، بعيدا عـن اضطرابات وتقلبات الطبيعـة، وبعيدا عن الحقائـق اليومية التاريخية، الاجتماعيـة، والثقافية». كونها منفصلة عن كل من البحر والأرض، تلك هي الأماكن الوحيدة حيث يسـتطيع الإنسان أن يدير ظهره للعالم، للتاريخ في ذاته. وعلى عكس الأراضي النائية، نادرا ما احتوت الشـواطئ على أنصبة تذكارية. فحتى حطام السفن التي كانت تغطي السواحل ذات يوم، تجري إزالتها أولا فأولا الآن، بحيث لا يبقى أي شيء يذكر بالأحداث المأسـاوية التي قد تؤثر في السياحة، أو تفسد أحلام المصطاف. إن حطام السفن، مثل كثير من أمور البحر، أصبح الآن رمزيا خالصا[62].

عندما سار بول ثيروكس على الساحل البريطاني في ثمانينيات القرن العشرين، فقد شعر بالفقد، ليس فقط للطبيعة، ولكن للتاريخ كذلك. لقد هُدِم كل شيء - الأجراف، الصيد، المرافئ - بما فيها الشـواطئ بحد ذاتهـا[63]. في ذلك الوقت كان البريطانيون ينسـحبون من الشـاطئ، مفضلين الاسترخاء حول أحواض السـباحة بالفنادق التي كانت تقدم «نسـخة أفضل إدارة بكثير من الشاطئ، مياه ذات درجة حرارة لطيفة، مـن دون رمل يدخل بين أصابع القدم، وقريبة من بـار الفندق». في أماكن أخرى، كان الناس يتجهون إلى الأراضي الداخلية كذلك، حيث الشـواطئ الداخلية الجديدة التي بدأت في اليابان ثم انتشرت الآن حول العالم. بيد أن منظر الشاطئ يبقى قويا، وذلـك الحنين اللاتاريخي حولـه يبقى غير منقوص. تفضـل مارغريت درابل الآن، والتي قضت طفولتها على سـاحل لينكونشاير غير الصحي، حيث تتذكر سباحتها في مياه المجاري، تفضل عدم العودة إلى هناك، ليس بسبب التلوث، ولكن «لخوفها أن يكون المكان قد دُمِر مسـبقا، جنة مفقودة». تُعتبَر الشـواطئ من بين أكثر الأماكن غير المسـتقرة بين كل مشـاهد الطبيعة، غير أن ارتباطها بالفردوس يقاوم بعناد كل تغيـير. كونه مجمدا زمنيا في المليارات من الصور الفوتوغرافية، يبقى السـاحل هو المكان الذي نودعه أحلامنا الثمينة، وأكثر كوابيسنا رعبا[64].

Twitter: @ketab_n

6

الأحلام والكوابيس الساحلية

نحـن نتوقـع أن الحضـارة
ستنتهي على الشاطئ.

فيليب فيرنانديز - ارميستو[1]

لقـد كان هناك زمن حـين كان فقط هؤلاء الذين يقيمون على السـاحل يسـمون ساحليين، لكـن اليوم يربـط الناس الذين يسـكنون مئات الأميـال بعيدا عن البحر أنفسـهم بالسـواحل، يقيمون مهرجانات المأكولات البحرية، يتشمسون بل يركبون الأمواج أيضا على الشواطئ الداخلية. إن مزيدا من الناس اليوم يقيمون على السواحل، وعلى ما يبدو فإن الجميع تقريبا يرتبطون بها. ربما كان السـبب في هذا هو، كما يقول جون موري، أن «كل شـخص يولد في هذا العالم لديه ساحل، وحافة، وحد، ومنطقة انتقالية بين أنفسهم وبين العـالم». إن الأشـخاص الذين لم يسـبق لهم أن ذهبوا إلى نيو جيرسي يألفون «السـاحل». إن رمز

«إن العلاقة بـين المدينة والبحر، مثـل تلـك التـي بـين الحضارة والطبيعة، لم تكن مستقرة قط»

Twitter: @ketab_n

كاليفورنيا هو الشاطئ، فيما تود ماين أن يعتقدها الجميع ساحل سرطان البحر. تقدم نوفا سكوشا نفسها على أنها «ملعب كندا المحيطي». فعندما تهاجم الأعاصير وحوادث اندلاق النفط، تحتشد أمم كاملة للدفاع عن السواحل[2].

ربما لم يكن ذلك واقعا منذ 100 عام مضت، بيد أن السواحل اليوم لا تعرف الدول والأمم فقط لكنها تربطهم إقليميا، وعالميا أيضا. تشكل الشواطئ التي أقام عليها الأوروبيون ذات يوم دفاعاتهم بعضهم ضد بعض الآن ساحلا واحدا مستمرا من بحر البلطيق حتى البحر المتوسط. كل أجزاء أوروبا اليوم تطالب بالبحر على أنه إرث مشترك، ومصدر للهوية المشتركة. بعد الحرب العالمية الثانية، أصبح ينظر إلى حافة الأطلنطي الشمالية على أنها تعرف الحضارة الغربية. وعلى الرغم من أنها صنعت لتقاوم قوى عظمى قارية، الاتحاد السوفييتي، بيد أن تنظيم معاهدة شمال الأطلنطي اختار أن يعرف نفسه نسبة إلى المحيط. والآن، ترى شعوب حافة الهادي أنفسها كذلك على أنها تمتلك مزيدا من الصفات المشتركة بعضها مع بعض عما تمتلكه مع سكان مناطقهم النائية المتعددة[3].

لقد اتخذت السواحل سلطة رمزية ضخمة. من المفارقات أن هذه السواحل هي مكان الحداثة الأول للأحلام ولكن كذلك للكوابيس. إنها تقع على حافة البحر بما يسمح لنا أن نتخيل مولد عوالم جديدة وموت القديم منها. في كل مكان، يعود الناس الآن إلى البحر، محضرين معهم أعظم آمالهم وأسوأ مخاوفهم، تجتذبهم رؤى إلى جزر خيالية وشواطئ عدنية(*)، لكنهم كذلك ملاحقون بالشياطين القديمة للرياح، والماء، والنار. فعلى ما تفضل كاليفورنيا أن تدعوه «ساحل أحلامها»، يتجادل مجلس المدينة لسانتا باربارا حول ما إذا كان يتطلب منهم أن يرسموا خطا أزرق ساطعا في شوارعهم للتدليل على درجة ارتفاع البحر المستقبلية. يفضل المهتمون بالبيئة هذه الفكرة كونها أداة لزيادة الوعي، بيد أن أصحاب المنازل، وخوفا من أن هذه الفكرة ستهبط بأسعار عقاراتهم، ينظمون معارضة شرسة. إن المدينة نفسها هي في كامل الوعي حول حقيقة انتمائها إلى ما يسمى «ساحل النار»، حيث تُفقد المنازل في حرائق هائلة وبشكل منتظم. إن السواحل هي، وبشكل متزامن، أكثر المساكن الطبيعية جاذبية وأكثرها عرضة للمخاطر. إن التعدي على الأماكن التي

(*) من جنة عدن. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

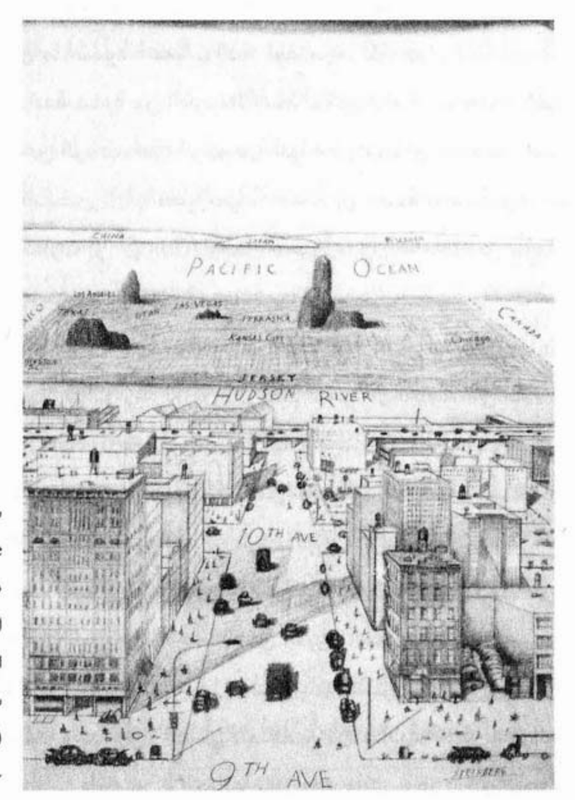
لم تكن في يوم مناسبة للسكن قد أسهم بشكل مباشر في تعرية الساحل وتلويث المحيط، وفي إشعال النيران المدمرة كذلك. يحيا الكاليفورنيون الساحليون فيما يسميه مايك دافيز «بيئة الخوف»، التي هي بيئة من صنعهم هم بأنفسهم بشكل كبير. كأن هذه التهديدات الحقيقية غير كافية، فقد تمكنا من استحضار مجموعة جديدة كاملة من الوحوش البحرية، التي توالدت بعيدا على اليابسة عن طريق كتاب مثل بيتر بينجلي، كاتب قصة Jaws أو «الفك المفترس»[4].

عندما أطلق ستيفن سبيلبيرغ نسخة فيلمه من «الفك المفترس» صيف العام 1975، قالت «نيويورك تايمز» إن «مستخدمي السنانير والسابحين الذين لم يسبق لهم حقا أن أخذوا بعض الوقت لينظروا بانتباه نحو الماء قبل ذلك، يفعلون ذلك الآن، وغالبا ما يعرفون أي شيء يشبه ولو من بعيد سمك القرش على أنه قرش فعلا». لاحقا في ذلك الخريف، كتب اثنان من أطباء الأعصاب إلى مجلة «نيو إنغلاند» الطبية بشأن ما أسموه «عصاب الفك المفترس». لقد جرى تشخيص ذلك المرض عند فتاة في السابعة عشرة من الغرب الأوسط ،والتي بعد أن شاهدت الفيلم مرت بخمس نوبات من الرعب، على الرغم من أنها تعي تماما أن «مخاطر هجوم سمك القرش في غرب كانساس كانت فعليا بعيدة تماما». إن القصة الأصلية في التايمز كانت مدركة عندما أشارت إلى أن «(ال) وحش المجنون.. في الفك المفترس يأتي من أعماق الفضاء الداخلي، من البحر كما من كوابيس الإنسان»[5].

إن المدى الذي تصل إليه المخاوف والخيالات الساحلية هو أحد مقاييس تمدد مفهوم الساحل. فمن جهة، هناك نزعة للأرض لأن تضم البحر، لأن تعامله على أنه منها، على أنه منطقة يمكن توزيعها، وتأجيرها، واستملاكها. وعليه، اتخذ البحر شكلا قاريا. لم يُستخدم مصطلح قاري حتى نهايات القرن الثامن عشر، غير أنه بحلول تسعينيات القرن التاسع عشر كان المصطلح يوظف لتوصيف الجزر القريبة من الساحل. لقد استخدم مصطلح الجرف القاري منذ العام 1950 فصاعدا وجرى تثبيته عن طريق ميثاق الأمم المتحدة لقانون البحر في العام 1982. في القرون السابقة، امتدت سيادة الدولة فقط لثلاثة أميال من الساحل. بحلول سبعينيات القرن العشرين كانت قد امتدت لاثني عشر ميلا، ومع الإقرار العالمي للمناطق الاقتصادية الحصرية في العام 1982، كان للدول أن تطالب بالمصادر الاقتصادية على بعد مائتي ميل داخل البحر[6].

Twitter: @ketab_n

إن اكتشـاف النفط والغاز عبر السـاحل، وكذلك الفوائد التي يمكن اكتسـابها من الرمـال والتعديـن غير العضوي، قد ركزا التفكير الإسـتراتيجي على الميـاه القريبة من الساحل. لقد نشرت القوات البحرية للولايات المتحدة تقريرها Forward... from the Sea أو «للأمـام من البحـر» في العام 1994، معيدة تركيز الانتباه من المحيط التقليدي للمياه الزرقاء إلى حرب المياه البنية. يقول المؤلف، اللواء البحري بول غافني، إنه بسبب أن نصف سـكان العالم يعيشـون على بعد خمسـين ميلا من البحـر، فإنه من المرجح أن الخلافات المسـتقبلية ستشمل السـواحل، خصوصا المدن الساحلية. في العام 1999، خططت القوات البحرية لتنظيم تمارين حرب مدنية في مونتيري وألاميندا، وكاليفورنيا. أدت الاحتجاجات ضد رسـوهم في مناطق حساسـة بيئيا إلى إيقـاف التمارين، بيد أن فكرة الحرب الساحلية تبقى ذات أهمية مرتفعة على جدول الأعمال[7].



سـول سـتينبيرغ، Veiw from 9th Avenue «المنظـر مـن الجـادة التاسعة»، 1976. حقوق الطبـع لمؤسسـة سـول ستينبيرغ Artist Rights Society (ARS)، جمعية حقوق الفنانين، نيويورك.

Twitter: @ketab_n

على الجانب الأرضي، تلاشت فكرة الخط الساحلي تدريجيا، مفسحة الطريقة أمام فكرة المنطقة الساحلية، التي يمكن لها أن تمتد مئات الأميال في الداخل الأرضي. أحيانا يبدو كأن بريطانيا هي لا شيء سوى سواحلها. يقول البريطانيون إن «كوننا أهل جزيرة فنحــن منجذبون إلى الحافة، هناك نستشــعر بقوة جوهر كتلتنا الأرضية الســابحة». بيــد أن الوضع نفســه صحيح بالنســبة إلى الأمم القارية، حيث تبدو الســواحل أكثر ضخامة. بحلول ســبعينيات القرن العشرين يبدو أن الولايات المتحدة أصبحت ما هي إلا ســواحلها، حيث انخفضت أهمية داخلها الأرضي إلى كونه شــيئا تســافر فوقه أو تقطعه. إن الرسم الكرتوني لسول ستينبيرغ لعام 1976 A Veiw of the World from 9th Avenue أو «منظر للعالم من الجادة التاسعة» صور هذه الخريطة الذهنية[8].

لقد توقف الســاحلي عن كونه موقعا جغرافيا منفــردا حيث أصبح رمزا يطفو بحرية ليجري تخصيصه لمجموعة أغراض تجارية واجتماعية ليســت بالضرورة ذات أي علاقــة بالمكان حيث الأرض والماء يلتقيان. لمجلــة Coastal Living أو «الحياة الســاحلية» قاعــدة قراء أرضيين كبــيرة، والذين يهتمون أكثر بطريقــة الحياة التي تســتعرضها المجلة عن ظروف الســواحل بحد ذاتها. وبينما تستحوذ السواحل على مســاحة ذهنيــة متزايدة على كل من الأرض الداخلية وعبر الســاحل، فإن التجربة الحقيقية للبيئات الساحلية مهمشة. في مطلع انهيار الاقتصاد الساحلي لصيد السمك والشحن في القرن العشرين، استعمرت النشاطات الترفيهية والسياحية السواحل كما لم تفعل من قبل. ومثلما جرى استبدال العمل بالاستهلاك في الحيوات اليومية لهؤلاء الذين يعيشــون على الساحل، تمزقت استمرارية وتسلســل الحياة الساحلية، التي تعود إلى ألف ســنة مضت، حيث أصبح الســاحل مكانا بــلا ذاكرة في حد ذاته، بلا جغرافيا أو تاريخ ليصنع عليهما مستقبلا قويا. حتى في حين أننا نصبح أكثر ساحلية من جهة، فإننا نصبح كذلك أقل ساحلية من جهات أخرى[9].

السواحل المفقودة

في العــصر الحديــث، أصبح شــعور ما بالفقد نافــذا بقوة. إنه في جــزء منه نتاج الطبيعــة العنيفة بــل التدميرية للتاريخ المعاصر، الذي شــهد جماعــات بأكملها بل وأمما تدمر بالكامل أيض ا. من الســهولة انعكاس شعور شخصي وجماعي بالفقد على

Twitter: @ketab_n

الأماكـن، خصوصا إذا لم يكن لهـذه الأماكن وجود فعلي مطلقا. لم يكن لقارة أتلانتس المفقـودة، التي هي خيال اختلقه أفلاطون كقصة تحذيرية للإغريق، أي تأثير حقيقي في الخيـال الشـعبي حتى القرن التاسـع عشر، وذلك عندما جـرى إنعاش القصة عن طريق الكاتب الشـعبي إغناتيو سـدونيللي في إصدار كان الأعلى مبيعا في العام 1882 وذلـك كتحذير لمعاصريه. من هذه النقطـة فصاعدا أصبحت أتلانتس موضوعا لمئات الكتب وعدد كبير من الأفلام. ما كان لجاذبيتها أن يعادلها شيء سـوى تلك التي لقارة ليموريا المفقودة التي بدأ شعب التاميل في جنوب آسيا يصبح مهووسا بها في زمن كان وجودهم هم مهددا. لم يكن لجاذبية «المفقود» إلا أن ازدادت مع الزمن[10].

بالنظر إلى تاريخ السـواحل، فإنه من السـهل فهم سـبب ربط مفهوم الفقد بها. يألـف البحـارة ظاهرة looming أو اللوح في الأفق، التـي هي خيال بصري يمكنه أن يجعل السـواحل تظهر وتختفي. لضباب السـواحل التأثير نفسـه، ولكن كذلك يفعل التاريخ، والذي رأى السواحل تأتي وتذهب بسرعة لا يضاهيها سوى القليل من السمات الطبوغرافيـة الأخرى. الآن يعرف السـاحل الشـمالي لكاليفورنيـا، والملاصق لمقاطعة همبولدت، على أنه «السـاحل المفقود». فقد فوت الأوروبيون المستكشـفون الأوائل مينـاءه العميق الوحيد، خليج همبولدت، تماما. وفي حين أنه جرى رسـمه عن طريق أمريـكي كان يعمل عند شركة الفرو الروسـية - الأمريكية في العام 1806، فإنه لم يزره البيض قط إلى أن جرى مسحه عن طريق حملة استكشافية أرضية في العام 1849. من هذه النقطة فصاعدا، جعلت صناعة الخشب الأحمر المزدهرة منه أحد أكثر السواحل ازدحامـا على السـاحل الغربي. بيد أنه لم يُسـتكمل الطريق السريع السـاحلي حتى عشرينيات القرن العشرين، وعندما تراجعت صناعة الخشب، فإن هذا الساحل أصبح مجددا أحد أكثر أجزاء أمريكا الشـمالية انعزالا. إن اسـم الساحل المفقود كان اختراعا لصناعة ما بعد الحرب السـياحية، التي حققت أرباحا من الرغبة العالمية في اكتشاف أماكـن جديدة تماما. ففي العصر الـذي كانت تحتل فيه القـارات المفقودة، القبائل المفقودة، والحضارات المفقودة، مثل هذه المساحة الضخمة من الخيال الشعبي، بقي هذا الجزء الرائع من ساحل كاليفورنيا مفقودا ولكن ليس منسيا[11].

فعلى مدى أغلب القرن العشرين ابتليت السواحل حول العالم بفقد، ليس بالضرورة هو من صنعها. لقد كانت هذه السـواحل ولاتزال مهددة بالتغييرات الحادثة في صناعة

Twitter: @ketab_n

صيد السمك، التي أصبحت مسبقا في نهايات القرن التاسع عشر مشروعا لأعماق البحار، منفصلا عن سـواحل بعينهـا. فقبل أن تكون هناك مصانـع للهاربين وعمل مصرفي عبر السـاحل بوقت طويل، كان صيد السـمك قد أصبح عالميا، ونشـاطا يبحث بلا كلل عن مجموعات السمك الكبيرة والأيدي العاملة البحرية الرخيصة. الوضع نفسه كان حقيقيا بالنسبة إلى الشحن، فهو كذلك قد توقف تدريجيا عن كونه عملية ساحلية محلية.

في القرن التاسـع عشر وأوائل القـرن العشرين، كانت السـواحل تعرف بمرافئها، وبواجهاتهـا المائيـة العاملـة. اليوم، لم تعد المـدن الواقعة على البحـر مرافئ، حيث انتقلت المرافئ إلى أماكن أخرى على طول السـاحل أو أعلى الأنهار. ومع ظهور سفينة الحاويات في خمسـينيات القرن العشرين، ظهر التهريب البحري ثم انتهى في منشآت مبنيـة خصيصـا، لم تكن فيها تجمعات سـكانية يمكن ذكرها. لقـد فقدت الواجهات البحريـة القديمة أدوارها وبحلول سـتينيات القرين العشريـن كانت هذه الواجهات تحول إلى مناطق سـكنية أو ترفيهية. خلال هذه العملية أصبحت السـواحل تشـتهر بمراسيها وشواطئها[12].



حالة نادرة للتعايش المعاصر بين الواجهات البحرية العاملة وشاطئ للسباحة، بيير، ديفون، إنجلترا. الصورة مقدمة من ويكيميديا كومونز.

Twitter: @ketab_n

لقــد أصبــح البحر بداية من العــصر البخاري، وكونه قد أصبــح أكثر ظهورا في عــصر أنظمة تحديد المواقع العالمية الأخير هذا، أكثر شــبها بالأرض، «لقد أصبحت المصانع متحركة، تشبه السفن، كما أصبحت السفن وبشكل متزايد تشبه الشاحنات والقطارات.. إن هذا التغير التاريخي يعكس العلاقة «الكلاســيكية» بين ثبات الأرض وانســيابية البحر». تغادر السفن الآن وتصل بانتظام الســاعة على ممراتها العابرة للمحيــط، غير متأثرة وإلى حد كبير بحركة المد أو الرياح. تزور الســفن الســياحية المرافــئ القديمــة مثل تلك التــي في ميامي وســتوكهولم، ولكن، وبخــلاف المراكب الترفيهيــة، اختفت حركة المرور الســاحلية إلى حد كبير في كل مــن أوروبا وأمريكا الشمالية. إن الســواحل أقل ارتباطا بنفسها بقطعها الطولي عن ارتباطها بالسواحل البعيدة. فاليوم يمكن أن يقال إن فانكوفر وسياتل هما أكثر وقوعا على الهادي عن كونهما في أمريكا الشمالية[13].

يستمر العالم في فقد نوع من السواحل واكتساب نوع آخر، نوع أقل ارتباطا بكثير ببيئته الطبيعية، تلك البيئة الانتقالية التي أعالت الشــعوب الســاحلية طوال ألف سنة. إن الساحل الجديد ليس نتاج الطبيعة بل التخطيط. إنه ساحل أنثروبوجيني، مصنوع وفق متطلبات كل من الشــعوب الأرضية الداخلية التي تســتعمر الساحل الآن، وكذلــك صناعات صيد الســمك والشــحن في أعماق البحــار، التي تعمل على أســاس المتطلبات الزمنية والمكانية نفســها لمثيلاتها الأرضية. وفيما تصبح الأنشطة البحرية مشــابهة إلى حد كبــير لتلك التي على الأرض، يصبح الســاحل في حد ذاته عرضة لما أســماه كالوم روبرتس «الضغط الساحلي»، الذي يهدد كل أجناس الحياة الســاحلية، بما فيها الإنسان. أحيانا يبدو أنه جرى تصغير الساحل إلى حد كونه خطا من الرمال، ظل لكينونته السابقة معزولا عن تاريخه وجغرافيته في حد ذاتهما.

المسمكات الحرة

لقد بلغ العالم الســاحلي لشــمال الأطلنطي وشمال الهادي قمته خلال منتصف القــرن التاســع عشر وهو في تراجع منذ ذلك الوقــت. إن الرابط القديم بين الأرض والبحر، والزراعة وصيد الســمك، يمر الآن بمحنة قاســية. تســتمر كثير من أنشطة الصيــد في تركيزها عــلى المياه الغنية للأجراف القارية غير أنها الآن تقدم بأســلوب

Twitter: @ketab_n

مختلــف تماما، عن طريق أيد عاملة موظفــة في الأغلب من الداخل الأرضي أو من الخــارج أكــثر من كونها من الســاحل ذاته. إن العمل ورأس المــال كلاهما مرتحل، منفصلان عن المجتمعات المحلية، مرتكزان في المرافئ الآخذة في التوسع، حتى إنهما أصبحا تروسا في عجلة المشروع العالمي العظيمة(14).

كانــت مراكــب الصيد تعمل بالبخار بحلول ســتينيات القرن التاســع عشر ثم مغطــاة بالفولاذ بحلول العــام 1880، كما أن حجمها ونطــاق عملها كانا في ازدياد سريع، ما مكنهم من اســتخدام تقنيات الصيد بالشــبك التي كانت مستحيلة خلال عصر الإبحار الشراعي. كان الصيد بالشبك في قاع البحر يمارس منذ العصور الوسطى، بيد أن الحصيلة كانت قليلة مقارنة بحصيلة صيد الشبك البخاري، الذي بدأ في المياه القريبة من الســاحل في ثمانينيات القرن التاســع عشر ومن ثم ابتعد أكثر فأكثر عن الساحل فيما هو يكشط مســاحات ضخمة نظيفة من الجرف القاري، محولا إياها إلى صحار قاحلة، خالية من الحياة. لقد وصف مارك كرلانسكي صيد السمك بالشبك بأنه «صيد الســمك المســاوي للتعدين الســطحي»، بيد أنه في هذه الحالة ســبق التدمــير في البحر ذاك الذي على الأرض. مع بداية تراجع الصيد من على الســاحل، تحركت ســفن صيد السمك بالشبك والقوارب والتي كانت مجهزة بأميال من شباك الصيد الكبيرة مبتعدة عن الساحل أكثر من أي وقت مضى. وبحلول القرن العشرين كان صيــادو الســمك يقضون مزيدا مــن الوقت في البحر على الســفن التي كانت تجمــع عمليتي الحصاد والتحميض. كانت هذه الســفن تقيد إلى الأرض فقط على أحــد المرافئ الكبيرة القادرة على التعامل مــع الكميات الضخمة لصيدها، وبحلول ستينيات القرن العشرين أصبحت تلك السفن «المصانع»، أعجوبة ميكانيكية قادرة على مســح مســاحات كاملة من المحيط وتنظيفها من السمك. وعلى رغم أن ذلك حدث بريادة الإنجليز، فقد جرى تطوير هذا النوع من الصيد على النطاق الصناعي عن طريق الاتحاد السوفييتي واليابان. ففي هذا الاندفاع لاستغلال البحار السبعة، انتفعت كل أساطيل المصانع العالمية من الدعم الحكومي الضخم. لقد طرد صيادو الســمك الذين كانوا يســتخدمون المراكب الصغيرة، خاصة هؤلاء المنتمين إلى الأمم الأقــل تطورا، من مياههم. في الصومال تحول هؤلاء الصيادون المســتغنى عنهم إلى القرصنة، حيث يثأرون من السفن العابرة التابعة للأمم الغنية(15).

Twitter: @ketab_n

لقد حدث التوسع في نطاق المسمكات سابقا، بالطبع، بداية من القرن الخامس عــشر. الذي كان جديدا في ذلــك الوقت هو الطلب المتزايد على الســمك الطازج، والــذي كان يعتمد عــلى علاقة جديدة تمامــا بين الأرض والبحر. لم تكن الأســواق الداخلية الكبيرة للسمك الطازج ممكنة قبل العصر البخاري، والذي لم يسمح فقط للسفن ذات الثلاجات بإيصال صيدها في الوقت المناسب لكنه وفر السكك الحديد التي يمكنها إيصال البضاعة الطازجة إلى أعماق الأراضي الداخلية. لقد أعطى تواصل الســكك الحديــد امتيازا لقليل من المرافئ الكبيرة على حســاب الموانئ الســاحلية الصغيرة، التي كانت تخدم الأسواق المحلية فقط، وعليه فقد كانت النتيجة النهائية هي نهاية الآلاف من المجتمعات الصغيرة التي كانت تخلط على مدى قرون الزراعة بصيد الســمك. بعض هذه المجتمعات اســتمر على قيد الحياة بالتركيز على أجناس بحرية معينة، مثل سرطان البحر، بيد أن معظم صيادي الســمك الساحليين وجدوا صعوبة في التنافس مع الأســاطيل قوية التمويل التي تعمل من المرافئ الكبيرة. إن سفن المصانع الضخمة هذه وطواقمها الموظفة عالميا التي تشغلها تعمل جميعا في البحر، بيد أنها لم تعد بعد الآن جزءا من الثقافة البحرية المميزة.

ومنذ منتصف القرن التاســع عشر فصاعدا، لم يعد صيد الســمك مهنة موسمية يمارسها في الأغلب شباب أعزب متطلعين إلى مستقبلهم على أنهم سيصبحون مزارعين أو حرفيــين. لقد تحول الصيد بشــكل متزايد إلى عمل بروليتــاري يمتد مدى الحياة، يقوم به عمال جرى تجميعهم بشكل كبير إما من بين سكان الأراضي الداخلية الفقراء وإما من بين المهاجرين الفقراء. إن التقسيم الطبقي، الذي كان نادرا بين المجتمعات الســاحلية القديمة، أصبح الآن واضحــا. الفروق الجندرية، التي كانت مشوشــة في الأزمنة الســابقة عندما كانت النساء يؤدين أدوارا عدة مهمة في عملية صيد السمك الســاحلية ، قد تعمقت كذلك: فبينما أصبحت القوارب أكبر حجما والرحلات أطول زمنا، أصبح صيد السمك ذكوريا بشكل خالص. لقد استمرت النساء في العمل، ولكن فقط على الساحل وذلك في الجزء الأخير التحضيري من هذا العمل[16].

خلال القرن التاســع عشر أصبح العمل البحري أكثر انفصالا من أي وقت مضى. لقــد رأينا كيف أن الواجهــة البحرية قد أصبحت مثل خليــة النحل جامعة الناس مــن بقية مدن المرافئ، التي كان لكل منها الآن «مدينة البحار» الخاصة بها، والتي

Twitter: @ketab_n

تكون غريبة عن حياة بقية المدينة. لم يكن صيادو السمك نسلا مختلفا قط من قبل، بيد أنهم الآن مقيدون داخل مقاطعتهم، مرتبطون بالمرافئ الأخرى أكثر من ارتباطهم بالأراضي النائية. كانت مدن البحارة مساحات عالمية في، ولكن لا تنتمي إلى، الأمة الأرضية، حيث ترتبط هذه المدن بالعناصر الأجنبية، وبالجريمة، وبالبغاء. كان المواطنون الملتزمون بالقانون يتجنبون هذه المدن التي كانت عرضة للتمييز والقمع من الدولة بحد ذاتها.



سفينة مصنع ألمانية، 2008، Kiel NC105، الصورة من ويكيبيديا.

لطالما كان صيد السمك عرضة للازدهار والكساد وذلك منذ العصور الوسطى، بيد أن التاريخ الطويل للانهيار البيئي وانقراض الأجناس إما أنه نُسي وإما أنه جرى تجاهله عندما أعيد اكتشاف ثراء البحر في القرن التاسع عشر. لم يكن غريبا وصف البحر على أنه «منجم ثروة لا ينضب»، وتعويذة بالنسبة إلى هؤلاء الذين كانوا يرونه على أنه الجبهة العظمى الأخيرة، وجنة عدن الأرضية الوحيدة غير المدمرة. على الساحل الغربي لأمريكا، كانت مسمكات السلمون المحلية «فعالة بشكل مخيف» قبل وصول الأوروبيين والأمريكيين، غير أن الأعداد الصغيرة نسبيا للصيادين وعدم وجود سوق تجاري كانا يعنيان أنه لم يجر اصطياد الكميات السمكية الكبيرة لأكثر من مستوى تعويض واكتفاء السوق. عندما وصل البيض إلى الساحل الغربي، فقد جلبوا معهم أوبئة دمرت صيادي السمك المحليين، ما نتجت

Twitter: @ketab_n

عنه عودة إلى الوضع الطبيعي بين أسراب سمك السلمون التي نشرت رؤى بهيجة بالغنى بين القادمين الجدد. لقد وصل صيادو السمك المهاجرون من كل بقاع العالم - الصينيون، الصقليون، البرتغاليون، التشيليون - في مطلع عصر حمى الذهب في كاليفورنيا. وبعد أن أفرغوا النظام النهري في ساكرامينتو من السمك في ستينيات القرن التاسع عشر، انتقلوا إلى الشمال إلى فم نهر كولومبيا، حيث تأسست صناعة التعليب على مستوى صناعي احترافي. مع مرور الوقت استُهلك هذا المخزون، ما أدى إلى الوصول إلى صيد السمك بالقوارب ذات المحركات عبر الساحل وذلك في بداية القرن العشرين[17].

في هذا العصر من صيد السمك مرتفع التمويل في أعماق البحار، مثلت المحيطات جبهة جديدة، وكانت المرافئ هي الجبهات المدينية التي ظهرت حيثما وفرت التكنولوجيا الجديدة مصدرا طبيعيا لانتزاع الربح. كان التعدين الرمز المفضل لصيد السمك الصناعي، حيث اشتركت مرافئ الصيد في مصير مستوطنات التعدين من حيث إنها أصبحت مدن أشباح بمجرد استهلاك العرق المعدني الأم. خلال أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، تبعت أساطيل الصيد الأسماك من مكان إلى آخر، وذلك في ارتحال موسمي بحري متوسع جعل فكرة صيد السمك بوصفه عملا مستقرا متجذرا محل سخرية. لقد أصبحت فكرة قرية الصيد القديمة الجذابة ملاحقة ببقايا السواحل التي كانت تهجر من سكانها وتمتلئ بالكادحين بسرعة كبيرة، حيث أصبحت هناك ندرة متزايدة في عملية استمرار الأجيال، إذ باعت مقدما العديد من الأسر القديمة أملاكها على واجهات المياه منتقلة إلى الأراضي الداخلية. بداية من ستينيات القرن العشرين، أعيد تأهيل سواحل الولايات المتحدة، بيد أن الموانئ أصبحت في الأغلب تمتلئ بمهارات الترفيه، حيث يهتم سكانها باستهلاك السمك أكثر من صيده. واجهت غلوسستر، ماساتشوسيتس، التي قاومت هذا الاتجاه، صعوبة في المحافظة على واجهة مائية عاملة حيث إنها تحولت وبشكل متسارع إلى ضاحية في بوسطن. في بداية القرن الواحد والعشرين، بدا أن «كل الخطوط الساحلية في العالم ستحتوي على لا شيء سوى السياحة والإبحار باليخوت»[18].

يتعثر نشاط صيد السمك العالمي الآن على الرغم من الحماية والمساندات الحكومية السخية. ويستمر بعض صيد السمك الساحلي عن طريق القوارب

Twitter: @ketab_n

الصغيرة، والذي يستهدف الأسواق المحلية، وهنا وهناك يقوم صيادو السمك بتأسيس نظير لسوق المزارعين، عارضين صيدا طازجا ومحليا ليتنافس مع بضائع الصيد المصنعي والتوزيع العام. في أماكن مثل مرفأ كلايد، وماين، يعاد بناء الرابط بين الأرض والبحر بشكل بطيء ومؤلم. لقد بدأ حلم جديد بالاستقرار يظهر، ولكن لايزال الوقت مبكرا للتكهن بما إذا كان سيستمر.

المرافئ البحرية المختفية

إن العلاقة بين المدينة والبحر، مثل تلك التي بين الحضارة والطبيعة، لم تكن قط مستقرة. لقد رأينا كيف أن الواجهة المائية قد ظهرت كمصد بين سكان المدينة والماء في القرن التاسع عشر. بالنسبة إلى المرفأ البحري الصناعي «كان الماء هو دمه الحيوي، وليس روحه». وفيما أصبحت المدن أكثر انغلاقا على الأرض ذهنيا إن لم يكن فعليا، أصبحت الواجهة المائية منطقة غريبة، وفي القرن العشرين بدا كأنها لم توجد أصلا بالنسبة إلى أغلبية البوسطنيين واللندنيين والباريسيين. بحلول ذلك الوقت تحول الناس إلى أماكن أخرى بحثا عن الهواء النقي والمياه. لقد كان يقال عن النيويوركيين إنهم «فقدوا كل ارتباط لهم بالبحر، تقريبا نسوا أن البحر موجود هناك». حتى النرويجيون، الذين كانوا في يوم أكثر شعب بحري بين كل الشعوب، قد ابتعدوا عن واجهاتهم المائية. لقد قيل إن العجلات قد حلت اليوم محل عوارض السفن في معظم المرافئ النرويجية[19].

لقد تدفق سكان المدن ذات يوم إلى الواجهات المائية في ساعات فراغهم. الآن، هم معزولون بساحات السكك الحديد والطرق السريعة، هؤلاء المقتدرون يذهبون إلى السواحل القريبة للتنزه. في نيويورك هناك جزيرة كوني، وفي لندن هناك برايتون ومارغيت. إن تزايد المنتجعات الساحلية تغذى على رغبة أهل الضواحي في الهرب من الحرارة، والقذارة، والإزعاج المصاحبة للمدينة الصناعية. لقد ابتكر هؤلاء أنواعا جديدة من الترفيه، بما فيها مدن الملاهي، كما اخترعوا عددا وافرا من الأذواق، والرياضات، والمباني المعمارية الساحلية الجديدة, في هذه الأثناء، تعفنت أرصفة الموانئ في المدن حيث أصبحت الواجهات المائية أراضي خربة. فلم يكن حتى سبعينيات القرن العشرين أن عادت المدن الأمريكية والأوروبية إلى البحر، هذه المرة لتصنع علاقة جديدة تماما به.

Twitter: @ketab_n

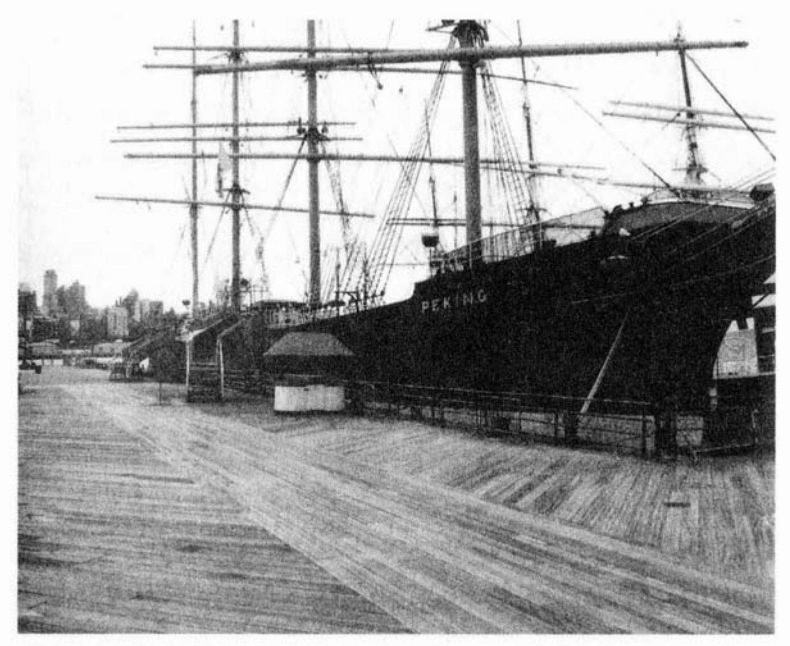
«لقد صنعت التكنولوجيا ثم دمرت الواجهة المائية التقليدية»، كتب بيتر هول. لقد ختم مصيرها عندما قطعت كارثة السويس في العام 1956 نقل البترول من الشرق الأوسط إلى أوروبا، مجبرة التجارة على اللجوء إلى شاحنة النفط العملاقة، والتي لم يكن ممكنا استقبالها على الأرصفة القديمة. في العقد نفسه من الزمان، اخترع مالكوم ماكلين، أمريكي، سفينة الحاويات الحديثة، والتي كانت تتطلب كذلك خدمات مرفئية جديدة تماما قادرة على التعامل مع الكثافة العالية والسرعة الكبيرة للإنتاج. لم تكن المرافئ القديمة قادرة على توفير منافذ كفؤة لسكك الحديد والطرق السريعة. لقد خسر نظام مانهاتن للممشى الممتد من الرصيف أمام نظام مرفأ إليزابيث في نيو جيرسي عبر نهر الهدسون، لقد حلت أوكلاند محل جارتها ذات الخليج ألا وهي سان فرانسيسكو، كما أصبحت روتيردام البوابة إلى أوروبا. لقد قضت السفن القديمة نصف وقتها راسية، بيد أن سفن الحاويات، التي تعمل وفقا لجداول زمنية دقيقة، قد خفضت أوقات رسوها في المرافئ إلى أقل من 20 في المائة من زمن الرحلة. إن سواحل المرافئ ذات الصناعة الثقيلة قد صعدت تكلفتها إلى ما بين 60 و 75 في المائة من كل نفقات الشحن، ولكن الآن، وحيث إن الرافعات الميكانيكية قد حلت محل العامل الذي يحمل السفن، فإن الأرباح قد قفزت عاليا. لقد أصبحت سفن الحاويات تعرف باسم «كفن عامل المرفأ». حملت السفن الجديدة طواقم عمل أصغر وأقل تكلفة، بحيث لا تدفع لهم المبالغ الممتازة نفسها. ومثل صيد السمك، أصبح الشحن صناعة حرة، يدار من خلال سفن مبنية ومسجلة في مرافئ غريبة، حيث تتفادى الضرائب والقوانين التنظيمية عن طريق رفعها لما يسمى الأعلام الملائمة(*) وكذلك عن طريق عولمة طواقم عملهم.

لم يعد لما أسماه ألان سيكولا «السفن الهاربة» موطن محدد. بحلول العام 1960 أصبح المرفأ محطة في الطريق في رحلة مستمرة، مكان اللامكان، مخفيا ومنسيا. مع تغير الزمن أصبحت تلك المرافئ تقريبا لا شيء، لقد حبست طواقم العمل في السفن في حين اختفت مدن البحار القديمة. لقد أصبحت السفينة، كما يقول مايكل فوكو، «قطعة سابحة من المكان، مكان بلا مكان، والذي هو موجود

(*) Flags of Convenience: هي أعلام الدول التي تسجل فيها السفن غير أنها ليست دول المنشأ، حيث يجري هذا التسجيل لتفادي الضرائب والقوانين لدول المنشأ. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

من أجل نفســه». كان ذلك حقيقة كذلك بالنســبة إلى السفن السياحية التي حلت محل ســفن الركاب العابرة للمحيطات في العصر نفسه. وكونها تحمل ما يزيد على ســتة آلاف من الركاب وطاقم العمل، كانت هذه السفن العملاقة تحتاج إلى مرافئ جديدة، مثل ذاك الذي في ميامي. أصبحت هذه السفينة في حد ذاتها، وكونها عالما مكتفيــا ذاتيا بمتاجره ومطاعمه، هي المقصد الأخير. ففي ســفينة مصنوعة لتجعل الركاب ينسون حتى أنهم في البحر، فإن «انتباه الراكب يتحول في الواقع عن البحر، وذلك باتجاه السفينة وكل المتع التي تعد بها». ومثل الواجهة المائية الحديثة، فهي على البحر لا مِنْهُ[21].



The Peking، بيكينغ، سفينة تاريخية ترسو في متحف الشارع الجنوبي للمرفأ البحري، نيويورك. الصورة مقدمة من ويكيميديا كومنز.

لقد كان للواجهة المائية ذات يوم ثقافتها المميزة، غير أنه عندما توقفت السفن عن الرسو وبدأت الأرصفة بالتعفن سرعان ما تحول الإهمال إلى خراب تام. أصبحت ساحات ســكك الحديد غير المســتعملة موطنا للمتشردين. بحلول ستينيات القرن

Twitter: @ketab_n

العشرين، أصبح الميناء مكانا حيث يلقي سـكان نيويورك ليس فقط بفضلاتهم بل بجيرانهم الأقل حظا كذلك.

بيد أنه كان في ذلك الوقت تحديدا بدأت الواجهات المائية حول العالم بما أسماه هانـز ماير «البعث المذهل». ففي خلال سـنوات قليلة قصيرة، أصبحت الواجهات البحرية المنبوذة تشترى عن طريق متعهدي المشاريع. لقد هدمت السكك الحديد والطـرق السريعة التي فصلت المدن عن مياهها، كـما دمرت الأرصفة المتعفنة. في حالة نموذجية للتدمير الخلاق، ماتت واجهات العالم المائية ثم بعثت من جديد، كل ذلك في مدة قصيرة جدا[22].

لقد اسـتغلت الأماكن التي جرى إخلاؤها حديثا في اسـتعمالات متعددة: جزء منها سـكني، وجزء تجاري، وآخر ترفيهي. قاد رصيف لونغ وارف في بوسـطن هذا المسـير، وسرعان ما لحقت بها بالتيمور، ثم أتت لندن، روتردام، سنغافورة، سيدني، وسان فرانسيسـكو. في عصر ارتفاع العولمة استعارت بعض المدن من بعضها الآخر. أصبـح التطويـر للواجهة البحرية متوقعـا بالطريقة ذاتها التـي كان عليها تطوير المنتجعات. وبالبناء على أقرب مسـافة من الماء، دفع التطور بعملية دفن النفايات إلى درجاتهـا القصـوى. لقد جرت التضحية بالأراضي الرطبـة المجاورة، حيث جرت هندسـة آخر السـمات الطبيعية للموانئ القديمة حتى اختفت من الوجود. حول العالم بأكمله، حل الآن يوم الساحل الأنثروبوجيني[23].

السواحل الأنثروبوجينية

منذ سـبعينيات القرن العشرين فصاعدا، عاد سـكان المدينـة إلى البحر، ولكن بأسـلوب غير مسـبوق في التاريخ السـابق للمرافئ البحرية. فلا علاقة عمل اليوم لسـكان الواجهات المائية بالماء. ففيما عدا خدمـات العبارة، لم تعد الواجهة المائية المطـورة نقطة عبور. فأماكن قليلة فقط تسـمح بالنفاذ إلى الماء في حد ذاته، وتلك عـادة ما تكون مراسي خاصـة. يلاحظ فيليب لوبات أن «لمانهاتـن كراهية مرضية تقريبا لأن تسمح لك بالتجول إلى طرف النهر والاقتراب بما يكفي لتمس المياه». إن سـكان الميناء الجدد هم في الأغلب من الطبقتين الاجتماعيتين العليا أو الوسـطى، هـم أناس أداروا في العقود السـابقة ظهورهـم إلى المدينة الداخلية سـعيا خلف

Twitter: @ketab_n

حيــاة أفضل في الضواحي. ليس فقــط إنهم أكثر غنى من الطبقات العاملة البحرية والصناعية والتي حلوا محلها، ولكنهم في الأغلب يجمعون صفتي كونهم أكبر وأصغر عمــرا معا. لقد أصبحت الضواحي أماكن لإنشــاء الأسر. بيــد أن تطوير الواجهات المائيــة يوفر للكبار العزاب، والذين يجــدون في هذا المكان «جبهة جديدة» ومكانا لأســاليب الحياة المتنوعة. لطالما كانت الواجهة المائية فردوسا متحررا، بيد أنها الآن لم تعــد مرتبطــة بالخطر، الجريمة، والكدح، ولكن ببناء حيــاة جيدة كما يعرفها لنا مفهوم الاستهلاك[24].



سفن حاويات في خليج سان فرانسيسكو. الصورة من ويكيبيديا.

مثــل ما حدث مع الشــاطئ، نظفت الواجهة المائية أولا من ســكانها الأصليين ومن ثم جرى اســتعمارها من قبل أهالي الأراضي الداخلية. وما كان ذات يوم مكانا للعمل، أصبح الآن في الأغلب مكانا للاستهلاك، ومكانا «للتسوق عوضا عن الشحن»، كما تقول آن بتنويزر، مســاحة احتفالية والتي منها يشــاهد الناس الألعاب النارية والسفن الطويلة. إن هؤلاء الذين يجتمعون عند حافة المياه هم مشاهدون وليسوا مشــاركين. مثل هؤلاء الذين يسكنون الشــاطئ الحديث، ليسوا هناك ليدخلوا إلى البحر بل لينظروا فقط. لم تعد الواجهة المائية مكانا بل صارت مشهدا طبيعيا. ومثل

Twitter: @ketab_n

الشــاطئ، فإن الواجهة المائية المدينية الجديدة هي لا مكان، هي ليســت معزولة فقــط عن بيئتهــا الطبيعية بل عن تاريخها في حد ذاته. لقــد كان يقال إن «الشيء الوحيد الذي يتجاهله سكان نيويورك أكثر من الطبيعة هو التاريخ»[25].

في البداية، تطلبت إعادة تطوير الموانئ، مثل إعادة تطوير الشواطئ، عملا ضخما من النســيان. ومن ثم، بداية مع ســتينيات القرن العشرين، اكتشــف المستثمرون القيمــة التجاريــة للتاريخ البحري كعامل جذب بالنســبة إلى الســياح حيث بدأوا بإضافة عملية الترميــم التاريخي إلى جدول أعمالهم، وذلك على الرغم من أنه، وفي مطلع الدمار الشــامل للمرافئ القديمة، كان هناك القليل جدا الذي يمكن ترميمه. بدلا من ذلك، اخترع هؤلاء نســختهم الخاصة بهم مــن الماضي - رصيف الصياد في ســان فرانسيسكو، مرفأ الشــارع الجنوبي في نيويورك، أرصفة إرساء السفن في لندن - كلها مصممة لتحظى بنصيبها من الســياحة البحرية. اليوم، ما يسمى بالواجهات البحريــة التاريخية ليس لها ســوى أقل ارتباط بالتاريخ. فغالبــا هذه الأماكن هي مشاريع تجارية وليست بحرية، ونوع من أنواع الأسواق التجارية في المدينة «كيف يمكــن لنيويورك، بعــد أن خنقت مرفأها حتى الموت (أيا كانت الأســباب الصالحة لعمــل ذلك) أن تعود فتطلب منا أن نحتفي بهذا الذي كان محركا اقتصاديا عظيما ذات يــوم، في أكثر المحيطات تعقيــما وزينة اصطناعية، والذي يتردد عليه بشــكل رئيسي الســياح فقط؟»هكذا يتســاءل لوبيت. لقد أصبحت الواجهة المائية بأكملها حافة للأرض. لقد توقفت عن كونها نقطة تواصل أو عبور. لم تعد تلك منطقة بيئية انتقاليــة حيث تتواصــل البيئات، تتحدى، وتجدد حيوية بعضهــا البعض. وكونه لم يعد جزءا من المنطقة الســاحلية الأكبر، لم يعد المرفأ مكانا مميزا مسكونا بمجموعة ســكانية مميزة. في الواقع، لقد أصبح مشــكوكا فيه مــا إذا كان من الممكن وصف المرافئ بالساحلية في أي من مواصفاتها عدا في موقعها[26].

لم يســبق للســواحل أن كانت غنية جدا بقيمة عقاراتها وفقيرة جدا بما جعلها ذات يوم الموطن الأول للبشرية. إن ما اعتقده هنري ديفيد ثورو عتبة البرية الأخيرة أصبــح الآن ربما هو أقــل الأماكن طبيعية على الأرض. لقد كان يقال عن الســاحل البريطــاني إنه لم يعــد أي جزء منه تقريبــا نقيا أصليا. هــذا التوصيف هو حقيقة بالنسبة إلى الشــواطئ تحديدا، والتي في العالم الغربي هي جميعها تقريبا من صنع

Twitter: @ketab_n

الإنسـان إلى حد ما. إن رحلة البحث عن النقـي البدائي منها في المناطق الأبعد من الكرة الأرضية ما نتج عنها سوى رفع نسبة هندسة الشواطئ هناك. إن نصف ساحل نيوجـيرسي كاملا هو الآن مدرع. تعـود برامج حماية شـاطئه، والتي تضم حواجز الأمـواج، الأرصفة الممتدة داخل البحر، وحواجز البحـر، إلى العام 1920، حيث إن «النيوجيرسـية» تمارس الآن (كما يجري الاحتجاج ضدها) في كل مكان في العالم. بيد أن الهندسـة الساحلية ليسـت واضحة في مكان كما هي في اليابان، حيث إن 65 في المائة من السواحل مغطاة الآن بالخرسانة[27].

إن السـواحل الطبيعية، يحذرنا بول كارتر، «متقطعة بعناد، غاية في السوء، غير منطقية، تستحيل على الإصلاح»، كما أن أي جهود مبذولة لاستقرارها قد أتت بنتائج عكسـية لما كان مقصودا. إن الشـواطئ، مثل الكائنات التي تعيش عليها، متحركة. إن الرمال تتحرك باسـتمرار، متنقلة على وبعيدا عن وعلى طول الساحل تجاوبا مع التغييرات في كل من الأرض والبحر. إنها تتغذى على الرواسب المجروفة من الداخل. إن الحواجز الجزيرية العظيمة للأطلنطي وسواحل خليج أمريكا مستمرة في الحركة عـلى مدى قرون. لقد كان يقال حول هاتيراس في نورث كارولينا: «إن هذه الجزيرة غـير ثابتة. إن لديها خـواص وقتية تنقلية مبنية في صلـب وجودها». في ثمانينيات القرن العشرين في هاتيراس «المنازل المبنية مسافة بعيدة عن الشاطئ (كانت) تباع على أسـاس أنها «عقار الواجهة المحيطية وذلك مـع مطلع القرن». «حتى التعرية كانت تحقق أرباحا». فقط عندما تسـتقر هذه الجـزر الحاجزية في مكانها يجري اختراقهـا وتعريتها. وحيث إنه تُمنع من التحرك، فإن هذه الجزر تموت فعليا، حيث تنكمش في حجمها وحيويتها. عندما يجري سـد الأنهار وتحويل مسـاراتها وعندما تتوقف تيارات المياه وحركات المد عن تغذية السـواحل بدفعها الرواسب في اتجاه السـاحل، فإن الكوارث تلي كل ذلك. تسـعى الحكومات إلى تجديد الشواطئ عن طريـق ضخ الرمـال، بيد أنه من المعـروف جيدا أن الشـواطئ «المرممة» معرضة للتعرية بضعف نسبة تلك المتروكة على طبيعتها[28].

إن السـبب في استمرارنا في «إصلاح» السـواحل فقط لندمرها هو ليس عصيا على الفهم. لقد سـمحنا للناس بأن يشيدوا المباني إلى حافة البحر، خالقين عقارات، والتي هي بالنسبة إلى المجتمعات السـاحلية المتدهورة اقتصاديا قاعدة الضرائب

Twitter: @ketab_n

الرئيسـية. وكما يقول مستشـار في فلوريدا بشـأن الموضوع، «لقـد كان علينا أن نحمـي الإوزة الذهبيـة». يعتقد القادمـون الجدد إلى السـاحل أن «كل الأراضي (هـي) دائمـة وكل الحدود ثابتـة». وكما رأينا، بـدأت هذه العمليـة عن طريق الأوروبيـين والأمريكيين الأثرياء في القرن التاسـع عشر مع بنـاء النوادي الصحية، أماكن الاسـتحمام، وأخيرا، المقاطعات الساحلية. لقد أصبح ممكنا لساموبل اليوت موريسـون أن يكتب في العام 1921 «لقد حلت مدن المصانع ومراكز اليخوت الآن محل قرى صيد السمك. إن الحدائق والقصور الإيطالية يمكنها أن تمحو حتى ذكرى المزارع الساحلية الوعرة»[29].

لقد ساندت السياحة متوسطة الدخل نمو المنتجعات في النصف الأول من القرن العشريـن، غير أنه لم يبـدأ التدفق الحقيقي نحو السـاحل إلا بعد الحرب العالمية الثانيـة. من سـتينيات القرن العشرين فصاعـدا، لم تنمُ المجتمعات السـاحلية في الحجم فقط بل أصبحت تشبه الضواحي أكثر فأكثر. لقد اجتذبت تلك المتقاعدين، والـذي اصطاف العديد منهم أو قضى شـتاءاته هناك قبل أن يسـتقروا في المنطقة بشـكل دائم. إن الأشـخاص العاملين الذين كانوا يسـافرون سـابقا من المدينة إلى السـاحل قد عكسوا الآن مسـارهم بأن جعلوا من مساكنهم الموسمية أماكن إقامة مستقرة على مدار العام. لقد كان ذلك واقعا حقيقيا تحديدا على السواحل القريبة مـن المدن الكبيرة، بيد أن العملية ذاتها يمكن رؤيتهـا كذلك في ماين، حيث كانت تتحـول قرى صيد السـمك إلى ما يقترب مـن الضواحي بسرعة كبـيرة. مع مطلع القـرن الواحد والعشريـن، كان الملايين يهجرون الواجهات العشـبية للضواحي من أجل تلك التي للسـاحل، محضرين معهم طريقة تفكـير تركز القيمة المرتفعة على العقـار والخصوصية. لقد تجاوب المسـتثمرون مع هذا التدفق بـأن قاموا بالبناء بتهور مقتربين بشـكل غير مسبوق من البحر، وهو النهج الذي أسهم بشكل عظيم في الدمار الذي تكبدته السـواحل خلال العواصف، الكبيرة منها والصغيرة. إن تأمين العقار المضمون حكوميا قد شجع على إعادة البناء حتى على أكثر المواقع حساسية. لن يسـمح لـلإوزة التي كانت تضع بيضا من الذهب أن تمـوت، حتى عندما جرى تدمير السمات الطبيعية للساحل بسبب المشاريع الهندسية والتي تسببت في ارتفاع نسبة تعرية السواحل[30].

Twitter: @ketab_n

اليوم أكثر من نصف أنشطة الخط الساحلي موظفة من أجل السياحة والترفيه. لقد جرى احتجاز الزراعة، وصيد السمك، والشحن، في جزء صغير جدا من الخط الساحلي الكلي. تحتل الواجهات العاملة في ماين فقط 20 من الخط الساحلي الكلي والبالغ 5300 ميل. فما كان ذات يوم واجهة منسابة، حافة أعظم حديقة في العالم، هو الآن حد ذو حراسة مشددة والذي يعيق الدخول من الأرض والبحر على حد السواء. وبجفاف الأراضي الرطبة وبسد السواحل بالسدود المضادة للأمواج، ما كان حافة ناعمة أصبح الآن حافة صلبة غير قابلة للاختراق. في الولايات المتحدة، 83 في المائة من السواحل الشرقية و60 في المائة من السواحل الغربية أصبحت ملكية خاصة. لايزال للعامة حق بالأقدمية في النفاذ إلى الساحل وذلك أسفل أعلى خط للمد، بيد أن نفاذهم إلى مناطق التيارات المنبسطة هو محدود بشدة. عندما بدأ الوعي بكم هو قليل ما بقي من المنافذ السياحية المتاحة يرتفع في سبعينيات القرن العشرين، ضغطت المجاميع على ملاك العقار وقاضتهم وذلك لتأمين حق مرور والذي يسمح بالنفاذ إلى الشواطئ. في ننتاكيت، كانت حركة One Big Beach أو شاطئ كبير واحد فاعلة منذ العام 2004، ولكن بحق نفاذ محدود فقط. في أماكن أخرى، بدا أن التخصيص كان هو الفائز في الصراع. في ديستين، فلوريدا، على سبيل المثال، وقف ملاك العقار حتى ضد مشاريع تغذية الشاطئ وذلك بسعي منهم إلى المحافظة على ما اعتبروه أنه حقهم السيادي في الخصوصية. لقد كانوا يفضلون ألا يكون لديهم أي شاطئ على أن يتشاركوا فيه مع الغرباء. قبل ازدهار واجهتها الشاطئية في سبعينيات القرن العشرين، كانت ديستين مجتمع صيد متآكلا، واليوم هي هدف سياحي رئيسي، متخم بالأسواق التجارية الفاخرة، وملاعب الغولف، ومدن الملاهي، وبقاعدة ضريبية تقدر بقيمة 4.5 مليارات دولار. لقد عمدها مطوروها على أنها «قرية صيد السمك الأكثر حظا في العالم»، على الرغم من أنه لا صيد، عدا عن صيد التسلية، يجري هناك[31].

حول كل العالم، أصبحت القرى الساحلية مركزا لنوع من الحنين والتي لم يكن لها شبيه في القرون السابقة. فما كان ينفر الزائر المديني ذات يوم أصبح الآن يجتذب الملايين. لقد حلت قرية صيد السمك محل قرية الفقراء كنسخة

Twitter: @ketab_n

مثالية لما يجب أن تكون عليه الحياة. مثل هذه المدن الصغيرة تبدو أنها توقف الزمن وتضع الماضي بين أيدي الناس بطريقة لم تستطعها المدن الكبيرة والضواحي الممتدة. إن أحجامها الصغيرة وعزلتها تقدمان وهما لملاذ، لموطن في عالم بلا قلب أو رحمة. فحول حافة شـمال الأطلنطي - في أسكتلندا، نيو إنغلاند، بريتاني، نوفا سكوشا، القناة الإنجليزية، وماين - تتلوى ما تدعى بالمسارات التراثية على طول السواحل، ملقية بنا عند قرية طريفة غريبة بعد الأخرى.

لقد جرت الإشـارة إلى nostalgia أو الشعور بالحنين - والمشتقة من الكلمة الإغريقيـة التي تعني العـودة إلى الوطن nostos - لأول مرة في القرن السـابع عـشر وذلك عـلى أنها حالة طبيـة خطرة متفشـية بين بعض الجنـود المرتزقة السـويسريين، والذين قد سيطر عليهم الاشـتياق إلى الوطن حتى إنهم أصبحوا غير صالحين للعمل. إن تحول هذه الظاهرة من مرض جسـدي إلى حالة نفسية، مرتبطة بالحنين أكثر تجاه ماض عنه تجاه مكان، قد حدث فقط في القرن التاسع عشر. اليوم، يعتبر الحنين سـمة متفشـية في المجتمعات الحديثة، حيث يشكل أساسـا لصناعة التحف والتراث، قوى محركة في كل شيء بداية من فكرة الحماية التاريخية وإلى فكرة اللقاءات العائلية. يبدو أننا لا نكتفي من العودة إلى الماضي، أو بالأحرى إلى نسخة مثالية من الماضي، والتي ليس لها سوى شبه قليل بالحقيقة التاريخية. وعلى الرغم من أنه لم يعد يعامل على أنه مرض خطير، فإن للشـعور بالحنين تبعات خطيرة بالنسـبة إلى هذه الأماكن والأشـخاص والتي يوجه إليها هذا الحنين.

لقـد رأينا مقدمـا كيف وقعت قرية صيد السـمك تحـت تعويذة الحنين. في أسـكتلندا، يقـود ما يعـرف باسـم Fishing Heritage Trail أو خط تراث صيد السـمك السواح بشـكل رئيسي إلى الأماكن التي لم يعد فيها صيد للسمك وذلك لأن خبراء السـياحة يعتقدون عموما أن «المشهد الطبيعي البحري جذاب فقط في الماضي أو من على مسـافة، فبسـبب «طبيعته الرملية» يكون الاقتراب منه غير مناسب لاسـتهلاك الطبقات الوسطى». في جلوسستر، حيث المسمكات تمـوت اليوم، يتبع الزوار خطـا أحمر حول الميناء إلى مواقـع حيث كانت هذه المسمكات موجودة. فحيثما يسـتمر صيد السمك، يستمر الخلاف بين القادمين

Twitter: @ketab_n

الجدد والمقيمين كذلك. عندما رغب المستثمرون في ترصيف الشوارع في المرفأ الأسكتلندي الصغير لمنطقة بتنويم، اعترض البقية الباقية من الصيادين على أساس أن حجر الترصيف زلق ويمكن أن يجعل عملهم خطرا. بيد أنه لربما أكبر خطر هو الحنين بحد ذاته. في القرن العشرين، حلت القوالب النمطية الإيجابية محل السلبية بيد أنها تركت سكان القرى يشعرون، كما قال أحد النيوفاوندلانديين، كما لو أنهم «في محمية خاصة»، كأنهم معروضات في متحف عن كونهم بشرا حقيقيين. وبينما حلت السياحة محل صيد السمك كالمصدر الأوحد الأكبر للدخل والتوظيف السُاحليين، فإن العديد من الأشخاص الساحليين قد تبنوا على مضض الهوية المعطاة إليهم. لقد خضعوا للقرارات الرسمية والتي فضلت المنظر على ما هو فعال، مملية عليهم الألوان التي يصبغون بها بيوتهم وكمية المعدات التي يمكن لهم أن يخزنوها في ساحاتهم الجانبية. وفيما سيطرت المراسي على الواجهات البحرية العاملة، أصبح العديد من صيادي سمك ماين متنقلين. وكونهم لم يعودوا قادرين على شراء عقار على الواجهة البحرية، أصبحوا هم غرباء بحد ذاتهم، معرضين للشعور نفسه بالفقد كما الغرباء[32].

بيد أن هذا الشعور بالفقد الذي يختبره المحليون يجب ألا نخلطه بالحنين الذي يأتي به الداخليون إلى الساحل. عادة ما يكون الصيادون أقل تصويرا للماضي على أنه مثالي، أقل رغبة في أن يجمدوه في مكانه. بالنسبة إليهم، الماضي هو حاضر مستمر، شيء يجري البناء فوقه، أو كما يقول أعضاء Heritage Society أو جمعية التراث في بكي، أسكتلندا: «نحن لانزال هنا. دعونا نخبركم كيف كنا نحيا». يصل القادمون الجدد وهم يسعون إلى الحصول على ملجأ مما يعرفون أنه عائق للتطور. هم يلقون نظرة متحيزة تجاه المستقبل، وهو الشيء الذي لا يستطيع الأشخاص الذين يعانون نقصا في العمل في بكي أن يفعلوه، حيث إن تراث الأخيرين هؤلاء ليس سلعة بل شيء يخططون على أساسه لجمع الدروس المختلفة من أجل المستقبل. هذا الشعار: «مستقبلنا مستقر في ماضينا» يعبر عن إصرارهم على عدم ترك قريتهم لأن تصبح متنزها بحريا. «نحن لسنا مهتمين تحديدا بالسياحة»، هم يقولون، «نحن مهتمون بالحفاظ على المجتمع»[33].

Twitter: @ketab_n

في مرفـأ كلايد، تلك القرية التي تبدو أنها «مثالية كبطاقة تذكارية» والتي تقع على شـبه جزيرة سانت جورج في ماين، وهي مكان مرتبط بثلاثة أجيال من عائلة وايث الفنية، بدا أن المجتمع هناك في طريقه إلى أن يخسر كامل أسطوله. فبشعورهم بأنهـم لربما يكونوا «آخر الصيادين في مرفأ كلايد»، اسـتجاب الصيادون الأرضيون على طريقة أهالي بكي. أسسـت The Midcoast Fishermen's Cooperative أو جمعية صيادي منتصف الساحل مجموعة Port Clyde Fres Catch أو مجموعة الصيد الطازج لمرفأ كلايد، والتي هي مجموعة تسـاند المسـمكات والمؤسسة على غرار الزراعة المتبناة مجتمعيا. وبمسـاعدة منظمتي وايث وماين، فتحت الجمعية طريقا إلى المستقبل مبنيا على الممارسات الماضية للبيع المباشر للعملاء المحليين[34].

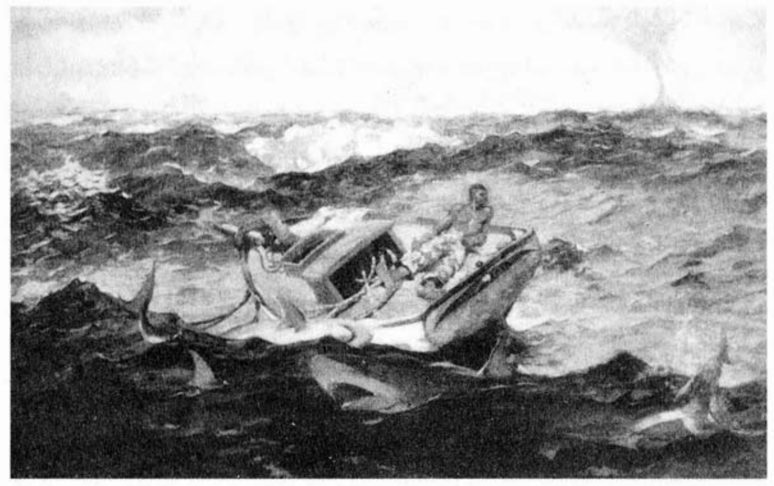
الجنة والجحيم على الساحل

على مدى أغلب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بدا أن السواحل في طريقهـا لطرد المخاوف التي كانت وعلى مدى طويل مرتبطة بها. لقد بدا أن الفردوس ثبت نفسـه أخيراعلى الشـاطئ. لقد انتقلت جغرافيـا المدينة المثالية (يوتوبيا) وبشـكل قاطع من الأراضي الداخلية إلى السـاحل، ثم عبر الساحل إلى الجـزر، التي أعلنها جون فاولز على أنهـا «المجتمعات البديلة الأصلية». غير أنه وحتى عندما كانت السواحل تنظف من حطام السفن، فإنها كانت لاتزال مظللة بمجموعة جديدة من التهديدات. لقد قدمت لوحة وينسـلو هومر للعام 1899 The Gulf Stream أو «مجرى الخليج» صورة لا تنسى - لبحار أسود منبوذ على قارب بلا صاري ولا دفة محاط ببحر مملوء بسمك القرش - والتي بدت أنها تمثل الحالة الإنسانية في «وجه إله متباعد وطبيعة لا تقاوم»[35].

لم يظهر سـمك القرش بوصفه كائنا مفترسـا بقوة حتـى نهاية القرن الثامن عشر بيد أنه أصبح أكثر تهديدا من أي وقت مضى خلال السنوات المائة القادمة. لقد جرى تسـجيل ذكرى هجوم سـمك قرش في لوحة العـام 1778 بيد الفنان جون سينغلتون كوبلي، والتي كلفه بها رجل إنجليزي يدعى بروك واتسون الذي فقد ساقه عندما كان صبياً في ميناء هافانا. إن اللوحات الرومانطيقية مثل Raft of the Medusa أو «طوف مدوسـا» هي التي أشـهرت هذا الموضوع، بيد أنها

Twitter: @ketab_n

كانــت لوحــة هومر، والتي عرضت لأول مرة في العام 1900 في بوســطن، والتي جذبت الانتباه. كما بين بيتر إيتش. وود، إن العلاقة بين السود وسمك القرش ما كانت لتغيب عــن الأمريكيين والأوروبيين. إن لوحة جي. إم. دبليو. تيرنر Slave Ship (Slaves Throwing Overboard the Dead and Dying, Typhoon Coming on) أو «ســفينة العبيد» (العبيد يلقون من على ظهر السفينة الموتى والمشرفــين على الموت، إعصار قادم) (1840) قد كشــفت عن ممارســات تجار العبيــد من حيــث تخلصهم من الأفارقــة الموتى والمشرفين عــلى الموت في الممر الأوســط(*) على طريق تجار العبيــد في الأطلنطي. يقدر وودز بأن ما يقترب من 800 ألف من الأفارقة ربما أصبحوا «طعما لســمك القــرش»، كما أنه «لربما غير ســمك القرش أنماط تغذيتهم وهجراتهم ليســتغلوا هذا الكسب غير المتوقع». يفسر ذلك هذا التدافع المتوحش لســمك القرش في المياه الاستوائية والذي يبينه هومر. لقد كان صيادو السمك في المناطق المعتدلة يصطادون سمك القرش على مدى مئات الســنين من دون أن يشــهدوا مثل هذا السلوك. بالتأكيد، قبل عرض لوحة هومر كانت الفكرة المنتشرة عن سمك القرش توحي بالاستسلام والجبن[36].



The Gulf Stream أو «مجرى الخليج» لوينسلو هومر، 1899.

الصورة من ويكيبيديا.

(*) الممر الأوسط: هو المرحلة الوسطى من رحلة تجارة العبيد التي تبدأ في أوروبا وتنتهي هناك. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

من هذه النقطة فصاعدا، انتقلت أسـطورة آكل البشر إلى ما هو أبعد من المناطق الاسـتوائية وإلى كل جزء من المحيط، حيث حل سـمك القرش محـل الحوت كأعظم وحـش بحري في العالم. وفيما تراجعت صناعة صيد الحيتان لفترة وجيزة خلال النصف الثاني من القرن التاسـع عشر، تقلص التواصل مع الحيتان فيما ارتفعت المصادفات مع سـمك القرش وذلك عندما أصبح الاسـتحمام في البحر عادة شـهيرة في كل من أمريكا الشـمالية وأوروبا. لأول مرة، كان البشر يغزون محيط سـمك القرش، وعليه فقط ظهر نوع جديد من الطعم. وعلى الرغم من عددها القليل، فإنه بدأ التبليغ عن الاعتداءات بشيء من الانتظام. في بداية القرن العشرين تحولت صورة سمك القرش بشكل كبيرمن فريسة طيعة إلى حيوان مفترس متوحش.

إن نظرتنا إلى سـمك القـرش لا تنحدر إلينا من الثقافـات البحرية القديمة، والتي كانت تكره السـباحة كما أنها كانت تتعامل مع سـمك القـرش بالاحترام الذي يقدمه الصيـادون عادة لفريسـتهم، لكن في الواقع من الخوف الـذي صنعه مجتمع صناعي مديني والذي فقد إلى حد كبير اتصاله مع البحر. ستحول أحداث الصيف الحار الطويل للعام 1916 العلاقة القرشـية - الإنسانية في شمال أمريكا. لقد اجتذبت الحرارة العالية مصحوبة بانتشـار وباء شـلل الأطفال الآلاف من الناس إلى الشـواطئ، وفي خلال أقل من أسـبوعين قتل أربعة رجال في المياه عبر سـاحل نيوجيرسي. هـذه الوفيات أنتجت أول رعب حديث تجاه سـمك القرش، والذي هدد صناعة السياحة، كما اجتذب أنظار الرئيس وودرو ويلسون، محافظ نيوجيرسي السابق، حيث نتج عن ذلك أضخم مشروع صيـد حيوانات ممول فدراليا في التاريخ. في السـنوات اللاحقة، وفيما سـعت المصالح الاقتصادية إلى إيداع هذه الحوادث بأكملها طي النسيان، لم يكن لأسطورة «آكل البشر في جيرسي» أن تختفي. لقد عادت هذه الأسطورة بشراسة في العام 1975، وذلك عندما ظهـر فيلـم Jaws أو «الفك المفترس» على الشاشـة، وهي الأسـطورة التي رفضت أن تختفي على الرغم من كل الجهود المبذولة لتثقيف العامة حولها[37].

لشـعوره بالمسؤولية الشخصية عن القتل المسـتهتر لسمك القرش الذي تبع ظهور فيلم «سـمك القـرش»، كتب بيتر بينغلي لاحقا كتبا عدة ليضـع الأمور في نصابها. لقد لاحظ ريتشـارد ويليس أن «الإنسان يخاف مما يجهل، ومن بين كل الكائنات الضخمة التي يتشـارك معها في هذا الكوكب، فإن الإنسان يعرف أقل القليل عن سمك القرش». وفيما جرى دحض أسطورة أكلة البشر بشكل كبير بواسطة الدراسات العلمية الحديثة،

Twitter: @ketab_n

كما أن المذابح قد قلت بعض الشيء، بيد أن ذلك لم يؤثر في الثقافة العامة. فبالنسبة إلى هؤلاء الذين يسعون إلى مواجهة قريبة مع البرية، ليس هناك بالنسبة إليهم حتى الآن ما يمكن أن يحل محل المواجهة مع القرش الأبيض العظيم. فمنذ ستينيات القرن العشرين، أصبحت السباحة مع سمك القرش مغامرة برية اقتصادية ناجحة، وما يسميه أليس «أناس سمك القرش» لايزالون مستمرين في الاستجابة لدعوة البرية في عصر أصبحت فيه الذئاب والدببة محظورة كونها أجناسا محمية[38].

في هذه الأثناء، أصبح ما كان يوما ما وحش البحر الكلاسيكي الكائن المدلل الآن عند الناشطين البيئيين. يأتي ذكر الحيتان فقط أربع مرات في الكتاب المقدس، وليس على أنها مخلوقات من الطبيعة بل أدوات لإرادة الخالق. في العصور الوسطى، ظهرت الحيتان على أنها أعظم من سمك القرش في كتب الحيوانات البحرية. بدأ الإسكندنافيون في صيدها على أسس تجارية في القرن التاسع، غير أن صيادي الحيتان الباسكيين كانوا هم الأوائل الذين طاردوا الحيتان لما هو أبعد من سواحل أوروبا وإلى الشمال الأطلنطي. خلال عصر التوسع العظيم لصيد الحيتان التجاري في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، اكتسب هذا الحيوان أكثر أبعاده خطورة، حيث أدى دور الشرير أمام البحار البطل لذلك الوقت. دخل الخوف إلى وعي أهالي الأرض من خلال عدد ضخم من القصص الرومانتيكية حول صيد الحيتان، التي كتبها سير والتر سكوت، جيمس فينيمور كوبر، وعدد آخر من كتاب أقل شهرة. لم يكن لأي منهم خبرة شخصية مع الحيتان، عدا مع تلك الميتة والمجروفة على السواحل القريبة. لقد اعتمدوا عوضا عن ذلك على قصص صيادي الحيتان، الذين عكسوا شراستهم هم على فرائسهم، حتى إنهم أطلقوا على قطاع الحيتان الرمادية المسالمة عادة والمنتمية إلى باجا كاليفورنيا اسم «السمكة الشيطانية». وبينما اشتدت حدة صيد الحيتان، اشتد معه مقدار العنف بين الإنسان والحيتان. عندما كانت تهاجَم، كانت هذه الحيتان معروفة بقدرتها على كسر وإغراق ليس فقط قوارب صيد الحيتان الصغيرة، بل السفن الكبيرة التي أطلقتها. من بين كل الروائيين البحريين الجدد، فقط كان لهيرمان ميلفيل خبرة حقيقية بالبحر، لكنه أيضا اعتمد على روايات البحارة الآخرين، بمن فيهم هؤلاء الذين كانوا على متن Essex أو «اسيكس»، التي غرقت في مياه الهادي بعد أن ضربها حوت عنبر ضخم في العام 1820. كان ميلفيل يعتمد على الروايات حول حوت موكا ديك سيئ السمعة، وهو حوت أبيض تمت ملاحظته في البداية عبر جزيرة موكا بالقرب من الساحل التشيلي في

Twitter: @ketab_n

العام 1810، وهو المسؤول عن عدد من الاعتداءات عندما جرت ملاحقته برماح صيد الحيتان على مدى العقدين التاليين[39].



حيتان قاتلة تؤدي استعراضا في Sea World أو عالم البحار، أورلاندو، فلوريدا.
الصورة من ويكيبيديا.

غير أنه، وفي الوقت الذي نشر فيه ميلفيل روايته العظيمة في العام 1851، أصبح صيد الحيتان على وشك التراجع. إن الثورة البترولية تبعد فقط عقدا من الزمان، كما أن اصطياد الحيتان قد فرغ من رومانسيته. كان لصناعة زيوت الحيتان كل صفات الرأسمالية التي على الأرض، مستخدمة مصدرا طبيعيا عن طريق قوة عمل بروليتارية في أغلبها. لقد حصل كتاب ميلفيل على نقد مدمر، أحدهم وصف الكاتب بأنه «رجل أخبل، مجنون مثل الأرنب الراكض(*) يموء، يهذر، يصرخ، مثل مجنون لا يقهر». لم يكن حتى سقوط سوق زيت الحيتان وتلاشي الحقائق الدموية لهذه الصناعة من الذاكرة من الممكن رؤية Moby Dick أو «موبي ديك» على أنها تلك التحفة الأدبية الرائعة التي كانتها بحق. لم يحدث ذلك سوى في عشرينيات القرن العشرين، ولم يكن حتى صدور نسخة الفيلم من هذه الرواية في خمسينيات القرن العشرين، مصحوبة بالتغيير العالمي لعملية صيد الحيتان بحد ذاتها، أن لاحت هذه الثدييات العملاقة بشكل كبير مجددا في

(*) Mad as a march hare: مثل إنجليزي شائع، حيث الأرنب هو تلك الشخصية التي تظهر في قصة «أليس في بلاد العجائب» ولربما كان للمثل تاريخ أبعد اعتقادا من التصرفات الطائشة لأنثى الأرنب في فصل التزاوج. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

الخيال الشـعبي. لقد عاد الحوت ليس على أنه ذلك الشيء الضخم من الماضي، ولا على أنــه مصدر الرعب في أعالي البحار، بل على أنه نموذج للأجناس المهددة بالانقراض. ومع انتقال صفاتها كقاتلة إلى ســمك القرش، تحولت الحيتان إلى نجوم للمتنزهات البحرية مثل «عالم البحار». لقد بدأت عملية مشــاهدة الحيتان التجارية خلال سبعينيات القرن العشريــن حيث حفرت الطريق في العام 1982 لمنع صيــد الحيتان التجاري عالميا. لقد أصبــح الآن مقبولا أن تهاجم الحيتان فقط إذا كانــت في حالة دفاع عن النفس، عندما تحاول أن تدافع عن نفســها وعن صغارها. في وقتنا الحالي، تعتبر الحيتان «رموزا والتي تمثــل كل ما هو غامــض، رائع، ومعطاء للحياة في المحيط». لقد أســس البشر لنوع من القرابة الطوطمية(*) مع الثدييات البحرية والتي لم يمدوها لتشــمل الســمك بحد ذاته. لقد بدا أن وحشية الحيتان ما هي إلا نتاج جهلنا وليست نتاج طبيعتهم، وهو الموضوع الذي بدأنا الآن نراه حقيقيا كذلك بالنسبة إلى سمك القرش[40].

من الأسوار إلى الأطلال

يبــدو كأن العالم قد انقلب داخله إلى خارجه، حيث أطرافه تحل محل مراكزه. فما كانت أســوار القــارات، خطوطها الدفاعية الأولى، أصبحــت الآن أكثر نقاطها ضعفا. في نهايات القرن التاسع عشر، أصبح ممكنا للورد كورزون أن يعلن السواحل «الأكثر عندا، والأقل قابلية للتغيير والأكثر تأثيرا» بين كل الجبهات الطبيعية. بحلول ذلك الوقت كان علم تحصين السواحل قد تطور بشكل تام، فلم يكن ليخطر لأسلاف وينستون تشيرشل أنه سيجري الدفاع عن إنجلترا من شواطئها، غير أن تشيرشل قدم موقفه الخطابي الشهير هناك في العام 1940 لأنه بحلول القرن العشرين كانت الســواحل تعتبر الجلد السميك للجســد الســياسي، حتى بعد أن جعلتها القــوى الجوية عديمة الفائــدة كحواجز ضد القصف. لقد بلغت عملية عسكرة السواحل أوجها خلال الحرب العالمية الثانية، عندما أصبحت مشــاهد طبيعية معينة - الأجراف البيضاء في دوفر، الحائط الأطلنطي لهتلر، الألسنة البحرية في كاليفورنيا - الأسوار الرمزية لحروب منتصف القرن العشرين[41].

لقد أظهر D-Day أو يوم D أو يوم هبوط نورماندي حماقة هذه الإستراتيجية، بيد أنه ســيمر وقت طويل قبل أن يجري التخلي عن فكرة تحصين السواحل. خلال الحرب الباردة بقيت كل من الولايات المتحدة والاتحاد الســوفييتي مركزتين بشكل غريب على

(*) الطوطم (Totem): لفظ من اللغة الأجيبوية يدل على كائن روحي أو طبيعي له قداسة عند جماعة من الناس، ويؤدي دورا رمزيا في نظامهم الميثولوجي. [المحرر].

Twitter: @ketab_n

دفاعات الخطوط الســاحلية. حظر الاتحاد السوفييتي ســواحل دوله العميلة الواقعة على البلطيق على الســواح، فيما تحولت الألسنة البحرية والمطلة على البوابة الذهبية إلى قاعــدة نايكي(*) الصاروخية المنعزلة. على الرغم من ذلك، مع مرور الوقت تلاشــت أهمية الدفاعات الســاحلية، حتى ضيق الأفق المتباهى بــه في إنجلترا تقلص كثيرا منذ إتمام قناته الموصلة مع القارة الأوروبية في العام 1944. اليوم، انضمت الملاجئ الأرضية ومنصات إطلاق الصواريخ إلى أبراج ومنارات مارتيلو كمناطق جذب ســياحية رئيسية. في عــصر القوى الجوية، أصبح حرس الســواحل في كل مكان قلقين أكثر بشــأن مهربي المخدرات، الإرهابيين، والمهاجرين غير الشرعيين عنهم بشــأن التهديد بالغزو المســلح. إن الحصون حول الســواحل ما هي سوى أطلال، غير أن هجرها قد ترك إرثا واحدا غير متوقع. كما يشير توم كيليون، كون الأراضي المحمية العسكرية السابقة هي بين الأجزاء القليلة من الســواحل في المناطــق المدنية «والتي هي غير ملطخــة بالكابوس العقيم للتوسع المديني، تبقى هذه الحافة الجميلة هناك حيث الأرض تلتقي بالبحر»[42].



حرس السواحل خلال الحرب العالمية الثانية في إنجلترا. الصورة من مكتبة الكونغرس.

(*) Project Nike: هــو مــشروع أمريكي لتطوير الصواريخ المضادة للطائرات، وأصبحت كلمة نايكي تشــير إلى كل قاعدة تضم هذه النوعية من الصواريخ. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

في خلال عقود قليلة، أصبح المشــهد الطبيعي الذي كان يعتبر يوما ما ســورا للحمايــة الآن الأكثر تهديدا وضعفا بين الســمات الطبيعية كلها. وفيما كان ذات يوم يعتبر أفضل دفاعاتنا ضد كل أنواع عداواتنا، البشرية والطبيعية، أصبح اليوم الساحل هو الذي يحتاج إلى الدفاع. فقط منذ مائتي سنة مضت، كانت السواحل تنتمي أكثر إلى البحر منها إلى الأرض حيث كان يمكن الاقتراب منها فقط عبر الماء. وبخلاف المرافئ، كانت السواحل مأهولة بشكل متجزئ، عادة فقط حول المنارات والتي بنيت لتقود السفن إلى الموانئ الآمنة ولتحذر للابتعاد عن النتوءات الخطرة. لقــد أنقذت المنارات حيوات عدة، غير أن هــذه المنارات هي بحد ذاتها مهددة اليوم. أصبح حطام الســفن نادرا الآن، بيد أن الســواحل مغطــاة ببقايا المنارات والتي ســقطت مــن على الأجراف المتعريــة أو التي هجرت بســبب الفيضانات الساحلية. اليوم، هذه المنارات التي أنقذت حيوات عدة ذات زمن هي في حاجة إلى إنقاذ. وفيما كانت ســابقا رمزا للقدرة الإنســانية عــلى الوقوف في وجه قوى الطبيعة، تثير المنارات اليوم الأسئلة حول الضعف الإنساني ليس فقط بالنسبة إلى البحارة بل للأرضيين كذلك. في كارولينا الجنوبية، حصلت مؤسســة تسمى Save the Light أو «لنحمي الضوء» على حق حضانة منارة جزيرة موريس، والتي تقع عبر شاطئ فولي خارج تشارليستون. بنيت هذه المنارة في العام 1876 على مسافة نحو 1600 قدم خلف خط المد. اليوم، بسبب التعرية وتراجع الخط الساحلي في كارولينا، وجدت هذه المنارة الموضوعة حديثا على جزيرة واقعة الآن على المسافة نفسها عبر الساحل التي كانت عليها في داخل الأرض[43].

يعود تاريخ المنارات إلى العالم القديم، غير أنها أصبحت شــائعة على سواحل أوروبا وأمريكا بحلول القرن التاسع عشر. كان من الصعب الوصول إليها سوى عن طريق القارب، وكان حراســها يتوقعون زيارات قليلة ســوى من هؤلاء المجروفين من على السواحل القريبة. لقد قال مهندس المنارات العظيم روبرت ستيفينسون مــرة «يحتل حارس المنــارة مكانا منعزلا بين البشر». إن هــذا العمل يعتبر عمل طبقة متدنية، حيث كان يعتقد أنه يشــجع نزعات القتل والانتحار. غير أن هذه الصفــات القوطيــة(*) بحد ذاتها راقــت للجيل الأول مــن الرومانتيكيين، وخلال

(*) Gothic qualities: إشــارة إلى نــوع من الأدب المظلم المخيف، يســمى بالعربيــة الأدب القوطي، يعتمد على الأماكن المهجورة المظلمة. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

العصر الفيكتوري اجتذبت المنـارات أعدادا متزايدة من الزائرين اليوميين، وهم السـابقون للسـواح المعاصرين، والذين جعلوا من المنارات المتبقية أكثر الأماكن التي تجري زيارتها على أغلب السـواحل. إن الانعزال نفسه الذي قاد الرجال إلى الجنون قد جعل الآن المنارات أماكن هروب مثالية من الوجود الأرضي الرتيب[44].

وفي تغير اسـتثنائي في الحظ، ذاك الذي كان مرشـحا لأن يهجر ويدمر أصبح الآن واحدا من أفضل مناطق الاجتذاب الساحلية. في أوروبا، بقيت المنارات ملكية عامة، ولكن، وتحت مرسـوم أمريكا للحفاظ القومي على المنارات في العام 2000، تشـترى المنـارات المعزولة من الخدمة عادة من أجل الاسـتعمال الخـاص أو أنها تحول إلى أماكن إقامة سـياحية. إن فعل «lighthousing» أو «زيارة المنارات»، والمقصود به زيارة أكبر عدد منها، أصبح الآن رياضة تنافسية، رياضة تقترح أن شيئا ما يحدث في الأعماق، حنين إلى أمان مكان ما في عالم، هو بخلاف ذلك، لا مكاني. ترتبط المجتمعات الساحلية الآن بمناراتها أكثر من ارتباطها بأي مشهد طبيعي أرضي آخر. غير أن كذلك يفعل سـكان الأراضي الداخلية، فيـما أقاليم وقطاعات كاملة قد تبنت المنارات على أنها رموز موحدة. في نيو إنغلاند حلت المنارات محل برج كنيسة القرية في الأهمية الرمزيـة. وبينما يجري ابتلاع أهـل القرى عن طريق الامتـداد المديني، فإن المنارة المعزولة تبرز على أنها رمز للثبات في عالم مقلوب رأسا على عقب[45].

لقـد كان تحديدا عندما لم يصبح للمنارات غرض بحري أن اتخذت هذا الدور الثقافي الجديد. لقد بدا كأن هذه المنارة التي اكتسحب البحر ذات يوم قد أصبحت محوريـة عـلى الأرض، حيث تخدم على أنها مكان سـياحي جاذب وكأداة تحذير لقارات بأكملها. إن الارتباط بالتراث السـاحلي على درجة من القوة اليوم حتى إن أي اقتراحات بتحريك المنشـآت المهددة بعيدا عن البحر يمكن لها أن تثير معارضة عاطفية شديدة. في جزء منه يعود ذلك إلى خوف أصحاب المصالح العقارية من أن أي تراجع عن البحر سوف يقلل من قيمة العقار، غير أن آخرين يرون في التراجع عن البحر علامة على الضعف. إن مثل هذا التحالف أخذ شكله خلال العام 1990، عندمـا أصبحت منارة كيب هاتيراس مهددة بالتعريـة حيث جرى تحديد موعد لنقلها إلى مكان آخر. لم تنقل المنارة سـوى في العام 1999، وذلك لأن العديد من الناس رأوا في التراجع نوعا من الاستسلام للطبيعة الشرسة. لقد قيل إن العديد من الناس كانوا يفكرون في المنارة على أنها «رمز للقوة والثبات وكصرح لقضية أبطال

Twitter: @ketab_n

الســواحل، والذيــن... دخلوا في معركة ذكاء مع البحــر»، واعتقدوا أن «الالتفاف، أوالفرار، عن طريق تحريك المنارة سيكون» خيانة[46].

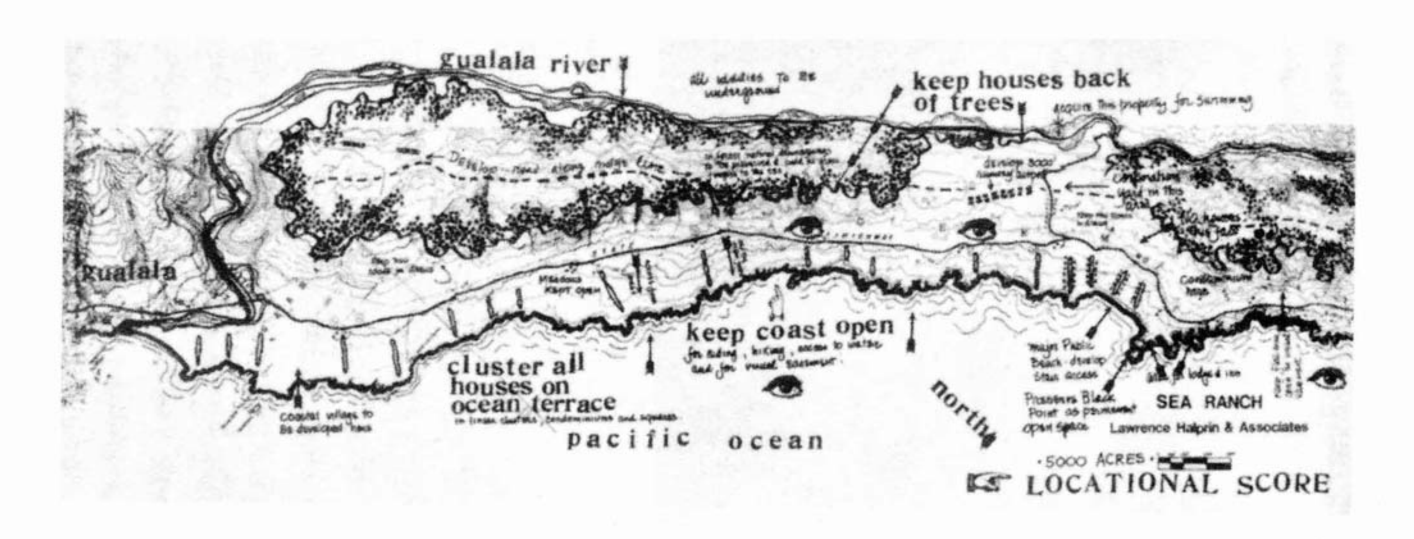


خط تحريك منارة كيب هاتاراس، 1999. الصورة من قطاع نورث كارولينا للطرق السريعة.

خطر في الفردوس

باتت الســواحل التي كانت ذات يوم تقيَّم لأغراضها العســكرية، بين أكثر المناطق ســلاما عــلى الأرض في يومنا هذا. هناك نحن ننطلق وننسى كــم يمكن للبحر أن يكون خطــرا. إن جغرافيات المدن الفاضلة (اليوتوبيا)، التــي كانت واقعة في أعماق الأراضي الداخلية إبان القرن التاســع عشر، قد انتقلت بشــكل نهائي إلى الساحل. لقد استقرت جنة عدن على الشــاطئ - ولكن لايزال النــاس يتخيلونها من خلال مصطلحات أرضية تامــة. في الولايات المتحــدة، يقع اثنان من المجتمعات المثالية والتي اكتســبت انتباها خاصا - ســاحل فلوريــدا وSea Ranch «سي رانش» في كاليفورنيا - على الســاحل بيد أنه أنشئ على أسس أرضية تماما. فكلاهما لا يعطي الكثير من الاهتمام لميزات البيئات الانتقالية الخاصة ببيئاتهما الساحلية[47].

Twitter: @ketab_n



منظور المهندس المعماري لورانس هالبرين لمنطقة Sea Ranch، «سي رانش»، من كتابه The Sea Ranch: Diary of an Idea، «سي رانش: مذكرات حول فكرة».
الصورة من الأرشيف الهندسي لجامعة بنسيلفانيا.

Twitter: @ketab_n

من بين الاثنين، يعتبر الســاحل الأكثر تقليدية، هــو في الواقع مثل الضاحية إلى جانب البحر، لكن مع إزالة كل عيوب الضواحي. إنه مجتمع كثيف البنيان، يرحب بالمشي، ما يخفف من ازدحام الســيارات ومن التلوث، غير أنه يقع بعيدا عن البحر على غرار القرى الساحلية القديمة والتي يحاول هذا المجتمع تقليدها. يعد الساحل البحري بفوائد الحياة الســاحلية من دون أن يكون ســاحليا في أي من صفاته سوى في موقــع. سي رانــش، من جهة أخرى، هي أقرب إلى المنتجــع، لم يكن الغرض منها الإقامــة فيهــا على مدار الســنة، غير أنها قريبــة بما يكفي من منطقة خليج ســان فرانسيسكو لتكون جذابة لعطلة نهاية الأسبوع وللإقامات الممتدة. لا تقدم الرانش خدمة تســوق أو أي خدمات أخرى. يحتل الساحل فقط ثمانية هكتارات من خليج المكســيك، فيما تقع السي رانش على جزء رائع من ســاحل مندوتشينو، حيث تمتد على مســاحة خمسة آلاف هكتار، وحيث يلتزم كل بيت عليها بقوانين بيئية صارمة للحفــاظ على طبيعة الغابات والمراعي. تكمن جاذبيتها في موقعها الممتد على حافة صدع ســان أندريس. يصفها صانعوهــا كالتالي: «إن تجربة الوجــود هنا محكومة بتهــاوي الأرض باتجاه البحــر وكذلك بالنداء المســتمر للمحيــط... تنجذب العين باســتمرار باتجاه الأفق اللامع... إنه الساحل، بشكل رئيسي، الذي يجتذب الناس إلى هنا لمسة البرية المتجسدة بقوة في خط الساحل بحد ذاته»[48].

لم يكــن ينتوى للــسي رانش أن تكــون منتجعا ولا ضاحية «لقــد كان الهدف المشــاركة في تجربة الخط الســاحلي، لا أن يعزل في ملكية خاصة منفصلة»، حتى وإن كانت البيوت ملكيات منفصلة. لقد تعامل رئيس المهندسين، لورنس هالبرين، مــع المشروع من منطلــق بيئي: «لقد كنت مقتنعا بأنــه بإمكاننا أن نتفادى صنع ضاحية أخرى، وفي المقابل نطور مجموعة مجتمعية للأشــخاص المتشــابهين فكريا، بحبهم للطبيعة ولهذا الموقع تحديدا، والذين بالنســبة إليهم «العيش المسالم على الأرض» هــو المبدأ الحاكــم». لقد كان عازمــا ألا يبني على الأجراف فيما أســماه أسلوب «حائط ماليبو». لقد تواصل من خلال تصميمه مع هنود البومو ومع مربي الماشــية والذين كانوا موجودين هناك قبلــه، حيث كانت تصاميمه تتبع تلك التي للمجتمعات الزراعية الأولى في نيوإنغلاند، والتي تخيلها هو (على نحو خاطئ) أنها كانت موزعة حول حديقة عامة. لم تكن هي البرية التي كان هالبرين ومســاعدوه

Twitter: @ketab_n

يسعون إليها، بل مكان حيث يمكن للبشر والطبيعة أن يتعايشا. «لقد أصبحت مقتنعا بأن سي رانش من الممكن أن تصبح مكانا حيث الطبيعة البرية والموطن الإنساني يمكن لهما أن يتفاعلا فيما يشبه التعايش التكافلي القوي حيث يمكن للبيئة الانتقالية أن تسمح للناس بأن يصبحوا جزءا من النظام البيئي». في تناقض مع المدن المثالية الأرضية السابقة والتي تأسست على العمل المشترك، الذي كان يجب أن يوحد سكان السي رانش هو المشهد الطبيعي المشترك، أو لأكون أكثر تحديدا، نظرة مشتركة للمشهد الطبيعي، هذا «الأفق اللامع» الذي تحدث عنه هالبرين في مخططه الأصلي. وفيما جرى بذل كل جهد ممكن حتى لا يجري إزعاج الطبيعة في هذا المكان، فإن استثناء واحدا كان مسموحا به هو: قطع الأشجار التي كانت تعيق منظر البحر أمام الأعضاء[49].

مرة أخرى ها نحن نأتي أمام حالة تفضيل للنظر فوق كل الحواس الأخرى. كان أصحاب السي رانش مهتمين أقل الاهتمام بوجود منفذ للبحر. لم يجر بناء أي موانئ أو مراس، حيث كان البحر أبرد من أن يسمح بالسباحة. إن المخططات الأولية لم يكن فيها حق مرور للعامة إلى الساحل بحد ذاته، وهو الشيء الذي خالف القوانين الساحلية لكاليفورنيا وعطل بناء مزيد من العقارات هناك لمدة 8 سنوات وذلك حتى جرى الاتفاق على حقوق العامة. في النهاية، كان هالبرين بحد ذاته محبطا بسبب الدرجة التي انتصرت بها المصالح الخاصة وضمر بها إحساس «المجتمع الترفيهي الخارجي الطبيعي المنحى». إن المشهد البحري المشترك، في غياب أي ارتباط جماعي حقيقي مع البحر بحد ذاته، هو غير قادر على تكوين مجتمع أو شعور قوي بالارتباط بالمكان، حيث إن «المشهد الطبيعي يرى: المكان يختبر ويعرف»، كما يذكرنا الكاتب الإنجليزي آدم نيكولسون[50].

لا شك في أن علاقة أصحاب سي رانش مع ساحلهم ليست فعلا مختلفة عن تلك التي لسكان أي منتجعات ساحلية أخرى ومجتمعات سكنية أخرى والتي تحتل الآن الساحل بطوله حول العالم. إن اللافتة التي صادفتها أنا في زيارتي هناك - لا تدر ظهرك إلى المحيط أبدا - لا تختلف بأي شكل من الأشكال عن الأخرى المنصوبة في أماكن أخرى. بالنسبة إلى العامة الذين ليست لديهم أي تجربة حقيقية مع البحر، المخاطر القادمة من تقاطعات التيارات والأمواج العنيفة حقيقية جدا. فبخلاف

Twitter: @ketab_n

مئات الآلاف الذين قضوا في أعاصير التسونامي، فإن المئات يغرقون كل سنة حتى على السواحل المحروسة بموظفي إنقاذ، فكلما كان الساحل أكثر جاذبية، تعاظمت المخاطر. يجري بشكل منتظم جرف الناس من على الصخور على حافة حديقة أكاديا العامة في ماين. فقط عبر الساحل على جزيرة Great Gott أو غريت غوت، وهو المكان الذي اصطفت فيه لمدة ربع قرن، وفي 23 أغسطس 2009 شهدنا موجة عنيفة تكونت بسبب إعصار بيل مئات الأميال عبر الساحل. لقد وصلت الموجة في عصر يوم صاف وحطمت الكوخين الواقعين على جرف البحر. لم يقتل أي من جيراننا، غير أنه في اللحظات القليلة اللاحقة، وعندما وصلت الموجة نفسها عند أكاديا، حدثت المأساة. كان الآلاف من الناس مجتمعين عند منطقة ثندر هول Thunder Hole الشهيرة لمشاهدة راكبي الأمواج، قد جرف العديد من الناس إلى البحر وغرقت فتاة صغيرة[51].

تدعو نوفا سكوشا نفسها ملعب محيط كندا، بيد أنها لا تمتلك سوى القليل من الشواطئ القابلة للسباحة والعديد من المشاهد المطلة غير الآمنة. عندما يفترض أن يكون جون بيجي الريفي، يجري اعتراض خيالات السياح بطريقة فظة عن طريق لافتة تقول:

إنذار

الإصابة والموت كانا مكافأة للسواح المستهترين هنا

إن المحيط والصخور غداران

استمتع بالبحر من على مسافة[52]

إن الشعوب الساحلية القديمة لم تكن أبدا بحاجة إلى التذكير بمخاطر البحر. وكما رأينا سابقا، فإن سكان جزيرة الأمير إدوارد كانوا حذرين من «ملاحقة الساحل» تحت أي ظروف جوية. لطالما اعتقد صيادو السمك والبحارة بقوى المحيط المدمرة المميتة. في الماضي، كانت الشواطئ مغطاة بحطام السفن، memento mori، والتي منها جرى اختلاق العديد من القصص التحذيرية. تجري هندسة الشواطئ العدنية (من جنة عدن) اليوم، مثل السفن السياحية الراسية عبر الساحل، بحيث تخفي الخطر الحقيقي وتصدر وهم الأمان. غير أن المخاطر القادمة من البحار

Twitter: @ketab_n

تظل مؤكدة، ومع كل تسونامي، إعصار، أو تسرب بترولي، يظهر على السطح الوعي بقواها في إيقاع الفوضى بأقوى الحضارات. اليوم، حطام السفن على السواحل أصبح أمرا نادرا، غير أن كابوسا جديدا يختبئ عبر الساحل. في تسعينيات القرن العشرين، بدأت تقارير في الظهور حول حاويات ضخمة وناقلات نفط عملاقة اختفت ببساطة ومن دون أي أثر. السبب، على ما يبدو، هو ارتفاع نسبة العواصف المحيطية والتي أنتجت أمواجا عنيفة يبلغ حجمها أكثر من مائة قدم ارتفاعا. في العام 1995 ضربت سفينة الملكة إليزابيث الثانية بموجتين يبلغ ارتفاعهما خمسا وتسعين قدما. بالنسبة إلى قبطانها، رونالد وارويك، «بدا كما لو أن السفينة كانت تتجه مباشرة إلى الأجراف البيضاء في دوفر». الآن يواجه البحارة أســوأ مخاوفهم ليس على حافة البحر بل في مكان لطالما اعتبروه آمنا نسبيا: منتصف المحيط[53].

Twitter: @ketab_n

خاتمة
تعلم العيش مع السواحل

أخيرا وجد الإنسان، كذلك،
طريقه عودةً إلى البحر.

راتشيل كارسون، البحر من حولنا[1]

علــى مدى نصف القرن الماضي كان هناك تدفــق في اتجــاه الســاحل، والــذي بسرعته وكثافتــه ينافس أيــا من الهجــرات العظيمة في التاريخ البشري. اليوم نصف ســكان العالم يعيشون على بعد 120 ميلا من البحر. بحلول العام 2025 يقدر أن تبلغ النسبة 75 في المائة. في الولايات المتحدة 54 في المائة من الســكان يعيشــون فيما تعرف بأنها دول ساحلية، على بعد 50 ميلا من البحر، ويصل 3600 إنســان إلى الأقاليم الســاحلية كل يــوم. في كاليفورنيا 80 في المائة من ســكان الولاية يعيشــون على بعد 30 ميلا من الساحل. إن المناطق المعرفة

«لم يكــن هــذا التدفــق في اتجاه البحر متوقعا»

Twitter: @ketab_n

على أنها ساحلية تشكل 15 في المائة فقط من منطقة أراضي الدولة، والذي يعني أنها ثلاث مرات أعلى كثافة سكانية عن الأراضي الداخلية. نحن معتادون على المحيطات وهي تصطدم بالساحل، ولكن الآن ولأول مرة هي موجة بشرية تلك التي تتدحرج في اتجاه البحر[2].

في القرن التاسع عشر، قطع الملايين المحيطات ليسكنوا أراضي جديدة. ولأنها مجهزة بالقنوات وسكك الحديد، قطع الناس المسافة سريعا إلى الأراضي الداخلية، مديرين ظهورهم إلى البحر، تاركين أقل الأثر على الساحل، وذلك بخلاف مرافئ دخولهم. اليوم، المداخل مثل جزر أليس وأنجيل Ellis and Angel، تعتبر مواقع حج بالنسبة إلى سلالات هؤلاء الذين دخلوا منها. بيد أن هذا التسونامي البشري الجديد الذي يتحرك من المناطق الداخلية إلى السواحل لا يحتاج إلى جواز سفر أو تأشيرة دخول. إن معظم الهجرات الجماعية خلال التاريخ كانت غير إرادية، حدثت بسبب الحاجة أو الحرب، وارتبطت بالقدر أكثر من ارتباطها بالحرية. غير أن هذه الهجرة مختلفة، حيث إنها مدفوعة بالرغبة، بقدر ما هي مدفوعة بالحاجة. حتى قريبا استمرت هذه الهجرة بشكل غير ملحوظ، غير أنه لا الهجرة ولا آثارها على الساحل يمكن تجاهلها بعد اليوم[3].

بكل تأكيد، يعود الناس إلى الساحل لعدد مختلف من الأسباب. إلى حد بعيد فإن الأعداد الأكبر تنجذب إلى المدن الضخمة، مثل بانكوك، وشانغهاي، ولاغوس. تلك بدأت على أنها مرافئ، غير أنها لم تعد بحرية في أي من صفاتها سوى موقعها. هناك يوجد عدد من مراكز الإنتاج أقل من مواقع الاستهلاك. اختفت مدن البحارة بشكل كبير، حيث تزدحم الآن الواجهات المائية بالأسواق التجارية والمباني السكنية. توظف صناعة صيد السمك أعدادا أقل فأقل من الناس، حيث انتقل الشحن إلى مرافئ جديدة بعيدة تماما عن المدينة بحد ذاتها. يعزى إلى اكتشافات البترول والغاز عبر الساحل شيء من النمو الساحلي، كما يعزى إلى المقرات العسكرية، بيد أن المدن الواقعة بجانب البحر ستقدم - على الأرجح - وظائف في سلك الخدمة العسكرية عن الوظائف في القطاع الصناعي. إنها السياحة، أكبر جهة توظيفية مفردة في العالم، والمسؤولة عن النمو الكبير للمجتمعات البحرية الصغيرة. يبدو الوضع كأن العوالم قد قلبت

Twitter: @ketab_n

ظهرا لبطن، حيث حواف الجزر والقارات حلت محل الأراضي الداخلية كمراكز للجاذبية الديموغرافية.

في عصر الأملاك العقارية

لم يكن هذا التدفق في اتجاه البحر متوقعا. لقد شـهدت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تناقصا سكانيا على السواحل وعلى الجزر الساحلية، عندما جرى مكننة صيد السـمك والشحن البحري. إن التسونامي البشري الحالي بدأ بقطرات قليلة، وكانت مقدمته مكونة من سـكان الأراضي الداخلية الأغنياء والذين وصلوا في البداية كسـياح موسـميين، ومن ثم بدأوا في اقتناء العقار. لقد رأينا كيف أن هذه الطبقة الراقية قد قضت أغلب نهاية القرن التاسـع عشر في تنظيف السـواحل من الأشـخاص الأدنى، حيث بنوا مقاطعاتهم الخاصة، مبقين الطبقات الاجتماعية المتدنية على بعد منهم. لقد جعلت أخيرا السـكة الحديد، ومن بعدها السـيارات، السـواحل في متناول يد الطبقات الوسطى المدينية، بيد أنه، وحتى أواخر القرن العشرين، كانت منافذ الطبقات العاملة محدودة بسبب النقص في المال ووقت الفراغ.

إن هـذا البعـد الطبقي لم يمر بسـلام؛ ففي العام 1928 قال جي. سـبينسر سميث، رئيس مؤسسة حماية السواحل والشواطئ الأمريكية: «كان هناك زمن، فقـط منذ سـنوات قليلة مضت، عندمـا كان يمكن لقلة مميزة نسـبيا أن تزور سـاحل نيبتون القديم». لقد كان سـعيدا لأن يعلن أن «النظام القديم قد تغير، على أي حال، واليوم تنتمي واجهات المحيطات إلى الجموع الكبيرة». كان سميث يتكلم عن سواحل نيوجيرسي ونيويورك التي أصبحت مناطق شهيرة بحلول العام 1920، وذلـك ليس فقط خلال الأصياف وعطلات نهاية الأسـبوع. خلال الحرب العالميـة الثانية، عندمـا رأيت - ولأول مرة - البحر من على رمال مدينة أتلانتك، توقفت الحركة تجاه البحر حين أصبحت الشـواطئ خطوط الدفاع الأولى في كل مـسرح حرب، ومحظورة على المدنيين. بعض السـواحل، مثل سـاحل البلطيق، بقيت مأهولة بشكل قليل خلال عصر الحرب الباردة، بيد أن خمسينيات القرن العشرين وسـتينياته شهدت تسـارعا في عجلة التطوير التي تخيلها سميث. لقد

Twitter: @ketab_n

تبنت مؤسسته مصالح المستثمرين الساحليين، وملاك المنتجعات، ومتعهدي عوالم الترفيه التي بدأت في البروز في أمريكا، والذين أصبحوا يقدرون الآن قيمة جذب جموع من الطبقة الاستهلاكية. من وجهة نظر سميث، يشجع الشاطئ ليس فقط الازدهار، ولكن كذلك التوافق الطبقي «لن تستطيع الشيوعية، أو الاشتراكية، أو أي حركة ism(*) أخرى أن تؤمن أبدا موضع قدم لها في هذه الدولة مادامت الجموع البشرية أُعطيت الفرصة للتمتع بهبات الطبيعة العظيمة في الحدود المسموح لهم بها»[4].

سيتم تعيين هذه الحدود بصرامة، مع ذلك. تقليديا، كان الساحل أسفل خط المد الأعلى مفتوحا للعامة. إن الخط الذي كان مرسوما بين المحيط العام والأملاك الخاصة يختلف مكانه وفق الزمان والمكان، فقبل زمن مراقب الأبنية، كان هذا الخط يُحدَّد عن طريق الأعراف وموافقة المجتمع على قدر ما كان يحدد عن طريق القانون. الآن، خلال ما تسميه روث مور زمن العقار، أصبحت الحدود واضحة المعالم، حيث أصبحت العقارات الساحلية سلعة، واستثمارا جذابا جدا، ومكانا يتطلع فيه الشخص إلى ارتفاع ثروته على حساب البيئة[5].

لطالما سعت مؤسسة حماية السواحل والشواطئ الأمريكية The American Shore and Beach Protection Association وبنجاح من أجل هذا النوع من ترميم الشاطئ، غير أنها كانت حريصة على أن تحصر العامة على الرمال. إن مناداتها الشعبية من أجل حق الاستخدام العالمي للشواطئ تخفي حقيقة أن هذه المؤسسة تعارض أي قانون قد يتعدى على حقوق ملاك العقار، من أشخاص وشركات، والذين يشكلون قاعدة أعضائها. تدافع المؤسسة عن حقهم في بناء الحوائط البحرية وحواجز الأمواج التي تسهم بشدة في تعرية الشاطئ والتي تخلق حاجة شديدة إلى تجديد الرمال عليه. من المرضي للمؤسسة تماما أن تجعل دافعي الضرائب يسددون الفاتورة من أجل برامج الحماية والتجديد التي كانت عالية التكلفة وعديمة الفائدة بشكل كبير. كما أنها تعارض باستمرار نوعية التخطيط الذي قد يصل إلى جذور المشكلات الحقيقية للتعرية الساحلية[6].

(*) إشارة إلى كل الكلمات التي تنتهي بهذه الحروف، والتي تعبر عن نظريات فكرية قد تتحول إلى حركات أيديولوجية على أرض الواقع. [المترجمة].

Twitter: @ketab_n

يأتي بنا ذلك إلى صلب موضوع المشكلات الساحلية اليوم، والتي هي تداعيات ليست للأعداد الضخمة للسكان الساحليين بقدر ما هي تداعيات للطريقة التي يعيشـون بها على السـاحل. لقد تناقصت أعداد السـكان السـاحليين القدامى من المزارعين صائدي السـمك والبحارة إلى أقليـة صغيرة. كما أن هذا الجزء من الساحل الذي طالما خدم على أنه واجهة بحرية عاملة قد جرى تحجيمه بالصورة ذاتها. في ماين، على سـبيل المثال، لا يخدم سـوى 25 مـن أصل 5300 ميل من الساحل البحري الأغراض عامة بعد الآن. تحولت البقية إلى أملاك خاصة، الكثير منها إلى عقارات سـكنية نخبوية. إن حماية هذه الأملاك تأخذ أولوية فوق كل الاعتبارات الأخرى ـ قبل كل شيء، فوق الطبيعة الحيوية للسـاحل، وهو المكان الحي الذي تتخذ فيه المخلوقات موطنا لها عليه، بما فيها نحن.

إن الوعي العام بالتغييرات المناخية، وبارتفاع مسـتوى البحر، هو الآن وعي قـوي حتى أنه من الصـادم معرفة أن هذه المواضيع لم تكـن حتى تُناقش قبل ثمانينيات القرن الماضي. إن المعلومات الموثقة حول تاريخ مسـتويات البحر أكثر حداثـة من ذلك التاريخ، ولاتزال جدا غير مكتملة، خاصة بالنسـبة إلى العصور الأقـدم. يمكننـا أن نكـون متأكدين جدا أنه خـلال الفترة التي تسـمى العصر الجليدي الأصغر، 1350 - 1850، كانت مستويات البحر مستقرة نسبيا. ثم بدأت البحـار في الارتفاع حوالي ملليمترين كل سـنة لمدة قرن تقريبـا. الآن ارتفعت هـذه النسـبة إلى 3 ملليمترات لكل سـنة عندما بدأت كتـل الجليد والصفائح الجليديـة في الذوبان، يرفع الاحتباس الحراري من درجات حرارة البحر وكثافته، كما تغيرت أشكال الأحواض المحيطية. الآن أصبح المستقبل عصيا على التنبؤ، كما أن تقديرات ارتفاع مسـتويات البحر، وصولا إلى سـنة 2100، قد تباينت إلى حد كبير. العلماء الدقيقون يعتقدون أن أقل ارتفاع ربما يكون 0.9 متر، وأكثره يكون مترين. تعـد هذه القراءات منخفضة جدا مقارنة بالعديد من التنبؤات المقلقة، غير أنه عندما يكون ارتفاع مستوى البحر مصحوبا بارتفاع في النشاط العاصفي، وتغييرات في كل من الأرض والبحر بسـبب الاحتباس الحراري، سـيصبح التأثير عنيفا جدا، خصوصا بالنسبة إلى الـ 100 مليون إنسان الذين يعيشون فقط على ارتفاع متر من مستوى البحر[7].

Twitter: @ketab_n



اشتعال عاصفة إبان إعصار كارول، 1969، حين جرفت نادي اليخوت في رود آيلاند.

الصورة من المكتبة المصور لـ NOAA

إن تأثيرات التغير المناخي حقيقية جدا، بيد أن السواحل كانت في محنة قبل الارتفاعات الأخيرة في مستويات البحر بوقت طويل، وذلك بسبب عوامل إنسانية وطبيعية مجتمعة. لقد وصل التنقيب عن النفط إلى الشاطئ قبل أن يتعداه. إن عمليتي التجفيف والردم للأراضي الرطبة كانتا مستمرتين على مدى قرون، حيث شغلت الجزء الأكبر من القرن الماضي تقريبا. اليوم، 70 في المائة من أراضي العالم الرطبة قد اختفت. في الولايات المتحدة، الخسارة أعظم في الواقع: 80 إلى 90 في المائة.

إن تسليح السواحل الذي كان المقصود به حماية السكان الساحليين، قد أنتج شعورا كاذبا بالأمن. في اليابان، على الرغم من أن 65 في المائة من سواحلها

Twitter: @ketab_n

المكشـوفة محمية بالحوائط البحرية، أو مؤمنة بطرق أخرى، فإن شيئا لم يستطع إيقاف التسـونامي العظيم الذي وقع يوم 11 من مارس من العام 2011. في تارو، شـعر الناس الواقفون على قمة حائـط المدينة البحري الضخم بأنهم في أمان، غير أنهـم جُرِفوا جميعا. في اليابان، تعني كلمة تسـونامي «موجة الميناء»، ومن نواح عديدة رفعت هندسة الموانئ الحديثة من السرعة التدميرية لهذا الجيشان الأخير. لطالما اشـتكى الصيادون من أن بناء الحوائط البحريـة حد كثيرا من قدرتهم على رؤية الأمواج القادمة. كذلك، قللت الحوائط البحرية من وعي السكان الساحليين بالبحر عموما. إن وعي العامة بالتاريخ البيئي ضحل في كل الأحوال، إذ إن القليل من قرى صيد السمك اليابانية لاتزال تحتفظ بذكريات لعواصف تسونامية سابقة. غـير أن هـؤلاء الذين فعلوا كان لديهم سـجل أفضل في الإخـلاءات الناجحة عن هؤلاء الذين نسـوا الماضي. هناك سـواحل ضخمة لا بد من تعويضها عما أسـماه بيـتر كان «فقدان الذاكرة البيئي عبر الأجيال»، والتي تمنعنا من معرفة ليس فقط الأسـباب طويلة الأمد للانحدار، ولكن كذلك الطرق التي نستطيع بها التأقلم مع هذه الأسباب[8].



نتائج التسونامي الياباني، 2011، الصورة ليوموري شيمبون، الصورة مقدمة من Getty Images

Twitter: @ketab_n

التعلم من الماضي

كل طفل في المدرسة يعلم اليوم أن مياه البحر آخذة في الارتفاع، غير أن القليل يعرف أي شيء عن الطرق المتعددة التي تكيف بها جنسنا، غالبا بنجاح، مع الحوادث الأولية للفيضانات. إلى اليوم، هناك نقاشات عامة حول التقليل من التأثيرات الإنسانية في التغيرات المناخية أكثر بكثير من تلك التي تدور عن الاعتبارات الجادة للتكيف معها. بلا شك، لا بد للاثنتين أن تتحركا يدا بيد، بيد أنه من الضروري أن نأتي بالماضي إلى طاولة الحوار مع الحاضر والمستقبل. فخلال المليونين ونصف المليون سنة الأخيرة، كانت هناك تذبذبات في مستوى البحر تصل إلى 500 قدم. فقبل نهاية آخر عصر جليدي، فقط منذ عشرة آلاف سنة مضت، كانت المحيطات أقل انخفاضا بمعدل 400 قدم عما هي عليه اليوم. وكما رأينا مسبقا، فإن الفيضانات يمكنها أن تشجع تحركات سكانية ضخمة، وتسبب تغييرات جذرية في أساليب الحياة. في الإقليم الذي نسميه الآن هولندا حدث ذلك مرات عدة في الأعوام 1170، و1362، و1703، و1916، و1953. حول العالم كله هناك قوائم مطولة من الفيضانات ومن المدن التي فُقِدت في البحر[9].

بيد أن التاريخ لا يزودنا بقائمة الكوارث فقط، ولكن كذلك بدروس بناءة حول التكيف الإنساني. فمنذ الأزمنة البعيدة، عاشت الشعوب الساحلية حياة برمائية فوق الكومات أو مثل عرب الأهوار، على جزر عائمة مصنوعة من القصب. وكما رأينا سابقا، فإن أسلافنا الساحليين، الأمريكيين الأصليين والأوروبيين، أدركوا ضرورة عدم البناء على قرب كبير من الماء. لقد خيم الأوروبيون - كما فعل صيادو السمك الرحل الأصليون - على الساحل عوضا عن الاستقرار عليه. وحتى عندما بنوا أماكن للمأوى، فقد صنعوها بحيث يمكن تفكيكها وإزالتها بشكل سريع. لقد تعلم صيادو السمك الأوروبيون القادمون من شرق لونغ آيلاند، والذين وصلوا في أواخر القرن السابع عشر، أين يقيمون مخيماتهم من الأمريكيين الأصليين الذين كانت تجمعهم بهم علاقة طيبة في البداية. لقد قام البيض، المعروفون باسم Bonackers، باصطياد الحيوانات، كما اصطادوا السمك بطرق مشابهة لتلك التي كان الهنود يستخدمونها. حيث كانت هاتان المجموعتان تتزاوج كل منهما من الأخرى أحيانا. لاحقا، عندما جمعوا بين صيد السمك والزراعة، بنوا على أراض أكثر ارتفاعا، ولكنهم استمروا إلى وقت متأخر، حتى ثلاثينيات القرن العشرين، في الاحتفاظ بالأكواخ الجاهزة بالقرب من الساحل. لقد

Twitter: @ketab_n

كانوا يصطادون السمك من الشاطئ، وذلك عن طريق إطلاق مراكبهم مباشرة في اتجاه الأمواج. يتذكر القدامى أن أكواخ البوناكيريين كانت تُفَكَّك خلال فصل الخريف، حيث كانت تُخزَّن حتى موسم صيد السمك القادم. وتُزال في حال هددتهم العواصف[10].

لطالما كانت السواحل الرملية، كتلك التي في لونغ آيلاند، دائمة الحركة، مترقرقة وحية. إن البوناكريين، مثل بيل ليستر، يدركون تماما طبيعة البيئة التي يسكنونها. «لا شيء سوى خط رملي صغير»، كانت تلك هي الطريقة التي وصف بها ليستر لونغ آيلند. عندما جرت مقابلته خلال سبعينيات القرن العشرين، عبر عن قلقه المسبق بشأن تبعات تطوير الشاطئ: «لايزال هناك كثير من المساحة في الغابات يمكن للناس أن يبنوا عليها. عوضا عن ذلك فقد هبط هؤلاء إلى الساحل واحتلوا رمالنا. نعم، شاطئنا الرملي. الآن وقد تجمعت الرمال قادمة من المحيط على مدى آلاف السنوات. والآن هم يمتلكون منازل كبيرة على طول الشاطئ. يجب ألا تكون هناك منازل حيث جرف البحر الرمال على مدى كل هذه السنوات»[11].



أكواخ صيد السمك على ساحل لونغ آيلاند، 1902، يظهر في الصورة القبطان جاشوا فورنيير. الصورة لهال بي. فوليرسون. الصورة مقدمة من الجمعية التاريخية لمقاطعة سفلوك.

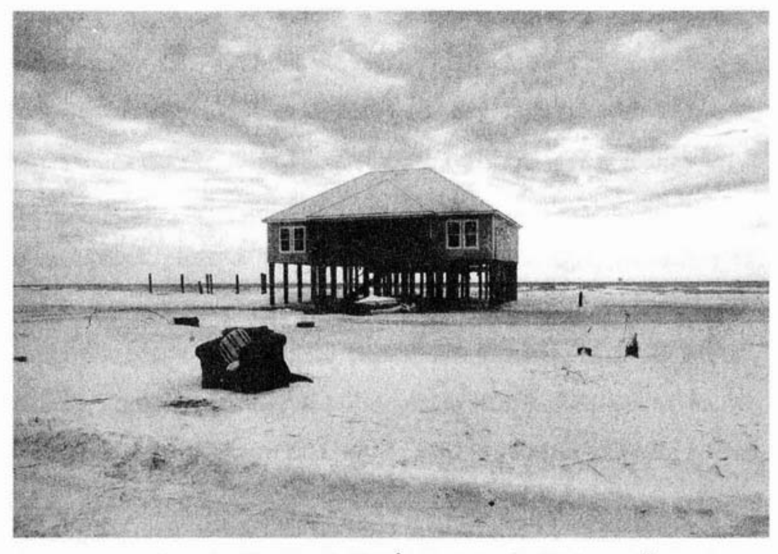
Twitter: @ketab_n

إن قطعــة الأرض الطويلــة الرملية، في الركــن الجنوبي الغــربي لكيب كود، والمعروفة باسم جزيرة مونوموي، تحكي قصة أخرى عن التكيف، في هذه الحالة قصة تراجع إستراتيجي. في أوقات ما كانت تلك شبه جزيرة، في أوقات أخرى كانت جزيرة واحدة أو جزرا متعددة. لقد كانت المكان الذي يتردد عليه الباحثون عن حطام السفن، وذلك قبل أن تجتذب صيادي السمك في العام 1710. لقد تفادى هؤلاء ميناء ريك لمصلحة منطقة باودر هول، حيث أسســوا قرية صغيرة تدعى وايتواش. في خمســينيات القرن التاسع عشر، عندما كان المدخل إلى باودر هول مسدودا بالرمال المتحركة، كان السكان إما يهجرون منازلهم، وإما كانوا ينقلونها عبر الســفن إلى الأراضي الرئيسية. لاحقا، حول المصطافون المنازل المتبقية إلى ما يخــدم أغراضهم، بيد أنه وبعد أن أصبحت مونوموي ملجأ عاما للحياة البرية في العــام 1970، هُدِمت المنازل المتبقية بعد وفاة أصحابها. اليوم، فقط مركز منارة مونوموي القديم هو المتبقي[12].

لم تكــن مثل هذه التراجعات الإســتراتيجية استســلاما للطبيعة بأي شــكل، ولكنها تكيف منطقي مع ما أســماه الهولنديــون «الذئب المائي». كانت هولندا تبني الجزر الاصطناعية منذ العصور الرومانية، لكنهم كذلك عرفوا قيمة الكثبان بوصفهــا مصدات، حيث كانوا حريصين على ألا يتعدوا عليها. وعليه، عندما قدم الهولنديون إلى أمريكا الشــمالية، في القرن الســابع عشر، فقــد أداروا ظهورهم إلى الشــواطئ الرملية للونغ آيلاند، مفضلين أن يســتقروا بجانب نهر الهدسون بــدلا من ذلك. كان شــعب الموكــن في تايلاند، المعروفون بالنســبة إلى جيرانهم بأنهم «شــعب بحري»، متناغمين بدقة مع علامات التســونامي في العام 2004، حيث تمكنوا من الهرب إلى الأراضي الداخلية في حين غرق 175 ألفا آخرون. على ســواحل بيرو وكولومبيا، تبنى قرى صيد السمك الآن على أساس إمكان تحريكها للخلف في حال تهديد الفيضانات. في ألاســكا، تفكر شعوب الإنيويت في التراجع عن الساحل، والشيء ذاته صحيح بالنسبة إلى أهالي القرى في دلتا النيجر في غرب أفريقيــا. في أكثرجزر العالم ضعفا وانكشــافا، جزر المالديــف، بدأ الناس فعليا في الانتقال إلى الأراضي المرتفعة، كما أن الحكومة تشــتري أراضي في الهند وسريلانكا تحســبا لعملية إعادة اســتيطان ضخمة. في فينيســيا التــي يهاجمها الانخفاض

Twitter: @ketab_n

والارتفاع في مســتويات البحر، حيث تســبب ذلك في جعل ميدان ســانت مارك مغمورا بالمياه على مدى ثلث الســنة، انخفضت نســبة السكان مقدما وبشكل كبير، كما أن هناك بعض الحديث عن إخلاء نهائي للمدينة. في هذه الأثناء يفكر البريطانيــون في الهجر الانتقائي لأجزاء محددة من خطهم الســاحلي، وإن أسرع خصومهم في تسمية ذلك «الخيار الاستسلامي»[13].



آثار التعرية الساحلية، جزيرة دوفين، ألاباما، نوفمبر 2005، الصورة مقدمة من Center for Land Use Interpretation، مركز مفاهيم استخدام الأراضي.

إن فكــرة المنزل القارب قديمة، على الأقل، قدم ســفينة نــوح. فكثيرا ما لجأ النــاس وحيواناتهم إلى البحــر، عندما لم يعد لهم مكان عــلى الأرض. إن عملية اســتعمار الهادي قد استمرت بهذه الطريقة، وهي مستمرة في أجزاء عديدة من آســيا اليوم. على الســاحل الغربي لأمريكا الشمالية، في القرن التاسع عشر، كانت المســاكن المؤقتة تعوم على جذوع أشــجار ضخمة، حيــث قدمت مأوى لآلاف من الحطابين. لقد اســتمرت البيوت العائمة في تقديم سكن رخيص في فانكوفر، ســياتل، بورتلاند، وخليج ســان فرانسيســكو. في أعقاب الحرب العالمية الثانية، أصبحــت تلك منتشرة بين البوهيميين والهيبيين (ســكان الميــاه بوضع اليد). في

Twitter: @ketab_n

أماكن مثل سوساليتو. ولكن بحلول العام 1970 دفعت سمعة هؤلاء، بأنهم ملوثون للمكان وقبيحو الأشكال، بالمدن - بما فيها فانكوفر - إلى إزالتهم من على واجهاتهم المائية. ومع ذلك، فإن مجتمعات بيوت القوارب المرتفعة المستوى والمجهزة بأنظمة المجاري الخاصة بها لم تستمر فقط، ولكنها ازدهرت في أماكن مثل بحيرة يونيون في سياتل ومرسى قرية البحر في فانكوفر. عندما انتقل ستانلي ودافني بيرك إلى قرية البحر في العام 1978، فإنه قدموا أسبابهم المنطقية «نحن جميعا أتينا من الماء، في النهاية، ومن المريح البقاء بقربه»[14].

يعود الناس إلى البحر بأحلام كبيرة وصغيرة. في ميناء نيويورك، بدأت تطفو فكرة وحدات السكن الصحية بيئيا والتي تدعى Waterpod أو الحجرة المائية، فيم جرى إطلاق مشروع البدائل البحرية الفخمة على الساحل الغربي. تقدم مؤسسة البدائل البحرية التي أُسست في العام 2008، من قبل متعهدي وادي السيليكون التحرريين، رؤية لجبهة محيطية لأمم سيادية عائمة فوق الماء، متحررة من قوانين كل من البحر واليابسة، أماكن يمكن فيها تجربة الأفكار الجديدة. وكونها مستوحاة من الحفارات والسفن السياحية الواقعة عبر الساحل والتي ليس بها مرافئ تعود إليها، فإن هذه البدائل البحرية ستعيش في البحر ، على الرغم من ذلك، من دون أن تكون مرتبطة به بأي صورة عدا في الموقع. تعود البدائل البحرية إلى البحر في صورة متحررين معزولين عن العامة كما عن الأراضي الرئيسية. إن هؤلاء ملهمون أكثر عن طريق آين راند(*) منهم عن طريق راتشيل كارسون(**). هم لا يدخلون إلى البحر ذهنيا ولا خياليا، فحلمهم ليس حلما بيئيا ولكنه سياسي. من معظم النواحي يبقى هؤلاء ملاك أراض[15].

تعكير المياه

ليس هناك من سفينة فسيحة بما فيه الكفاية لكي تضم المليارات من البشر الذين قد يجري تهجيرهم بسبب التعرية الساحلية والفيضانات. الذي نحتاج

(*) Ayn Rand (ت. 1982): أديبة ومفكرة أمريكية من أصل روسي، عالجت في كتاباتها فردية الإنسان، وأهمية الإدراك العقلاني للذات، باعتباره طريقا إلى الحياة الأخلاقية. [المحرر].

(**) Rachel Carson (ت. 1964): عالمة أحياء بحرية أمريكية، أسهم كتابها «الربيع الصامت» في تحفيز الحركة البيئية العالمية. [المحرر].

Twitter: @ketab_n

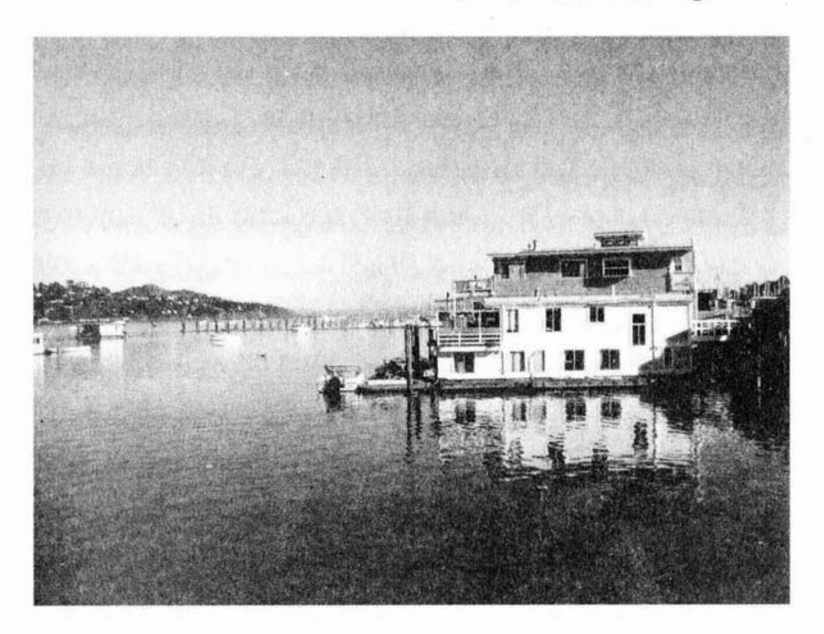
إليــه فعليا هو إعادة تفكير جوهرية، ليس فقط بشــأن كيــف نبني نحن على السـواحل ولكن لمــاذا نبني؟ لن نتمكن نحن من هندســة طريقنا للتخلص من نقــاط ضعفنــا الحالية، بيد أننا نســتطيع أن نعيد النظــر في العلاقة بين الأرض والبحر، بحيث نتفهم أن السواحل تشكل بيئة انتقالية مميزة تحتاج إلى أسلوب مختلف تماما في الحياة. إن الســواحل متحركة، وعليه يجب علينا نحن أيضا أن نتحرك من أجل البقاء. لقد كان هناك زمن كانت فيه المباني المتعلقة بالأنشــطة البحرية مباشرة هي فقط الواقعة على الســاحل، في حين أن كل المساكن الأخرى كانــت مبنية عميقــا في الأراضي الداخلية. يبدو أن الوقت قــد حان للعودة إلى هــذا المبدأ المعتدل جــدا. إنها اللحظة الصحيحة كذلك لنبــذ فكرة دفاع الخط الســاحلي، إن كان ذلك في شكل الحوائط البحرية، أو حواجز الأمواج، أو تجديد الشــواطئ، حيث يجب القبول بالدلائل العلميــة وبأن الطبيعة يمكنها أن تؤدي هذه الوظيفة نيابة عنا إن نحن فقط سمحنا لها. لقد تحركت ولاية ماين في العام 1982 لإنهاء كل بناء تسليحي على الخط الساحلي. الآن حان الوقت بالنسبة إلى الأقاليم الأخرى، حيث التعريــة أكبر، لأن تحذو حذو ماين، وتوفر المليارات من الدولارات المهدرة[16].

مــن البداية، وضعت الثقافة الغربية البحر في دور الخصم الشرير. الآن بعد أن توقفت الســواحل عن كونها خط دفاعنا الأول ضد البشر الغزاة، نواجه نحن اليــوم مجموعة جديدة من التهديدات - التســونامي، الأمواج المتوحشــة، المد الأحمــر - والتي يبدو أنهــا تبرر تدخلاتنا العنيفة. إن التنبــؤ بحالة الطقس هو عملية مملــوءة بالرموز الحربية، كما أن مقاومة تعرية الشــواطئ قد أصبحت في كل مــكان المعادل الأخلاقي للحرب. في أعقاب إعصار كاميل، في العام 1969، أخرج المسيسبيون أعلامهم الأمريكية كما لو أنهم كانوا في معركة. ليس الوضع أن الفيضانات، واندلاع العواصف ليســت تهديدات حقيقية، ولكن الوضع ينحصر، وحتى هذا الوقت، في أن العديد من وسائل الدفاع ضد هذه الظواهر قد أثبتت عدم واقعيتها[17].

لن تزودنا الهندســة بأي حلول. ليس المطلوب بأقل من عقلية جديدة تماما، نموذج ثقافي جديد، إذا ما كان لنا أن نعيش ببســاطة على سواحلنا. لزمن طويل

Twitter: @ketab_n

كنـــا نفكر في البحر والأرض على أنهما شـيئان مختلفــان، في حين أنهما، تاريخيا، يشــكلان نظاما ســاحليا حيويا واحدا. يجب أن نتوقف عن رسم الخطوط بحزم وقســوة، وأن نبدأ في ممارســة ما دعاه إيفياتار زيرو بافــل «الليونة الذهنية». نحن نحتاج إلى أن نذكر أنفســنا بأن الطبيعة – في حد ذاتها - لا ترســم خطوطا أو تخلــق فروقا حــادة. لقد حان الوقت لقبول فكــرة التدفق فيما يعني الزمن والمــكان، حيث مــن الواضــح أن كل جهودنا لتثبيت الســواحل، لكي نضعها في خرائط وجداول، هي غير مجدية. الخرائط جيدة في إظهار بعض الأشــياء، لكنها لا تستطيع تصوير التجربة الإنسانية[18].



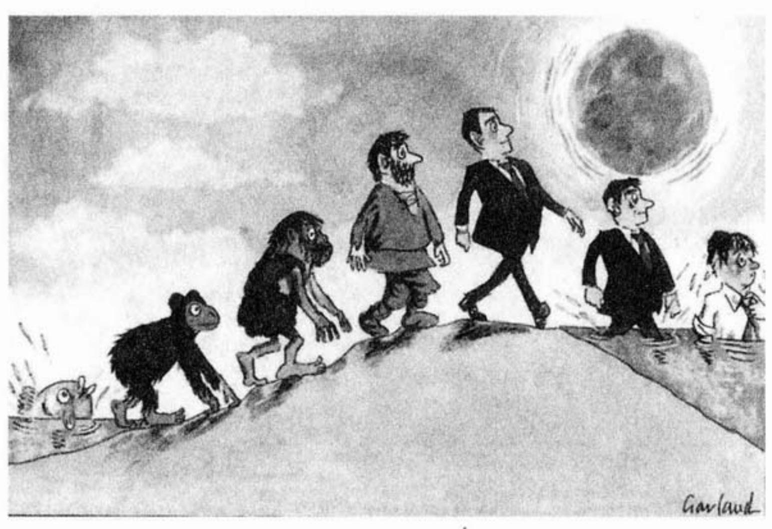
منازل قوارب في سوساليتو، كاليفورنيا، 2004. الصورة مقدمة من ويكيميديا كومونز

يجــب علينا أن نعيــد التفكير، ليس فقــط في علاقــة الأرض بالبحر، ولكن كذلــك تلك التي بين البشرية والطبيعة، بحيــث نتخلى عن الفروق التي تفصلنا عــن المخلوقات الأخرى. يذكرنا والاس كوفمان وأوريــن بيلكي بأنه «ليس هناك مصائب أو كوارث في الطبيعة»، هناك فقط الإجراءات التي هي جزء من أسلوب

Twitter: @ketab_n

الطبيعـة في عمـل التعديلات الخاصة بها. يجـب علينا أن ننتبـه إلى النصيحة المقدمة من فرانسـيس بيكون منذ تقريبا 400 سنة: «لكي تحكم الطبيعة يجب أن تطيعها»[19].

كـما رأينا، هناك مقدار كبير من الخوف وليـس التفهم هو ما يجري تركيزه عـلى البحر ومخلوقاته. نحن نتحدث عن أجناس عدوانية، في حين أننا نحن من خلـق الظروف الملائمة لها لتنمـو في الأماكن التي يود أن يعيش فيها الإنسـان. فمثـل الذئب وأسـد الجبل، يُنظر اليوم إلى أسـماك القرش عـلى أنها غازية، في حـين أن البشر هم الذين يتعـدون على مناطقهم. على بعض السـواحل، جرى إعـلان الطحالب البحرية على أنها عدو، وذلك عن طريق هؤلاء الذين يفضلون شـواطئهم نظيفة وخالية من كل شـوائب، في حين أنه في الحقيقة، وعلى مدى قرنـين من الزمان، كانـت الأرض هي المتعدية على الميـاه؛ مما أدى إلى حدوث تلوث وتعرية ضخمين وغير مسـبوقين. لربما حـان الوقت للدعوة إلى هدنة بين الأرض والماء، بين أنفسنا والطبيعة.



تطور الإنسان The Evolution of Man، رسوم متحركة لنيكولاس غارلاند، 2009.

الصورة مقدمة من الفنان ومجموعة الأعلام البرقية

Twitter: @ketab_n

إن الخطوة الأولى في هذه العملية هي استيعاب أن الأرض والماء ليسا متضادين ولكنهما جزءان لا يفترقان من البيئات الانتقالية المتواصلة، خاصة على طول الساحل. يجب علينا أن نتخلى عن اعتقادنا «أزرق - الماء» التقليدي بأن المحيطات كينونات أولية أبدية، ونبدأ في تبني ما يمكن تسميته الفهم «البني - المياه» للطبيعة المهجنة، الحيوية لعوالمنا الساحلية المائية. فقط بعد أن عكرنا المياه بعض الشيء نستطيع الآن أن نبدأ في تمييز الطبيعة السائلة لما أخطأنا فهمه على أنه أرض صلبة. وبمجرد أن ندرك أن الرياح، الأرض، والمياه كلها جزء من نظام حيوي تعد البشرية جزءا منه، فإننا سنتفهم بشكل أفضل، ليس فقط كوكبنا الأرضي المائي terraqueous planet، ولكن كذلك أنفسنا.

Twitter: @ketab_n

الهوامش

Twitter: @ketab_n



Twitter: @ketab_n

المقدمة

(1) John A. Murray, introduction to The Seacoast Reader, ed. John A. Murray (New York: Lyons, 1999), xvii.

(2) Kristin M. Crossett et al., Population Trends along the Coastal United States, 1980–2009 (Washington, DC: National Oceanic and Atmospheric Administration, 2004); Don Hinrichsen, Coastal Waters of the World: Trends, Threats, and Strategies (Washington, DC: Island Press, 1998).

(3) John R. Gillis, "Being Coastal," California Coast and Ocean 23, no 1 (2007): 10–15.

(4) Rachel L. Carson, the Sea around Us (New York: Oxford University Press, 1951), 15.

(5) Ruth Moore, "The Offshore Islands," in The Tired Apple Tree: Poems and Ballads (Noble- boro, ME: Blackberry Books), 1990.

(6) John Gillis, "Filling the Blue Hole in Environmental History," in The Future of Environmen- tal History: Needs and Opportunities, ed. Kimberly Coulter and Christof Mauch (Munich: Rachel Carson Center for Environment and Society, 2011), 16–18.

(7) للتمييز بين «العيش في» في مقابل «العيش على»، انظر:

Owe Ronstrom, "In or On? Island Words, Island Worlds, II," Island Studies Journal 6, no. 2 (2011): 277–44.

(8) James Hamilton-Paterson, Seven-Tenths: The Sea and Its Thresholds (New York: Europa Edi- tions, 2009), 23; Rachel L. Carson, The Edge of the Sea (Boston: Houghton Mifflin, 1998), 1.

الفصل الأول

(1) Rebecca Solnit, "Seashell to Ear," in Unraveling the Ripple, ed. Helen Douglas (Edinburgh: Pocketbooks, 2001), n.p.

(2) Eric Leed, The Mind of the Traveler: From Gilgamesh to Global Tourism (New York: Basic Books, 1991), 19; A Dictionary of Creation Myths, ed. David Leeming and Margaret Fleming (New York: Oxford University Press, 1995), 99; Max Oelschlaeger, The Idea of Wilderness: From Prehistory to the Age of Ecology (New Haven, CT: Yale University Press, 1991), 45–46; Christopher Connery, "There Was No

Twitter: @ketab_n

More Sea: The Suppression of the Oceans, from Bible to Cyberspace," Journal of Geographical History 32 (2006): 495–505.

(3) Dictionary of Creation Myths, 93–94, 111.

(4) Hugh Brody, the Other Side of Eden: Hunters, Farmers, and the Shaping of the World (New York: Free Press, 1994), 86, 13–14.

(5) Zygmunt Bauman, Liquid Times: Living in an Age of Uncertainty (Cambridge, UK: Pol-ity, 2007), 98–99; Steve Mentz, At the Bottom of Shakespeare's Ocean (London: Continuum, 2009), 98.

(6) هذه والاقتباسات اللاحقة من:

Robert Alter, Genesis: Translation and Commentary (New York: W. W. Norton), 1996.

(7) Alain Corbin, Lure of the Sea: The Discovery of the Seaside in the Western World, 1750–1840 (Berkeley: University of California Press, 1994), 2, 5.

(8) Brody, Other Side of Eden, 97.

(9) Ibid., 118–23; also David Christian, Maps of Time: An Introduction to Big History (Berkeley: University of California Press, 2004), 181–91.

(10) Alan Dundes, "The Flood as Male Myth of Creation," in The Flood Myth, ed. A. Dundes (Berkeley: University of California Press, 1988), 167–82: W. H. Auden, The Enchafed Sea, or The Romantic Iconography of the Sea (New York: Random House, 1950), 45.

(11) Samuel Eliot Morison, "The Ancients and the Sea," in his Spring Tides (Boston: Houghton Mifflin, 1965), 45; Auden, Enchafed Sea.

(12) John R. Gillis, Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World (New York: Palgrave/Macmillan, 2004), chaps 1–5.

(13) Helen M. Rozwadowski, Fathoming the Ocean: The Discovery and Explanation of the Deep Sea (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2005), chap. 1; Gisli Palsson, Coastal Economics, Cultural Accounts: Human Ecology and Icelandic Discourse (Manchester: Manchester University Press, 1991), 97–101.

(14) Gillis, Islands of the Mind, 10–16; Francis Pryor, Stonehenge: A Quest for Life and Death in Bronze Age Britain (London: Harper Perennial, 2008), 13.

Twitter: @ketab_n

(15) Steven Mithin, After the Ice: A Global Human History 20,000–5000 BC (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2004), 3; Max Uhle, the Emeryville Shellmound, University of California Archaeology and Ethnology 7, no. 1 (Berkeley: University of California Press, 1907), 31.

(16) David Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers: Ecology and Prehistory," Current Antropology 21, no. 6 (December 1980): 734; Douglas J. Kennett, The Island Chumash: Behavioral Ecology in a Maritime Society (Berkeley: University of California Press, 2005); chap. 8; Jon M. Erlandson, "The Archaeology of Aquatic Adaptations: Paradigms for a New Millennium," Journal of Archaeological Research 9, no. 4 (December 2001): 738.

(17) انظر:

David R. Harris, "The Farther Reaches of Human Time': Retrospect on Carl Sauer as Prehistorian," Geographical Review 92 (2002): 526–44; Carl Sauer, Agricultural Origins and Dispersals (New York: American Geographical Society, 1952), 23–28, 96; Gisli Palsson, "Hunters and Gatherers," in History, Evolution and Social Change, ed. T. Ingold, D. Richer, and J. Woodburne (Oxford: Berg, 1988), 203; Roy Ellen, "Modes of Subsistence: Hunting and Gathering in Agriculture and Pastoralism," in Companion Encylopedia of An- thropology, ed. Tim Ingold '(London: Routledge, 1994), 206; Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers," 727.

(18) Tom Koppel, Lost World: Rewriting Prehistory (New York: Atria Books, 2003), 121; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptions," 287–88, 304–5.

(19) Alister Hardy, "Was Man More Aquatic in the Past," New Scientist 7 (April 1960): 642–45.

(20) عندمـا نشر في العـام 1982، كان كتاب كاتبة العلوم النسـوية إلين مورجان شـديد الرواج بين العامـة، غير أنه تلقى نقدا لاذعا من علماء علم الإنسـان، وذلك لتوسعه في نظرية هاردي.

The Aquatic Ape (New York: Stein and Day, 1982), 21; Richard Ellis, introduction to Aquagenesis: The Origins and Evolution of Life in the Sea (New York: Viking), 2001.

(21) تواصل شخصي مع البروفيسور مايكل ويليامز، المؤرخ لساور أكتوبر،

Sauer, Agricultural Origins and Dispersalsm, October 28, 2008.

Twitter: @ketab_n

(22) Carl O. Sauer, "Seashore—Primitive Home of Man," in Land and Life: A Selection from the Writings of Carl Ortwin Sauer (Berkeley: University of California Press, 1963), 309.

(23) Ibid., 311.

(24) Rachel Carson, the Sea around Us (New York: Oxford University Press, 1951), 14–15.

(25) Palsson, Coastal Economics, 64–66; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 294–305.

(26) يمكن تتبع مصير النظرية في:

"Aquatic Ape Hypothesis," http:/en.wikipedia.org/wiki/Aquatic_ape_hypothesis; also Simon Bearder. "Flood Brothers," BBC Wildlife 18, no. 6 (June 2000): 64–68;

الاستثناء هو في عمل فيليب ك. ستينبيرغ

The Social Construction of the Ocean (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2001); Palsson, Coastal Economics, 64–65; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 294–95.

(27) Spencer Wells, the Journey of Man: A Genetic Odyssey (New York: Random House), 2002.

(28) Ian Tattersall, The World from Beginnings to 4000 BCE (New York: Oxford University Press, 2008), chaps 4–5; Wells, Journey of Man, 47.

(29) Richard Forman and Michael Gordon, Landscape Ecology (New York: John Wiley and Sons, 1986), 497: Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 302.

(30) Michael A. Crawford, "A Role for Lips as Determinant of Evolution and Hominid Brain De- velopment," in Polyunsaturated Fatty Acids: Neural Foundation and Mental Health, ed. Ole G. Mouritsen and Michael M. Crawford (Copenhagen: Royal Danish Academy of Sciences and Letters, 2007), 7–32; Rowan Jacobsen, the Living Shore: Rediscovering a Lost World (New York: Bloomsbury, 2009), 117.

(31) Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 289, 293, 331.

(32) Simon Winchester, Atlantic: Great Sea Battles, Heroic Discoveries, Titanic Storms, and a Vast Ocean with a Million Stories (New York: HarperCollins, 2010), 56–59.

Twitter: @ketab_n

(33) Curtis W. Marean et al., "Early Human Use of Marine Resources and Pigment in South Af- rica during the Middle Pleistocene," Nature 449 (2007): 905–8. Curtis W. Manean, "The African Evidence for the Origins of Modern Human Behavior," Nobel Lecture, Gustavus Augustus College, 2008, https://gustavus.edu/events/nobelconference/2008/marean-lecture.php.

(34) Robert Walker et al., "Early Human Occupants of the Red Sea Coast of Eritrea during the Last Interglacial," Nature 405 (May 4, 2000): 65–69: Marean, "African Evidence."

(35) Wells, Journey of Man, 99:

تشير الأبحاث الأخيرة حول اكتشافات الأدوات الصخرية المؤرخة إلى 127 ألف سنة مضت في شبه الجزيرة العربية إلى أن بعض كائنات الهوموسابيان لربما قد انطلقوا لمسافة أبعد من منطقة الشرق قبل أن يختفوا من الحياة.

"Findings Hint at Early Exit for Humans from Africa," New York Times, January 28, 2011, A4.

(36) Walker et al., "Early Human Occupants of the Red Sea Coast," 69: Nicolas Wade, Before the Dawn: Recovering the Lost History of Our Ancestors (New York: Penguin, 2009), chap. 5; Wells, Journey of Man, 80.

(37) Wells, Journey of Man, 68–76; Jacobsen, Living World, 108; Koppel, Lost World, xiii–xiv; Jon

M. Erlandson et al., "The Kelp Highway Hypothesis: Marine Ecology, the Coastal Migration Theory, and the Peopling of the Americas," Journal of Island and Coastal Archaeology 2 (2007): 161–74.

(38) Jacobsen, Living World, 113–15.

(39) Robert Van de Noort and Aidan O'Sullivan, Rethinking Wetland Archaeology (London: Duckworth, 2006), chaps. 2–3; Brian M. Fagan, Ancient North America: The Archaeology of a Continent (London: Thames and Hudson, 1991), 72–73; Erlandson et al., "Kelp Highway," 170–71.

(40) Jacobsen, Living World, 96–97; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 296–98.

(41) Jacobsen, Living World, 96–97: Palsson, Coastal Economics, 52–53.

Twitter: @ketab_n

(42) William J. Mitsch and James Gosselink, Wetlands, 3rd ed. (New York: John Wiley, 2000), 3; Karin Sanders, Bodies in the Bog and the Archaeological Imagination (Chicago: University of Chicago Press), 2009.

(43) Bryony Coles and John Coles, People of the Wetlands: Bogs, Bodies, and Lake Dwellers (London: Thames and Hudson, 1989), chap. 2; Van de Noort and O'Sullivan, introduction to Rethinking Wetland Archaeology; V. Gaffney, S. Fitch, and D. Smith, Europe's Lost World: The Rediscovery of Doggerland (York, UK: Council for British Archaeology, 2009), 135–38.

(44) Gaffney, Fitch, and Smith, Europe's Lost World, 66; Erlandson, "Archaeology of Aquatic Ad- aptations," 304.

(45) Grahame Clark, Starr Carr: A Case Study in Bioarchaeology (Reading, MA: Addison Wesley), 1972.

(46) Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers," 728; Kennett, Island Chumash, 15.

(47) Ibid.

(48) Dorothy B. Vitaliano, Legends of the Earth: Their Geologic Origins (Bloomington: Indiana University Press, 1973), chap. 7; Nancy J. Turner, Iaian J. Davidson-Hunt, and Michael O'Flaherty, "Living on the Edge: Ecological and Cultural Edges as Sources of Diversity for Social-Ecological Resilience," Human Ecology 31, no. 2 (September, 2001): 454–55; Van de Noort and O'Sullivan, Rethinking Wetland Archaeology, 70–75; Tony Pollard, "Time and Tide: Coastal Environments, Cosmology and Ritual Practice in Early Prehistoric Scotland," in The Early Prehistory of Scotland, ed. Tony Pollard and Alexi Morrison (Edinburgh: Edin- burgh University Press, 1996), 198–210.

(49) Dieter Gerten, "How Water Transcends Religion and Epochs: Hydrolatry in Early European Religion and Christian Syncretism," in A History of Water, ser. 2, vol. 1, ed. Terje Tvedt and Terje Oestigaard (London: I. B. Tauris, 2010), 323–42; Van de Noort and O'Sullivan, Rethinking Wetland Archaeology, chap. 2; Sanders, Bodies in the Bog.

(50) Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 332.

(51) Turner, Davidson-Hunt, and O'Flaherty, "Living on the Edge," 454–55.

Twitter: @ketab_n

(52) Erlandson, "Archaeology of Aquatic Adaptations," 323–34; Koppel, Lost World, 11, 213, 256; Jacobsen, Living Shore, 107–9; Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers," 453–57, 727.

(53) John Noble Wilford, "On Crete, New Evidence of Very Ancient Mariners," New York Times, February 16, 2010, D1; Christian, Maps of Time, 181.

(54) Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers," 730.

(55) Mitsch and Gosselink, Wetlands, chaps. 1. 3; Van de Noort and O'Sullivan, Rethinking Wet- land Archaeology, 36: Kennett, Island Chumash, chap. 2; Jacobsen, Living Shore, 42–47; Yesner, "Maritime Hunter-Gatherers," 734; Barry Cunliffe, Europe between the Oceans: Themes and Variations, 9000 BC–AD 1000 (New Haven, CT: Yale University Press, 2008), 62–70.

(56) Cunliffe, Europe between the Oceans, 71, 272–30.

(57) Christian, Maps of Time, 185–87.

(58) Jacobsen, Living Shore, 98, 110.

(59) Cunliffe, Europe between the Oceans, 71; Palsson, "Hunters and Gatherers," 198–202.

(60) Kennett, Island Chumash, 24, and chap. 5; Ellen, "Modes of Subsistence," 205–6.

(61) Cunliffe, Europe between the Oceans, 89–139; Van de Noort and O'Sullivan, Rethinking Wetland Archaeology, 76, 99.

(62) Anna Ritchie, "The First Settlers," in The Prehistory of Orkney, ed. Colin Renfrew (Edin- burgh: Edinburgh University Press, 1985), 52; Pollard, "Time and Tide," 203–6.

(63) V. Gordon Childe, Skara Brae: A Pictish Village in Orkney (London: Kegan Paul, French, Trubner, 1931), 2; D. V. Clarke and Niall Sarples, "Settlement of Subsistence in the Third Millenium BC," in The Prehistory of Orkney, ed. Colin Renfrew (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1985), 81, 184.

(64) David Clarke and Patrick Maguire, Skara Brae: Northern Europe's Best Preserved Neolithic Village (Edinburgh: Historic Scotland, 2000), 27–29.

(65) Robert Tignor et al., Worlds Together, Worlds Apart: A History of the World (New York:W. W. Norton, 2008), 1:20; Jacobsen, Living Shore, 128.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

(1) Plato, Phaedo, trans. David Gallop (Oxford: Clarendon, 1975), 108c.

(2) Fernand Braudel, the Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II (New York: Harper and Row, 1972), 1:103.

(3) Rachel L. Carson, the Sea around Us (New York: Oxford University Press, 1951), 3.

(4) Jonathan Raban, Coasting: A Private Voyage (New York: Penguin, 1988), 25.

(5) Felipe Fernandez-Armesto, Civilizations: Culture, Ambition, and the Transformation of Nature (New York: Free Press, 2001), chap. 7; Peregrine Horden and Nicholas Prucess, "The Mediterranean and 'the New Thalassocracy,'" American Historical Review 111, no. 3 (June 2006): 722–40.

يمكن الاطلاع كذلك على المعلومات عن الإمبراطورية البحرية في «ويكيبيديا»:

http://en.wikipedia.org/wiki/

(6) Fernandez-Armesto, Civilizations, 412.

(7) Michael Pearson, the Indian Ocean (London: Routledge, 2003), 3.

(8) Robert Walker et al., "Early Human Occupation of the Red Sea Coast of Eritrea dur-ing the Last Interglacial," Nature 405 (May 4, 2000): 65–69; Ian Tattersall, The World from Beginnings to 4000 BCE (New York: Oxford University Press, 2008), 56, 67, 91; Rainer Buschmann, Oceans in World History (Boston: McGraw-Hill, 2007), 12–14.

(9) Pearson, Indian Ocean, 50–51.

(10) Ibid., 47; K. N. Chauduri, Trade and Civilization in the Indian Ocean: An Economic History from Islam to 1750 (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), 14–15; Michael Pearson, "Emulating the Mudskipper [Periophthalmus kroelreuteri]: Toward an Amphibious History," paper delivered at the meetings of the American Historical Association, San Diego, January 10, 2010, ms. 11–12.

(11) Pearson, Indian Ocean, 60.

(12) Ibid, 62.

(13) Nola Cooke and Lia Tana, eds., Water Frontier: Commerce and the Chinese in the Lower Mekong Region, 1750–1880 (London: Rowman and Littlefield, 2004), 1–17.

Twitter: @ketab_n

(14) Buschmann, Oceans in World History, 76–77.

(15) Nicholas Wade, Before the Dawn: Recovering the Lost History of Our Ancestors (New York: Penguin, 2006), 74–75.

(16) Patrick D. Nunn, Vanished Islands and Hidden Continents of the Pacific (Honolulu: University of Hawaii Press, 2009), v.

(17) Walter Grainge White, the Sea Gypsies of Malaya (Philadelphia: Lippincott, 1922), 58–60; Wade, Before the Dawn, 74–75.

(18) Astrid Lindenlauf, "The Sea as a Place of No Return in Ancient Greece," World Archaeol- ogy 35, no. 3 (2003): 421; Barry Cunliffe, Europe between the Oceans: Themes and Varations, 8000 BC–AD 1000 (New Haven, CT: Yale University Press, 2008), 61.

(19) David Abulafia, introduction to The Great Sea: A Human History of the Mediterranean (Oxford: Oxford University Press, 2011); Peregrine Horden and Nicholas Purcell, The Cor- rupting Sea: A Study of Mediterranean History (Oxford: Blackwell, 2000), 133; Lindenlauf, "Sea as a Place of No Return," 417.

(20) H. C. Darby, "The Medieval Sea-State," Scottish Geographical Magazine 48, no. 3 (May 16, 1932): 136, 146.

(21) Fernandez-Armesto, Civilizations, 384; Pedrag Matvejevic, Mediterranean: A Cultural Landscape (Berkeley: University of California Press, 1990), 7, 10–11; Jonathan Raban, Passage to Juneau: A Sea and Its Meanings (New York: Vintage, 1999), 95, 106.

(22) Horden and Purcell, Corrupting Sea, 11, 133; Tim Ingold, Lines: A Brief History (London: Routledge, 2007), 76–9, 152; John R. Gillis, Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World (New York: Palgrave Macmillan, 2004), 61–64.

(23) Ingold, Lines, 76–79, 152.

(24) Margaret Deacon, Scientists and the Sea, 1650–1900: A Study in Marine Science (London: Academic Press, 1971), 11.

(25) Braudel, the Mediterranean and the Mediterranean World, 161.

(26) Ibid., 109–15.

(27) Cunliffe, Europe between the Oceans, 89–99; 270–76; Horden and Purcell, Corrupting Sea, 134.

Twitter: @ketab_n

(28) Herodotus, quoted in Wolfgang Rudolf, Harbor and Town: A Maritime Cultural History (Erfurt, Germany: Edition Leipzig, 1980), 9;

أَدين بهذه الفكرة إلى مايكل بيرسون.

(29) Quoted from Plato's Laws, 4, cited in Steven Mentz, "Toward a Blue Cultural Studies: The Sea, Maritime Culture, and Early Modern English Literature," Literature Compass 6, no. 5 (2009): 998; Lindenlauf, "Sea as a Place of No Return," 416–33; Wallace Kaufman and Orrin H. Pilkey, the Beaches Are Moving: The Drowning of America's Shoreline (Durham, NC: Duke University Press, 1983), 152; Rudolf, Harbor and Town, 23–26.

(30) Robert D. Foulke, "Odysseus's Oar: Archetype of Voyaging," in Maritime History as World History, ed. Daniel Finamore (Gainesville: University Press of Florida, 2004), 184; Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean World, 104; Alain Corbin, The Lure of the Sea: The Discovery of the Seaside in the Western World, 1750–1840 (Berkeley: University of Cali- fornia Press, 1994), 12.

(31) Denis Cosgrove, "Island Passages," in Bridging Islands: The Impact of Fixed Links. ed. G. Baldacchino (Charlottetown, PEI, Canada: Acorn, 2007), 17–19: on the notion of "inside- out" geography, see Horden and Purcell, Corrupting Sea, 133.

(32) Braudel, the Mediterranean and the Mediterranean World, 115–26: on varieties of Mediterranean peninsulas, see Matvejevic, Mediterranean, 20–21.

(33) انظر:

archipelago في Oxford English Dictionary.

(34) Gillis, Islands of the Mind, chaps. 3, 5.

(35) Ibid., 9, and chaps. 3, 5; Horden and Purcell, Corrupting Sea, 134; Cosgrove, "Island Pas- sages," 20–21.

(36) Braudel, the Mediterranean and the Mediterranean World, 160–61; Cunliffe, Europe between the Oceans, 3–5.

(37) Horden and Purcell, Corrupting Sea, 11.

(38) Cunliffe, Europe between the Oceans, chaps 3–5.

(39) Christopher Connery, "There Was No More Sea: The Suppression of the Ocean, from Bible to Cyberspace," Journal of Geographical History

Twitter: @ketab_n

32 (2006): 499–506; quote from Hesiod from Samuel Eliot Morison, The European Discovery of America: The Northern Voyages, A.D. 500–1600 (New York: Oxford University Press, 1992), 4.

(40) Matvejevic, Mediterranean, 17; Cunliffe, Europe between the Oceans, 258–64; Francis Pryor, Seahenge: A Quest for Life and Death in Bronze Age Britain (London: Harper Perennial, 2001), 140, 214; Cunliffe, Facing the Ocean, 10.

(41) Alan Villiers, The Western Ocean: The Story of the North Atlantic (London: Museum Press, 1957), 13; Cunliffe, Europe between the Oceans, 31, 38; Michal Mollet de Jourdon, Europe and the Sea (Oxford: Blackwell, 1993), 4; V. Gaffney, S. Fitch, and D. Smith, Europe's Lost World: The Rediscovery of Doggerland (York, UK: Council for British Archaeology, 2009).

(42) David Kirby and Merja-Liisa Hinkanen, The Baltic and the North Sea (London: Routledge, 2000), 28–30; Cunliffe, Facing the Ocean, 31, 48; Cunliffe, Europe between the Oceans, 72–80.

(43) Cunliffe, Europe between the Oceans, 138–39; Cunliffe, Facing the Ocean, 17, 136–38: Pryor, Seahenge, 68–69.

(44) Cunliffe, Facing the Ocean, 29–31, 138.

(45) Kirby and Hinkanen, the Baltic and the North Sea, 23.

(46) Cunliffe, Facing the Ocean, 34–35; Jonathan M. Wooding, Communications and Com- merce along Western Sealanes (Oxford: Tempvs Repartivm, 1996): Nils Stora, "Landscape, Territory, Autonomy, and Regional Identity: The Aland Islands in Cultural Perspective," in Nordic Landscapes: Region and Belonging on the Northern edge of Europe, ed. Michael Jones and Kenneth Olwig (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2008), 446; Darby, "Medieval Sea-State," 139.

(47) Darby, "Medieval Sea-State," 148–49; Lauren Burton, A Search for Sovereignty: Law and Geography in European Empires, 1400–1900 (Cambridge: Cambridge University Press, 2010), chaps 1, 3.

(48) Cunliffe, Europe between the Oceans 56; Gillis, Islands of the Mind, 47–51.

(49) Christian Buchet, The Eternal Sea (New York: Abrams, 2006), 9: Cunliffe, Facing the Ocean, 9.

Twitter: @ketab_n

(50) Lindenlauf, "Sea as a Place of No Return," 421; Karin Sanders, Bodies in the Bog and the Archaeological Imagination (Chicago: University of Chicago Press, 2009): Robert van de Noorte, "An Ancient Seascape: The Social Context of Seafaring in the Early Bronze Age," World Archaeology 35, no. 3 (2003): 404–15; Gillis, Islands of the Mind, 40: Paul Rainbird, "Islands of Time: Toward a Critique of Island Archaeology," Journal of Mediterranean Archaeology 12, no. 2 (1999): 216–34: Matvejevic, Mediterranean, 17.

(51) Matvejevic, Mediterranean, 17; Cunliffe, Facing the Ocean, 30–32; David Thomson, The People of the Sea: A Journey in Search of the Seal Legend (London: Barrie and Rockliffe, 1965); also "Selkie," http://en.wikipedia.org/wiki/Selkie.

(52) Dorothy Dinnerstein, The Mermaid and the Minotaur: Sexual Arrangements and Human Malaise (New York: Harper and Row, 1976), 2; Christer Westerdahl, "Seal on Land, Elk at Sea: The Ritual Landscape at the Seaboard," International Journal of Nautical Archaeology 34, no. 1 (2005): 2–23.

(53) Richard Ellis, Monsters of the Sea (New York: Alfred A. Knopf, 1995), 375; Yi-Fu Tuan, Landscapes of Fear (New York: Pantheon, 1979), 10; Corbin, Lure of the Sea, chap. 1.

(54) Ellis, Monsters of the Sea, 77–107, 372–76; Harriet Ritvo, The Platypus and the Mermaid and Other Figments of Classifying Imagination (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997), 89, 183.

(55) Colin Renfrew, Prehistory: The Making of the Human Mind (New York: Modern Library, 2009), 120–33; Paul Rainbird, The Archaeology of Islands (Cambridge: Cambridge Univer- sity Press, 2007), 12–15; Curtis Marean et al., "Early Human Use of Marine Resources and Pigment in South Africa during the Middle Pleistocene," Nature 449 (October 18, 2007): 905–8; Cunliffe, Facing the Ocean, 31, 362; Gillis, Islands of the Mind, 28.

(56) Charles Westin, "The Region and Its Landscapes," in The Baltic Sea Region: Cultures, Poli- tics, Societies, ed. Eitold Maciejewski (Uppsala, Sweden: Baltic University Press, 2002), 137–34; Zbigniew Kobylinski, "Ships, Society, Symbols, and Archaeologists,"in The Ship: A Symbol of Prehisoric and Medieval Scandinavia, ed. Ole Crumlin-Pederson and Birgitte Murch Thye (Copenhagen: National Museum, 1995),

Twitter: @ketab_n

9–18; Chris Ballard et al., "The Ship as Symbol in the Prehistory of Scandinavia and Southeast Asia," World Archaeology 35, no. 3 (2003): 385–403; Gunilla Larsson, Ship and Society: Maritime Ideology in Late Iron Age Sweden (Uppsala, Sweden: Department of Archaeology and Ancient History, 2007), 382.

(57) Larsson, Ship and Society, 254–57, 296–98.

(58) Dan Carlsson, "Harbors and Farms on Gotland," in Europeans or Not: Local Level Srategies on the Baltic Rim, ed. Nils Blankrist and Sven-Olaf Lindquist (Visby, Sweden: Centre for Baltic Studies, 1998), 115–21; in Vikings: The North Atlantic Saga, ed. William Fitzhugh and Elizabeth Ward (Washington, DC: Smithsonian, 2000), chap. 2.

(59) Kirsten Hastrup, "Icelandic Topography and Sense of Identity," in Nordic Landscapes: Re- gion and Belonging on the Northern Edge of Europe, ed. Michael Jones and Kenneth Olwig (Minneapolis: Minnesota University Press, 2008), 55; Simon Winchester, Atlantic: Great Sea Battles, Heroic Discoveries, Titanic Storms, and a Vast Ocean of a Million Stories (New York: HarperCollins, 2010), 79.

(60) مقتبسة في Magnus Magnusson and Hermann Pälsson، مقدمة لكتاب:

The Vinland Sagas: The Norse Discovery of America (London: Penguin, 1965), 15.

(61) Hastrup, "Icelandic Topography and Sense of Identity," 59.

(62) Ibid.; on this process, see James Hamilton-Paterson, The Great Deep: The Sea and Its Thresh- olds (New York: Random House, 1992), 67.

الفصل الثالث

(1) T.S. Eliot, "The Dry Salvages," The Four Quartets (New York: Harcourt, Brace and Jovano- vich, 1943), 36.

(2) The concept of "rimland" is Felipe Fernandez-Armesto's. See his Civilizations: Culture, Am- bition, and the Transformation of Nature (New York: Free Press, 2001), 309–15.

(3) Robert J. Hoeksema, Designed for Dry Feet: Flood Protection and Land Restoration in the Netherlands (Reston, VA: American Society of Civil Engineers, 2006), chap. 1; Basil B. Cracknell, Outrageous Waves: Global Warming and Coastal Change in Britain through Two

Twitter: @ketab_n

Thousand Years (Chichester, UK: Phillimore, 2005), preface; David Kirby and Meja-Liisa Hinkkanen, The Baltic and the North Sea (New York: Routledge, 2000), 24; Hubert Lamb, Historic Storms of the North Sea, British Isles, and Northwest Europe (Cambridge: Cambridge University Press, 1991), 17.

(4) V. Gordon Childe, Ancient dwellings at Skara Brae (Edinburgh: Her Majesty's Stationery Office, 1950), 6–7; Lamb, Historic Storms, 19–20; Kirby and Hinkanen, The Baltic and the North Sea, 25.

(5) Hans Meyer, City and Port: Urban Planning as a Cultural Venture in London, Barcelona, New York, and Rotterdam (Rotterdam: International Books, 1999).

(6) Kirby and Hinkanen, The Baltic and the North Sea, 24: Hoeksema, Designed for Dry Feet, 10–11.

(7) من توصيف للعام 1610 مقتبس في H. C. Darby, The Draining of the Fens (Cambridge: Cambridge University Press, 1956)، أنظر كذلك كتاب:

Robert Van de Noort and Aidan O'Sullivan, Rethinking Wetland Archaeology (London: Duckworth, 2006), 77–78.

(8) Darby, Draining of the Fens, 56, 90.

(9) Van de Noort and O'Sullivan, Rethinking Wetland Archaeology, 78; Young in 1799, quoted in Darby, Draining of the Fens, 154; Patrick Sutherland and Adam Nicolson, Wetland: Life in the Somerset Levels (London: Michael Joseph, 1986), 7–8. In the Fenlands, the Isle of Ely

تقدم مثال آخر للشيء ذاته.

(10) Sutherland and Nicolson, Wetland, 23; Wolfgang Rudolph, Harbor and Town: A Maritime Culural History (Erfurt, Germany: Edition Leipzig, 1980), 12–14.

(11) Barry Cunliffe, Facing the Ocean: The Atlantic and Its Peoples, 8000 BC–AD 1500 (New York: Oxford University Press, 2001), 553.

(12) John Dyson, Business in Great Waters: The Story of British Fishermen (London: Angus and Robertson, 1978), 35–41; Bonnie McCay, "The Culture of Commoners: Historical Observa- tion on Old and New World Fisheries," in The Question of the Commons: The Culture and Ecology of Communal Resources, ed. B. McCay and James Acheson (Tucson: University of Arizona Press, 1987), 196–201.

Twitter: @ketab_n

(13) Cunliffe, Facing the Ocean, 543; John R. Gillis, Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World (New York: Palgrave Macmillan, 2004), 27–28: Kirby and Hinkanen, The Baltic and the North Sea, 59.

(14) Orvar Loefgren, "From Peasant Fishing to Industrial Trawling: A Comparative Discussion of Modernization Processes in some Northern Atlantic Regions," in Modernization and Marine Fisheries Policy, ed. John Maolo and Michael Orband (Ann Arbor, MI: Ann Arbor Science, 1982), 154; Liv Schei and Gunnie Moberg, The Orkney Story (London: n.p., 1985), 147; Harold Fox, The Evolution of the Fishing Village (Oxford: Leopard's Head Press, 2001), chaps 2–3.

(15) Fox, Evolution of the Fishing Village, 35.

(16) Ibid.; Loefgren, "From Peasant Fishing to Industrial Trawling," 155–76; M. A. Herubel, Peches maritimes (Paris, 1911), quoted in Harold A. Innis, The Cod Fisheries: The History of an International Economy, rev. ed. (Toronto: University of Toronto Press, 1978), 494.

(17) Steve Higgonson and Tony Wailey, Edgy Cities (Liverpool: Northern Lights, 2006), 68; Paul Thompson, Tony Wailey, and Trevor Lummis, Living the Fishing (London: Routledge and Kegan Paul, 1983), 12–13.

(18) Gisli Palsson, Coastal Economies, Cultural Accounts: Human Ecology and Icelandic Dis- course (Manchester: Manchester University Press, 1991), 29–31; Kirby and Hinkanen, The Baltic and the North Sea, 186–87; John R. Gillis, Youth and History: Tradition and Change in European Age Relations, 1770–Present (New York: Academic Press, 1974), chap. 1.

(19) Thompson, Wailey, and Lummis, Living the Fishing, 4–14; W. Jeffrey Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History: Maritime Communities and Marine Ecology in the Northwest Atlantic, 1500–1800," American Historical Review 113, no. 1 (February 2008): 46.

(20) Richard C. Hoffmann, "Economic Development and Aquatic Ecosystems in Medieval Eu- rope," American Historical Review 101, no. 3 (June 1996): 633; on evidence of recreational fishing, see Richard Hoffmann, Fisher's Craft and Lettered Art: Tracts on Fishing from the End of the Middle Ages (Toronto: University of Toronto Press, 1997); quote from Callum Roberts, The Unnatural History of the Sea (Washington, DC: Island, 2007), 159.

Twitter: @ketab_n

(21) Roberts, Unnatural History of the Sea, 636–42.

(22) Mark Kurlansky, Cod: A Biography of the Fish That Changed the World (New York: Walker, 1997), 24.

(23) Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History," 26–29.

(24) Roberts, Unnatural History of the Sea, chap. 2; quotation from ibid, 33.

(25) Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History," 26.

(26) Innis, Cod Fisheries, chaps. 3–6; Gerald M. Sider, Culture and Class in Anthropology and History: A New Foundland Illustration (Cambridge: Cambridge University Press, 1986), 14–15.

(27) Lewes Roberts, Merchants Mappe of Commerce (London, 1638), quoted in Peter Pope, Fish into Wine: The Newfoundland Plantation in the Seventeenth Century (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2004), 234.

(28) Elizabeth Mancke, "Spaces of Power in the Early Modern Northeast," in New England and the Maritime Provinces, ed. Stephen J. Hornsby and John G. Reid (Montreal: McGill-Queens University Press, 2005), 32–33; D. H. Meinig, The Shaping of America (New Haven, CT: Yale University Press, 1986), 1:81.

(29) An Account of the Island of Prince Edward by a Late Resident of that Colony (London: James Aspeare, 1819), 14; Rosemary E. Ommer, From Outpost to Outport: A Structural Analysis of the Jersey-Gaspe Cod Fishery, 1767–1886 (Montreal: McGill-Queen's University Press, 1991), chap. 2.

(30) Roberts, Merchants Mappe of Commerce, 83–87; Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History," 32–35.

(31) Roberts, Merchants Mappe of Commerce, 99–113, 159.

(32) Elizabeth Mancke, "Early Modern Expansion and the Politicization of Oceanic Space," Geographical Review 89 (April 1998): 225–34.

(33) Lauren Benton, A Search for Sovereignty: Law and Geography in European Empires, 1400– 1900 (Cambridge: Cambridge University Press, 2010), chaps. 1–4; quote from James E. Vance, Capturing the Horizon: The Historical Geography of Transportation (New York: Harper and Row, 1986), 102.

(34) G. Malcolm Lewis, "Native North Americans' Cosmological and Geographical Awareness: Their Representations and Influence on

Twitter: @ketab_n

Early European Exploration and Geographical Knowledge," in North American Explorations, ed. John L. Allen (Lincoln: University of Nebraska Press, 1997), 1:81–82; Harold Prins, "Children of Gluskap: Wabanaki Indians on the Eve of European Invasion," in American Beginnings: Exploration, Culture, and Cartography in the Land of Norumbega, ed. Emerson W. Baker et al. (Lincoln: University of Nebraska Press, 1994), 75.

(35) John Stilgoe, "Archipelago Landscape," in Visions of America: Landscape as Metaphor in the Late Twentieth Century (New York: Harry M. Abrams, 1994), 74; Wilcomb E. Washburn, "The Intellectual Assumptions and Consequences of the Geographical Exploration of the Pacific," in the Pacific Basin, ed. H. Frits (New York: American Geographical Society, 1967), 327–28.

(36) Meinig, Shaping of America, 1:58; Benton, Search for Sovereignty, 46–50.

(37) Washburn, "Intellectual Assumptions and Consequences"; Douglas H. McManis, European Impressions of the New England Coast, 1497–1620, Research Paper 139 (Chicago: University of Chicago Department of Geography, 1972), 37–38; James Gibson, "The Exploration of the Pacific Coast," in North American Exploration, ed. John L. Allen (Lincoln: University of Nebraska Press, 1997), 2:328–96; James D. Drake, The Nation's Nature: How Continental Pre- sumptions Gave Rise to the United States of America (Charlottesville: University of Virginia Press, 2011).

(38) Stephen J. Pyne, How the Canyon Became Grand: A Short History (New York: Viking, 1998), 5; Pedrag Matvejevic, Mediterranean: A Cultural Landscape (Berkeley: University of Cali- fornia Press, 1990), 16; John F. Roberts, The Unending Frontier: An Environmental History of the Early Modern World (Berkeley: University of California Press, 2005), 7.

(39) Gillis, Islands of the Mind, 87–92; Donna Merwick, The Shame and the Sorrow: Dutch- American Encounters in New Netherlands (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2006), 53, 28, 53, 88–89, 93.

(40) Dan G. Kelley, Edge of a Continent: The Pacific Coast from Alaska to Baja (Palo Alto, CA: American West, 1971), 272.

(41) Meinig, Shaping of America, 62, 65, 88.

Twitter: @ketab_n

(42) Ibid., 65.

(43) فكرة نقل المواشي البحرية تعود إلى

Rosemary Ommer's. Rosmary E. Ommer, "Rosie's Cove: Settlement Morphology, History, Economy, and Culture in a Newfoundland Outport," in Fishing Places, Fishing People: Tradition and Issues in Canadian Small-Scale Fisher- ies, ed. Dianne Newall and R. Ommer (Toronto: University of Toronto Press, 1994), 23; Pope, Fish into Wine, 251; Mancke, "Spaces of Power," 35.

(44) Innis, Cod Fisheries, chaps. 1–4; Sider, Culture and Class in Anthropology and History, chap. 2; Joseba Zulaika, Terranova: The Ethos and Luck of Deep-Sea Fishermen (Philadelphia: Insti- tute for the Study of Human Issues, 1981), 34.

(45) Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History," 32–33; Mancke, "Spaces of Power," 36–37.

(46) William Cronon, Changes in the Land: Indians, Colonists, and the Ecology of New England (New York: Hill and Wang, 1983), 37, 39, 51, 53.

(47) Ibid., 37; Charles C. Mann, 1491: New Revelations of the Americas before Columbus (New York: Alfred A. Knopf, 2005), chap. 2.

(48) Robert Swan, Coast, the Sea, Canadian Art (Stratford, ON: Gallery, 1978); John Stilgoe, Alongshore (New Haven, CT: Yale University Press, 1994), ix; Benjamin Labaree et al., America and the Sea: A Maritime History (Mystic, CT: Mystic Seaport Museum, 1998), 4.

(49) Walter Prescott Webb, The Great Frontier (Austin: University of Texas Press, 1975), 2, 7–21; for a comprehensive survey of extractive frontiers,

من أجل مسح شامل للحدود المقتطفة، انظر:

John F. Richards, The Unending Frontier: An Environmental History of the Early Modern World (Berkeley: University of Cali- fornia Press), 2005.

(50) Cronon, Changes in the Land, chaps. 1, 3.

(51) John Smith, A Description of New-England, by Captain John Smith, in The Complete Works of Captain John Smith, 1550–1631, ed. Philip L. Barbour (Chapel Hill: University of North Carolina Press,

Twitter: @ketab_n

1986), 1:331, 333, 335, 347; Roberts, Unending Frontier, 33; Cronon, Changes in the Land, 22; Jonathan Raban, Passage to Juneau: A Sea and Its Meanings (New York: Vintage, 1999), 62–63.

(52) Roberts, Unending Frontier, 33; Cronon, Changes in the Land, 22; Raban, Passage to Juneau, 62–36.

(53) حـول الطـرق المتعددة التي تغيرت من خلالها البيئـة الأمريكية قبل وصول الأوروبيين بزمن طويل، انظر Mann, 1491، عندما قتلت الأوبئة المنقولة عن طريق الأوروبيين 95 في المائة من الشعب الأمريكي الهندي، ما أدى إلى حدوث عمليـة إعادة تحريج ضخمة، حلت فترة باردة خلال ذلك الوقت كانت تعرف باسم العصر الجليدي الأصغر.

Lecture by Richard Nevle, Geography Department, University of California at Berkeley, February 16, 2011; Rowan Jacobsen, The Living Shore: Rediscovering a Lost World (New York: Bloomsbury, 2009), 3–12.

(54) M. J. Bowden, "The Invention of American Tradition," Journal of Historical Geography 18, no. 1 (1992): 3–12; Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History," 36; W. Jeffrey Bolster, "Opportunities in Marine Environmental History," Environmental History 11 (July 2006): 567–97; Geoff Bailey et al., "Historical Ecology of the North Sea Basin," in Human Impacts on Ancient Marine Ecosystems, ed. Torben Rich and Jon Erlandson (Berkeley: University of California Press, 2008), 215–42; J. B. C. Jackson, "What Was Natural in the Coastal Oceans," Proceedings of the National Academy of Sciences 98 (2001): 5411–18; J. B. C. Jackson et al., "Historical Overfishing and Recent Collapse in Coastal Ecosystems," Science 243 (2001): 629–39; Michael Pauly and Jay MacLean, In a Pefect Ocean: The State of Fisheries and Ecosystems in the North Atlantic Ocean (Washington, DC: Island, 2003), 15–16.

(55) Joseph E. Taylor, Making Salmon: An Environmental History of the Northwest Fisheries Crisis (Seattle: University of Washington Press, 1999), chap. 1. On Icelanders' view that fish deter- mined the fate of humans, see Gisli Palsson, Coastal Economies, Cultural Accounts: Human Ecology and Icelandic Discourse (Manchester: Manchester University Press, 1991), 129, 162.

(56) Arthur F. McEvoy, The Fisherman's Problem: Ecology and Law in the California Fisheries, 1850–1980 (Cambridge: Cambridge University Press, 1986), chap. 2.

Twitter: @ketab_n

(57) Ommer, "Rosie's Cove," 116; Hugo Grotius, Mare Librum (1608), quoted in Philip Steinberg, The Social Construction of the Ocean (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), 92; Mancke, "Spaces of Power," 32–49.

(58) Cronon, Changes in the Land, 38, 53; on Maine Indians, see Philip P. Conkling, Islands in Time: A Natural and Cultural History of the Islands of the Gulf of Maine, 2nd ed. (Camden, ME: Down East Books, 1999), chap. 1; Bunny McBride and Harold E. L. Prins, Indians in Eden: Wabanakis and Rusticators on Maine's Mount Desert Islands, 1840s–1920s (Rockland, ME: Down East Books, 2009), 1–5.

(59) Gerald C. Pocious, A Place to Belong: Community, Order, and Everyday Space in Newfoundland (Athens: University of Georgia Press, 1991), 200; Robert Mellin, House Launching, Slide Hauling, Potato Trenching, and other Tales from a Newfoundland Fishing Village (New York: Princeton Architectural, 2003); Robert Finch, The Primal Place (Woodstock, VT: Countryman, 1983), 100.

(60) Samuel Eliot Morison, The Maritime History of Massachusetts, 1783–1860 (Boston: Houghton Mifflin, 1921), 11; Daniel Vickers with Vince Walsh, Young Men and the Sea: Yankee Sea- farers in the Days of Sail (New Haven, CT: Yale University Press, 2005), 11; Joseph Reynolds, Peter Gott, the Cape Ann Fisherman (Boston: Jewett, 1956), 128; W. H. Bunting, Portrait of a Port: Boston, 1852–1914 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1971), 2–4.

(61) David Vickers, Farmers and Fishermen: Two Centuries of Work in Essex County, Massachu- setts, 1630–1850 (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1994), 52–103; Reynolds, Peter Gott, 81; Bunting, Portrait of a Port, 6–7; Vickers and Walsh, Young Men and the Sea, 1–4.

(62) Vickers, Farmers and Fishermen, 108–41, 252.

(63) Alexis de Tocqueville, Democracy in America (New York: Alfred A. Knopf, 1945), 1:429.

(64) Susan Parman, Scottish Crofters: A Historical Ethnography of a Celtic Village (Fort Worth, TX: Holt, Reinhart and Winston, 1990), 73; Pocious, Place to Belong, 79; Mellin, House Launching, 110; Robert Finch, The Iambics of Newfoundland: Notes from an Unknown Shore (Berkeley, CA: Counterpoint, 2007), 59.

Twitter: @ketab_n

(65) Finch, Iambics of Newfoundland, 258; Eliot, "Dry Salvages," 36.

(66) Matvejevic, Mediterranean, 16; George Putz, The Maine Coast (Secaucus, NJ: Chartwell Books, 1985), 25.

الفصل الرابع

(1) Beryl Markham, West with the Night (San Francisco: North Point, 1983), 245.

(2) انظر مقدمة:

See Paul Carter, to The Road to Botany Bay: An Exploration of Landscape and History (New York: Alfred A. Knopf, 1981).

للبوسـطنيين في 1800، كان «السـاحل» هو السـاحل الشرقـي، حيث ركزوا عملياتهم التجارية.

Samuel Eliot Morison, the Maritime History of Massachusetts, 1783–1860 (Boston: Houghton Mifflin, 1961), 53; Paul Carter, "Dark with Excess of Light," in Mappings, ed. Denis Cosgrove (London: Reaktion Books, 1999), 125–47.

(3) حدث سواحل نوفا سكوشا للعام 1863، مقتبس من:

Ian McKay, "Among the Fisherfolk: J. F. B. Livesay and the Invention of Peggy's Cove," Journal of Canadian Studies / Revue d'etudes canadiens 27, nos. 1–2 (Spring 1988), 29–31; Alain Corbin, The Lure of the Sea: The Discovery of the Seaside in the Western World, 1750–1840 (Berkeley: University of California Press, 1994), chap. 1; John R. Gillis, Islands of the Mind: How the Human Imagination Cre- ated the Atlantic World (New York: Palgrave Macmillan, 2004), 10–12; Shauna McCabe, Lit- toral Documents (Charlottestown, PEI: Confederation Centre Art Gallery, n.d.), 12.

(4) Harold F. Wilson, The Jersey Shore: A Social and Economic History of the Counties of Atlan- tic, Cape May, Monmouth and Ocean (New York: Lewis Historical Publishing, 1953), chaps. 2–3.

(5) Karl F. Nordstrom et al., Living on the New Jersey Shore (Durham, NC: Duke University Press, 1986), 4; Christopher Camuto, Time and Tide in Acadia: Seasons on Mount Desert Island (New York: W. W. Norton, 2009), 1; Henry David Thoreau, The Maine Woods (Prince- ton, NJ: Princeton University Press, 1972), 82; Donald W. Meinig, The

Twitter: @ketab_n

Shaping of America: Atlantic America, 1492–1800 (New Haven, CT: Yale University Press, 1986), 57–65; James E. Vance, Capturing the Horizon: The Historical Geography of Transportation (New York: Harper and Row, 1986), 110; James Drake, The Nation's Nature: How Continental Presump- tions Gave Rise to the United States of America (Charlottesville: University of Virginia Press, 2011).

(6) Vance, Capturing the Horizon, 102; David Hackett Fischer, Champlain's Dream (New York: Simon and Schuster, 2008), 105–226; Meinig, Shaping of America, 62.

(7) Martin W. Lewis and Karen E. Wigen, The Myth of Continents: A Critique of Metageography (Berkeley: University of California Press, 1997), 24–28.

حول موضوع الأراضي النائية، انظر:

http://en.wikipedia.org/wiki/Hinterland.

(8) Camuto, Time and Tide in Acadia, 108; Carter, "Dark with Excess of Light," 125–47; Mark Monmonier, Coastlines: How Mapmakers Frame the World and Chart Environmental Change (Chicago: University of Chicago Press, 2008), chap. 11.

(9) Paul Shepard, Man in the Landscape: A Historic View of the Esthetics of Nature (New York: Alfred A. Knopf, 1967), 43; James Hamilton-Paterson, Seven Tenths: The Sea and Its Thresholds (New York: Europa Editions, 2009), 23, 59–60; Martin Lewis, "Dividing the Ocean Sea," Geographical Review 89 (1999): 199–200.

(10) Horace P. Beck, the Folklore of Maine (Philadelphia: Lippincott, 1957), chap. 1.

(11) Roger Stein, Seascape and the American Imagination (New York: Clarkson N. Potter, 1975), 4–8, 16; John Wilmerding, A History of American Marine Painting (Boston: Little, Brown, 1968), chaps. 1–8; David Tatham, "Winslow Homer and the Sea," in Winslow Homer in the 1890s: Prout's Neck Observed (New York: Hudson Hills, 1990), 81; John R. Gillis, "Artists on the Edge," paper delivered at "Art, Islands, and Islomania," Small Islands Cultures Research Initiative Conference, Guernsey, June 2010.

(12) Carter, "Dark with Excess of Light," 147.

Twitter: @ketab_n

(13) Nathaniel Philbrick, Mayflower: A Story of Courage, Community, and War (New York: Penguin, 2006), chap. 5.

(14) Alice Garner, A Shifting Shore: Locals, Outsiders, and the Transformation of a French Fish- ing Town, 1823–2000 (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2005), 48–49; Carter, "Dark with Excess of Light," 125–47; Monmonier, Coastlines, chap. 11; McCabe, Littoral Documents, 18; JeanDidier Urbain, At the Beach (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2003), 65.

(15) Tim Ingold, Lines: A Brief History (London: Routledge, 2007), 152; William H. Bunting, Portrait of a Port: Boston, 1852–1914 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1971), xvii.

(16) Martin Jay, "Scopic Regimes of Modernity," in Vision and Visuality, ed. Hal Foster (Seattle: Bay, 1988), 3–28.

(17) Allan Sekula, Fish Story (Dusseldorf, Germany: Richter Verlag, 1995), 53–54; Paul Theroux, "The True Size of Cape Cod," in Fresh Air Fiend (Boston: Houghton Mifflin, 2000), 148.

(18) John R. Stilgoe, Shallow Water Dictionary: A Grounding in Estuary English (New York: Princeton Architectural, 2004), 54, 56.

(19) John Brickerhoff Jackson, Discovering the Vernacular Landscape (New Haven, CT: Yale University Press, 1984), 14; Michael Pearson, "Littoral Society: The Concept and the Prob- lem," Journal of World History 17, no. 4 (December 2006): 356; David Kirby and Merja-Liisa Hinkamen, The Baltic and the North Sea (London: Routledge, 2000), 59.

(20) Raymond Lewis, Sea Coast Fortifications of the United States (Washington, DC: Smithsonian Press, 1970); Christopher Somerville, Coast: A Celebration of Britain's Coastal Heritage (London: BBC Books, 2005), 10; http//en.wikipedia.org/wiki/Martello_tower.

(21) Margaret Cohen, "Modernity and the Waterfront: The Case of Hausmann's Paris," in Urban Imaginations: Locating the Modern City, ed. Alexis Cinvar and Thomas Bender (Minneapo- lis: University of Minnesota Press, 2007), 68–69; Dirk Schubert, "Transformation Processes in Waterfronts in Seaport Cities—Causes and Trends between Divergence and Convergence," in Port Cities as Areas of Transition: Ethnographic Perspectives, ed. Waltraud Kokot et al. (New Brunswick, NJ: Transaction Books, 2008), 25–46.

Twitter: @ketab_n

(22) Kirby and Hinkamen, The Baltic and the North Sea, 76-81; see map of dog hole ports at Whaling Station Museum, Point Lobos State Reserve, Carmel, CA.

(23) Kirby and Hinkamen, The Baltic and the North Sea, 82, 151; Fischer, Champlain's Dream, 112.

(24) Warren Goeschenstein, Historic American Towns along the Atlantic Coast (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1999), 11-12; remark by R. G. F. Candage, master mariner, 1881, quoted in Bunting, Portrait of a Port, 56.

(25) John Robert McNeill, Atlantic Empires of France and Spain: Louisbourg and Havana, 1700- 1763 (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1983), 17.

(26) Donna Merwick, The Shame and the Sorrow: Dutch-Amerindian Encounters in New Netherlands (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2006), chaps. 1-3, Bunting, Portrait of a Port, 2.

(27) Schubert, "Transformation Processes in Waterfronts," 29; Hans Meyer, City and Port (Rotterdam: International Books, 1999), 21; Vance, Capturing the Horizon, 102.

(28) Michael Reidy, Tides of History: Ocean Science and Her Majesty's Navy (Chicago: University of Chicago Press, 2008), 60-74.

باليابانية، isu تعني ميناء، nami تعني موجة، انظر «تسونامي» في ويكيبيديا، بدأ استعمال المصطلح بالإنجليزية في بدايات القرن العشرين ليصبح أخيرا مادة للبحث العلمي، انظر «تسونامي» في:

English Oxford Dictionary.

(29) Quoted in Gillis, Islands of the Mind, 125.

(30) Daniel Vickers with Vince Walsh, Young Men and the Sea: Yankee Seafarers in the Age of Sail (New Haven, CT: Yale University Press, 2005), 2-4, 28, 248-51.

(31) Bunting, Portrait of a Port, 5; Schubert, "Transformation Processes in Waterfronts," 29; Cohen, "Modernity and the Waterfront," 63, 67.

(32) Phillip Lopate, Waterfront: A Walk around Manhattan (New York: Random House, 2004), 15, 61; Meyer, City and Port, 33; Vickers and Walsh, Young Men and the Sea, 210; Schubert, "Transformation Processes in Waterfronts," 29, 43; Bunting, Portrait of a Port, 46, 451;

Twitter: @ketab_n

Wolfgang Rudolf, Harbor and Town: A Maritime Cultural History (Erfurt, Germany: Edition Leipzig, 1980), chap. 2; Isaac Land, War, Nationalism, and the British Sailor, 1750–1850 (New York: Palgrave Macmillan, 2009), chaps. 1–4.

(33) Mark Kurlansky, The Big Oyster: History on the Half Shell (New York: Ballantine Books, 2006), xvii.

(34) Cohen, "Modernity and the Waterfront," 65; Herman Melville, Moby-Dick (New York: Barnes and Noble Books, 1993), 2.

(35) Melville, Moby-Dick, 3, 4; T. S. Eliot, "The Dry Salvages," in the Four Quartets (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1943), 36.

(36) June Nadal-Klein, Fishing the Heritage: Modernity and Loss along the Scottish Coast (Oxford: Berg, 2003), 8; Vickers and Walsh, Young Men and the Sea, 28.

(37) Paul Thompson, Tony Waily, and Trevor Lummis, Living the Fishing (London: Routledge and Kegan Paul, 1983), 9–13; Orvar Loefgren, "From Peasant Fishing to Industrial Trawling: A Comparative Discussion of Modernization Processes in Some North Atlantic Regions," in Modernization and Marine Fisheries Policies, ed. John Maiolo and Michael Orbach (Ann Arbor, MI: Ann Arbor Science, 1982), 151–55.

(38) Lena Lencek and Gideon Bosker, the Beach: The History of Paradise on Earth (New York: Penguin, 1999), 82.

(39) Harold Fox, The Evolution of the Fishing Village (Oxford: Leopold's Head, 2001), chap. 4; James Coull, "The Development of Fishing Communities with Special Reference to Scotland," in Managing Britain's Marine and Coastal Environments: Towards a Sustainable Future, ed. Horace D. Smith and Jonathan S. Potts (London: Routledge, 2005); Samuel Eliot Morison, The Maritime History of Massachusetts, 1783–1860 (Boston: Houghton-Mifflin, 1931), 11–12.

(40) Morrison, Maritime History; Jean-Didier Urbain, At the Beach (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2003), 49–51.

(41) Thompson, Waily, and Lummis, Living the Fishing, 8–15; Daniel Vickers, Farmers and Fishermen (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1994), 130–32; Vickers and Walsh, Young Men and

Twitter: @ketab_n

the Sea, 250; Thompson, Waily, and Lummis, 8-9; Sarah Orne Jewett, The Country of the Pointed Firs and Other Fiction (New York: Oxford University Press, 1996), 20-21; Rudolf, Harbor and Town, 113-40.

(42) Corbin, Lure of the Sea, 211-27.

(43) Land, War, Nationalism, and the British Sailor, 161-64.

(44) Ibid, 158; John R. Stilgoe, Alongshore (New Haven, CT: Yale University Press, 1994), 310-18.

(45) المادة المكتوبة حول مناظر الطبيعة المتخيلة موجزة في:

John Urry, Sociology beyond Societies: Mobilities for the Twenty-First Century (London: Routledge, 2000), 137-38; Stilgoe, Alongshore, 319-33; Ian McKay, The Quest for the Folk: Antimodernism and Cultural Selection in Twentieth Century Nova Scotia (Montreal: McGill and Queen's University Press, 1994), chap. 4; Dona Brown, Inventing New England: Regional Tourism and the Nineteenth Century (Washington, DC: Smithsonian Press, 1995), 120-21; James Overton, Making a World of Difference: Essays on Tourism, Culture, and Development in Newfoundland (St. Johns, NL: Institute for Social and Economic Research, 1996), 111-15.

(46) Earle Shettleworth and W. H. Bunting, An Eye on the Coast: The Maritime and Monhegan Island Photographs by Eric Hudson (Gardiner, ME: Tilbury House, 1998), 94; Robert Swan, Coasts, the Sea, Canadian Art (Stratford, ON: Gallery, 1978), unpaginated; Garner, Shifting Shore, 94; Brown, Inventing New England, 120-33.

(47) Garner, Shifting Shore, 94, chap. 10.

حول اســتيلاء البيض على الهويات الأمريكية الأصلية في أمريكا القرن التاســع عشر، انظر:

Philip DeLoria, Playing Indian (New Haven, CT: Yale University Press), 1998.

(48) McKay, Quest for the Folk, 28; Douglas Pope, DeGarthe: His Life, Marine Art, and Scupture (Hartsport, NS: Lancelot), 1989.

(49) McKay, Quest for the Folk, 39-41.

(50) Nadal-Klein, Fishing the Heritage, 171; Jan Goss, "Disquiet on the Waterfront: Reflection on Nostalgia and Utopia in Urban Archetypes of Festival Marketplaces," Urban Geography 17 (1966): 238.

Twitter: @ketab_n

(51) McKay, "Among the Fisherfolk," 29; Urbain, At the Beach, 37; George H. Lewis, "The Maine That Never Was: The Construction of Popular Myth in Regional Culture," Journal of Ameri- can Culture 16, no. 2 (Summer 1997): 95; McKay, Quest for the Folk, 250.

(52) Rachel Carson, the Sea around Us (New York: Oxford University Press, 1951), 19; Reidy, Tides of History, 75–89.

(53) Lord Curzon of Kedleston, Frontiers: The Romanes Lecture of 1907 (Oxford: Clarendon, 1907), 13.

(54) Alexis de Tocqueville, Democracy in America (New York: Alfred A. Knopf, 1945), 421–34; Denis Cosgrove, "Worlds of Meaning: Cultural Geography and the Imagination," in Rereading Cultural Geography, ed. Kenneth Foote et al. (Austin: University of Texas Press, 1994), 390–91; also Eric Leed, The Mind of the Traveler: From Gilgamesh to Global Tourism (New York: Basic Books, 1991), 19; Drake, Nation's Nature; John Seelye, Memory's Nation: The Place of Plymouth Rock (Chapel Hill: University of North Carolina Press), 1998.

(55) John Whitehead, "Hawai'i: The First and Last Far West," Western Historical Quarterly 23, no. 2 (May 1992): 153–77; Jonathan Raban, Coasting: A Private Voyage (London: Penguin Books, 1987), 300–301.

(56) Adrian Room, Dictionary of Places Names in the British Isles (London: Bloomsbury, 1988), 206, 216–17.

أود أن أشكر جراي بريغن لسماحه لي بقراءة مقاله غير المنشور:

"Sacred Force: Ishi Meets the End of the Trail."

(57) Gillis, Islands of the Mind, 13–14, 56; W. H. Hudson, The Land's End: A Naturalist's Impression of West Cornwall (London: J. M. Dent and Son, 1923), 52.

(58) Voyage Round Great Britain, undertaken in the summer of the Year 1813 and commending from Land's-End, Cornwall by Richard Ayton and views by William Daniell (London: Long- man, Hurst, Rees, Orme and Brown, 1814), iv–2.

(59) Hudson, Land's End, iii, 52; Fred Gray, Designing the Seaside: Architecture, Society and Nature (London: Reaktion Books, 2006), chap. 1.

(60) Hudson, Land's End, 45.

(61) Ibid, 299.

Twitter: @ketab_n

(62) Ibid., 302; David Lowenthal, "Living with and Looking at Landscape," Landscape Research 32, no. 5 (October 2007): 643; Loren Baritz, "The Idea of the West," American Historical Re- view 66, no. 2 (April 1961): 637–40; Nathaniel Philbrick, foreword to American Sea Writing: A Literary Anthology, ed. Peter Neill (New York: Library of America, 2000), xv.

(63) مقتبس من:

John McKinney, A Walk along Land's End: Discovering California's Unknown Coast (New York: HarperCollins, 1995), VI; see http://en.wikipedia.org/wiki/Navies_of_landlocked_countries.

(64) Paul Theroux, the Kingdom by the Sea: A Journey around Great Britain (Boston: Houghton- Mifflin, 1985), 5.

(65) John Cheever, The Wapshot Chronicle (New York: Harper and Brothers, 1954), 188–89; McKinney, Walk along Land's End, 172; on beach glass, see Cornelia Dean, Against the Tide: The Battle for America's Beaches (New York: Columbia University Press, 1999), 238–39.

الفصل الخامس

(1) Jonathan Raban, Oxford Book of the Sea (Oxford: Oxford University Press, 1992), 3.

(2) Helen M. Rozwadowski, Fathoming the Ocean: The Discovery and Exploration of the Deep Sea (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2005), 4; James Hamilton-Paterson, Seven Tenths: The Sea and Its Thresholds (New York: Europa Editions, 2009), 210.

(3) W. H. Auden, the Enchafed Flood, or the Romantic Iconography of the Sea (London: Faber and Faber, 1951), 19.

(4) Donald Wharton, "The Colonial Period," in America and the Sea: A Literary History, ed. Haskell Springer (Athens: University of Georgia Press, 1995), 32–38; Nathaniel Philbrick, The Mayflower: A Story of Community, Courage, and War (New York: Viking, 2006).

(5) Steve Mentz, At the Bottom of Shakespeare's Sea (London: Continuum, 2009); Raban, Oxford Book of the Sea, 4–7; Margaret Cohen, The Novel and the Sea (Princeton, NJ: Princeton University Press), 2010.

Twitter: @ketab_n

(6) Carl Schmitt, Land und Meer: Eine weltgeschichtliche Betrachtung (Leipzig: Reklam, 1942), 66.

كلمة hinterland مشــتقة مــن الألمانية، وقد اســتخدمت بالإنجليزية لأول مرة في العام 1888 كمرادفــة لمعنى back country أو الريف الخلفي، انظر مقال ويكيبيديــا حــول الأراضي النائيــة /http://en.wikipeida.org/wiki Hinterland.

إن مفهــوم كلمــة heartland أو الأرض الداخليــة يعــود إلى العــام 1904، عندمــا نشر هالفورد جــي. ماكيندر كتابــه The Scope and Methods of Geography and the Geographical Pivot of History والــذي أعيــدت طباعته عن طريق London's Royal Geographical Society في العام 1951.

(7) Cohen, The Novel and the Sea, 109–19; Hans Blumenberg, Shipwreck with Spectator: Paradigm of a Metaphor for Existence (Cambridge, MA: MIT Press, 1997), 8; Margaret Cohen, "The Chronotopes of the Sea," in The Novel, ed. Franco Moretti (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2006), 1.2:658.

(8) Raban, Oxford Book of the Sea, 27.

(9) Rozwadowski, Fathoming the Ocean, 17; Hamilton-Paterson, Seven Tenths, 146.

(10) مقتبس عن:

William Cronon, foreword to Majorie Hope Nicolson, Mountain Gloom and Mountain Glory: The Development of the Aesthetics of the Infinite (Seattle: University of Washington Press, 1997), xviii; Lena Lencek and Gideon Bosker, The Beach: The History of Paradise on Earth (New York: Penguin Books, 1998), 54–56; Jules Verne, Twenty Thousand Leagues under the Sea (New York: Signet, 2001), 12.

(11) Jonathan Raban, Coasting: A Private Voyage (New York: Penguin, 1987), 8; Raban, Oxford Book of the Sea, 9–10;

لمزيد من البحث:

Philip Steinberg, The Social Construction of the Ocean (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), 118–21; Cohen, The Novel and the Sea, chap. 4.

(12) من أجل أمثلة من بداية العصر الحديث، انظر:

John R. Gillis, Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World (New York: Palgrave Macmillan, 2004), chap. 3.

Twitter: @ketab_n

حول العصر الحديث، انظر:

Raban, Oxford Book of the Sea, 28–29.

(13) Cynthia F. Behrman, Victorian Myths of the Sea (Athens: Ohio University Press, 1977), 12–21; Raban, Oxford Book of the Sea, 3.

(14) Behrman, Victorian Myths of the Sea, 13–14, 21–22; Raban, Oxford Book of the Sea, 20–22; Philip Plisson, The Eternal Sea (New York: Abrams, 2006).

(15) Verne, Twenty Thousand Leagues under the Sea, 12.

(16) Haskell Springer, America and the Sea: A Literary History (Athens: University of Georgia Press, 1995), 17–21.

(17) Robert Louis Stevenson, from "The English Admirals," 1881, in Raban, Oxford Book of the Sea, 285; Blumenberg, Shipwreck with Spectator, 8; Roger Marsters, "Fathoming the Ocean's Perils: Romantic Conceptions of the Sea and British Admiralty Hydrology, 1829–1853,".

جرى تقديم الورقة في the Age of Sail conference, Vancouver, 7–10- 2010

(18) Quoted in Christiana Payne, "Seaside Visitors: Idlers, Thinkers and Patriots in Mid-19th Century Britain," in Water, Leisure and Culture: European Historical Perspectives, ed. Su- san C. Anderson and Bruce H. Tabb (Oxford: Berg, 2002), 103; Behrman, Victorian Myths of the Sea, chaps. 3–5; Peter Unwin, The Narrow Sea: Barrier, Bridge, and the Gateway to the World—The History of the English Channel (London: Headline Books, 2003); Springer, America and the Sea, 26.

(19) Quoted in Payne, "Seaside Visitors," 99; Behrman, Victorian Myths of the Sea, 21; Thomas Cole, the Journey of Life: A Cultural History of Aging in America (Cambridge: Cambridge University Press, 1992), 118–27.

(20) Auden, Enchafed Flood, 23; Steinberg, Social Construction of the Ocean, 191–92; Alain Corbin, the Lure of the Sea: The Discovery of the Seaside in the Western World, 1750–1840 (Berkeley: University of California Press, 1994), 171; Payne, "Seaside Visitors," 90–93; John

R. Gillis, "Birth of the Virtual Child: Origins of Our Contradictory Images of Children," in Childhood and Its Discontents: The First Seamus Heaney Lectures, ed. Joseph Dunne and James Kelly (Dublin: Liffey, 2002), 31–50.

Twitter: @ketab_n

(21) Helen Rozwadowski, "Ocean: Fusing the History of Science and Technology with Environmental History," in Blackwell's Companion to American Environmental History, ed. Douglas Cazaux Sackman (Oxford: Wiley-Blackwell, 2010), 447; Mircea Eliade, Patterns of Compar- ative Religion (New York: Meridian, 1963), 431-34.

(22) Hugh Clark, "Frontier Discourse and China's Maritime Frontier: China's Frontiers and the Encounter with the Sea through Early Imperial History," Journal of World History 20, no. 1 (March 2009): 20-21; Rozwadowski, Fathoming the Ocean, 7.

(23) W. Jeffrey Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History: Maritime Communities and Marine Ecology in the Northeast Atlantic, 1500-1800," American Historical Review 113, no. 1 (February 2008): 19-47.

(24) Steinberg, Social Construction of the Ocean, 202.

(25) Bunny McBride and Harold E. L. Prins, Indians in Eden: Wabanakis and Rusticators on Maine's Mount Desert Island, 1840s-1920s (Rockland, ME: Down East Books, 2009), 84.

(26) Henry David Thoreau, Cape Cod (Mineola, NY: Dover Books, 2004), 133.

(27) Ibid., 2-3, 112.

(28) Blumenberg, Shipwreck with Spectator, 67; Robert Foulke, The Sea Voyage Narrative (New York: Twayne, 1997), 12; Washington Irving, "The Voyage," in American Sea Writing: A Literary Anthology, ed. Peter Neill (New York: Library of America, 2000), 61.

(29) Raban, Oxford Book of the Sea, 15: Jonathan Raban, Passage to Juneau: A Sea and Its Meanings (New York: Vintage, 1999), 103-4; quotation from William Cronon, Changes in the Land (New York: Hill and Wang, 1983), 4.

(30) Steinberg, Social Construction of the Ocean, 191.

(31) William Cronon, "The Trouble with Wilderness, or Getting Back to the Wrong Nature," in Uncommon Ground, ed. William Cronon (New York: W. W. Norton, 1995), 79.

لا يذكر كرونان البحر بشـكل مباشر، غير أن مناقشته للبرية تنطبق على البحر كذلك.Cape Cod, 133

(32) Thoreau, "Paradise (to Be) Regained," in The Works of Thoreau, ed. Henry Seidel Canby (Boston: Houghton Mifflin, 1937), 779; see Hugh

Twitter: @ketab_n

Egan, "Cooper and His Contemporaries," in America and the Sea: A Literary History, ed. Springer, 76–77; Whitman quoted in Na- thaniel Philbrick, American Sea Writing, xvi.

(33) "Chasing the shore" is a phrase used on Prince Edward Island. See David Weale, Chasing the Shore: Little Stories about Spirit and Landscape (Charlottestown, PEI: Tangle Lane, 2007), 9; Dickinson's "Exultation is the going," found in Raban, Oxford Book of the Sea, 256–57.

(34) Wells in Oxford Book of the Sea, 179–80, 217.

(35) Karl F. Nordstrom, Living with the New Jersey Shore (Durham, NC: Duke University Press, 1986), xi.

(36) حول الأراضي الرطبة أو المستنقعات، انظر:

Rod Giblett, Postmodern Wetlands: Culture, History, Ecology (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1996).

من أجل نظرة عامة، انظر:

Godfrey Baldacchino, "Replacing Materiality: A Western Anthropology of Sand," Annals of Tourism Research 37, no. 3 (2010): 763–78.

(37) Michael Taussig, "The Beach (A Fantasy)," Critical Inquiry 26, no. 2 (Winter 2000): 256.

(38) Orvar Loefgren, On Holiday: A History of Vacationing (Berkeley: University of California Press, 1999), 113.

(39) Susan C. Anderson, "Cultural Ideas of Water and Swimming in Modern Europe," in A History of Water, series 2, ed. Terji Tvedt and Terji Oestigaard (London: I. B. Tauris, 2010), 1:250–54; Jean-Didier Urbain, At the Beach (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2003), 78–94; Harold F. Wilson, The Jersey Shore: A Social and Economic History of the Counties of Atlantic, Cape May, Monmouth and Ocean (New York: Lewis Historical Publish- ing, 1953), chap. 15.

(40) Wilson, Jersey Shore, 431; Anderson, "Cultural Ideas of Water and Swimming," 258–62.

(41) Payne, "Seaside Visitors," 96; Rozwadowski, Fathoming the Ocean, 104–7; John R. Stilgoe, introduction to W. H. Bunting, The Camera's Coast: Historic Images of Ship and Shore in New England (Boston:

Twitter: @ketab_n

Historic New England, 2006), 11; Bernd Brunner, The Ocean at Home: An Illustrated History of the Aquarium (New York: Princeton Architectural Press, 2003); Edmund Gosse, quoted in Paul Theroux, Kingdom by the Sea: A Journey around Great Britain (Boston: Houghton Mifflin, 1983), 351.

(42) Fred Gray, Designing the Seaside: Architecture, Society and Nature (London: Reaktion Books, 2006), 135, 201, 225; Wilson, Jersey Shore, 536; Urbain, At the Beach, 30–31; Charles E. Funnell, By the Beautiful Sea: The Rise and High Times of the Great American Resort Atlantic City (New York: Alfred A. Knopf, 1975), 11–12.

(43) Alice Garner, A Shifting Shore: Locals, Outsiders, and the Transformation of a French Fishing Town (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2005), 174.

(44) Urbain, At the Beach, 37, 85; Gray, Designing the Seaside, 132; Garner, Shifting Shore, vii.

(45) Urbain, At the Beach, 59–60.

(46) حول دور الخلاء، انظر:

Gillis, Islands of the Mind, chap. 2.

(47) انظر كلمة Beach في Oxford English Dictionary; Urbain, At the Beach, chap. 9.

(48) Marc Auge, Non-places: Introduction of an Anthropology of Supermodernity, trans. John Howe (London: Verso, 1995); Lofgren, On Holiday, 237.

(49) Lofgren, On Holiday, 212, 227; Theroux, Kingdom by the Sea, 166; John Walton, the British Seaside: Holidays and Resorts in the Twentieth Century (Manchester: Manchester University Press, 2000), 36–49; Wilson, Jersey Shore, 1011.

(50) Corbin, Lure of the Sea, VI; Taussig, "Beach," 270; Gillis, "Birth of the Virtual Child."

(51) Urbain, At the Beach, 139; John R. Gillis, A World of Their Own Making: Myth, Ritual, and the Quest for Family Values (New York: Basic Books, 1996), 104–8; Gillis, Islands of the Mind, 156–65; Payne, "Seaside Visitors," 91–93.

Twitter: @ketab_n

(52) Robert B. Edgerton, Alone Together: Social Order on an Urban Beach (Berkeley: University of California Press, 1979), 169.

حول العلاقة بين الرياضة العنيفة والساحل، انظر:

John Brinkerhoff Jackson, "Places for Fun and Games," in Landscape in Sight, ed. Helen Horwitz (New Haven, CT: Yale University Press, 1997), 1–18.

(53) حول ظاهرة التصوير الساحلي، انظر:

John R. Stilgoe, introduction to W. H. Bun- ting, The Camera's Coast: Historic Images of Ship and Shore in New England (Boston: His- toric New England, 2006), 7–9; Cornelia Dean, Against the Tide: The Battle for America's Beaches (New York: Columbia University Press, 1999), 3; Jan de Graaf, preface to Europe: Coast Wise, ed. Jan de Graaf and D'Laine Camp (Rotterdam: 010 Publishers, 1997); Edger- ton, Alone Together, 6.

(54) Orvar Loefgren and Billy Eng, The Secret World of Doing Nothing (Berkeley: University of California Press, 2010), 31–33; David E. Sopher, Observations on Strand Habitats and Cultures of South Asia (Berkeley: Center for South Asian Studies, 1959), 24.

(55) Gillis, Islands of the Mind, 146; Payne, "Seaside Visitors," 92.

(56) Loefgren, On Holiday, 123; Kate Flint, The Victorians and the Visual Imagination (Cam- bridge: Cambridge University Press, 2000), 285–86; Yi-Fu Tuan, Topophilia: A Study of Environmental Perception, Attitudes, and Values (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1974), 115; Edward Casey. "Borders and Boundaries: Edging into the Environment," in MerlouPonty and Environmental Philosophy: Dwelling on the Landscapes of Thought, ed. Suzanne Cataldi and William Hemrick (Albany: State University of New York Press, 2007), 69; Vincent Crapanzono, Imaginative Horizons: An Essay in Literary-Philosophical Anthropol- ogy (Chicago: University of Chicago Press, 2004), 14.

(57) Theroux, Kingdom by the Sea, 188.

(58) W. G. Sebald, the Rings of Saturn (New York: New Directions, 1998), 52.

(59) Herman Melville, Moby-Dick (New York: Barnes and Noble / New Directions, 1998), 52: Mathew Arnold, "Dover Beach," 1867, in

Twitter: @ketab_n

Oxford Book of the Sea, ed. Raban, 275–76; Loefgren and Eng, Secret World of Doing Nothing, 36.

(60) Roger F. Stein, Seascape and the American Imagination (New York: Clarkson N. Potter, 1975), 16; Steinberg, Social Construction of the Ocean, 171; Taussig, "Beach," 258.

(61) Loefgren, On Holiday, 116.

(62) John R. Stilgoe, Alongshore (New Haven, CT: Yale University Press, 1994), 407; Urbain, At the Beach, 137.

(63) Quoted in Theroux, Kingdom by the Sea, 351.

(64) Quoted in ibid; Loefgren, On Holiday, 236; Margaret Drabble quoted in Coastline: Britain's Theatrical Heritage (London: Kingfisher Books, 1987), 37.

الفصل السادس

(1) Felipe Fernandez-Armesto, Civilizations: Culture, Ambition, and the Transformation of Nature (New York: Free Press, 2001), 408.

(2) John A. Murray, introduction to The Seacoast Reader, ed. Murray (New York: Lyons, 1999), xvii; Jan de Graff with D'Laime Camp, eds., Europe: Coast Wise (Rotterdam: 010, 1997), 93–94.

(3) Mollat du Jourdan, Europe and the Sea (Oxford: Blackwell, 1993), chap. 1; Fernandez- Armesto, Civilizations, 462–63.

(4) Orrin H. Pilkey and Rob Young, The Rising Sea (Washington, DC: Island, 2009), 171; Mike Davis, Ecology of Fear: Los Angeles and the Imagination of Disaster (New York: Metropolitan Books, 1998), chaps 1–3.

(5) "Impact of 'Jaws' Has Anglers and Bathers on Lookout," New York Times, July 11, 1975, 20, J. A. Robinson and A. Barnett, "Jaws Neurosis," letter, New England Journal of Medicine 293, no. 22 (November 27, 1975): 1154–55.

(6) Horace D. Smith and Jonathan S. Potts, "People of the Sea," in Managing Britain's Marine and Coastal Environments: Toward a Sustainable Future, ed. Smith and Potts (London: Routledge, 2005), 7; s.v. "continental," in OED; Daniel Vickers with Vincent Walsh, Young Men and the Sea: Yankee Seafarers in the Age of Sail (New Haven, CT: Yale University Press, 2005), 248–49.

Twitter: @ketab_n

(7) David Helvarg, Blue Frontier: Saving America's Living Seas (New York: W. H. Freeman, 2001), chaps 1, 4.

(8) Nicholas Crane, quoted by Neil Oliver, foreword to Coast: A Celebration of Britain's Coastal Heritage by Christopher Somerville (London: BBC Books, 2005), 6.

(9) أوليفر، تقديم لـ Coast.

(10) أفضل مناقشة لمفهوم Lost في الثقافات الحديثة مقدم من:

Sumathi Ramaswamy, The Lost Land of Lemuria: Fabulous Geographies, Catastrophic Histories (Berkeley: Univer- sity of California Press), 2004.

(11) حول مفهوم النسج أو Looming، انظر:

John R. Gillis, Islands of the Mind: How the Human Imagination Created the Atlantic World (New York: Palgrave Macmillan, 2004), 143.

(12) Alan Sekula, Fish Story (Düsseldorf: Richler Verlag, 1999), 134.

(13) Sekula, Fish Story, 49; Fernandez-Armesto, Civilizations, 463.

(14) David Kirby and Merja-Liisa Hinkanen, the Baltic and North Seas (London: Routledge, 2000), 149.

(15) Mark Kurlansky, the Last Fish Tale (New York: Ballantine Books, 2008), 136; Callum Roberts, the Unnatural History of the Sea (Washington, DC: Island, 2007), 203–4.

(16) Gisli Palsson, Coastal Economies, Cultural Accounts: Human Ecology and Icelandic Discourse (Manchester: Manchester University Press, 1991), 64–65, 110: Paul Thompson, Tony Wailey, and Trevor Lummis, Living the Fishing (London: Routledge and Kegan Paul, 1983), 20–30; Orvar Loefgren, "From Peasant Fishery to Industrial Trawling: A Comparative Discussion of Modernization Processes in Some North Atlantic Regions," in Modernization and Marine Fishing Policy, ed. John Mailo and Michael Orbach (Ann Arbor, MI: Ann Arbor Science, 1982), 158–59.

(17) Kirby and Hinkanen, Baltic and North Seas, 246; Vickers and Walsh, Young Men and the Sea, 210; for 1823 quotation, see Roberts, Unnatural History of the Sea, 163; Joseph E. Taylor III, Making Salmon: An Environmental History of the Northwest Fisheries Crisis (Seattle: University of Washington Press, 1999) chap. 1; Arthur F.

Twitter: @ketab_n

McEvoy, The Fisherman's Problem: Ecology and Law in the California Fisheries, 1850–1980 (Cambridge: Cambridge University Press, 1980); Roberts, Unnatural History of the Sea, chap. 20; John F. Richards, The Unending Frontier: An Environmental History of the Early Modern World (Berkeley: University of California Press, 2005), 568.

(18) Loefgren, "From Peasant Fishery to Industrial Trawling," 151–53; M. Estelle Smith, introduc- tion to Those Who Live from the Sea: A Study of Maritime Anthropology (St. Paul, MN: West, 1977), 1–22; W. Jeffrey Bolster, "Putting the Ocean in Atlantic History: Maritime Communi- ties and Marine Ecology in the Northeast Atlantic, 1500–1800," American Historical Review 113, no. 1 (February 2008): 47; Kurlansky, Last Fish Tale, 246.

(19) Gisela Jaaks, ed., Der Traum von der Stadt am Meer: Hafenstadte aus aller Welt (Ham- burg: Hamburg Museum, 2003); Steve Higginson and Tony Wailey, Edgy Cities (Liver- pool: Northern Lights, 2006); Phillip Lopate, Waterfront: A Walk around Manhattan (New York: Anchor Books, 2005), 15; Margaret Cohen, "Modernity on the Waterfront: The Case of Hausmann's Paris," in Urban Imaginaries: Locating the Modern City, ed. Alev Cinar and Thomas Bender (Minneapolis: Minnesota University Press, 2007), 55–75; W. H. Bunting, Portrait of a Port: Boston, 1852–1914 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1971), xvii, Mark Kurlansky, The Big Oyster: History on the Halfshell (New York: Ballantine Books, 2006); Jan de Graaf and D'Laine Camp, eds., Europe: Coast Wise; An Anthology of Reflections on Architecture and Tourism (Rotterdam: 010 Publishers, 1997), 114–25; Tormod Kleindal, "Men's Response to Changes in the Coastal Zone of Norway," in Coastal Zone: Men's Response to Change, ed. Kenneth Ruddle et al. (London: Harwood, 1988), 185.

(20) Peter Hall, "Waterfronts: A New Urban Frontier," Aquapolis 1, no. 1 (1991): 6; Alex Roland, W. Jeffrey Bolster, and Alexander Keysaar, The Way of the Ship: America's Maritime History Reenvisioned, 1600–2000 (New York: John Wiley, 2007), pt. 5; on Europe, see Kirby and Hinkanen, Baltic and North Seas, 255–59.

(21) Sekula, Fish Story, 50, 54, 116; Hall, "Waterfronts," 5–8; Lopate, Waterfront, 227–30; Wolfgang Rudolf, Harbor and Town: A Maritime Cultural History (Erfurt, Germany: Edition Leipzig, 1980), chap. 2; Kirby and Hinkanen, Baltic and North Seas, 261.

Twitter: @ketab_n

(22) Lopate, Waterfront, 227; Hans Meyer, City and Port: Urban Planning as a Cultural Venture in London, Barcelona, and Rotterdam (Rotterdam: International Books, 1999), chap. 1.

(23). Hall, "Waterfronts," 6–11.

(24) Lopate, Waterfront, 286; Josef W. Konvitz, Cities and the Sea: Port City Planning in Early Modern Europe (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978) 186; Meyer, City and Port, 189.

(25) Ann L. Buttenwieser, Manhattan Water-Bound: Manhattan's Waterfront from the Seventeenth Century to the Present, 2nd ed. (Syracuse: Syracuse University Press, 1999), 207–8; Meyer, City and Port, 25; Kurlansky, Big Oyster, xvi; on Europe, see de Graaf and Camp, Europe: Coast Wise, 14.

(26) Lopate, Waterfront, 232.

(27) Somerville, Coast, 7; Walter Kaufman and Orrin H. Pilkey, The Beaches Are Moving: The Drowning of America's Shoreline (Durham, NC: Duke University Press, 1988), 270; James Hamilton-Paterson, Seven-Tenths: The Sea and Its Thresholds (New York: Europa Editions), 2009 chap. 2; Alex Kerr, Dogs and Demons: The Fall of Modern Japan (London: Penguin, 2001), 18–19.

(28) Paul Carter, "Dark with Excess of Light," in Mappings, ed. Denis Cosgrove (London: Reaktion Books, 1999), 147; Adam Nicolson, On Foot: Guided Walks in England, France, and the United States (New York: Crown, 1998), 121, 78–79; Kaufman and Pilkey, Beaches Are Moving, chaps. 5, 7.

(29) Andrew Rise, "A Stake in the Sand," New York Times Magazine, March 21, 2010, 79; Kaufman and Pilkey, Beaches Are Moving, 35; Samuel Eliot Morison, the Maritime History of Massachusetts, 1783–1860, 4th ed. (Boston: Houghton Mifflin, 1961), 3.

(30) John Walton, The British Seaside: Holidays and Resorts in the Twentieth Century (Manches- ter: Manchester University Press, 200), 69; Harold F. Wilson, The Jersey Shore (New York: Lewis Historical Publishing, 1953), 2:1010; Warren Beamscher, Historic American Towns along the Atlantic Coast (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1999), 67; Kaufman and Pilkey, Beaches Are Moving, chaps 7-10.

Twitter: @ketab_n

(31) John C. Sawhill, introduction to The Seacoast Reader, ed. John A. Murray (New York: Lyons, 1999), xi; Kaufman and Pilkey, Beaches Are Moving, 183–84; Frances Ruley Karttunen, "A History of Road and Ways in Nantucket County," unpublished manuscript, 2008; Rise, "Stake in the Sand," 66.

(32) Jan Goss, "Disquiet on the Waterfront: Reflection on Nostalgia and Utopia in Urban Arche- types of Festival Marketplaces," Urban Geography 17 (1996): 238; June Nadel-Klein, Fishing for Heritage: Modernity and Loss along the Scottish Coast (Oxford: Berg, 2003), 184, 188, 206–10.

(33) Nadel-Klein, Fishing for Heritage, 206, 210.

(34) Joshua Moore, "The Last Port," http://www.domeast.com/node/13322.

(35) John Fowles, Islands (Boston: Little, Brown, 1978), 17; Gillis, Islands of the Mind, 81; Peter H. Wood, Weathering the Storm: Winslow Homer's "Gulf Stream" (Athens: University of Georgia Press, 2004), 16–17.

(36) Wood, Weathering the Storm, 72–81.

(37) Richard G. Fernicola, Twelve Days of Terror: A Definitive Investigation of the 1916 New Jersey Shark Attacks (Guildford, CT: Lyons, 2002).

(38) Richard Ellis, the Book of Sharks (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1975), 172; an ac- count of its origins is found in Peter Matthiessen's Blue Meridian: The Search for the Great White Shark (New York: Random House, 1971).

(39) Richard Ellis, Men and Whales (New York: Alfred A. Knopf, 1991), 457–60; Helen Rozwadowski, Fathoming the Ocean: The Discovery and Exploration of the Deep Sea (Cambridge, MA: Harrvard University Press, 2005), 26.

(40) Ellis, Men and Whales, 250, 462.

(41) Hamilton-Paterson, Seven-Tenths, 109.

(42) Gillis, Islands of the Mind, 145; Tom Killion, Fortress Marin (n.p., n.d.).

(43) Gered Lennon et al., Living with the South Carolina Coast (Durham, NC: Duke University Press, 1996), 4.

(44) Patrick Beaver, A History of Lighthouses (London: Peter Davis, 1971), 136; Lennon et al., Living with the South Carolina Coast, 8.

Twitter: @ketab_n

(45) Kevin Blake, "Lighthouse Symbolism in the American Landscape," Focus on Geography 50, no. 1 (Summer 2007): 14.

(46) Hugh Morton, "Cost, Risk Too Great," News and Observer (Raleigh, NC), February 15, 1998, reprinted at http://ncsu.edu/coast/chl/article2.html; Pilkey and Young, Rising Sea, 174–75, Blake, "Lighthouse Symbolism," 4.

(47) كتابــان للكاتب يي – فون توان يبحثان طبيعة الخوف والرغبة بالنســبة إلى سمات سطح الأرض المختلفة، انظر:

Landscapes of Fear (New York: Pantheon, 1979) and Topophilia: A Study of Environmental Perceptions, Attitudes, and Values (Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, 1974).

(48) Richard Sexton, Parallel Utopias: The Quest for Community, with essays by Ray Olden-burg and William Turnbull (San Francisco: Chronicle Books, 1995); Donlon Lydon and Jim Alinder, The Sea Ranch (New York: Princeton Architectural, 2004), 13–14.

(49) Lydon and Alinder, Sea Ranch, 287–89; Lawrence Halprin, the Sea Ranch: Diary of an Idea (Berkeley, CA: Spacemaker, 2002), 17, 25.

(50) Halprin, Sea Ranch, 41; Lyndon and Alinder, Sea Ranch, 13; Adam Nicolson, Sissinghurst: An Unfinished History (London: Harper, 2009), 319.

(51) Susan Casey, the Wave: In Pursuit of the Rogues, Freaks, and Giants of the Ocean (New York: Doubleday), 2010.

(52) Robert Swan, Coasts, the Sea, and Canadian Art (Stratford, ON: Gallery, n.d.), no pagination.

(53) David Weale, Chasing the Shore: Little Stories about Spirit and Landscape (Charlottetown, PEI: Tangle Lane, 2007), 9–12; Casey, Wave, 112–13.

الخاتمة

(1) Rachel Carson, the Sea around Us (New York: Oxford University Press, 1951), 15.

(2) حول الاختلافات في تعريف المنطقة الساحلية، انظر:

Twitter: @ketab_n

"How Many People Live in Coastal Areas," Journal of Coastal Research 23, no. 5 (September 2007): iii–vi; Don Hinrichsen, "Coasts in Crisis," US Geological Survey, 2008, http://pubs.usgs.gov/circ/c1075/intro.html; also Andrew Goldie, The Human Impact on the Natural Environment, 6th ed. (Oxford: Blackwell, 2005), 243; Christian Buchel, The Eternal Sea (New York: Abrams, 2006), 329; Gary Griggs and Laurent Savoy, Living with the California Coast (Durham, NC: Duke University Press, 1985), 1; American Shore and Beach Preservation Association, "Fact Sheet: Restoring America's Beaches: Myth and Reality," fact sheet, n.d., http://www.asbpa.org/publications/fact_sheets/pubs_fs_myth_reality.htm.

(3) Edward Wenk, the Politics of the Sea (Seattle: University of Washington Press, 1972), 170.

(4) محضر اجتماع لاتحاد محمية الســاحل والشــاطئ الأمريكي Coney Island, NY, 1928, 6.

(5) Robert Thompson, "Cultural Models and Shoreline Social Conflict," Coastal Management35 (2007): 227.

(6) Orrin H. Pilkey and Rob Young, The Rising Sea (Washington, DC: Island, 2009), 162–63.

(7) Michael S. Kearney, "Late Holocene Sea Level Variations," in Sea Level Rise: History and Consequences, ed. Bruce C. Douglas, Michael S. Kearney, and Stephen P. Leatherman (San Diego: Academic Press, 2001), 13–38; W. Tad Pfeffer et al., "Kinesmatic Constraints on Glacier Contributions to 21st Century Sea Level Rise," Science 321 (2008): 1340–43.

(8) Kazuyuki Kolke, "The Countermeasures against Coastal Hazards in Japan," Geojournal 38, no. 3 (1996): 301–12; Stephen Leatherman, "Social and Economic Costs of Sea Level Rise," in Sea Level Rise, ed. Douglas, Kearney, and Leatherman, 182–83; Norimitsu Onishi, "A Japanese Town's 'Great Wall' Provided a False Sense of Security," New York Times, April 2, 2011, A4–5; Norimitsu Onishi, "Seawalls Offered Little Protection against Tsunami's Crushing Waves," New York Times, March 14, 2011, A8; Peter Kahn, The Human Relationship with Nature: Development and Culture (Cambridge, MA: MIT Press, 1999), 7.

(9) Pilkey and Young, Rising Sea, xi; Robert J. Hoeksema, Designed for Dry Feet: Flood Protection and Land Reclamation in the Netherlands

Twitter: @ketab_n

(Reston, VA: American Society of Civil Engi- neers, 2006), chaps. 1, 7; Simon Winchester, Atlantic (New York: HarperCollins, 2010), 415; Karl F. Nordstrom et al., Living with the New Jersey Shore (Durham, NC: Duke University Press, 1986), 4–5.

(10) Nordstrom et al., Living with the New Jersey Shore, 4-5; Peter Matthiessen, Men's Lives (New York: Vintage, 1988), 3–63; Bay Men Collection, tape 1052, Folk Life Archives, Library of Congress, Washington, DC.

(11) Nordstrom et al., Living with the New Jersey Shore, xi; Bay Men Collection, interview with Rich Rofihe, Case Files, Folk Life Archives, Library of Congress.

(12) William Sargent, Just Seconds from the Ocean: Coastal Living in the Wake of Katrina (Hanover, NH: University Press of New England, 2007), 1–6.

(13) Wallace Kaufman and Orrin H. Pilkey Jr., The Beaches Are Moving: The Drowning of America's Shoreline (Durham, NC: Duke University Press, 1983), xiii, 3, 21, 160–63, 176.

(14) Robert Kronenberg, Houses in Motion: The Genesis, History, and Development of the Portable Building, 2nd ed. (Chichester, UK: John Wiley and Sons, 2002), 24–25; Nobuhiro Suzuki, "Floating Houses in Seattle," Aquapolis 1 (1996): 36-41; David Wolf, "The Houseboats of Sausalito: From Arks to Anarchy and Recent Re-gentrification," Aquapolis 1 (1996):28-35Ted Laturnus, Floating Homes: A Houseboat Handbook (Vancouver, BC: Harbour, 1986), 17.

(15) Steven Kurutz, "A Fluid Definition of Self-Sufficiency," New York Times, June 4, 2008, D4; on Seasteading, see http://en.wikipedia.org/wiki/seasteading; Eamonn Fingleton, "Sea- steading: The Great Escape," Prospect 169 (2010).

(16) Griggs and Savoy, Living with the California Coast, 372; Joseph Kelley et al., Living on the Coast of Maine (Durham, NC: Duke University Press, 1989), 12; Kaufman and Pilkey, Beaches Are Moving, 289.

(17) Kaufman and Pilkey, Beaches Are Moving, 113–14.

(18) Eviatar Zerubavel, the Fine Line: Making Distinctions in Everyday Life (New York: Free Press, 1991), 115–22.

(19) الاقتباس من هينريكسون لـ "Coasts in Crisis".

Twitter: @ketab_n

المؤلف في سطور

جون آر. غيليس

- يُدرِّس في جامعة روتجيرز Rutgers University، ويقيم معظم أيام السنة في بيركلي، في كاليفورنيا.
- دَرَّس في عدد من الجامعات المرموقة مثل برينستون وستانفورد، كما أنه عضو زائر في عدد من المؤسسات الأكاديمية المهمة مثل أكسفورد.
- لــه عدد كبير من المؤلفات، كان أولها بعنــوان Prussian Bureaucracy in Crisis, 1840-1860: Origins of an Administrative Ethos، والذي صدر في العام 1971.

المترجمة في سطور

د. ابتهال عبدالعزيز الخطيب

- من مواليد الكويت العام 1972.
- حصلــت عــلى بكالوريــوس الأدب الإنجليزي مــن جامعة الكويــت في العام 1996، وماجســتير الأدب الإنجليزي من جامعة إنديانا في بنسلفانيا في العام 1998، ودكتوراه الأدب الإنجليزي من جامعة بول ستيت في إنديانا العام 2003.
- لهــا أبحاث منشــورة حول المــسرح الحديث والمعاصر، ولها عــدد من الترجمات مع المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

Twitter: @ketab_n



Twitter: @ketab_n

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة:

1 - الدراسات الإنسانية: تاريخ - فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار.

2 - العلوم الاجتماعية: اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات.

3 - الدراسات الأدبية واللغوية: الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة.

4 - الدراسات الفنية: علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

5 - الدراسات العلمية: تاريخ العلم وفلسفته، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) - الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم)، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية - المترجمة أو المؤلفة - من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته. وفي حالة الترجمة ترسل نسخة

Twitter: @ketab_n

مصورة من الكتاب بلغته الأصلية، كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشرها. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع ــ المؤلف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف وخمسمائة دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل عشرين فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي، أو ألف ومائتي دينار أيهما أكثر (وبحد أقصى مقداره ألف وستمائة دينار كويتي)، بالإضافة إلى مائة وخمسين دينارا كويتيا مقابل تقديم المخطوطة ـ المؤلفة والمترجمة ـ من نسختين مطبوعتين.

Twitter: @ketab_n

وكلاء التوزيع

الدولة	وكيل التوزيع الحالي	العنوان	تليفون	فاكس
الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشويخ - الحرة - قسيمة 34 - الكويت - الشويخ - ص ب 64185 - الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	24826823
الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubi Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	+971 242629273	+971 42660337
السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية - الرياض - حي المؤتمرات - طريق مكة المكرمة - ص ب 62116، الرمز البريدي 11585	+966 (01) 2128000	+966 (01) 2121766
سورية	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية - دمشق - البرامكة	+963 112127797	+963 112128664
مصر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية - القاهرة - 6 شارع الصحافة - ص ب 372	+202 25782700-25782632	+202 25782632
المغرب	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب - الرباط - ص ب 13683 - زنقه سجلماسه - بلفدير - ص ب 13008	+212 522249200	+ 212 522249214
تونس	الشركة التونسية للصحافة	تونس - ص ب 719 - 3 نهج المغرب - تونس 1000	+216 71322499	+216 71323004
لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	لبنان - بيروت - خندق الغميق - شارع سعد - بناية فواز	+961 1666314/5 01 653259	+ 961 1653260
اليمن	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية - صنعاء	+967 2/3201901	+ 967 1240883
الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان - تلال العلي - بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	+962 65300170 - 65358855	+ 962 65337733
البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	----	+973 17 617733	----
سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص ب 473 - مسقط - الرمز البريدي 130 - العذيبة - سلطنة عُمان	+968 24492936	+24493200968
قطر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر - الدوحة - ص ب 3488	+974 4557809/10/11	+ 974 44557819
فلسطين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله - عين مصباح - ص ب 1314	+970 22980800	+ 970 22964133
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان - الخرطوم - الرياض - ش المشتل - العقار رقم 52 - مربع 11	+2491 83242702	+ 2491 83242703
الجزائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	+213 (0) 31909590	+ 213 (0) 31909328
العراق	شركة الظلال للنشر والتوزيع	----	+964 700776512 +964 780662019	----
نيويورك	Media Marketing	Long Island City, NY 11101 - 3258	+ 1718 4725488	+1718 4725493
لندن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	+ 44 2087499828 + 44208 7423344	+44208 7493904
ليبيا	شركة الناشر الليبي	----	+218 217297779	----

Twitter: @ketab_n

تنويــه

للاطـلاع علـى قائمـة كتـب السلسـلة انظـر عدد ديسـمبر (كانـون الأول) مـن كل سـنة، حيـث توجد قائمة كاملة بأسماء الكتب المنشورة في السلسلة منذ يناير 1978.

Twitter: @ketab_n

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	15 د . ك
للمؤسسات	25 د . ك

دول الخليج

للأفراد	17 د . ك
للمؤسسات	30 د . ك

الدول العربية

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات والمبيعات مقدما نقدا أو بشيك باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت، ويرسل إلينا بالبريد المسجل على العنوان التالي:

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب 23996 الصفاة - الرمزي البريدي 13100

دولة الكويت

بدالة: 22416006 (00965)

داخلي: 1196/ 1195/ 1194/ 1193/1153/ 1152

Twitter: @ketab_n

قسيمة اشتراك في إصدارات
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

البيان	سلسلة عالم المعرفة		الثقافة العالمية		عالم الفكر		إبداعات عالمية		جريدة الفنون	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
مؤسسات داخل الكويت	25		12		12		20		12	
أفراد داخل الكويت	15		6		6		10		8	
مؤسسات دول الخليج العربي	30		16		16		24			36
أفراد دول الخليج العربي	17		8		8		12			24
مؤسسات خارج الوطن العربي		100		50		40		100		48
أفراد خارج الوطن العربي		50		25		20		50		36
مؤسسات في الوطن العربي		50		30		20		50		36
أفراد في الوطن العربي		25		15		10		25		24

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:

العنوان:

اسم المطبوعة: مدة الاشتراك:

المبلغ المرسل: نقدا / شيك رقم:

التوقيع: التاريخ: / / 20م

Twitter: @ketab_n



Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب...

كان البشر، حتى من قبل التاريخ المسجل، يحتشدون دوما بالقرب من الماء. غير أنه ومع استمرار تدفق الأعداد السكانية المتزايدة حول العالم في اتجاه السواحل، بدرجة غير مسبوقة، ومع ارتفاع منسوب المياه المستمر بسبب التغيرات المناخية، بدأت علاقتنا بالبحار تأخذ أبعادا جديدة وكارثية الاحتمال. إن آخر جيل من سكان السواحل يعيش جاهلا بشكل كبير بتاريخ من سبقوه، وبالبيئة الطبيعية، وبالحاجة إلى العيش باستقرار على سواحل العالم. لقد نسيت البشرية كيفية التعايش مع المحيطات.

يستعيد جون آر. غيليس، مؤلف هذا الكتاب، وهو توثيق فطن لأكثر من 100 ألف سنة للحضارات الساحلية، التجربةَ الساحلية منذ أصولها الأولى بين البشر الذين عاشوا على امتداد الساحل الأفريقي، وصولا إلى صخب وروعة المدن الضخمة والمنتجعات البحرية اليوم. يأخذ غيليس القارئ منطلقا من الموقع الساحلي المحتمل إلى جنة عدن، مرورا بالجماعات التي تكونت على الشواطئ، والخلجان، والجداول النهرية، منذ بداية المجتمع الإنساني، وصولا إلى الدور الحاسم الذي أدته السواحل خلال عصر الاكتشافات والإمبراطوريات. إن توثيق التحركات الجماعية لشعوب بأكملها في اتجاه السواحل، خلال نصف القرن الأخير، يستدرج قصة الحياة الساحلية إلى الحاضر.

خلال هذه الرحلة، يتناول غيليس موضوع تغير علاقة البشرية مع البحر، وذلك من منطلق بيئي، مستعرضا تاريخ صنع، وإعادة صنع، مناظر الطبيعة الساحلية - بناء الموانئ، واستنزاف الأراضي الرطبة، وبداية الحيوانات البحرية وانقراضها، واختراع فكرة الشاطئ، وذلك بينما يزودنا بإدراك عالمي لعلاقتنا بالماء.

إن «الساحل البشري»، من حيث كونه كتابا تثقيفيا وشخصيا جدا، هو في الواقع أكثر من مجرد تاريخ، إنه قصة نطاق لطالما كان ذا أهمية مركزية من حيث أمزجة، وخطط، ووجود هؤلاء الذين يعيشون ويحلمون عند أطراف اليابسة.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 465- 8
رقم الإيداع (2015/893)

تم إعادة الرفع بواسطة
مكتبة عسكر
ask2pdf.blogspot.com